المجلس الأعلى للثقافة

حسين عفيفي



- مسرحية " وحيد "
- مسرحية " سهير"
- رواية " زينات "
- أزمة الحقوق
- أزمة البطالة

المجلد الثالث
الأعمال النثرية

إعداد وتقديم:
عبد العزيز موافى

الأعمال الكاملة

اهداءات ٢٠٠٤

المجلس الأعلى للثقافة
القاهرة

حسين عفيف

الأعمال الكاملة

المجلد الثالث

الأعمال النثرية



المجلد الثالث : الأعمال النثرية

- مسرحية "وحيد" ١٩٣٨
- مسرحية "سهير" ١٩٣٨
- رواية "زينات" ١٩٣٩
- أزمة الحقوق ١٩٢٩
- ○ أزمة البطالة ١٩٣٢

حسين عفيف

مسـرحياً وروائياً

شهد النصف الأول من القرن العشرين ظاهرة جديدة، يطمح من خلالها الشعراء للوصول إلى شمولية الحدس الجمالى والإبداعى ـ فقد حاولوا أن يلجوا ـ إلى جانب الشعر ـ أجناساً أدبية أخرى، كنوع من إثبات الذات ، أو النظر إلى التجربة الإنسانية من زاوية أخرى لا تستطيع الرؤية الشعرية أن تغطيها ، أو ربما تشبهاً بشعراء الغرب العظام : جوته، وفيكتور هوجو، وغيرهم. وكان من نتيجة ذلك أن حاول الشعراء، بدءاً من أحمد شوقى، ممارسة الإبداع الروائى أو الكتابة المسرحية، إلى جانب التنظير النقدى ، بل والكتابة فى مجالات أخرى لا تمت إلى الأدب بصلة ، مثل : التاريخ، القانون، ، الاجتماع ، الفلسفة، الزخرفة ، الترجمة.

وضمن تلك الظاهرة الشمولية، جاءت كتابات حسين عفيف لتؤكد على هذا المنحى، حيث تنوعت بشكل مدهش ما بين الشعر والمسرح والرواية والقانون والقضايا الاجتماعية، إلى جانب كتيب فى التنظير النقدى للشعر المنثور، وترجمات عديدة عن الإنجليزية والفرنسية، خاصة فيما يتعلق بشاعر الهند العظيم رابندرانات طاغور.

لقد كان لحسين عفيف إبداعات نثرية، لا تقل فى قيمتها الأدبية والتاريخية عن إنجازه الشعرى، بل إن روايته «زينات» قد أحدثت دوياً هائلاً فى الأوساط الأدبية المصرية حين صدرت فى العام ١٩٣٩، حيث أشار إلى ذلك د. لويس عوض فى أحد مقالاته بالأهرام.

كما أن إصداراته المسرحية، تعد بداية للمسرح الشعرى فى اتجاه

الشعر المنثور، حيث تميزت اللغة بالانحراف والإزاحة، واستندت فى تشكيل الصورة على الخيال الرومانسى.

لقد أصدر عفيف مسرحية **«وحيد ـ أو قلب الفنان»** فى العام ١٩٣٨، وفى نفس العام أصدر مسرحيته الثانية **«سهير ـ أو التمثال»**، وبعدهما بعام واحد أصدر رواية **«زينات ـ أو التكفير»** ليتم انجازه النثرى فى عامين فقط.

وسوف نتوقف بداية أمام هاتين المسرحيتين، لكى نلقى بعض الضوء عليهما، باعتبارهما جزءًا من تاريخ الأدب، لكن فيما يشبه الحلقات المفقودة. ونظراً لأن المسرحيتين كتبتا خلال عام واحد، فسوف نكشف عن أوجه تشابه كثيرة بينهما فى موضع لاحق، على مستوى: **اللغة، والخيال، والرؤية.**

المسرح الشعرى

مسرحية **«وحيد»** تدور حول قصة حب لا تكتمل، بين **«وحيد»** وهو شاعر يهجر المدينة، ليصبح راعى غنم، و**«سميرة»** الممثلة الفاتنة، التى يحترق بحبها قلب كل من يقترب منها. وتقدم المسرحية وحيدا باعتباره متعدد العلاقات النسائية، بينما **«سميرة»** قد أوصدت قلبها أمام عشاقها، حتى رأت وحيد فعشقته، بعد أن ارتد مرة أخرى إلى الطبيعة. والمسرحية تعتمد على المثلث التقليدى : **الحبيب ـ الحبيبة ـ العشيقة**، إذ إن **ألفت** ـ صديقة **«سميرة»** ـ تكمل الضلع الثالث، وتدخل فى علاقة جانبية مع **«وحيد»**. ولأن الحب يمثل قيمة وجود عند أبطال حسين عفيف، فإن الخيانة فى الحب ـ عند هؤلاء الأبطال ـ بمثابة انتقال من حالة الوجود إلى حالة العدم، لذلك فإن

«سميرة» حين تكتشف خيانة صديقتها وحبيبها، فإنها تسعى ـ بالضرورة ـ إلى نوع من الموت الإرادى . وحين ترحل **«سميرة»**، كان من الطبيعى أن يلحق بهاوحيد، بعد أن يكتشف هو الآخر أن وجوده ـ بدون الحبيبة ـ هو العدم ذاته.

أما مسرحية **«سهير ـ أو التمثال»** ففيها ترتبط البطلة **سهير** والمثَّال **عقيل** بعلاقة حب رومانسية، وقد اصطدمت تلك العلاقة بالقيود الاجتماعية السائدة، مما أدى إلى فراق الحبيبن؛ وعندما تسمح الظروف بالعودة، يكون عقيل قد دخل قصة حب عابرة مع **جلنار**، وهى إحدى صديقات **سهير**، وبعد تمنع من **سهير** ورفضها الارتباط بحبيبها، تقتنع فى النهاية بحبه لها، فيتزوجان، على العكس من كل النهايات الرومانسية المنتظرة، والتى عادة إما أن تنتهى بالفراق أو الموت. وبعد الزواج يكتشف الحبيبان أن الحب قيمة سامية تعلو على الواقع، بينما الزواج قيمة اجتماعية تستمد وجودها من الواقع، لأن الحب غاية فى ذاته، بينما الزواج مجرد وسيلة أو هو أسلوب حياة، ولأن الحب يعدل الوجود عند **سهير** ، فإنها حين ينتفى الحب ـ بعد زواجها ـ ينتفى وجودها ذاته، لذا فإنها تنتحر، بحثاً عن هذا الوجود فيما وراء الحياة.

ومن الواضح أن هاتين المسرحيتين تعدان امتداداً للاتجاهات الرومانسية فى الأعمال النثرية ، مثل أعمال **جبران خليل جبران**، وكذا إعادة صياغة ترجمات الأدب الرومانسى كما عند **مصطفى لطفى المنفلوطى**، فهذه الأعمال

جميعاً تحتفى بأسلوب الكتابة، باعتباره غاية أساسية فى العمل، حيث تصبح اللغة هى العمل ذاته لا مجرد إحدى أدواته. ويتسم أسلوب الكتابة فى المسرحيتين بالملمح الرومانسى ، على مستوى المفردات المعجمية: **الفراشة ـ النور ـ الأقاحى ـ السنا ـ العطر ـ الورود**.. الخ. كذلك ، فإن الخيال الرومانسى يسم تركيب العبارة وتشكيل الصورة فى كلتا المسرحيتين:

(* وارحمتاه للمسكين! لعله حنّ إلى المكان الذى كان ملتقاهما، فجاء يسكب دموعه فيه .

*** هاهى ذى وردة تتأود حين عانقتها نسمة، وهذه أخرى ترتعش حين طبعت عليها فراشة قبلة.**

*** لأنت أيها الجمال فى عنفوانك، كالسكين تخضب بالدم نفسها، والذبيحة التى طعنتها على السواء.**

*** أنا ـ وإن جفانى النوم ـ ثملة حالمة، تتفتح عيناى عن طيفك، فأخف إليك...)**

وقد كان من الطبيعى أيضاً، إلى جانب المفردات وتشكيل الصورة، أن تغلب المضامين الرومانسية على المسرحيتين. لذلك ، نجد أنهما قد خضعتا بالضرورة لعناصر الإبداع الرومانسى، مثل :

○ محورية الذات فى العالم ، من خلال العناية بالطابع الشخصى والوجدان الذاتى.

○ تقديس الطبيعة الأم، والترنم بجمالها البسيط.

○ تمجيد الألم.

○ الهروب من الواقعى إلى الميتافيزيقى، ومن العوالم المادية إلى العوالم المثالية المتخيلة.

وقد تم ذلك فى المسرحيتين عبر تحطيم كافة القيود الكلاسيكية، سواء على مستوى الشكل أو على مستوى المضمون، وذلك بالرجوع إلى الذوق والعاطفة والوعى والإلهام ومحاولات التجديد، ولوكان فى ذلك خروج على المواضعات اللغوية، والقواعد الفنية، كما يشير إلى ذلك عبد العزيز شرف.

على أن مسرحيتى **«وحيد»** و **«سهير»** اللتين كتبتا فى عام واحد، فإنه رغم الاختلاف الظاهرى فى المكان والشخصيات ونهاية قصتى الحب بهما، إلا أن أوجه التشابه التى تجمع بينهما أكثر من أوجه الاختلاف . فعلى مستوى تشكيل الشخصيات، نجد أنه لابد من وجود شاعر، على أن يكون هذا الشاعر طرفاً فى علاقات نسائية عديدة : وحيد فى المسرحية الأولى، وثروت فى المسرحية الثانية. كما أن نهاية الشاعرين فى المسرحيتين كانت واحدة، وهى موت كليهما فى النهاية. كذلك، فإن بطلتى المسرحيتين : **سميرة وسهير**، تستمدان وجوديهما من الحب كقيمة عليا فى الحياة. وحين تُصدم كل منهما فى حبيبها، تكون النتيجة المؤكدة هى الموت: الأولى تختار الانتحار المادى، والثانية تختار الانتحار النفسى، أى رفض الاستمرار فى الوجود من خلال فقدان إرادة الحياة، تنتهى المسرحيتان بموتيهما.

ولا تتوقف التشابهات بين المسرحيتين عند ذلك ، وإنما تستمر فى اتجاهات أخرى، لتؤكد على وحدة الرؤية فيما بينهما. فإذا كان الشاعر فى التصور الرومانسى ـ كما عند شيللى ـ هو كل فنان مبدع فى أى مجال، فإنه فى نفس التصور هو ذلك الكائن الذى يمتلك **«السر المقدس»**، من خلال رؤاه النبوية. أى أن الشاعر «أو الفنان على الإطلاق» هو قيمة عليا تتجاوز الواقع، بل وتسمو عليه. ونظراً لأن رؤية **حسين عفيف** هى رؤية رومانسية بطبيعتها، فإننا نجد أن محاولة تجاوز الواقع تمت عبر تشكيل الشخصيات، إذ نجد إلى جانب وجود شاعر فى كلتا المسرحيتين ، هناك أيضا الرسام يوسف فى مسرحية **«وحيد»** ، والمثّال **عقيل** فى مسرحية **«سهير»** ، كما أن هناك الممثل والممثلة. ولهذه التوليفة من الشخصيات دلالاتها فى الرؤية الرومانسية، باعتبارها ضمير الوجود.

يتبقى من أوجه التشابه بين المسرحيتين، العلاقة الشائكة التى تربط بين أضلاع المثلث التقليدى، حيث **ألفت** تخون صديقتها مع حبيبها فى المسرحية الأولى، و**جلنار** تقوم بنفس الدور فى المسرحية الثانية. وهذا المثلث ضرورى فى الرؤية الرومانسية، لأنه يعبر عن تدنى الواقع فى أوج سقوطه، مما يعطى الفنان الرومانسى المبرر لتجاوز هذا الواقع، بحثاً عن المثل الأعلى فى واقع آخر متخيل.

وفى النهاية فإننا نرى أن هذه التشابهات القوية بين الشخصيات والرؤية الرومانسية داخل مسرحيتى **(وحيد)** و **(سهير)**، إنما تشى بعدة نتائج؛ أول

هذه النتائج أنه فى الأدب الرومانسي بشكل عام، فإن التعبير يأتى سابقاً على المضمون، ومن هنا كان الاهتمام الزائد بالسمات الأسلوبية داخل المسرحيتين. كذلك، فإن التوجه الرومانسى الذى كان يستهدف التحرر من الواقع وخلق عوالم مثالية، كان يستدعى ـ من وجهة نظر المؤلف ـ أن تكون الشخصيات مثالية، بمعنى أنها متعالية على الواقع. من هنا ندرك أن احتواءْ كلتا المسرحيتين على شخصيات فنية: الشاعر ـ الرسام ـ المثّال ـ الممثل، إنما جاء تأكيداً على الرؤية الرومانسية، باعتبار أن تلك الشخصيات إنما هى رموز للقيم العليا التى تستهدف تجاوز المادى، فى سبيل استشراف المثل الأعلى. فهذه النماذج الإنسانية، تبتغى ـ من خلال الفن ـ التماس مع المطلق ، وهو ما يخدم رؤية المؤلف.

ورغم بعض تحفظاتنا على شكل أو مضمون المسرحيتين، فإنه تجدر الإشارة إلى أن قيمتهما التاريخية تتجاوز القيمة الأدبية. مع الوضع فى الاعتبار أنه من غير المنطقى فصل العمل الفنى عن إطاره التاريخى وسياقه الاجتماعى، وإلا كان هذا الفصل تعسفياً. كما لايفوتنا أن هاتين المسرحيتين كانتا إرهاصة بظهور المسرح الشعرى، الذى يعتمد على الأخيلة والصور، دون الالتفات إلى قيمة النظم أو العروض، وهذه نقلة أخرى. ولقد اقتفى **محمد الماغوط** فى الخمسينيات خطى **حسين عفيف** فى هذا المجال، حين كتب مسرحياته الشعرية التى لم تلتزم بعامود الشعر أو بالتفعيلة، وإنما اعتمدت بالأساس على الصورة الشعرية والخيال الخلاق. ثم جاء الشاعر **إبراهيم شكر الله** فى الستينيات من القرن الماضى، ليكتب مسرحيته

الشعرية باسم **«رحلة السندباد»** ، لتمضى على النهج نفسه.

التوجه السوسيولوجى
فـى روايـــــة «زينــات»

«الواقع» كلمة سيئة السمعة فى الأدب الرومانسى، حيث إن هذا الأدب يتأسس - كلية - على رفض الواقع، وبالتالى فإن العمل الإبداعى ينفيه عادة خارجه. أما إذا اضطر الكاتب الرومانسى للحديث عن **«الواقع»**، فإن ذلك يتم بالسلب بهدف إيجاد المبرر الأخلاقى لرفضه والتمرد عليه. ومن هنا، فإن الأعمال الرومانسية لاتتحدث عن واقع قائم، وإنما عن واقع منشود، تظله القيم الإنسانية العليا، وتتسامى فيه الغرائز والرغبات.

ونظراً لأن أعمال **حسين عفيف** الشعرية والنثرية تنتمى إلى الأدب الرومانسى، فإن النتيجة السابقة تنطبق عليها جميعاً، فيما عدا روايته الوحيدة: **«زينات»** . فقد أطل الواقع الحياتى برأسه من بين ثنايا الرواية، ربما بشكل عرضى، لكن هذا الوجود العرضى كان نقطة تحول هامة لم يلتفت إليها الكثيرون، فى ضرورة الاقتراب من الواقع الإنسانى، الذى يحتضن - بالضرورة - التجربة الإنسانية، والتى هى - بدورها - جوهر الفن. لذلك، سوف نتوقف أمام تلك الظاهرة الجانبية، لما لها من أهمية فى حركة تاريخ الأدب العربى الحديث.

وفى إحدى مقالاته بجريدة **«الأهرام»** ، أشار لويس عوض إلى أنه حينما عاد من لندن عام ١٩٤٠ ، بعد أن أنهى بعثته الدراسية، لاحظ أن هناك

ضجة في الأوساط الأدبية، أثارها ظهور رواية «زينات» لحسين عفيف ، والتى صدرت عام ١٩٣٩، ربما، لأن الرواية كانت خروجاً مقنناً على **«الحكى الساذج»** ، الذى وسم الأعمال السابقة عليها. أو ربما لأنها هبطت بالخيال الرومانسى إلى أرضية الواقع، أو ارتفعت بالواقع إلى سماء الخيال الرومانسي. وهى ـ فى كلتا الحالتين ـ قد أحدثت نوعاً من الخروج على الأعراف الرومانسية السائدة، إذ زاوجت مابين الخيال والواقع، بينما كانت الأعمال السابقة تفصل بينهما بشكل تعسفي. على أننا نرى أن السبب الرئيسى لردود الأفعال التى أثارتها تلك الرواية، إنما يمكن رده إلى الوعى الاجتماعى الذى اشتملت عليه، والذى يتمثل فى أن الواقع يمكن أن يكون مثالياً، شريطة تحقيق **«العدل»** كقيمة اجتماعية ، وليس كمجرد قيمة أخلاقية مجردة.

لقد صدرت الرواية إبان أسوأ أزمة اقتصادية مرت بها مصرفى ثلاثينيات القرن الماضى، ونتج عن تلك الهزة **«أزمة بطالة»** خانقة ، روعت جموع الشعب المصرى؛ وقد تضافرت تلك الأزمة مع الحس الاجتماعى لدى حسين عفيف ، فأصدر كتاباً بعنوان **«أزمة البطالة»**. لذلك، فقد جاءت رواية «زينات» امتداداً طبيعياً لهذا الحس، بل إننا نرى أن التوجه الاجتماعى كان أحد الدوافع الرئيسية لكتابتها.

كما تجدر الإشارة إلى أن التوجه الاجتماعى فى رواية «زينات»، كان أثراً من آثار الاتجاه الواقعى فى الأدب العالمى، الذى اطلع عليه حسين

عفيف فى مصادره الأولى، عبر إجادته اللغتين : الانجليزية والفرنسية. كما أن انضمامه إلى حزب العمال، الذى أسسه النبيل عباس حليم، إنما يعنى انشغاله بهذا الهاجس الاجتماعى الذى طرحته الرواية: هاجس العدل، وتكافؤ الفرص.

و«زينات» شأن الأعمال النثرية **لحسين عفيف**، رواية عاطفية ذات طابع رومانسى، تخضع لفكرة أن الحب ضرورة وجود، بل هو الوجود ذاته، كما أن التضحية الإنسانية هى أرقى درجات السمو الروحى والأخلاقى، خاصة إذا ما كانت التضحية بالحب، أى بالوجود . وشأن أبطال مسرحيتى عفيف، فإن افتقاد الحب عند **زينات** وأختها **جلفدان** ، يؤدى بهما إلى الموت المادى ، بينما يؤدى **بمختار وعفاف** إلى نوع من الموت المعنوى، حيث يستمران فى الحياة بمبدأ القصور الذاتى لا أكثر.

وتظل الرواية ـ فى جانبها الأكبر ـ رهناً بالعلاقات العاطفية. أما التوجه الاجتماعى فيأتى بشكل عرضى داخل الرواية، وربما أفرزه لاوعى الكاتب نتيجة انشغال وعيه به. وقد تأكد هذا التوجه عبر الصراع بين شخصيتين ثانويتين : رمزى باشا **(والد زينات)**، الذى يرمز إلى الطبقة الأرستقراطية، **ومصطفى** الشاب الجامعى الفقير، الذى لايشفع له تفوقه عند رمزى باشا فى الحصول على حقه فى العمل، لكى يعول أمه المريضة، فتقضى البطالة على حياتها ،وعلى أمله فى الحب من فتاة فقيرة **(عفاف)**، ثم يموت بذات الرئة. وفى هذه الحالة، فإن الضمير الإنسانى لرمزى باشا يطيح بسلامه

الداخلى، فلا يهدأ حتى يحارب الجوع من خلال القضاء على ظاهرة البطالة، ثم يموت بهدوء بعد أن يحقق طموحه الاجتماعى.

ورغم أن هذا التوجه لا يشكل العنصر المهيمن داخل الرواية، إلا أن وجوده بهذا الشكل الساطع قد ضاعف من قيمته، حتى أنه قد شكل رؤية ضمنية للعالم . ويتجلى هذا الوضوح حين يقرر رمزى باشا أن : **(الناس ما تضامنوا إلا ليعيشوا، فيجب أن نكفل لهم العيش حتى يظلوا متضامنين)**. وفى العبارة السابقة، نجد أهمية التأكيد على فكرة **«العقد الاجتماعى»** بين عناصر المجتمع ، أو بين الفرد والمجتمع ككل.

ونظراً لأن **حسين عفيف** كان بعيداً عن التيارات الثورية التى كانت تزخربها الحياة السياسية والاجتماعية فى مصر آنذاك ، فإن دعوته اتخذت منحى **(إصلاحياً)**، بعيداً عن العنف، من خلال مبدأ **«التكامل»** الذى يتماشى مع حسّه الدينى. حتى أن محاولة الشاب المظلوم للقصاص من ظالمه، والتى اتخذت شكلاً عنيفاً، يتم إجهاضها داخل الرواية، ليتعايش كلاهما معاً فى عالم «مثالى» لاتحكمه الصراعات!!.

واستمراراً لدعوته الإصلاحية ، فإن حسين عفيف يشير ـ على لسان رمزى باشا ـ إلى أن : **(العمل ـ وهو وليد تضامن الجميع ـ يجب أن يقسم على الجميع، فإن وفىّ بحاجاتهم فبها، وإلا فمن مقتضى التضامن أن يستوى الكل فى تحمل التبعة)**، ومن الواضح أن مبدأ التكافل يقوم فى الفقرة السابقة، على أساس المسئولية التضامنية بين مختلف الطبقات.

وعندما يأخذ بعض أعضاء الطبقة العليا على رمزى باشا ، أنه : **(فى سبيل أن يطعم الجياع، فإنه يضرب الفقر على الجميع، يجيبهم : ليكن، فلئن يأكل الجميع خبزاً فقط، خير من أن يأكل بعضهم حلوى ويبيت الآخرون على الطوى)**. وحسين **عفيف** يمضى خطوة إلى الأمام فى الفقرة السابقة، للانتقال من **«الإصلاح»** إلى «الثورة»، لكنها **«ثورة هادئة»** إن جازت التسمية.

على أن الفرق يظل شاسعاً بين الرؤية الإصلاحية للرواية، والرؤية الماركسية التى كان يصطخب بها المجتمع المصرى فى الثلاثينيات. فالإصلاح عنده يبدأ من الأعلى، بينما الثورة تبتدىء من أسفل، والإصلاح هو محض تعبير عن «أزمة ضمير» طارئة، وليست نتاج جدل بين القوى الاجتماعية المتناقضة. كما أن الرواية قد أغفلت العلاقة بين الظرف الذاتى والظرف الموضوعى، الذى يحتضن بذرة التمرد الاجتماعى. لذلك، فإن أقصى ما تصل إليه الرواية فى طرحها لحلم العدل الاجتماعى، أن رمزى باشا: **(مضى فى رسالته، يدفعه شبح مصطفى... وكان الفضل لذلك الجندى المجهول مصطفى ، الذى شاءت الأقدار أن تضحى به، لتنقذ ضمير قاتله)!!.**

وإذا كانت الأعمال المسرحية لحسين عفيف ذات عنوان مزدوج: **(وحيد ـ أو قلب الفنان)**، **(سهير ـ أو التمثال)**، فإن رواية «زينات» لا تخرج على هذه القاعدة، إذ يسميها: **(زينات ـ أو التكفير)**. ونحن نلاحظ أن اسم البطل/

البطلة يأتى أولاً، ثم يليه عنوان جانبى يكون بمثابة العنوان الحقيقى للرواية، بل إنه يقوم بتلخيصها فى كلمة واحدة. ومن هنا، فإننا ندرك من العنوان الجانبى أن موضوع الرواية هو «**التكفير**». والرواية مليئة بكل أشكال التكفير المادى والمعنوى، وقد جاء تكفير رمزى باشا متخذاً الشكل المادى، من خلال محاربته الجوع والبطالة. وبذلك ، يصبح الهاجس الاجتماعى وليد مصادفة ، فالعدل ـ كما تشير الرؤية ـ ليس أزمة واقع ، بقدر ما هو أزمة ضمير. وبذلك، فإن الرواية قامت بتحييد أسباب الصراع، وأحالته من «**الواقع**» إلى «**الأخلاق**». وهذه الإحالة لم تكن ناتجة عن نقص فى وعى **حسين عفيف** الاجتماعى، وإنما كانت ناتجة أولاً عن طبيعته النفسية المسالمة، وثانياً حتى لايتناقض الاتجاه النقدى للرواية مع مضمونها الرومانسى، وهذا ما سنتطرق إليه.

وتمتد أزمة الضمير الاجتماعى من رمزى باشا إلى ابنته **زينات**، التى تحركت حياتها تحت ضغط فكرة التكفير. وقد آتخذت تلك الفكرة اتجاهين: التكفير المادى الذى اتخذ شكل وصية، يئول بموجبها كل ما تملك إلى **عفاف**: الضحية الثانية ـ مع **مصطفى** ـ للتناقضات الاجتماعية. وهنا، ينتقل **حسين عفيف** خطوة أبعد فى فهم الواقع ، حيث أن سعى **زينات** إلى اقتفاء خطى أبيها ، يعنى أن الأزمة لم تكن نتاج وعى فردى، وإنما هى ـ على الأقل ـ تشكل وعى شريحة ممتدة داخل الطبقة الارستقراطية.

ولم تقتصر فكرة التكفير على تلك الوصية وحدها، بل إن زينات حينما

فقدت الأمل في حبها، فقد فقدت في المقابل ضرورة وجودها، ومن هنا جاء انسحابها من الواقع لا كمجرد هروب، وإنما تعبيراً عن عنفوان أزمة الضمير التي تعاني منها. لذلك، فقد التجأت إلى أحد مشاغل الأيتام **(ملجأ)**، كي تكفر فيه ليس عن ماضيها، بل عن حاضر طبقتهاتجاه الفقراء، الذين يرمز لهم الملجأ. وتحت وطأة الوازع الأخلاقي، الذي يعبر عنه الأب قائلاً : **(وهكذا تلد الجريمة الجريمة ، حتى تتكون من حلقاتها سلسلة يشنق فيها المجرم أخيراً، يوم يثوب إليه ضميره)** ، فإن وجودها الاجتماعي يصبح امتداداً لوجود أبيها. وهذا يؤكد ـ أخلاقياً ـ على فكرة التكفير، التي تسمو لتقترب بشكل مثالي من **«التطهير»** ، حيث يتأكد ذلك من مقولة عفاف التي انضمت إلى المشغل مع زينات : **(نحن اللواتي طهرهن الألم، لم يعد للحقد في نفوسنا مكان)**. فالتطهير ـ إذن ـ هو العدالة التي يتساوى فيها الغني مع الفقير.

على أن الوازع الاخلاقي يقتضي ـ بالضرورة ـ تآزر فكرتي الجريمة والعقاب، حيث لايمكن أن تمر جريمة دون أن يتبعها الرادع المادي. وحتى لايشكل القصاص جريمة أخرى قد تستدعي الردع، فإن حسين عفيف يطرح القصاص بشكل قدري ، فيما أسماه ألبير كامي **«سوء التفاهم»** أو **«اللبس»** : **فعفاف** ـ ضحية **رمزي باشا** ـ تحكي **لجلفدان** السر الرهيب عن علاقة الحب بين **«زينات»** (أختها) ومختار (زوجها) ، دون أن تقصد ذلك، ودون أن تعرف هوية **جلفدان**. وكانت النتيجة المتوقعة ـ طبقا للنهايات

الرومانسية ـ أن تدفع **جلفدان** ثمن تلك الصدفة القدرية، حيث تنوى، ثم تموت : **(أحست جلفدان بأن الأقدار كانت تهينها، كما أحست برعدة تسرى فى جسدها، عندما ألفت نفسها فجأة أمام إنسانة نكبت بسببها يوماً)**. وهكذا ، تقتص **عفاف** لما أصابها من التناقضات الاجتماعية ، دون أن تقصد، وبالتالى دون أن يستدعى الأمر القصاص منها. وبعد موت **جلفدان** ، تقول **زينات لعفاف** : **(قتل أبى فتاك ، وثأرتِ منه فى شخص أختى، وما قتلتاهما ولكن قتلهما القدر. يأثم الدهر، ثم يجرى عقوبته فينا. لا تروعى أختاه، فكل شىء مكتوب ، وأنت بريئة من دم جلفدان)**. وبذلك يرتد **حسين عفيف** مرة أخرى برد التناقضات الاجتماعية إلى قوى القدر ، الذى يجبرنا أن نكفر دائماً عن ضرباته الطائشة!!.

على أن التوجه الاجتماعى داخل رواية **«زينات»** ، بعد تحليله سوسيولوجياً، وإن كان يستند إلى رؤية ضمنية للعالم إلاّ أنه افتقد ما أشار إليه لوسيان جولدمان عن مفهوم «الوعى الممكن»، وإن أكد بصورة واضحة على مفهوم **«الوعى القائم»**، الذى يرسخ الواقع القائم بالفعل. ورغم محاولة **حسين عفيف** طرح تصور عن **«الوعى الممكن»**، من خلال رؤيته الإصلاحية، إلا أن هذه الرؤية لم تستهدف تغيير الواقع ، بقدر ما أدت إلى محاولة **«تجميل»** . هذا الواقع.

وتجدر الإشارة إلى أن التحليل السابق لايستهدف فى النهاية رفض أو قبول الرؤية السوسيولوجية التى طرحها حسين عفيف، لكنه يستهدف

التـأكيد علـى أننا بإزاء رواية رومـانسـيـة، وليـست رواية واقـعـيـة نقـديـة. ومن طبيعة الأشياء أن العمل الرومـانسي ينشـد القيم الإنسـانية المطلقة ، مثل : الحب والخير والجمال والعدل... الخ. وهذه القيم عادة ما تسمو داخل العمل الرومـانسي، وحينئذ تطمـح إلى أن تعلو علـى الواقع أو تتسـامى عليـه. ومن هنا، فإن طرح بعض القضـايا الاجتماعية داخل العمل الرومانسي، لابد وأن يرتبط بقيمة عليا، مثل : الضمير، دون التطرق إلى جدليتها مع الواقع الذى أفرزها. لذلك ، فقد تطابق كل من المضمون الاجتمـاعى **(المثالى)**، والشكل الرومـانسى الذى ينشـد بدوره المثـالية. لذلك، كانت الوحـدة التى تجـمع بين الشكل والمضمون داخل رواية **«زينات»**، قد جعلت من الطرح المثالى لقضايا الواقع وتناقضاته، نتيجة طبيعية للشكل الذى أفرزها.

إن التطابق بين التوجه الاجتمـاعى والشكل الفنى الذى تلبّسه، قد أدى إلى أن تتسق الرواية ــ فى واقعها التاريخى ــ مع هاجسين:

الأول : هاجس الإبداع الرومانسى السائد الذى يبحث عن المثل الأعلى خارج الواقع.

الثانى : هاجس العدل الاجتماعى، الذى يبحث تطويع قيمة العدل لمقتضيات الواقع.

وإذا كان الهاجس الأول يقتضى من الأبطال القيام بطقس **«التكفير»** عن أخطاء لم يرتكبوها بالموت ، فإن هاجس العدل الاجتماعى الذى طمحت الرواية إلى طرحه للمرة الأولى فى مسيرة الرواية العربية، كان يقتضى

أيضاً أن يكفر بعضهم عن أزمة الضمير التى تؤرقهم، وذلك عن طريق تبنى المثل العليا التى ترتبط بالهاجس الأول داخل إطار فنى ، ولو لم يحدث ذلك، نتيجة هوة تفصل بين مضمون العمل الإبداعى وشكله، وهذا ما تجاوزته تلك الرواية.

وتتبقى فى النهاية ضرورة الإشارة إلى بعض الملاحظات الفنية، والتى لم نركز عليها كثيراً لأنها تكاد أن تكون تكراراً لما أشرنا إليه فى تحليل المسرحيتين، خاصة من ناحية الاهتمام بالسمات الأسلوبية، وتبنيها القيم اللغوية الرومانسية، إن على مستوى المعجم: **(الحمائم ـ الزهرة ـ الشمعة ـ الفراشة ـ العطر ـ الندى...)**، أو على مستوى تركيب الجملة : **(كانت قد شربت من كأس سحرية ضاعفت فى شرايينها الحياة، ولاتدرى من أى فردوس جاءوا بالكرمة التى عصروا منها خمرها)**.

إلى جانب بعض الملامح الرومانسية الأخرى، مثل تمجيد الألم : **(عندما شفَّ جسمى على نار الألم كما يشفَّ البخور، ألفيتنى أتحول إلى دخان يتسامى)**. وفى موضع آخر، تقرر زينات: **(ما أنا وقد طهرنى الألم ببشر)**. وهذا ينقلنا باتجاه سمة رومانسية أخرى هى التسامى أو الإعلاء، أى تحويل الغرائز والرغبات باتجاه القيم الإنسانية العليا. فالحب ـ مثلاً ـ **(ليس قبلاً ولا عناقاً، لكنه مزيج من أنوار آلهية لا عهد لنابها، فيها هدوء تلك الخضرة التى تصبغ الجنة، وليس فيها من لهب الجحيم)**. وحين يقتنع مختار بفكرة شفافية الحب الروحى، حيث يتسامى بالجسد، يقول : **(لقد رأيت حبنا الروحانى كما وصفته لى، أنواراً وأنغاماً.. ولاشىء إلاَّ النور والنغم)**.

ونظراً لأن الطبيعة لها موقع مركزى فى الأدب الرومانسى، فإنها قد آتخذت موقع الخلفية لبعض الأحداث الهامة. فمظاهر الطبيعة تأتى عادة مصاحبة للأحداث المختلفة والمتباينة، فإذا كان الأمر يتعلق بالهناء فى الحب، تتخذ الطبيعة شكل الإطار الذى يغلف لقاء الحبيبين، أما إذا كان الأمر يرتبط بمأساة إنسانية، فإن الطبيعة تصطخب وتبدى عبوسها، فيما يشبه الموسيقى التصويرية المرئية للمشهد: **(وفى ذات ليلة ممطرة عاصفة الرياح ، كأن الطبيعة كانت تبكى فيها وتنوح على زهرة من زهورها الحسان، أخذ يحلق فوقها طائر الموت، اعترت زينات غيبوبة طويلة).**

وعلى ذلك، فإننا نرى أن رواية «زينات» فى سياقها التاريخى والاجتماعى، كانت بمثابة الطفرة، إن على مستوى الرؤية الرومانسية ، التى زاوجت بين الواقع وما ورائه، أو على مستوى الرؤية السوسيولوجية التى رصدت بعض مظاهر التناقض الطبقى، ولكن من خلال الوعى الأخلاقى، دون أن تتجاوزه إلى الوعى الاجتماعى. وهذه النظرة الأخيرة، والتى تقترب - دون أن تتطابق - مع توجه الواقعية النقدية، كانت طفرة أخرى فى مسيرة الرواية العربية التى كانت نهباً لهاجس «التعبير» فى غياب كلى للوعى الاجتماعى السائد فى النصف الأول من القرن العشرين.

عبد العزيز موافى

٢٠٠٢/٥/٢٧

وحيـــد
أو
قلب الفنان
١٩٣٨

إهـــداء

إلـى روح أبـى

أشخاص الرواية

وحيد	شاعر شاب.
سميرة	ممثلة شابة.
ألفت	فتاة، صديقة لسميرة.
مراد	ناقد أدبي
شوكت	طالب وممثل هاو.
حمدى	ممثل } أصدقاء وحيد.
راشد	موسيقى } أصدقاء وحيد.
يوسف	رسام } أصدقاء وحيد.
الشقلباظ	رجل معتوه يلهو به حمدى.
مبروكة	} خادمان بمنزل سميرة
اسحاق	} خادمان بمنزل سميرة
سعاد	} من حبيبات وحيد
دولت	} من حبيبات وحيد

مكان الرواية

ضاحية بالقاهرة .

الفصـل الأول

سميرة جالسة فى خميلة بحديقة

منزلها وبيدها كتاب ،الوقت

فى الصباح المبكر

سميرة : {وحدها} ما أشقَّ التمثيل من مهنة ! إننى الآن ـ والأسى جاثمٌ فوق صدرى ـ مضطرةٌ إلى أن أتقمص شخصية إحسانَ الطَّروب ، مادمت أتهيأ للدور الذى سألعبه الليلة، فإذا ما وافى المساء واعتليت خشبة المسرح ـ كان علىّ أنا التى غَضَّنَ السهدُ وجهى وهدَّ قواى ـ أن أطَّرح الكآبة جانباً، لأبدو بشوشةً كذاتِ قلبٍ خَلِىٍّ ، ولأروحَ وأغدو أمام القوم فى خفة ظبية .

رباه ! أما كفانى حَمْلُ حزنى حتى أحملَ سعادة الآخرين ،

وأحمل الحقد معها والحسد ؟ أفحَتْمٌ على الفنان أحياناً أن يكظم ألمه ويمضي متظاهراً بالجذل ، فيحمل العبئين، عبءَ همومه، وعبء هناءٍ لا نصيب له فيه ؟ ما أبأس المحزون أزْعَجَ أذنيه رنينُ الضَّحِكات المرحة ! إنَ مَثَله لَمَثلُ مُحْتَضَرٍ عاوَده النور وهو يُسْلم للغمض فأهاج فيه ذكريات دنيا مدْبرة .

يميناً بالله لقد بتُّ أمقت إحسانَ هذى ، كأنما هى فى الحق إنسانٌ ولمْ تكُ من صنْع شاعر بل إننى لأمْقُتُ حتى ذلك الخيال السعيد الذى ابتدعها ، مقتى لكل طروبٍ جذِل .

آه ! كم أود ـ يا نور عينىّ ـ لو تخبو فأُغْمِض دون الجمال إلى الأبد! بل يا ليت الردى يعصف بكل جميل على الحياة ، وتصبح فإذا العشب النضير هشيمٌ ، وإذا الأقاحِى والورود بقايا ذابلة ! مَن لى بظلامٍ مُطْبِقٍ يطوينى فأقبع فيه محتضنةً حزنى معى ، ضنينةً به على النور أن ينتهك حرمته !

إيه ، أيها الشريدُ الضاربُ فى البرارى بعصاك يا راعى الغنم ، يا من رأيتكَ فحرَمتَنى الراحة والهجوع إلى الأبد، مَن كان يظن ، أن سميرة التى طالما هزأتْ بالحب ، ومضت تفرض إرادتها على القلوب كربَّة ، سيأتى يومٌ تنهزم فيه أمام إرادتك ؟ نعم ، مَن ذا الذى كان يتوقع أننى سأحبك ، أنا التى حرصتُ

على ألاّ يذلَّ للهوى قلبى ، لأظل أنهَى فى القلوب وآمر ؟

{ تدخل مبروكة }

مبروكة : سيدتى ! جارتنا أُلْفَت هنا فى الحديقة ، لقد جاءت كعادتها كل صباح تقطف بعض الياسمين المندَّى برطوبة الليل، ولَشَدَّ ما أدهشها أنك غادرت الفراش والفجرُ لمّا يشُدّ رحالَه ، أنت التى ما عهدناك تصْحين إلا إذا اقتحمتْ شمسُ الضحى عليك جفونَك .

سميرة : تتهكمين أيتها التعسة ؟ اغربى عن وجهى .

مبروكة : يلوح لى يا سيدتى أنك لست فى خير حال ، فهل لى أن أسألك عن السبب ؟

سميرة : صه، ليس هناك من سبب، خذى هذه الرواية فأودعيها مكتبى، فلقد غدوت ومالي من قِبَلٍ بمراجعة دورى الآن. {تناولها الرواية}

مبروكة : حسناً، أتمنى لك بالاً هادئاً، {وقد تلفتت} ها هى ذى أُلْفَتُ مقبلة .

{ تدخل ألفت وتخرج مبروكة }

ألفت : ما لِسميرةَ قد استيقظتْ مبكِّرة ؟

سميرة : لا لشىءٍ يا ألفت.

ألفت : حقًّا، إنه لَجميلٌ أن يستقيظ الأنسان مع الطير!

سميرة : إنْ هو نام معه .

ألفــت : وهل سهدْتِ ليلتك ؟

سميرة : أجَل، حين أوى القوم إلى مضاجعهم وسكنَت الأصواتُ جميعها، كنتُ وحدى أنصت إلى دقات قلبى .

ألفــت : هنا؟ هنا فى الخميلة ؟ فى هذا البرد القارس ؟

سميرة : أجـل، قدِمـتُ إليها والليلُ مُرْخٍ سدوله، وبقيتُ بها إلى أن تثاءب عنى الفجر مع الأزهار.

ألفــت : ولِمَ هذه المخاطرة بصحتك ؟

سميرة : أحسست أن الغرفة تضيِق بى ، فرُحْتُ أنشد أفقاً أوسع .

ألفــت : ولعلك تكونين قد وفِّقتِ إلى ذلك ؟

سميرة : كلا، عندما تكـون الوحدة فى النفس ، يعجز عن إيناسها العالَمُ مجتمعا .

ألفــت : لا أصابك سوءٌ يا صديقتى ، وماذا سهَّدك ؟

سميرة : الذى نوَّمَ قلبى .

ألفــت : الذى نوَّم قلبك ؟ كيف ؟

سميرة : إنها العين تستقيظ دائماً حين يغفو القلب .

ألفـــت : وهل تغفو القلوب ؟

سمير : أجل عندما تثمل بـخمر الجمال، إنها لا تمضى التماسا للنوم ، ولكنْ ذهاباً مع الهوى .

ألفـــت : وهل تفقد الوعْى ؟

سميرة : بل تتجاوز الحد فيه حتى لا تطيقه .

ألفـــت : كما يتوهج السَّنا فيذهبُ بالبصر !

سميرة : أو يرغِم الجفنَ على أن ينكسر .

ألفـــت : إذنْ فهى تُغْمِض !

سميرة : لِتَرَى من خلْف الجفونِ ، كَمَنْ نام فاسترسل فى حلُم .

ألفـــت : ولكنْ ، ما للعيون تستيقظ ؟

سميرة : لَتشهد أحلامَ القلوب وتضطلع بها .

ألفـــت : تضطلع ؟ كأنى بها مرهِقة !

سميرة : أجـــل ، وحبذا أنها تكون، أنبـغ اللذات ما عَذَّب القلبَ ، وأقَضَّ مضجعه .

ألفـــت : يلوح لى أنك بتِّ أسيرة حبٍّ جديد .

سميرة : ومتى أحببتُ قبل الآن ؟

ألفــت : بل متى كنتِ من غير الحب ؟ عهدى بك كالزهرة يحوم من حولها الفرَاش أبدا .

سميرة : ومن أدراك أن الزهرة تبادل الفراش حبًا بحب ؟

ألفــت : لأنها تمنحه الشهد من فمها .

سميرة : مـا إخالهـا تفعـل ذلك حبـا فيه وإنمالتغريه بحبها، إنـها لفرط جمـالها تعشق نفسـها ويلذ لهـا أن تراها مـؤلهَّـة، هـى تغـازل نفسها بوساطة الغير وتسخَّر لذلك .

ألفــت : إذنْ فأنت لا تحبين أحداً من عشاقك الكُثُر ؟

سميرة : بل ألهو بهم فقط، وهـم يعلمــون ذلك فيبتعــدون عنــى فى بادىء الأمر، ثم لا يلبث أن يجذبهم سناى فيعودوا ليحترقوا فيه.

ألفــت : كما يحترق الفَرَاش فى الشمعة !

سميرة : إنهــم يخشـونْ الاحتراق من الظمأ ، فإذا ما جاءوا إلىّ يرتوون احترقوا أيضاً .

ألفــت : وما داموا هالكين فى البعد والقرب ، فخيرٌ لهم أن يهلكوا عند الصنم الذى عبدوه !

سميرة : ولذلك سرعان ما يعودون .

ألفــت : ليهلكوا !

سميرة : لا فائـــدة، حيثمـــا وُجِـــدَ النور والفراش معـا، فلابد من هلاك الأخير.

ألفـــت : ليس فى هذاعجب، ولكنّ العجب هو أنّ شيئاً ما فى إمكانه أن يحرق النور، قلتِ لى إنك كالزهرة لا تعشقين إلا نفسك ، فكيف تأتّى لك اليوم أن تقعى فى حب رجل ؟

سميرة : إن الـزهرة لَتَظل مفتونة بنفســها حتــى يصادفهــا ما هو أجمل منها فـتـفـتتن به. إنهـا رمز الفن الرفـيع تموت وتحـيـا من أجل الجمال وتهواه ولو كان فى نفسها .

{ تظهر مبروكة بين الشجر تقطف ورداً }

ألفـــت : ماذا ؟ مبروكةُ ؟ مازلت هنا ؟

مبروكة : أجَل يا سيدتى، أقطف ورد المائدة .

سميرة : وتتنصتين إلى الحديث !

مبروكة : ولِمَ لا ؟ حديثكما والزهرُ عندى سواء .

سميرة : لا عجب فهى الأخرى عاشقة، {لمبروكة} لِمَنِ الورد، أللمائدة أم لحبيبك ؟

مبروكة : جيِّده للمائده ، وأجوده للحبيب .

الجميع : {يضحكن}

سميرة : والردىء ؟

مبروكة : من نصيب العنول .

الجميع : {يضحكن}

ألفــت : {لسميرة} وبعد ؟ لابد أن يكون حبيبك هذا آية فى الحسنْ .

سميرة : إذا أردتِ أن تتصــوريه، فتصــورى جمــال النــاس كلهم وقد اجتمع فى واحد، لقد أعجزنى سحره فاستعبدنى ، والإنسان عبْدُ ما يُعجزه.

مبروكة : لعلـه أبيضَ أحمــرَ فى طــولٍ وعرض. كـم يكـون بديعا لو كان كذلك!

سميرة : بـل شــاحــبُ فى ســمرةٍ ونحْف قوام، إنه ليس كالوردة تفاجىء الحواسَّ بلونها الصارخ، ولكنه كالبنفسجة تتسلل إليها فى دهاءٍ وخبث؛ الحواس المرهفة لا تميل إلى ما يصدمـهـا، وهى لا تحب من الأشياء إلا الذى يمسُّها من بعيد، أما ترين أن منظر الطائر الذى يَمسُّ بجناحه الماء مسًّا أبدع من ذلك الذى يغطس فيه؟ ولكنْ أنىَّ لك أن تفهمى ذلك أنتِ التى لم تزل حواسُكِ فى طور البداءة؟

ألفــت : ما هذا يا سميرة ؟ تعيبين على الشمس وفرةَ ضوئها ؟

سميرة : وهل لِوَفْرَتِهِ يُعشَق الضوء ؟

ألفــت : بلا شك، أفتَك الأضواء بالعين السنّا .

سميرة : رُبَّ وداعٍ حنــونٍ كناعس اللحظ راح يخبِّيء اللهبَ فى قراره، ما الجمالُ، ما الهوى الجبارُ، ما الشِّعرُ، مـا الفنُّ إلا القُوَى، تكبَّرت فانتحلتْ الضعف .

إنهــا النور يحمل فى َصميـــه النـار، أو النســـيم يُخـفِى فى جوانحــه العاصـفة، أو الغدير يطوِى فى موجاته اليمْ، وكما يَرِقُّ المـوج فينثـر الرشـاش، يترفـق السـحر فيزجِى الجمـال، وتشفُّ الرغبة فتلد الحب .

أنا ما عيَّرتُ الشمس يا ألفت ، ولكننى أطريت طيفها الباهت فى القمر .

مبروكة : عنــدى أن الرجــل لا يكــون جديـراً بالحب إلا إذا كان ضخماً متألقا منفعلا دائما أبدا، إذا تكلـم أقبلت الشرطة ، وإذا قبّلنى ضجَّ الجيران. عند ذلك أشعر، أشعر، أننى أمام رجل .

سميرة : أعنى أن الرجل فى نظرك ديكٌ رومى !

مبروكة : ولِمَ لا ؟ أوَ ليس خيراً من أن يكون فأرا ؟

سميرة : ولكنّ الرجولة ليست فى العنف ولا فى الضجيج إنها معنًى غير

هذا وذاك، معنًى يستقل بنفسه؛ ورُب أضخم الرجال وأشرسهم خُلُقاً، أخنثهم طابعا وأقربهم إلى المرأة منهم إلى الرجل وأنا أعرف شبانا ممن يغرُّ منظرهم الناس ، إذا ما فرغوا من تقبيل قدمى ركلتهم بها ،فإذا كان الذى يقبّلون يدى لطمتهم بها على وجوهم ، ورحت أستمع إلى دوىّ كرامتهم وهى تهوى تحتها .

مبروكة : وأنا أيضا كثيرا ما أعض اسحاقَ فى أذنه لأتمتَّعَ بخرير دمه وهو يجرى تحت أنيابى .

سميرة : خيالٌ رائع دون شك أن تعضى حبيبك اسحاق القُصْر ملّ، فيسمعُ لجريان دمه خريرٌ كخرير الجدول ! ها ها ها !

{ تختفى مبروكة وهى تقطف وردا }

ألفت : ولكنه لا يرى كما ترين غضاضة عليه فى ذلك، إن الأذى من يد الحبيب مستحَبٌّ على كل حال .

سميرة : بل فى بعض الأحوال فقط، عندما يكون فى معرض مزاح. أما أن يكون صادرا عن سخرية، فعندى أنه أهون على الرجل أن ينتحر من أن يقبْله، أوه، كم كنتُ أمقت الرجال حين كنت أستعبدهم !

ألفت : والان ، وقد استبعدك الرجل ؟

سميرة : أحببته .

ألفـــت : كذا ؟

سميرة : نعـم أحببته، ولو أنه استسـلم لي لنبذتــه، إن قلبي ليناديه أن أقسُ عليّ يا حبيبي وعذّبني، أحبك، اظلمني، اهجرني، اضربني بملْء يدك، اطرحني أرضاً، أعبدكَ وأتشبث بك .

ألفـــت : ولكنْ ألا ترين معي أن للسلطان لذة ؟

سميرة : ربمـــا، ولكنني كامرأةٍ أرى العبودية ألذ، عندما كنتُ أتحكم في الرجال كنت أشعر بحاجة إلى من يحْكمني، كانت هذه الحاجة بمثابة فراغٍ هائل في حياتي إلى أن جاء هذا الحب فسدَّه .

ألفـــت : والحرية ؟

سميرة : بعضُ الأسر أوسع نطاقاً منها، حقيقةً إن أغلال الحب تغلق في وجه الإنسان بعض أبواب الحياة ، ولكنها تفتح أمامه أبوابا أخرى كانت مغلقة، كنتُ فيما مضى لا أبصر إلا في حدود الأفق ، أمَّا الآن فأشهر أنني تجاوزته إلى ما وراءه، إن المرء ليَرَى في أحلامٍ دقيقةٍ واحدة ، أضعاف ما يحتويه عالَم الحقيقة كله .

ألفـــت : ولكنْ ، من يكون حبيبك هذا الذي غيّر مجرى حياتك ؟

سميرة : صـه، إلى هنـا يجب أن يقف الحديث، إنه لفرط ما عزّ عليّ أود أن أستأثر به وحدي .

ألفـــت : ولكنّ القلب كزجاجة العطر، لا تبلْغ رائحتها أنفَ صاحبها،

حتى تنسكب فيشمها الناس أجمعين؛ إنك بكتمانك للسر تشعرين بلذة تَمَلُّكِه ، فإذا ما بُحْتِ به شعرت فوق ذلك بلذة انتفاعك بما تملكين .

سميرة : ولكننى أخشى إنْ أنا أفرغتُ السر أن ينضب منه قلبى .

ألفت : إن قلب المحب كشجرةٍ تنبُت الأزهار الزكية ، كلما قُطفتْ منها زهرةٌ نبتت زهرة ، وإن تُركت ، وقفتْ عن النمو .

سميرة : وهل تعِدِيننى إذا أنا بحت لك ألاّ تسخرى منى ؟

ألفت : وكيف أسخر ؟

سميرة : ماذا تخمنين أن يكون ؟

ألفت : تسألننى أنا؟

سميرة : حاولى.

ألفت : أممثلٌ هو بالفرقة؟

سميرة : كلا.

ألفت : أأديبٌ إذن؟

سميرة : كلا.

ألفت : لعله محام؟ أوطبيب؟ أو ضابط؟

سميرة : لاشىء من ذلك.

ألفـــت : إذنْ فماذا عساه يكون؟

سميرة : شابٌّ من رعاة الغنم.

ألفـــت : سميرة!

سميرة : ماذا دهاك؟

ألفـــت : أممثلةٌ وتحِب راعيَ غنم؟

سميرة : وأى غرابة فى هذا؟

ألفـــت : إنْ هو إلا صعلوك!

سميرة : صعلوكٌ ولكنْ يخيل لى أنه يجرى فى عروقه دم ملك.

ألفـــت : أىُّ ملك؟

سميرة : ما هــذا بربك يــا ألفت؟ تعيِّرينـه وهو بَعْدُ قاتلى؟ هبيه راعياً أو مَلِكاً، الحبُّ لايفرِّق بين راعٍ ومِلِك.

ألفـــت : أرى حبك عليك جدَّ عزيز، فهل قديمٌ لَعَمرى هو؟

سميرة : قديمٌ ويَخفَى على الناس أمره؟ لا يا ألفتو إنه ابن الأمس فقط.

ألفـــت : الأمس؟ ولكنه يبدو فى عمر الرجل!

سميرة : نعم، فى عمر الرجال وما تجاوَز غير ليلة!

ألفـــت : حسبْتُ الحب عِشْرَةَ أعوامٍ، ورهْنَ خلطة ومودة!

سميرة : أخطـأتِ، بل وقْـعُ صدمـةٍ، وأعراض دهْشـة. ما الحب إلا إعجابٌ

مُجاوِزٌ محمومٌ، والإعجاب تكفيه النظرة. إن الطريق بين العين والقلب قصيرٌ معبَّد، وما على الجمال إلا أن يمسنا بسحره حتى نصاب بمسٍّ الهوى ، فما ندرى إلا وقد استحال نوره فى الجوانح ناراً ، وشرابه فى الفؤاد رحيقاً .

ألفت : الذى أفهمه أن القلوب تحتاج إلى التعارف قبل الحب .

سميرة : إن القلوب المتجانسة الجوهر تتعارف فى الغيب قبل أن تلتقى ، فإذا ما جَمعت بينها الصدف تفاهمتْ كأنها على سابق صلة .

ألفت : كيف ، أما لك فى قصة مبروكةَ وإسحاقَ عبرة ؟ أما ترين كيف أنها كانت تكرهه فى أول الأمر ، فلما عاشرته وواظب مدة على الغمز لها بحاجبه وموالاتها بالحلوى والفطائر ، أخذ يحلو فى عينيها شيئا فشيئا حتى أصبحت اليوم لا تطيق فرْقته ؟

سميرة : كلا يا ألفت، إن أسحاقَ ما تغير، ولكنّ الذى تغير هو عينا مبروكة لكثرة ما أدمنتا النظر إليه، وسوف يأتى يومٌ تثوب فيه إلى رشدها، وعندئذ تفيق من ذلك الحلم يسرها بالطبع أن نقول عنه إنه سعيد، فقبلها ما أحَبَّ ، ولكنه غدا رهينَ شعورٍ شاذ مثلما يألف المرء عادةً سيئة إن أهليتنا للحكم على الأشياء بنْتُ إحساسنا الأول بها، وإذا ما تكرر الإحساس بالشىء الفاسد ، فَسَدَ الذوق معه وراح يَرى جميلاً ما هو قبيحٌ فى عُرْف الذوق السليم .

ألفــت : وبعد؟ إذن فأمس فقط رأيتِ حبيبك.

سميرة : نعم، عندما خرجتُ مع أبي ننتزه في الأصيل، إن كوخه لَعَلَى مسيرة نصف ساعة من هنا، كان جالساً ببابه وقد أمسك بيده مزماراً وجعل يرتّل به أنشودة عذبة، بينما كانت الغنم منتشرة من حوله، ترعى الكلأ، وتثغو من حين لآخر فيتجاوب صوتها مع نغمات مزماره.

ألفــت : وهل حدثْتِه؟

سميرة : حدثه أبي، كان قد ذهب يطلب منه جذوة نار يشعل بها لفافته، ولقد أراد أن يعطيه قطعة من النقود لقاء ذلك غير أنه أبَى وأصر، آه! إنه في ملابس راعٍ، ولكنه يحمل بين جنبيه نفْس نبي!

ألفــت : وما شكله؟

سميرة : مُشرق الوجه في غيامٍ يخامر طلْعَتِه وغروبٍ يحلِّي ابتسامَه، وإن في صوته لحَنيناً كالبكاء، وفي عينيه لَلَوعةً يحسبها الصبُّ دمعة، طابَعُهُ الحزنُ، والتأثرُ سِمَتُه، وعلى ظاهره خشونةُ الهمجيِّ، وفي طويَّته رقة المتحضِّر؛ ولم أكد أراه حتى اعتراني حزنٌ لمْ أدرِ ما سببه، إن رؤية الجمال لَتحزننا، لأنها توقظ فينا شعوراً من الرغبة المرهَقة بالحرمان، والرغبةُ جحيمٌ وقوده

الكبتُ، والحزنُ دخانه؛ فالجمال وإن سَرَّ العينَ منظرُه، منطوٍ على الحزن.

ألفــت : يا مسكينة!

سميرة : {مستطردة} وتألقتْ فى عينىّ صوبْه نظرةٌ ظامئة، ردَّدت ما انطويت عليه إذ ذاك من لهَثٍ، ثم جعلتْ تضىء وتتوهج كأنما قد صُبَّ نورُها من نار قلبى، ولقد أخذتُ أعبُّ من جماله وأعب، حتى فاضت عيناى به، فإذا يتدفق منهما بريقُه الخاطف حتى لكأنهما تضيئان بنوره هو؛ أجَل، لقد كنت وقتئذ أراه بنورٍ من عينيه، وأجرِّد عليه سلاحاً من جماله؛ ولكنْ سرعان ما افترقنا فحبا فى عينىّ ذلك الوميض، وخامر نظرتى نعاسٌ وذبول، فما رآنى إنسانٌ منذ الأمس إلا وخالنى مفيقةً لتوِّى من النوم؛ ولقد أطبقتُ على طيفه جفونى، فما أصحو منذ ذلك اليوم، ولا أرى إلاّ فى خاطرى؛ آه يا ألفت! لم تكن غير برهةٍ تلك التى أمضيتها فى حضرته، ومع ذلك يخيل لى أن ما وقع فيها يكفى لأن يملأ وقت عامٍ بأكمله؛ نعم. لقد ذهبتُ إلى ذلك الكوخ وكل أملى ينحصر فى عود ثقاب، ثم عدت منه وقد تعلقتْ به أحلام حياتى بأسرها.

ألفــت : وكيف كان معك؟ ألم يلاحظ شغفك به ويوليك مثله؟

سميرة : ما خالطنى شك فى أنه أدرك مغزى نظراتى، ومع ذلك فلم يهتز ولم يكترث، برغم ما أعهده فى نفسى، من قوة التأثير على

الرجال، وهذا ما أعهده فى نفسى، من قوة التأثير على الرجال، وهذا ما زادنى تعلقاً به وتعذباً فى حبه، لأنه مذْ هزمنى ألفيتُنى منساقةً إلى الإيمان به؛ والحبُّ إيمانٌ بمن نهوَى وهزيمة؛ آه! لقد استعبدنى ذلك الشاب وأذلنى، أنا التى فيما مضى أستعبد الرجال وأُذِلهم.

{يظهر عند سور الحديقة قطيع

من الغنم يقوده رعاة ينشدون}

ألفــت : انظرى! غنمٌ، وتقودها رعاة!

سميرة : بربك؟ لعل حبيبى بينهم! دعينى أرَ

{يخفان ناحية السور فى

حين يسمع صوت الرعاة}

الرعـاة : نحن الرعـاةُ نجـوب البـقـاع بقلبٍ خلىّ، يَطربُ الناسُ لحِنٍ وشدْوُنا أبدىّْ،

بين البرارى ضـاربون وفى المروج السندسـيـة، طعـامنا من لبنٍ وفاكهةٍ شهية.

نَنْفُضُ النوم ونصحو إذا مـا الفـجـر لاح، وشذا العشْب المبلَّل بالانداء فاح،

لا نبـالى الصـبحَ مـا قد يأتى المسـاء، وارتضـينا الفـقـر فكنا سعداء.

{يخفت الصوت تدريجياً ثم

يسكت وتعود سميرة وألفت}

ألفـــت : واأسفاه! لقد حسبتُ أنه أحدهم

سميرة : أرأيتِ كيف يعيشون؟ آه! كم أود، أود لو قضيتُ مع هذا الراعى الجميل العمر كله، نصحب الغنم معاً إذا انبلج الصباح وتنطلق بها عَبْرَ الرُّبا وبين المروج المخضلَّة؛ يلوح لنا الصيدُ فنعدو، وتطاردنا الوحوش فتختبىء، لا نبالى بعدنا فنظفر بيومنا، ولا نرهق يومَنا فنظفر به بعدنا؛

حتى إذا أدركنى التعب من وعث الرحيل، عدت إلى الكوخ محمولةً بين ذراعىْ حبيبى، وجدائلى تعفِّر بأطرافها التراب.

فإذا بلغناه وتوسدتُ فى هدْأة الليل ركبتيه، طوَّقتُ بذراعِى خَصريه، وضغطتُ بيدىَّ يديه، ورشفتُ الراح من شفتيه، حتى إذا ما خالط عينىَّ الوَسَنُ وأسبلتُ على طيفه جفونى، رَسَمَ الأملُ الرحيب على شفتىَّ ابتسامة، وَخَطَّتْ الفرحةُ على جبينىَ هالة، هذه هى الحياة يا ألفت، عبادةٌ للجمال وتسبيح.

ألفـــت : لقد غيَّرك الحبُّ يا سميرةُ بين يومٍ وليلة؛ كنتِ بالأمس وردةَ القصور، ثم شاء الحب فجعلك شوكة المراعى، ولكننى ما أحسبك إلا عن ذلك راضية، إن المحب يرى الدنيا بقلبه.

سميرة : وأى شىء بغير القلوب يُرَى! النور الذى فى الدنيا، هو من قلبى ولقلبى، القلب إنْ أغْمَض، عميتْ العينُ وغربتْ شمسها.

ألفت : أسمع وقع خطوات تقترب! لعله أحد المعجبين جاء ينهل من جمالك، انتظرى! {وقد ألقت على القادم نظرة} إنه شوكت، ذلك الطالب والممثل الهاوى.

سميرة : ما أثقل ظله! إنه لا ينفك يَتَثَنّى الهوى بأسلوب ذليل، كأنه هو ذلك الفتى المخنث من حقه أن يحب امرأة، مثله فى ذلك مثل الرجال.

ألفت : {فى خبث} أأمضى فيخلو لكما الجو؟

سميرة : ماذا؟ تلك منك دعابة.

ألفت : أعرف ذلك، على أننى لابد ماضية،إن شؤونا بالبيت تنتظرنى، ولقد أعود بعد ذلك.

{تدخل ألفت ويخرج شوكت}

شوكت : عِمِى صباحا يا كوكب الفن.

سميرة : عِمْ صباحا، {فى امتعاض} ما الذى جاء بك الآن؟

شوكت : أضربَ الطلبة ومضوا يتظاهرون، أما أنا، فآثرتُ أن آتى إلى هنا.

سميرة : {في سخرية} لكي تنجو بنفسك!

شوكت : أجل، فبالأمس قُتل اثنان وجُرح أربعون، وما أخال المأساة إلا اليوم متكررة.

سميرة : جبانٌ رعديد.

شوكت : مهلا! وهل تريدينني على أن أموت؟

سميرة : من يدرى؟ لعلك تنجو.

شوكت : وإنْ مت؟

سميرة : تكون كغيرك.

شوكت : وقلبي؟

سميرة : ما باله؟

شوكت : أأخلِّفه هنا؟

سميرة : لا، تأخذه معك.

شوكت : غير ممكن، يموت المحب إلا قلبه.

سميرة : إذنْ تتركه.

شوكت : عسيرٌ عليّ فراقه.

سميرة : حتى وإن دَعاك الوطن؟

شوكت : إنه قلبى!

سميرة : أعلم ذلك، وأعلم أن التضحية لا تكون إلا بعزيز.

شوكت : إنْ وثقتُ أنه يكون فى الصون أفعل.

سميرة : لا، لا أعدك.

شوكت : و أنا، لا أموت.

سميرة : {فى مكر} وإذا وعدتُك؟

شوكت : متُّ دون تردد.

سميرة : لا أعتقـد، الذى يساوِم فى التضحيـة لا يبذلها، مُواجِه الموت لا يَنظر خلفه.

شوكت : منطقٌ جميل!

سميرة : {فى تهكم} غير أنه منطقى!

شوكت : من فمٍ جميل!

سميرة : لِمَ لمْ يكن منطقك؟

شوكت : عقلتِ اللسان!

سميرة : وبعد؟

شوكت : فعزّ البيان.

سميرة : وكنتَ الجبان.

شوكت – الحب يَشفع.

سميرة : أنت للقلب تَخضع.

شوكت : وللجمال البديع أركع. {يركع عند قدميها}

سميرة : والآن؟

شوكت : وماذا وراء الآن؟

سميرة : {في لهجة الآمر} تنهض.

شوكت : وإن لم أستطع؟

سميرة : تُطرد.

شوكت : {في ضراعة} سميرة!

سميرة :؟

شوكت : مولاتي!

سميرة : لست مولاةَ أحد

شوكت : ولمَ؟ ألست حبيبك؟

سميرة : كلا.

شوكت : والذي بيننا شيء.

سميرة : ليس بيننا شيء.

شوكت : إنك تتنصلين.

سميرة : بل أنت تدَّعى.

شوكت : أتكرهيننى يا سميرة؟

سميرة : نعم.

شوكت : ولِمَ؟

سميرة : لا أدرى، أكرهك لوجه الله.

شوكت : ما السبب؟

سميرة : ليس للكره سبب.

شوكت : أدميمٌ أنا؟

سميرة : لا.

شوكت : إذن ما ذنبى؟

سميرة : أنك تعجز عن اقتراف ذنب، إنك ناعمٌ أكثر من اللازم، ناعمٌ إلى حد الأنوثة، رقيق إلى حد الضعف، متلطف إلى حد الامتهان. وأنا لا أحب ذلك.

شوكت : كيف؟ أما كنت فيما مضى تنعتيننى بـ ...؟

سميرة : {فى سخرية} نعم، وإنه لَكوكب!

شوكت : وماذا غيَّرك؟ لمَ لا تكونين كقبْل؟

سميرة : قبْلُ مضَى.

شوكت : أبِى تغدرين؟

سميرة : يَغدر مَن وَفىَ.

شوكت : وأنتِ، أمَا وَفَيْتِ؟

سميرة : لمْ أحب، حتى أفِى.

شوكت : ولمَ كنتِ تدللينني؟ لمَ ناديتنى باسم أجمل كوكب؟

سميرة : سخرتُ منك لمّا مضيتَ تقلده.

شوكت : وهل علىّ جُناحُ إن فعلْت؟ العظيم يتشبه الناس به.

سميرة : ولكنه لا يتشبه بأحد، لو أن لك من نفسك ما تعتدّ به لأبيْتَ التشبه حتى بِملك.

شوكت : أنا ما تشبهت به، ولكنها المصادفات خلقتْنى على مثاله.

سميرة : كلا، لم يخلق الله فى الحياة من ندَّيْن، ومع ذلك فكلاكما من الجمال فقير، وإن امتاز عنك صاحبك بأنه رجل.

شوكت : ماذا تقولين؟ معبودكن من الجمال فقير؟

سميرة : معبودهن وحدهن لا معبودى أنا.

شوكت : ولِمَ؟ أبهِ لعَمرى ما يعيبه؟

سميرة : أجَـل، إن الشِّعر لا ينضح منه والألوهة لا تشيع فى جوِّه، وإنه لَمنحدر الجبهة كالقرد، والغباوة مرسومةٌ على جبينه، إنه صبىّ جزارٍ تنقصه "لاسة"، أو إن شئتَ فقل بائع "ممبار متجول"

شوكت : ولكنّ الجماهير تزكِّيه.

سميرة : الجماهير يَفسـد نوقُهـا إذا قادها فنانون أدعياء، إنها بسرعة تتأثـر، ولو أنها لُقِّنت الكفر لصار لها عقيدة، ورُبَّ جاهدٍ للجمال واتتـه الظروف مرة، أفْسد نوق أمة بأسرها إلى حين، رحمة الله عليك "يا فلنتينو"! منذ قَدْ مـتَّ مات الفن معك، وراح يدّعيه من الناس كل رخيص.

شوكت : مهما قلتِ يا سميرةُ، أحبك.

سميرة : أوَ لست تخجل؟

شوكت : ممّ، فديتُك؟

سميرة : من أن ترفع ذلك الصوت المخنث فى وجه فتاة لتقول لها : أحبك صه يا هذا، إن المرأة لا تحب إلا رجلا.

شوكت : وهل أنا إلا رجل؟

سميرة : {تلمس شعره} ما هذا؟ بِرْيانْتين؟ {تلمس خده} ما هذا؟ كْرِيم؟ {تلطمه} حقير!

شوكت : {على حدة} يا الله ما أحلاها لطمة! إن رنينها لأشجى من أغنية ولذْعها لأرقّ من نسمةٍ عابرة! {لسميرة} هاتِ يدك أقبِّلها.

سميرة : ماذا؟

شوكت : هات أقبل اليد التى لطمتنى

سميرة : هو هو! هذا محال.

شوكت : بربك إلا منحتنى يدك!

سميرة : قلت لك لا.

شوكت : إذن فقدمك.

سميرة : ولا هذه.

شوكت : أودّ أن أطفىء ظمئى.

سميرة : إذهبْ وأطفئْه فى الجحيم.

شوكت : الجحيم يطفىء الظمأ ؟!

سميرة : نعم، لأنه يطفىء الحياة. يطفىء النور، النور لا يعيش فى اللهب، إنه لا يقوَى عليه، النار تزدرده.

شوكت : الرحمة!

سميرة : الرحمة لى منك! أما تعلم أن للجمال حرمةً لا تستباح لغير الحبيب؟ إنك تمتهن الجمال حين تود أن تفسره.

شوكت : عفواً، إنما أطلب منحة.

سميرة : المنحة والغضب سواءٌ ما دامت الرغبة ليست رائدها.

شوكت : {فى ضراعة} سميرة!

سميرة : اذهب. {تشير إليه بالخروج}

شوكت : سميرة!

سميرة : قلت لك اذهب.

شوكت : لقد جرحتِ كبريائى فلا تجرحى ذِلَّتى.

سميرة : مَن لمْ يُبْقِ على كبريائه، لمْ تُبْقِ الناسُ على ذلته.

شوكت : وداعاً يا سميرة.

سميرة : وداعاً وإلى غير ملتقى.

شوكت : وداعاً يا من دُسْتِ كبريائى ومذلتى بقدمك؛ وداعا، وأنا ما رضيت الهوان فى حبك لأن الذل من طبعى، وإنما لأن فتات المائدة للجائع خيرٌ من لا شيء.

سميرة : اذهب، إن مَـن كانت مثلى عظيمةً لن ترضَى بمن يقنع بالفتات، فتات المائدة طعام الكلاب.

{يخرج شوكت}

سميرة : {وحدها} يعلم الله يا عاشقى أننى ما استبحتُ صبابتك، ولكنه القلبُ أبَى أن يستجيب لندائك، ولو شاء لأحَبك وتدلَّه بك، ولولا حرمةٌ للجمال أشفقتُ عليها أن تُمتَهن، لَبذلتُ فى سبيل رضاك ولو على كُرْهٍ من جانبى وتَأذٍّ.

وارحمتاه للجمال وقتلاه! كلاهما كُتِبَ العذاب على جبينه، نقود معذَّبينا إلى الهلاك، ثم نمضى نذرف الدمع على أشْلائهم دون ما رحمةٍ بأنفسنا ولا شفقة، لأنتَ أيها الجمال فى عنفوانك، كالسكين تخضَّب بالدم نفسها، والذبيحةَ التى طعنتْها على السواء.

{تتناول من فوق المقعد لوحة بها صورة}

سميرة : {لنفسها} إلىّ يا لوحتِى العزيزة، يا حُلُمَ سهادى ليلة أمس، عليكِ سهرْت، وبدم القلب رسمْت. {تتأمل الصورة} ها هو ذا الكوخ، هنا كان يقف الراعى، وهنا وقفتُ أنا، فى هذه البقعة وُلد حبى، ووُلدتُ أنا معه، أجَل، قبل أن يخفق قلبى، لم أكن أشعر بوجوده، ذلك الخفقان وحده، هو الذى نبَّهنى إليه. لولاه، لَمَا عرفتُ أننى أنا.

{ يدخل مراد }

مــــراد : طــاب صبـاحـك يا سـميرة، يا أجمـل من اعتلتْ قدماها خشبة المسرح .

سميرة : {لنفسـهـا فـى امتعـاض} وأنـت الآخـر! {لمراد بتحد} طـاب صباحك، كان أخوك هنا.

مــــراد : كذا؟ وفيم تعجيله بالذهاب؟

سميرة : { فى خبث } لا أدرى، لعل خده متوعك قليلا.

مــــراد : لله ما أظرفك! دائماً تتحفيننا بتعبيراتك الطريفة.

ولكنْ لا عجب فأنت فنانة.

سميرة : شكراً يا أستاذ.

مــــراد : أستاذ؟

سميرة : عفواً، يا مراد بك .

مــــراد : مـراد بك؟ آه يا سـمـيـرة! مـتى يأتى اليـوم الذى تنادينني فـيـه باسمى المجرد؟

سميرة : أوه! لن يأتى مطلقاً.

مــــراد : مطلقاً؟

سميرة : أوَ عندك شك فى ذلك؟

مــــراد : بالضرورة عندى شك.

سميرة : أما أنا فلا.

مــراد : هذه عادتكن دائماً أيتها النساء. تتمنعْنَ لنتهافت. وتتأبيْن لنلحّ. وتكتمنْ عنا النار لتشعلْنها فينا.

سميرة : أيُّ نار؟

مــراد : نار الحب!

سميرة : إنها تصليك وحدك .

مــراد : وأنت ؟

سميرة : أنا ؟ الصيف يستحيل عندى زمهريراً كلما رأيتك .

مــراد : سميرة !

سميرة : أجـل، كــان ينبغـى أن تفهم من نفسك حقيقة رأيى فيك، وأن لا تلجئنى إلى أن أكون صريحة معك أكثر مما كنت .

مــراد : للـه ما أبـدع حدّتـك! مَن لى بقبـلةٍ من فمك حين يَعبس هكذا ! {يقترب منها}

سميرة : سألطمك كأخيك إنْ أنت لم تبتعد .

مــراد : وهل لُطِمَ أخى؟ ما كان أحلاها بلا شك لطمة !

سميرة : قل ما تشاء، لن أذيقك مثلها .

مــراد : ولِمَ ؟ أأكون أقل حظاً من أخى ؟

سميرة : لا تتحدث عن الحظ فكلاكما عندى قليلُه.

مــراد : وعَلاَمَ بربك؟

سميرة : لست أدرى، أنتما أخَوان أخفُّكما ظِلاً أثقل من كابوس.

مــراد : أنت تغلطين.

سميرة : لأنى لا أحبك، وليس أثقل على النفس من غَزَلٍ تتجرعه مكرَهة.

مــراد : وأى شىءٍ يُعْوِزنى حتى لا أكون أهلا لحبك؟

سميرة : يعوِزك كل شىء كيما تكون أهلا حتى لحب خادم.

مــراد : مــاذا تقولــين؟ أنــا؟ أنــا ذلــك الثــرىّ ذو النعمــة والمال الكثير تقارنيننى بخادم؟

سميرة : هــا هــا هــا! يبحث عن قدْره فى عَرَضٍ يملكه! حقًا إنه إنسانٌ ولكنْ مِن ذهب!

مــراد : ولهذا فهو يغلو.

سميرة : أجَل، كمــا يغلـــو النقد. يغلو فى سوق البيع، ولكنه يرخص فى سوق الحقيقة، ما تزال النقود نقوداً يا سيدى وإنْ بولغ فى قيمتها، إنها لا تعدو أن تكون أداةً لا تنهض أن تنفرد بالقيمة، ولابد لها من ذاتٍ تقترن بها لكى تصبح شيئاً يُذكر، وهى فى يد من يحاول بها وزْن نفسه، مثلها فى يد البخيل لا توليه مجداً ولا

تغنيه من فقر، فهى غاليةٌ رخيصة، نافعةٌ غير ذات نفع، وأنتم مثلها سواء بسواء ما دمتم فى كفةٍ وهى فى أخرى.

مــراد : لـو أن كل بضاعتى مالٌ لحقَّ علىَّ ما تقولين، ولكننى كما تعلمين أديبٌ وأحمل فى الأدب شهادة.

سميرة : {فى تهكم} شـهادة! هاتها أصنـع منها زورقاً ألهو بتعويمه فى بِرْكة حديقتى.

مــراد : مهلاً يا سميرةُ، إنك تهينين العلْم.

سميرة : لا قيمة للعلم من دون الذكـاء، إن الـرأس الذى كل ما فيه علمٌ لُقِّنه، لا يساوى أكثر من ثمن الكتب التى قرأها، إن الفكرة بين يدىْ مبْدعها، تساوى قيمة العبقرية التى أنجبْتها، ولكنها بين يدىْ من انتقلتْ إليه، لا تساوى إلا قدْر الجهد الذى بذله فى استعيابها، ليست العبرة فى أن نعرف ما قيل، وإنما فى أن نكون قادرين بأنفسنا على أن نقول .

مــراد : أنكـرتِ علمـى وثروتـى فهلاّ تذكرتِ جاهى؟ أما يستطيع سليل البيت العريق أن يتقدم أيضاً لقلب خادم؟

سميرة : جاهـك لـن يجديك ما دامت ذاتك لا تملؤه، إن من يفخر بحسَبه غافلاً عن عيوبه، كَمَنْ يختـال فى ثوبٍ فضفاض ومن تحته جسمُه النحيل يَفتضح، الجاه كالثوب، كل ما فيه أنه يفصح عن

الجمال إن وُجد.

الذات يا سيدى، ذاتنا وحدها، هى كل ثروتنا التى يحق لنا أن نعتدّ بها، وأما الجاه، وأما النقود، وأما العلم، فكل هذه أشياء خارجة عن جوهر الإنسان.

مـــراد : وماذا عساك تعنين بالذات؟

سميرة : أعنى بها الإنسان أصيلاً مجرَّداً عن كل ما علِق به من عرَض الحياة. كيف نبدو، عمّ نعبِّر، بم نوحِى، فيم نشغَل، ماذا نحِب وماذا نكره، إلى أي حدٍّ تندمج ولأى حد نتجرد، كيف نؤكد بمحض وجودنا جانباً من حقيقة الجمال، هذه هى الذات، هى الجسم والروح معاً، والجسم والروح فقط.

مـــراد : ولكنّ الله خلق الناس طبقات.

سميرة : هذا حق، ولكننا نخطىء فى المقياس الذى نضع به كلاً فى طبقته، إننا نقيس الإنسانَ بما يحيط به وننَسى الإنسان ذات نفسه، فنرفع هذا لأنه ثرىٌّ ونخفض ذاك لأنه فقير، وربما كان للأخير شخصية تزرى بشخصية صاحبه؛ أنا لا أنكر التفوق فى الطبيعة، ولكننى أنكر الميزان الذى به تَزِنونه، من يدريك أنك لم تنحدر من سلالة خادم أو أن خادمك لم ينحدر من سلالة سيد؛ إن العالم فى تغير مستمر، وهو كالبحر المائج لا تثْبت نقطةٌ فيه

فى مكان واحد، فأحرَى بنا بدلا من أن نبحث من أين أتى فلان وفى أى مكان يقع، أن نبحث من هو وفى أى مكان يجب أن يكون.

مــراد : هيه، وماذا أيضا؟

سميرة : ثم إنك يا سيدى بَدينٌ وقوىّ البنية أكثر من اللازم، إنك من ذوى المزاج المعَدِى، أعنى أنك من هؤلاء الذين يعيشون ببطونهم ولها.

مــراد : هذا ما بقى! أن يكون الإنسان معتلَّ الجسد!

سميرة : أجَـل، يجب أن ينطـوى علـى شـىء من الفنـاء لكـى يمكنـه أن يشرف على الحقيقة، إن مَن توفرت فيه أسباب الحياة عاش وبينه وبين الغيب حجاب، الحقيقةُ، السر كله، مودعٌ فى هذا الفناء.

أنا لا أؤمن ببـدينٍ قط وإنْ استـوعب كل مـا فى الكتب، إن الشمس يستحيل أن تشرق فى قلبه.

مــراد : أستأذنك فى الرحيل يا آنستى.

سميرة : مـع سـلامة اللـه، أرجـــو أن تَجِـد فى فسـحـة الحيـاة متسَعاً مع غيرى.

مــراد : وماذا فى الحياة من بَعدك يا سميرة؟

سميرة : هو هو! فيها الكثير، فيها العلم، فيها النقود، فيها الجاه.

مــراد : وماذا أفعل بها؟

سميرة : أما النقود فتشترى بها طعاما تملأ به بطنك.

وأما العلم فتصيب به شهرة وتتطفل به على الأدب، وأما الجاه فتشغل به بال الناس والصحف، فيقال سافر فلانٌ، وعاد فلانٌ، وسعل فلانٌ، وعطس فلانٌ، والناس من ورائك تقرأ وتدعو للجريدة؛ يمكنك، يمكنك، أن تستحوذ بما عندك على الشيء الكثير، إلا على قلب امرأة، أفهمت؟ مالك قد خرسْتَ عن الكلام؟ أين علمك، وأين شهاداتك، وأين لسانك الصلّيت على فنانينا الجيدين؟ مالى أراه لا يسعفك الآن وأنت لم تزد على أنك تحاجّ فتاة! ألستَ أنت الذى تطاولت على شاعرنا وحيدٍ وأنكرت عليه كل موهبة؟ أتدري أنت ما الشّعر حتى استبحتَ لنفسك حرمة الشعراء؟

{ تدخل ألفت }

مــراد : تعالىْ يا ألفتُ وانظرى، سميرةُ تعنفنى لأننى هزأت مرةً بمجنون!

سميرة : كفَى، إياك والتطاول أمامى على شاعرنا وحيد.

ألفــت : مَنْ؟ يَعنى بالمجنون شاعرَنا وحيد؟ الشاعر الذى يَسحر اللفظَ ويرسل الكلمات أغانَى خالدة؟

مــراد : {لنفسه} كالمستجير من الرمضاء بالنار!

ألفــت : {مـتطردة} الشـاعر الذى يَلمح المستورَ من أسـرار الكون، ويرى الظلالَ من خلال النور؟ يا الله ما أبدع شعره!

مــراد : حــسْبُنا منــه تغريــدُ طائر، وأمّا الجِـد، فما أقلّ نصيبه منه!

سميرة : وهـل الشِّـعر إلا إيقـاعٌ ونغـم؟ وهــل هو إلا ترجيع الفؤاد على غـصـن الأمل، ونوْح الضـمـيـر على قـبـر الذِّكرَ؟ هل هو إلا فنٌّ جميل قوامه ريشـة الفنان قبل عقل الفيلسوف؟ ما لَه ولحقائقكم الجـامدة أيهـا العلمـاء تطفىء من رونقـه وتبـتلع أصبـاغه؟ مـاله ولمقاييسكم القـاصرة تخضعونه لهـا، وهو الذى يسمو فوق كل قياس ولا يحتكم لغير الذوق وحده؟

ألفــت : الحـقّ يـا أسـتاذ، أنك تشككنى كثيراً فى قيمة علمك علـى حـين تذهب فى فهم الشِّعر مذهبك هذا ولست أدرى والله كيف راحت تغيب عنك حقيقة ذلك الشىء الذى تقول إنك تلقيت فيه دروسك!

سميرة : لأن نـور اللـه لا يشـرق فـى قلبـه، أتحسبين أن لمجرد كونه درَس الأدب وألمّ بما قاله أبو نواس فى الخمر وعمر بن أبى ربيعة فى الغزل قد أصبح شاعرا؟ كلا، الشاعر يُخلق ولا يُصطَنع.

مــراد : مهما يكن من دفاعكما عن وحيدٍ فلن تنفيا عنه تهمة الجنون، أمَا تدريان أنه هجر المدينة منذ أيام وراح يرعى الغنم فى البرارى؟

سميرة : ماذا تقول؟ الشاعر وحيد بات يرعى الغنم؟

مــراد : أجل، وإن كوخه لَعَلَى مسيرة نصف ساعة من هنا، هيا وانظرا من السياج معى، إنه هناك عند تلك الربوة العالية التى تلوح بعيداً من وراء المرج.

ألفــت : {وقد نظرت إلى سميرة بدهشة} سميرة!

مــراد : {مستطردا} وهو يعيش فى ذلك الكوخ بمفرده لا رفيق له سوى خِرَافه، إنه فتًى برِّىُّ الطباع ينفر من المجتمع، ولا يستمرىء العيش إلا مع الوحوش والشوك، وهو لفرط شذوذه لا يُرَى إلا ذاهلاً أو مطرقًا أو مغمغماً أو شاخصاً بعينيه إلى الغيب كأنما يتفقد شيئاً لا يَعرف مكانه منه، فراح يفتش عنه فى العدم.

سميرة : {على حدة} يا إلهى إنها سيماء الشاعر! نحسبه بيننا، وهو محلِّقٌ بروحه فى الفضاء، يَمَسُّ الخلود بأحد جناحيه، ويمس الأرض بالآخر.

{مستطردة} أهو أنت يا حبيبى؟ أهو أنت وحيدُ الشاعر العظيم؟ آه، ما أسرع أن تتبدل الأحوال فى هذه الدنيا! كنتُ بالأمس أهوى راعياً، فأصبحتُ اليوم وإذا حبيبىَ شاعر!

{لمراد} وماذا أيضا يا مراد؟ هل وسيم؟

مـــراد : ومـــاذا يعنيـك من وســامته يا سـميرة، وعلام كل هذا الاهتمام بزمره؟

سميرة : لا شيء غير أن شعِره يستهوينى.

مـــراد : لا بـأس، ولكنْ حذار أن يستهويك منظره فتقعى كما وقع غيرك فى الشَّرَك.

سميرة : معاذ الله يا مراد، وهل نحن ممن يعرِف العشق حتى نقع فيه ؟

مـــراد : شدّ ما يؤسفنى ذلك!

ألفـــت : لا عجب إنْ أردتَها صَبَّةً فتحبك!

مـــراد : هى شَغَفَتْنى حبًا وجَفَت.

سميرة : إذن فجميلُ تريد أن تقول وحيد؟

مـــراد : لا كما تتصورين .

سميرة : وعلامَ الصيدُ إذن والصائد؟

مـــراد : لم أقُلْ إنه ليس بذى خطر، على أنه ما من جماله كابدتْ النساء وإنما من قبيح غدره؛ هو فتى جامح القلب ككل الشعراء أمثاله، يهيم بكل حسْنٍ يراه كأن الجمال ما خُلِقَ إلا لقلبه، ومن عجبٍ أن فى طوقه أن يجمع بين أكثر من حبٍّ فى وقت واحد، كأن قلبه الشجرة تفرعتْ عنها قلوب، والأدهى من ذلك أن النساء

يتهافتْن عليه برغم علمهن بتقلبه وتجرعهنّ المرَّ من غدره، حتى لقد شبَّهوه بالثمرة المحرمة، يحْذرها الناس ويقربونها فى الوقت نفسه؛ هذا هو وحيدٌ، فهل سمعتما بإنسانٍ مرعبٍ أكثر من هذا؟ والآن أسألكما الأذن فى الرحيل، فإنى أرانى أطلتُ المقام أكثر مما يجب، إلى اللقاء .

سميرة : ألفت – إلى اللقاء.

{ يخرج مراد }

سميرة : ليت شِعرى هل غيَّر الحظُّ مجراه وآن لك يا قلبُ أن تستقر، أم أن هذا الحب لم يزل مكتوباً عليه أن يظل حلُماً إلى الأبد!

وارحمتاه لك يا سميرة! ليس يعلم سوى الله وحده ماذا يكون مصيرك أىْ وحيدُ، أحقًا أنك مستهتر القلب لا تُبْقِى على العهود ولا تذَر! لئن كان فما أشقانى بك وما أرهب الساعة التى ستَصِلُ فى الغَدِ حظى وحظك! لا أنا أطيق فراقك بعد الذى كان ولا أنا أجسر على الدنّو منك. ولكنْ، ما حيلتى وقد حُمَّ القضاء، فليكن ما أرادة الله لى ولأمضِ فى حبك راضيةً كنتُ أم مكرهة.

ألفت : الرأى عندى يا سميرةُ أن تقبُرى فى المهد حبَّك بعد الذى علمتِ من أمر حبيبك، فإن أنتِ لم تفعلى، فما أحسبك إلا مستهدفةً فى الغد لأخطارٍ لا يعلم إلا الله ما هى.

سميرة : ماذا؟ أأقتُل حبى يا ألفت؟ ومتى قَتَلَتْ أمٌّ طفلها؟

ألفــت : لئن قَتَلْتِه اليوم رضيعاً خيرٌ من أن يقتلك فى الغد يافعا.

سميرة : معـاذ الله بل أسهر عليه وأتولاه ولو أضمَر لى السوء فى نفسه؛ إن غرامى هو حلُمى الذى جئتُ الدنيا لاستغرق فيه، فإن ضاع أفقتُ وارتددت كما كنت إلى العدم؛ سأذهب إليه غير متوانية، وأفضى إليه بدخيلة نفسى، ومن يدرى لعل الله يبارك حبنا ويهبه نعمة الخلود من عنده، أليس من الجائز أن يكون كذباً ما راح يتقوله عن حبه الناس، أو أنه لا يكون قد ارتوى على كثرة ما عَبَّ من كأس الجمال لأنه لم يكن ليروقه الشراب الذى احتساه، فإذا ما أقبل ينهل من جمالى واستعذب مذاقه، انغمس فيه حتى النهاية وكفَّ عن البحث عن غيرى؟

ألفــت : كم أخاف عليك يا سميرةُ عاقبةَ غلوِّك وتشييدك القصورَ من وهمك، ما لِحُبِّ شاعرٍ أمانٌ، وهو كالنحلة لا تقع على زهرةٍ إلا لتطير إلى غيرها، ولا تَفْرغ من ثمرة إلا لتبحث عن أخرى، ولكنْ لا بأس فلْتتوكلى على الله فيما أنت معتزمة، فَلَرُبَّ حرمانٍ بات أقتلَ للنفس من تَجَرُّعِ الغصص.

سميرة : ما هكذا تتشاءمين يا ألفت، إذا كان حتماً أن يخون وحيدٌ فَلِمَ لا تخونُ سميرة؟ إنْ يكنْ هو شاعرٌ فأنا أيضاً ممثلة. نحن فى

الطبيعة سيان مادام الفن يجمعنا معا، غير أنك أخطأتِ إذ زعمتِ الفنانَ يَنْقُضُ عهده؛

هو ظمأٌ عنده للجمال ذلك الذى يُطير صوابه، غير أن من الجمال ما لو صَحَّ يطفىء ظمأه، انظرى جمالى! أما ترين أن سميرةَ ووحيداً كلاهما يحمل لصاحبه من الجمال بقدر ظمئه؟

ألفت : أرجو ذلك.

سميرة : إذنْ فاليوم نذهب؟

ألفت : ومالى والذهاب معك، وليس أثقل على عاشقيْن من أن يجلس بينهما عذول.

سميرة : بل تذهبين لتتولينى وتعيننى على وعث الطريق، ثم تتواريْن إذا جَدَّ الجد خلف الشجر إلى أن يقضى الله أمره فىّ.

ألفت : ومتى يكون الذهاب؟

سميرة : عند الغروب نبتدىء الرحيل، إذا خضَّب الشفقُ بدمائه أهدابَ النخيل الممتد على طريق الكوخ الساحر الخلاب، وأقْبل الليل ينفح بنسيمه الرطب قلوبَ العاشقِين فيوقظ ما بها من عواطف راقدة، هنالك فى ستْر الظلام أتسلل وإياك إلى حيث حبيبى

" ستار "

الفصل الثانى

المسرح قسمان : اليمين كوخ واليسار مرج.

وحيد يودع فتاة أمام كوخه.

الوقت عند الغروب

الفتــاة : إلى اللقاء يا وحيد، يا حبيبى.

وحــيد : إلى اللقاء يا سعاد.

{تخرج الفتاة وتختفى فى المرج

ويدخل وحيد كوخه}

وحــيد : {وحــده} أبداً يا وحيدُ يفوح منك عطرُ العناق، ويبلِّل شفتيك رحيقُ القُبَل! خَلِقَ جفنُكَ للسهادِ، وللخُفوق والضنى فؤادُك! فهلاّ اتقيتَ فى الله نفسَك، وادخرتَ من يومك شيئاً لِغَدِك؟

ولكنْ لا، لأَمْضِ فيما أنا فيه ماض، فما مستقبلى لدىّ علْمهُ، ولا حاضرى إنْ هو مَضَى سيعود، ليس فى غَدنَا أمنيةٌ أدنَى إلى الحقيقة مما نحن عليه فى يومنا، فعلام تضييعُ العمر فى انتظار الأمانى والأمانى بين أيدينا.

ولِمَ نحجم عن اللذات حَذَرَ الهلاك بينما الإحجام يُهلكنا ظمأً إليها؟ إذا نحن لم نَدفع من أنفسنا ثمن تمتُّعنا دفعناها كلها ثمن حرماننا، وزماننا مسرعٌ بنا نحو النهاية، فإذا لم تُفْنِنا لذَّاتُنا فلَسوف يفنينا زمانُنا.

عزيزٌ عليّ أن أمهل شهواتي، وما أشتهيه اليوم قد أفقد الرغبة فيه غداً، وما أقدر عليه في صباي قد لا أستطيعه في كهولتي؛ إن شهواتنا وليدة وقتها، فهي تذهب بذهاب وقتها. وتحقيقها رهْنُ اقتدارنا، وما بيدنا أن يدوم اقتدارنا.

زعموا الحبَّ لهواً فقلْنا وأين في الحياة الجِد؟ نحن المحبِّين وَدِدْنا لو نفنَى في الهوى، لأننا نضن بأنفسنا أن يفنيها الزمن.

{ يظهر حمدى ويوسف وراشد ومراد في المرج }

حمدى : أحسب أن هذا كوخه، تُرَى هل نجده هنا؟

{ يفتح وحيد باب كوخه ويرى القادمين }

وحيد : من! الممثل حمدى؟

حمدى : هالوا! أين أنت أيها الشاعر وحيد؟

وحيد : والموسيقار راشد؟ والرسام يوسف؟ والناقد مراد؟ الذى ينقضٌ على فريسته كالنَّمِر؟ يا مرحباً! تفضلوا.

مراد : على كل حال لقد دفعتُ غالياً ثمن نقدى لك، فاليوم ثأرتْ لك فتاةٌ

من المعجبات بشِعرك فكالت لى من اللوم قارصه، والحق لا أدرى يا شيطانُ أية جاذبيةٍ تلك التى لشعرك على النساء، حتى رحن يتغنين به ويذدن عنه فى كل مناسبة.

راشد : لأنه يخاطب القلوب، وقلب المرأة نابضٌ أبداً بالحياة، يُحْسِنُ الالتقاط ما يحسن الحديث.

مراد : إذنْ فهو يكتب ليقتنص النساء.

حمدى : وتكتبون لتقتنص الفئرانُ كتبكم؛ أجل، إنها لتظل تخطر فى جدَّتها غير مقروءةٍ ولا ملموسة، إلى أن يقيض الله لها سرباً من الجرذان يفتك بها ويردها إلى أرذل العُمُر.

مراد : ماذا تقول؟ لقد صادف كتابى فى النقد الأدبى رواجا منقطع النظير، حتى لقد نفدت نسخُهُ كلها أوكادت.

حمدى : ليكنْ، فليس كل من يشترى الكتاب يقرؤه.

مراد : على كل حال لا يمكنك أن تجزم بأن كتابى لم يقرأ.

حمدى : أستطيع أن أجزم على الأقل بأن الذين قرأوه انتهوْا منه حيث بَدءوا؛ ليست العبرة فى أن يُقرأ الكتاب، وإنما فى أن يتناقل الناس ما فيه، لا تقُل كم من الناس يقرأون لك، وإنما قُلْ كم من قلوب قارئيك ملَكتْ.

راشـد : شـىءُ آخـر يا مراد، وهو أن مقالك اليوم عن سميرة كان فجًا، لقد أردتَ أن تمتدح فنها فَبَثَثْتَهَاَ الغرام من غير داع، وهكذا أنت أبداً يفلت منك زمام قلمك، آه، لكم يكدرنى قلمك هذا! متى تقصفه؟

وحـيد : ومنَ تكون سميرة هذى؟

حـمدى : ممثلةٌ ناشئةٌ تعمل معى بالفرقة، وهى فذةٌ عظيمة، لها فنٌّ برنارَ وجمالُ فينوس، ويظهر أن صاحبنا متيمٌ بها.

وحـيد : ليتنى كنـت فـى المدينـة فـأراهـا! هـذا إذا لـم يكـن يغضبـك الأمر يامراد.

مـراد : صـه يا وحيدُ، يا أيها الغارق فى العشق حتى أذنيك، فلأنت آخر من يجـوز له أن يتـهكم على عـاشق، تالله إن حـيـاتك لأمـثولة! والذى زاد المهـزلة عجَباً هَوَسُك الجديد الذى زين لك أن تقذف بنفسك إلى هنا.

يوسف : دعُونا بالله من هذا النقاش، فلقد جئنا لنحِّيى الرجل لا لنجادل فيه، كيف حالك يا وحيدُ، وهل راضٍ أنت عن حياتك الجديدة هذى؟

وحـيد : جـدُّ مغتبط والحـد لـلـه، نفَضـت يـدىّ مـن هـمـوم الحيـاة، وقنعت بالعيش مع أمنا الطبيعة.

مـراد : ويْحـك، مـم تغتبط؟ أمِـنَ التشـرد فـى العـراء من بَعد سُـكْنى

القصور؟

وحـيد : لا تحدثني عن القصور لأنك لا تعرف رأيي، إني أنقم عليها وعلى المدن، وإن شئتَ فعلى الحضارة التي خَلَقت كل تلك السخافات وأسبغتْ عليها من القيمة ما ليست منه على شيء.

مـراد : تعنى أنه ليس في هذا العالم على سعته ما يستحق تقديرك؟

وحـيد : الذي يستأهل التقدير كثيرٌ، ولكنْ ليس في عالَمكم، هنا، هنا في البرية، في الطبيعة الساذجة، توجد الأشياء الجديرة بالقيمة حقا، إن هذه المدينة لا تُشبع روحي. لا تشبُع غرائزي، إنها من صنْع الإنسان، إنها من صنع الجهل. إنها تقيدني، إنها تغلني، إنها تخنق طبعي، وتئد ميولي.
كم أعافُ طعم الفاكهة في الأطباق، وأكره منظر الأزهار في الأصص، أريد أن أقطف الثمار بيدي وآكلها وهي تنبض بالحياة، أريد أن أقطف الوردة من البرِّية من بين الحصى والشوك، أريد أن ينفح خدي نسيمُ الفجر الرطيب، ويندِّي قدميّ أديمة المبتلّ، أريد أن أشهد الندى وهو يتجمع فوق الورق ثم يقْطر منه رويداً كالدموع، أريد أن أرقب الأكمام وهي تتفتح وتنبثق إلى الحياة، والغصونَ وهي تشْرد عن أشجارها وتتوغل في العراء، أريد أن ألمح القمر وهو يغمز بعينه للزنبق، والفرَاش وهو يطبع قبلاته على خدود الأقاحي، أريد أن أرى الهوامّ وهي ترفُّ في أشعة الشمس كالبرق، وتتوقد في ظلمة الليل كالشرر.

لا أريد أن أشهد الحياة من فوق مسرح، أو أستمع لها من فم وتر، أريد أن أمثِّل أنا، أريد أن أغنِّى أنا، أريد أن تكون الحياة أنا.

أية قيمة لتلك المدنية البراقة الأنوار ما دام الإنسان فيها قد انطفأ؟ إنها قد ذهبتْ برونقه وحيويته وجعلتْ منه مجرد آلةٍ لها ساعدان قويان وليس لها قلب.

إننا عندما نفخْنا الروح فى الجماد فتحرك وتلفَّظ بالكلام، وقفنا نحن عن الحركة وخفتت أصواتنا؛ الحق أننا تآمرنا على أنفسنا لنهدمها ونقيم على أنقاضها دولةَ من خَشَبٍ وحديد.

يوسف : لقد واللّه أصبتَ القول يا وحيدُ، ولكن خبِّرنى باللّه كيف رحت تصبر على فراق عشيقاتك؟

وحيد : وهل تحسب أنه فى طوق شاعر أن يعيش بلا نساء؟

راشد : نعم، مَن سواهن يُلهِمه!

حمدى : إذنْ فأنت تزورهن بين الحين والحين؟

وحيد : لا، هن يترددن علىّ هنا.

حمدى : طبعاً، وإلا ما كنا نراك حيث أنت.

وحيد : لا شك أن الفردوس يصبح جحيما إن هو أقْفَرَ من المرأة.

مـــراد : أوَلَم يقع لك صيدٌ جديدٌ فى حرشك هذا؟

وحـــيد : سَنَحَ أمس، ولكنه أجفل منى.

يوسف : وهل تُراه زهد فيك ؟

وحـــيد : لا، كان معه حارسُه.

راشد : إذنْ فلقد صادك هو.

وحـــيد : نعم، ثم وقع فى الشَّرك.

حمدى : قلتَ إنه أفْلت منه.

وحـــيد : لا. اقتلعته وهرب به.

مـــراد : إذنْ فربما عاد لتفكَّ وثاقه.

وحـــيد : إنْ عاد أحكمتُ شدَّه.

مـــراد : لابد أن يكون قد راقك منظره.

يوسف : أجل، لا يَنصب الشَّرك إلا من وَقَعَ فيه.

وحـــيد : هو أوثقنى ومضَى يرْسف فى قيده.

راشـــد : على كل حالٍ فمآل الأسيرين إلى سجنٍ واحد.

وحـــيد : السجن ! لا لا، لن أدخله.

يوسف : ولِمَ ؟

وحــيد : يقصينى عن حبيباتى

مــراد : {مشيرا إلى وحيد} العاشق الكذاب كان ينافق !

حمدى : حبذا الفنان إنْ قيل كاذب !

وحــيد : ذلك الكذب شيَّد مجدى، أنا أكذب فُيخلَّد شاعر.

مــراد : ظننتك تُبْتَ مذ أحببتَ أمس.

وحــيد : آسف لأنى خيبتُ ظنك، إنّ وحيداً هو هو ...

مــراد : {مقاطعا} لن يقنع بحبيبٍ واحد.

وحــيد : أجل، إن طاقتى عامرةٌ أبداً بمختلَفِ الزهر، ففيها الورد، وفيها البنفسج، وفيها الأقاحى، ولكلٍّ لونه وعبيره الخاص.

مــراد : أومَا كفاك جمال الورد حتى تشفعه بغيره ؟

وحــيد : الـورد جميـلٌ دون شـك، ولكنّ الطاقـة التـى تحتوى أفانينَ من الزهر أجمل، إن الله مـا خلق الزهر مـتعددةً ألوانهُ لنقنع منه بحبٍّ واحدة، وإنما لنحبه جميعه فيتضاعف فينا الإحساس بالحب بقدر ما فيه من ألوان.

حمدى : أجـل، إن حُـبَّ الواحـد يظل يغـرد على الفؤاد وحده، وأمّا حبٌّ الجماعة فتتآلف منه فى القلب موسيَقى بأسرها.

راشـد : وإذا تعدد النغم تجاوبتْ أصداؤه، وتضاعفت حلاوة وقعه.

وحـيد : لا شك أن في الاقتصــار على حـبٍّ واحـدٍ حداً لكمال الحب أن يتناهى ،خُلِقَ الجمالُ غير منتهٍ، فلِمَ نجعل للحب نهاية ؟

مــراد : أهكذا ترى الحب ؟

وحــيد: نعم، ويراه كل الفنانين زملائي .

[تظهر فتاة في المرج وتصفر]

الفتــاة : وحيد !

وحـيد : لبيك دولت.

[يخرج وحيد إلى الفتاة ويختفيان في المرج]

مــراد : [في تهكم] طِرْ، لئلا يفوتك نصف عمرك .

يوسف : [لمراد في تهكم] تلك مصادفة موفقة يا أستاذ .

راشـد : [لمراد ساخرا] أجل، لكيما يطمئن قلبك .

مــراد : تتهكمون ؟ لابد أن أحداً منكم لم يلتق في حياته بامرأة جميلة، وإلا لَمَا كنتم تَبقون على هذا الظمأ.

حمدي : الفنان أبداً في ظمأ.

مــراد : ماذا ؟ كل إنسان يرتوي إنْ هو شرِب.

حمدي : إلا الفنان فيبقَى على ظمئه، إن في طبيعتنا شيئاً ما، لا ينفك

يستحثُّ فينا الظمأ، وإننا لنَظمأ فنحلِّق فَنَرى، ولكنْ من وراء ضباب، ذلك الذى نراه هو عندئذ الحُلْم، أو بعض الحقيقة، غير أنه أجمل من الحقيقة لأنه يضيف إليها جانباً من نفوسنا، هذا الجانب هو الظمأ، هو الحرمان.

فنحن نظمأ لنحلم لنرى الجمال بأروع مما هو، ونصوغَ فنًّا ما نراه.

يوسف : مَثَل الفنان أظمأه الجمالُ مَثَلُ طائر يقصد نحو هدفٍ مجهول لا يَرى منه سوى ضبابه، ومع أن شيئاً فى إحساسه يحدثه بأنه لن يَصِل، فإنه يظل يواصل السير ويواصل، مدفوعاً بظمأ خفّىْ، وما ينفك أثناء ذلك يرسم بخياله صوراً مختلفة لهدفه، يتسلى بها إلى أن يدركه الكلال فيسقط شهيد مِثاله وينطوى إلى الأبد، ذَلِكم هو الفنان حَدَّث عن مثاله بعد إذ ظَمِىءَ إليه.

راشد : إن الفنان لَيتقلّب بين الجمال كما يتقلب الطائر بين مختلف الزهر، ولقد يتاح له أن يلثمه جميعه فيفعل، ولكنه مع ذلك كما جاءه فى ظمأ، هذا الظمأ الأبدىّ، هو منبَع الفن وسره، أجل، لابد للفنان من أن يحترق، فإذا هو بخورٌ يحلِّق وقد فاح منه عطرٌ عَبِق، ذلك العطر عندئذ الفن، هو قلبٌ من تحته نار.

حمدى : ها أنت ذا رأيت يا مرادُ ثلاث صور لظمأ الفنان، وكلها ترمز لمعنىً واحد، هو أن هذا الظمأ من الفنان منبع فنه.

مراد : قد فهمتُ، فهلا وقفتم ظمأكم هذا على امرأة واحدة ممن اجتمع

لهن الجمال ؟

حمدى : ليس فى العالم امرأة جميلة بالقدر الذى ينشده القلب، هن كلهن ناقصات يكمِّل بعضهن البعض ويؤلفْنَ معاً ذلك الجمال المثالىّ الذى يبيت يحلم به الشاعر.

مراد : وهل تسمُّونه حبًا ذلك الذى تحشدونه له فى قلوبكم نساء العالم أجمع؟ إن من أحَبَّ أكثر من واحدٍ فأحداً ما أحَبَّ؛ الحب إيثار، ولابد لكى تَهَبَ الواحد أن تحرم الكل، فإذا أنت لم تفعل، فقد حَرمْت الكلّ والواحد .

يوسف : ما كان للفنان أن يحب واحداً بذاته وهو الذى يدين بالجمال كله، إنما الجمال للفنان كُلٌّ لا يتجزأ، ومن ثَمَّ فلا محل للإيثار فيه.

مراد : وهل من قلبٍ فى طوقه أن يسَع الجمال جميعه ؟

يوسف : هو يَسَعُ العالم كله إن شئت.

مراد : ويحك، كيف يَسَعُ العالَم ما لا يكاد يشغل حيِّزاً فيه ؟

يوسف : اعتراضٌ وجيه لو أن القلب لحمٌ ودم، ولكنّ القلب فكرة، فكرةٌ كبيرة فى حجم الوجود، لأنها هى الوجود ذاته؛ إن ما نحسبه فى الناس قلوباً كثيرة، إنْ هى إلا أشعةٌ لقَبس واحدٍ هو فى الكون سِرّ الوجود، كل نفْسٍ فى ذاتها تنطوى على العالم كله، وإن ظنَّت أنها جزء منه.

مــراد : والجسدُ، أمَا يحول بين الإنسان وبين السر والحقيقة ؟

يوسف : إلا بين هذين والفنان، إنــه من تفوُّقه يظل على اتصال دائم بالخلود، يُبدع، ويخلق، ويبتكر، وهو فى كل ذلك إنما يستوحى الأبدية سرها.

مــراد : وما قولكم فى الغيرة ؟ أمَا تقف بين القلب وطاقته، وتحول بينه وبين حبه المطلق للجمال ؟

حمدى : لا أعرف عن الغيرة إلا أنها عاطفة سخيفة، إذ لِمَ يكون على الإنسان إذا ما أحَبَّ امرءاً، أن يخاصم العالم كله ؟

مــراد : ولكنك لا تنكر وجودها على أى الأحوال

راشد : نعم، غير أنها فى قلب الفنان لاتثنيه عن طريقه، وإن كانت تزرع الشوك فيه، إن التناقض مستحكمٌ أبداً بين الفنان كفكرة وبينه كإنسان، فالمُثُل العليا تستهويه والنزوات تتجاذبه، وهو بين هذا وذاك يعيش فى صراع دائم مع شخصه، لا الناس ترضى عنه، ولا هو يرضى لفنه ساجدين، وإذا هو أولهم يَسجد له.

مــراد : إذن فأنت تعترف بأن ظمأ الفنان يجعل منه مبعث خَطَرٍ على قلوب سواه.

راشد : هب ذلك فالفن يغتفره، وبَعْدُ، أفمَن جعل من نفسه وقواداً من أجلكم، لا يستحق منكم أن تتجاوزوا عما يصيبكم به من شررٍ

وهو يحترق ؟

مــراد : إذن فيا ويل من تُبتلى بحبكم !

يوسف : حبذا لو شملَنا توجُعك، لأننا وإياهن سواء في البلاء، أجَل، إنْ يكُن يصيبهن شررنا، فإن فينا النار التي تبعثه.

مـراد : وأي بلاءٍ لعمرك يصيب من بات بمأمن من ضني الحب، لأنه راح يهوَى الجمال جميعه ؟

يوسف : كلُّ مَن أحببنا تمثَّل في شخصها الجمال بأسره، ولذا فنحن نحبها قدْر حبنا للجمال، نحن لا نوزع على النساء قلباً واحداً، وإنما نحمل لكل منهن قلباً بمفرده، إن حبنا للواحدة لم يقلل منه حبنا للجميع، ومن أجل هذا فنحن نتعذب كما يتعذب العاشق المخلص مثلك سواء بسواء.

{ يعود وحيد باسماً }

حـمدى : {في خبث} عَوْدٌ حميد.

وحـيد : وغيبةُ أحمد

راشـد : منذ كَم تعرفها ؟

وحـيد: منذ عشرة أيام.

حـمدى : {في خبث} ولِكَمْ ؟

وحـيد : لعَشرةٍ أخرى.

الجميع : { يضحكون }

مــراد : واكبداه ! ليته يعلم الصيدُ الجديد فما يفكر قط فى العوْد إليك !

وحـيد : صيْدُ أمس تقصد ؟

مــراد : أجَل، الذى كان معه حارسه.

وحـيد : إن كان كتُبَ عليه أن يعود فهو لا محالة عائد.

مــراد : لكم أشفق على الجمال أن تكون تلك نهايته !

وحـيد : لا فائـدة فى أن ننشـد حسْـن النهايـة مادامـت خاتمـة النهايـات سيئة، لكم نَكدّ أنفسنا فى الوصول بالأشياء إلى خير النتائج، بينما الموت واقفٌ لنا بالمرصاد يحصد الجيد منها والردىء، لا يقفنّ بينك وبين رغبتك ثَمَّةَ خوفٌ من الألم، ذلِكم هو مبدئى.

مــراد : وهل صبيةٌ لَعَمرى ضحيتك الجديدة ؟

وحـيد : أجَل، غضةُ الإِهاب، ولكنْ ماذا يهمك من سؤالك ؟

مــراد : أشفقتُ أن يزداد أسفى على نداوة عُودها !

يوسف : وهل سمراءُ هى كغالب عهد الحِسَان معك ؟

وحـيد : أجـلْ سـمراءُ، بوهيميَّـةُ الجمـال، ذات وجـهٍ واضـحِ الوجنتين والجبين، يجلِّله شعَرٌ مجعَّدٌ كثيف، وتتألق فيه عينان سوداوان

يضىء من ليلهما نورٌ كالنهار، وفمٌ يشيع الإغراء فى قَسماته
كأنّ نداءً حاراً ينبعث منه ويقول قَبِّلْنى.

مــراد : {لنفسه} سميرة ! لكأنى به يصفك !

وحــيد : {مستمراً} يَسِمُ محياها طابعُ حزينٌ يجعلها تتراءى باكيةً وما هى باكية، وفى طلعتها سذاجةُ الطفل، وفى أغوارها عمْق قلب الشاعر.

مــراد : {لنفسه} سميرة ! لئنك هكذا !

وحــيد : {مستمرا} ملَهمــةٌ تقرأ الأفكار بقوة روحها، وبها تُوحِى للقلوب بما تريد،

فإذا ما تكلمتْ بين الحين والحين، ففى كل جملةٍ قصيدةٌ وفى كل نبرةٍ أغنية.

مــراد : {لنفسه} سميرة ! يا وحى القلوب !

وحــيد : {مستمرا} فى الجِيد منها غَيَدٌ، وبالخصر نحولٌ ومَيَد، مخروطة اليدين، تزين أناملها أظافرُ صقيلةٌ لا هى قصيرةٌ ولا هى طويلة، مليحة القدمين، فى ميْل إبهاميهما عُجْبٌ، وبعقبيهما نضوجٌ واستدارة.

مــراد : {لنفسه} يا لقلوبنا من الجمال !

وحــيد : {مستمرا} وبالطـرف من جفنيهــا انكسار، وللسحر فى عينيها

انفجار، وعلى نورهمادمعُ يحار، واللحظُ منها ساهٍ مُسَهَّدْ، واللؤلؤ فى الثغر منضَّدْ، وبأقصى الخدِّ خالُ مصلتُ الوضع كسهمٍ مسدَّدْ.

مـراد : {لنفسه} آمنتُ بك يا الله !

وحيد : {مستمرا} يحرسها عجوزٌ مُلْتَحٍ، يرسل النظرات عليها واقياً، فما وَقَى من سحرها الناسَ ولا أحاط من الغواية قلبَها.

مـراد : {لنفسه} ربـاه ! إنى لا أفهم! حتى موضع الخال تَشابَه ؟ ولحيةُ الأب على ندرةٍ فى اللحَّيَ ؟ سميرة ! لكم أخشى أن تكون أنت ! ! نعم، الأوصاف تتحدث، والقلب أيضاً حدَّثنى،{لوحيد} وحيدُ، ما اسم تلك الفتاة ومَن تكون ؟

وحيد : لست أدرى، أمَا قلتُ إنها جاءتنى بصحبة حارس ؟ أجل، لقد ظهرت واختفت مثْل حلْم، كان ظهورها كلغزٍ خَفِىٍ، ولكنْ لِمَ تسأل ؟ وعلام أنت مضطرب هكذا ؟ أقد انطبق وصفها على بعض ذويك ؟ أو على امرأة ممن تحَب؟ ويلاه، إن الرجل يرتعد ! ولقد حال لونُه فحاكىَ صفرةَ الموتى !

{وقد لمح شيئاً فى الأرض فالتقطه} ولكن انتظرْ، ما هذا ؟ قلب ؟ نعم. أينما نقَّبتَ هنا عثرتَ على قلوب ! يا الله ! إنه قلبٌ من ذهب ! هو من بعض رائدات الكوخ سقط، أو أن واحدة منهن ألقته عامدة، لسوف أفتحه لأقرأ سرِّه، {وقد فتحه} ها هى ذى

صورةً كما توقعْت، الآن عرفتُ صاحبة القلب، أجل، لقد كشفتُ سرها.

مــراد : أهى فتاة الأمس ؟

وحـيد : نعم، تِلْكُمُ السمراء الفاتنة، الوحشية السحنة كساكنات الغاب .

مــراد : أتُرينيها ؟

وحـيد : لا مانعَ، فالأمــر أصبــح يعنينــى، أجـل، يجـب أن أحيـط علماً بغرمائى، هاكها وخبِّرنى ما إذا كانت حبيبك. {يناوله الصورة}

مــراد : {فى ألم وقد نظر الصورة} رباه ! إنها هى.

حـمدى : أرنى. {ينظر الصورة} عجباً ! إنها سميرة !

راشـد : سميرة رشدى ؟

وحـيد : تلك الممثلة التى كنتم تتحدثون الآن عنها ؟

حمدى : نعم هى.

يوسف : {لنفسه} ويلٌ لأجمل ممثلة ! أجَل، لقد دهمتْها أشراك وحيد .

مــراد : {موجها الخطاب لوحيد} أيها الشاب المنكود يا طالعَ السوء ويا كوكبَ النحس، بحقٍّ طالعك المشئوم أيه صدفةٍ تعسة تلك التى جَمعت بينك وبين سميرة ! سحقاً لنفسك الشريرة، بل سحقاً للبوم والغربان التى وسوستْ لك أن تعترض طريق حياتى وتلْقِى بها فى نحسك !

وحـيد : هـبها هى يا مرادُ وهبْنى أحـببتـها، فـعلامَ ظلْمك لى ؟ إنما أنا إنسانٌ أُلْهِمتُ ففعلْت، كلنا جالبُ النحسَ لأخيه ومنحوس.

مــراد : {وقد نهض} دعونى دعـونى أذهب، النار تضطرم فى ضلوعى، أريد أن أنطلق، شىءٌ مـا فىّ يلح علىّ بالمسيـر، وإلى غيـر غاية، كـأن الأرض نبـذتْنى فـما أطيق البقـاء فى مكـان، سـأهيـم على وجـهى فى الفيافى والقفار، فلا يهدأ لى جنب حتى أصبح جثة هامـدة أو تكون من قسـمتى سـميـرة. {لوحيـد} وأمّا أنت أيـها الوغد فسوف يكون لى معك حسابٌ أصفيِّه.

وحـيد : أدَبك الزمْ يا مرادُ، ولا تَغُرَّنّك بدانتُك، إنك منتفخٌ كبالون، وعلاجم غمزة إبرة.

حمدى : ما هذا أيها الطفل يا مراد ؟ أتغار من وحيدٍ على سميرة وهى للكل نهبٌ مقتَسَم ؟ أليستْ فنانةً وجميع العيون ترمقها؟ متى كـان الفنان ملْكا لأحـد حـتى يدّعـيـه أحـد؟ الفنّان ملْكٌ للناس أجمعين.ثم مَن أدراك أن بين الاثنين حبًا نَشب؟ هى نظرةٌ ألقاها كل منهما على الآخر، ثم مضت لشأنها ومضى لشأنه.

مــراد : أتظن ذلك؟ أمَنْ وقع فى فخ هـذا الشيطان يرجى لك فكاك؟ آه ، يا إلهى، لمْ يعدْ لى من أمل!

[دمع عيناه]

حمدى : حسناً. هيا نخرج ، أنا كفيلٌ بأن أقنعك. هيا إخوانى جميعات.

طاب مساؤك يا وحيد.

وحـيد : طاب مساؤكم أجمعين [لنفسه] عجيا!

[يخرج الجميع الا وحيد]

وحـيد : [وحده] ضحيةٌ لَعَمرى من ضحايا القدَر.

غير أنها ضحيةٌ تافهة، لا تعرف كيف تسكن للألم، ولا كيف تتعذب فى إباء، هى بالإشفاق جديرة، ولكنها بالسخرية أجدر، أين أنت يا قلمى؟ سأجعل منها موضوع قصة فكهة. وسأسميها: رجلٌ يَبكى،

ولكن لا، إن بعض البكاء لا عيب فيه، إذن لأسمِّها رجلٌ يبكى بدموع امرأة، أو رجلٌ يتوجع بحنجرة كلب. أو رجلٌ يعوِى، العناوين كثيرة، ولكنّ المعوّل على ما تحتها، فلأبدأ.

ولكن، آه ! ما هذا الذى بقلبى ؟ طائفٌ ينتابه ! أسوْدُ كغمامة ! وإنّ ناراً لتلتمع به كأنها البرق ! رباه، إنى أغار !

بئس أنت يا غريمى مراد ! إن الهواجس لتَوسوس لى، فأتخيلك معانقاً الساعةَ سميرة، وقد انسابت روحا كما كلٌّ فى الأخرى، فلمع فى عينيكما من دفْق الحياة وميضٌ عجيب، فما تلبث أن تنساب روحى أيضا، ولكنْ نحو الفناء، حتى إننى لأذوق فى هذه اللحظة بعض الموت.

سميرة ! رباه ! إننى أوشك أن أبكى، وعهدى بىَ يا حبيبتى البخيلُ بدمعى.ولكنْ لِمَ ؟ نعم، لِمَ تغار يا وحيدُ بربك ؟ إذا كنتَ تخون، فلمَ تغار ؟

أنانىٌّ ما أنتَ يا قلبُ فى الهوى لأنك فيه طماعٌ غيُور ! فهلاّ افتديتَ بالقناعة نفسك مخافةَ أن تتكالب عليك أيدى الهموم فتبلَى ؟

ويلاه ! لقد انقلبتُ عاشقا ! سميرة ! إنى أحبك ! لك السهاد فى الليل يا حبيبتى إذنْ ولك التنهدات وحدك والدموع، هاك قلبى خذيه كعهد ظنِّكِ به هائماً خافقاً لا تكاد تهجع النار فيه، الوداع الوداع يا حبيباتى الأخريات، فما أنا لكنّ بعد اليوم ولا أنت لى.

{ يضطجع مفكرا }

{تظهر سميرة وألفت فى المرج

عن كثب من الكوخ}

سميرة : كم أنا خائفة يا ألفت ! إن مستقبل حياتى كله متعلق بنتيجة هذه الرحلة التى بدأتْ وستنتهى قبل أن يَجِنّ الليل.

ألفت : تشجعى يا سميرةُ فما ينبغى أن يَلمس ضعفك منذ أول مقابلة، إن مصير الحب كله مرهونٌ بنتيجة المعركة الأولى، فأىّ الحبيبين يَخرج منها ظافراً يظل النصر حليفه إلى النهاية .

سميرة : سـأحاول ذلك يا ألفت، مـاذا ! إن باب الكوخ مغلقٌ، ووحيدٌ ليس هنا.

ألفـت : لا يبعد أن يكون قد قصد مع خرافة إلى مرعىً بعيد هو عائدٌ منه مع الليل لا محالة، إذ لا يُعقل أن يمسى به الوقت معها خارجاً عن داره.

سميرة : أصْغى ! يخيل لى أنى أسمع ثُغاءً من بعيد.

ألفـت : ربما كان يربض مع غنمه خلف تلك الأجمة ؟

سميرة : لا يبعد.

ألفـت : سأذهب لأرى.

سميرة : فقط لا تتأخرى.

ألفـت : حسنا.

{تبتعد ألفت}

سميرة : {وحدها. تتلفت} أرى شبحاً هنالك! لعله هو. سأرى.{وقد تبينته} رباه ! إنه شجرة! ما أكثر أن يسرف الإنسان فى أحلامه، حتى إذا ما أفاق ألفَى الأفق من حوله خالياً مما كان يظن أنه آهلٌ به ! كمثْل صيادٍ يرى الأرض عامرةً بالصيْد من بعيد، حتى إذا ما أشرف عليها كان الصيد قد فرّ، فإذا بها وهى بين يديه غيرهما عما كانت فى حسبانه.

{السماء تسقط رذاذاً}

ماذا! السماء تمطر؟ حبذا أن يبلِّل القَطْرُ عُشْبَك أيها المرجُ ويُندِّى رمالك! لولاه ما أوْرق فيك غصنٌ ولا جابت الطيرُ رحابك.

{السماء تكفهر. رعد . ريح. مطر}

رباه! السماء تكفهر؟ والرعد يقصف؟ والريح تزمجر؟ والمطر يهطل؟ أين أنت يا ألفت؟ لمَ ذهبتِ وخلَّفتنى وحدى؟ أوه، إن البرد لَيصكّ أسنانى! والغيام يوقظ ما فى النفس من مخاوف مجهولة!

أيها الغيب الملثَّم! مَن لى بمن يقرأ ما راح يختبىء فيك؟ يخيل لى أنك تتحدث! وأن أموراً هائلة تجرى على لسانك! أين أنت يا وحيد؟ وحيدُ أجبْ، إن حبيبتك هى التى تناديك، لقد جئتُ من أجلك، فأين أنت الآن تأخذ بيدى؟ {تبكى}

{تقبض حفنة رمل} هيه أيها المرج السعيد! لِمَ يبلِّل القطْرُ رملك الندىَّ فى حين تَحرق الدموعُ جفونى ؟ فيك هطَل الغيثُ فاشرأبَّتْ إليه أعشابك بحُلوقٍ ظامئة، وعلى نخيلك آوى الطيرُ من كل نوعٍ زوجين، وبقيتُ أنا مشردةً فى العراء وحدى.

{تحضر ألفت}

سميرة : مَنْ ؟ ألفت؟ إلىّ يا ألفت، إن روحى لتَسبقنى إليك، خبِّرينى بربك، هل وجدتِ حبيبى ؟

ألفــت : لا شيءَ وجدتُ هنالك.

سميرة : وما ذلك الذى سمعْت ؟

ألفــت : أحسبه صوت الأمل، أملُك كان يحدِّثك.

سميرة : الأمل ؟ ما الأمل ؟

ألفـت : مثْل الصدى، نَخَاله الصوتَ وما هو به، وجوده خدعةٌ، وبقاؤه إلى برهة.

{ ينهض وحيد يتناول مزمارا ويزمر }

سميرة : ما هذا ؟

ألفــت : أسمع نغما !

سميرة : إنه مزمار الشاعر ! الشاعر يغنِّى ! لابد أن يكون داخل الكوخ.

ألفــت : نعم، لقد راح يختبىء من البرد.

سميرة : أما تسـمعين؟ إنها قطعـة " الذبول "، التى نظمها وحيدٌ ولحّنها راشد، يا للناظم والملحن من عبقرييْن! لا أذكر أننا تعلمنا قطعةً خيراً منها.

ألفـت : هـو ذلـك، ولـكن ألا توافقيننـى على أننا ما سمعناها قط بمثل هذه الروعة ؟

سميرة : لا عجب فالشاعر يسكب فى الأشياء روحاً من عنده، الشاعر روح هذا الوجود، يا الله ! يخيل لى أن الطبيعة ترقص ! عندما يغرد الشاعر، تهتز الدنيا بأسرها، انظرى! إن حياةً جديدة راحت تدب فى الكون، كأنى بالغصون تُورِق، والأكمام تتفتح، والطير يصفق، والفرَاش يرتعش، والسماء تضحك، والأمواج ترقص، طرباً لموسيقَى الشاعر !.

{ يدع وحيد المزمار ويغنى }

وحيد :

دعوْنا الجمالَ فلمْ يستجبْ

فعدنا بأفئدةٍ تضطربْ

ينمُّ عن الوجد فينا شُحوبٌ

ودمعٌ يحار ولا ينسكبْ

وفى لَحْظِنا نزعةٌ للمغيبِ

وفى شدونا لوعةُ المكتئبْ

كأنّا نضىء وراء الغمامِ

ونَبعث بالنار بين السحبْ

تَرانا فتحسبنا هامدينَ

كما قَرَّ بَعْدَ الوثوب الحببْ

وما نحن إلا زهورٌ تجفُّ

وتَحفظ من حسْنها ما ذهبْ

إذا الليلُ حرَّك فينا الحنينَ

تَفجَّر من دمعنا ما نضَبْ

خمدْنا وفى القلب نارٌ تضىءُ

فتطفىء من نورنا ما احتجبْ

ولو مَسَّت الجسمَ منا يدٌ

لألفتْ رماداً يضمّ اللهبْ

وما ضَرَّنا أنْ هوينا الجمالَ

فأدركَنا مِن هَواه العطَبْ

{يسكت وحيد ويعود إلى تفكيره}

ألفت : ما أحلاه من غناء ! إنه فى خفة الأثير !

سميرة : نعم. إن ما سمعْن كان قلب الشاعر لا صوته، عندما يغنِّى الشاعر، فثَمَّ قلبٌ يتطاير مع النغم، الأنغام هى القلوب، إنها القلب قد استحال أحلاما.

ألفت : آه ! سميرة !

سميرة : ماذا بك ؟ ألفت – النغم !

سميرة : ما باله ؟

ألفــت : النغم! القلب ! أرى طيف قلبٍ فى الأثيـر! قلبٌ راح يَطرق أذنىَّ مع النغم !

ـيرة : ألفت !

ألفــت : سـميرة ! أشعر بأسَى، أشعر بميلٍ للبكاء، ألفت ماذا أصابنى ؟

سميرة : أصـابك الداء الشـائع القديـم، إن مِـن بين أحــزان الإنسـانيـة جميعاً، حزناً واحداً، أزليًا فى ضمير الوجود، يولَد فينا أن يولَد سببه،

وهو حنـينٌ مخـامـرٌ إلى جـمـال الألوهة، كظيمٌ فى النفس، ولكنه يتـألب كلما رأى طيفَها على وجه إنسـان، أو جـرى ذكرُها على لسان شاعر،

وهو خفِّى مـا بَقِىَ فى حرز الضـمـير، فـإذا مـا مَسَّـهُ طائفٌ من جمـال، أسفر عندئذ وعُرِف بالحب، وإنه لَقاتمٌ مرير، ولكنّ طيب عنصـره يضـفى عليـه حـلاوةً تجـعل النورَ يشـيع من ظلامـه، والشـهـد يقْطر من علقـمـه، لِنهبْـه الألم الحنون، أو لِنهبـه اللذة المتمردة، فـهو على الحالين اللهب المقدس، الذي يجذبنا لنُبْـهَت بنوره حيناً ثم نحترق.

ألفــت : أجَــل يا ســميرةُ، كلنــا عاشقون، وإن كان القليلُ منا يَعلم من يُحِبّ.

أحِب، وأحس قلبى يضم حبـيبـاً، وإن كنت لا أعـرف مَن هو.

أحِب، وفى فـؤادى ثَمَّ شىءُ ضـائع، أشـعـر به عـبـثـاً ألقـاه.

أحِب، نـعم أحب، مـــا دمت إنســـانةً وبين جنبّى قـلب.

أحِب، لأننى أعـــيش، وكل باقٍ على الحـــيـــاة لابد يِحب.

أحِب، لأننى أظـمـــأ إلى الحب، والظمــــأ إلى الحب حب.

أحِب، ولست أشــعــر بالحــبـيب غـيــر أنى أحسّ فـراغــه.

سميرة : ثباتَك ألفت ! فلقد جئت بك لتشجعينى.

ألفــت : عــفواً، هـأنذا أعود إلى حســن ظنـك، والآن لقـد حـان الوقـت لأَن تذهبى وتطرقى باب حبيبك، هلمى ولا تضـيِّعى الفرصة، فلَربُّ لحظة واحدة قَلبتْ وجه الزمن.

سميرة : ادْعىِ لى يا ألفت.

{تتخلف ألفت بالمرج وتطرق سميرة

باب الكوخ فيفتح وحيد ويدخلان}

سميرة : عِمْ مساء أيها الشاعر.

وحـيد : عمى مساءً يا آنسة.

سميرة : أتذْكُرُ أنك رأيتنى أمس ؟

وحـيد : نعم، حين جئتما تطلبان النار.

سميرة : {فى مكر وهى تنظر إلى الموقد} حبذا النار أبداً فى كوخك !

وحـيد : النار تُسحَب فى الليالى الباردة.

سميرة : مـا أشـدّ البـرد الليلة! أوه، إنـى ارتعـد! لقد باغتنـى المطـر فـى الطريق فبلَّلنى.

وحـيد : تفضلى إن شئت بجوار الموقد .

سميرة : لا بأس، ريثما تجفُّ ثيابى. { يجلسان }

وحـيد : ولكنك لم تقولى لى من أين لك أننى شاعر.

سميرة : أمْر الشاعر لا يخفَى، كل شاعرٍ تتناقل الناسُ أخباره.

وحـيد : أحسب أن الشِّعر يروقك.

سميرة : كـل مـا هـو فـنٌّ جميـلٌ بات يسـتهوينى، الموسيقَى أيضا أشغف بها.

وحـيد : وماذا تحبين من قطِعها ؟

سميرة : النـاىُ أفْضلهـا عندى، إن صوته لكثير الشبه بالبكاء، وهو فى

بحتّه يحكِي جِراح القلوب.

وحــيد : والكمنجـة ؟ التـى ترسل النـغم توجُّعـاً كـالأنين.، والبِـيـان ؟ نو الصوت الأغنِّ المعجب بنفسه كدلال غانية، أمَا يروقانك ؟

سميرة : بلى، ولكنّ الناى جدًا أحبه.

أأفهم من ذلك أن لك دراية بالنفخ فيه ؟

سميرة : لا، لا قِبَلَ لى كفتـاة بذلـك، ولكنْ إن شئتَ فأنا ألعب على البِيان، وعلى الكمنجة أيضا.

وحــيد : أمّا البِيان فلا محل له فى كوخ را ع، وأما الكمنجة فدونك هى واسمعينى عليها شيئاً إن سمحتِ .

{ يناولها الكمنجة }

سميرة : حسَناً، ماذا تود منى أن أوقِّع ؟

وحـيد : كل مـا عزفتْ أناملك بديع، ولكنْ لا بأس من أن تسمِّى لى جانباً مما عندك فاختار.

سميرة : عندى مثلا قطعة " الزورق " ذات الروح الحالم الوسنان. وقطعة التأمل " المتهادية النبرات كخُطىَ الموج، وقطعة " الذكرى " التى يحكِى نغمُها السحيق نداء الماضى، وأخيرا عندى " الذبول " ذات اللحن الخافت كبصيص قنديل، وأحسب أنها أفضلها

عندى.

وحـيد : حسناً، لتكن هى ما أختار.

سميرة : أرهفْ أذنيك إذَن.

وحـيد : كلِّى حواسٌ مرهفة.

{تأخـذ فى التوقيـع. ينتهى العزف وتعقبـه فترة صمت، تفتح ألفت فى خلالها ثغـرة من الباب وتطل منها على العاشقين دون أن يرياها}

ألفت : {لنفسها فى همس} والآن ! لقد صمَت العاشقان، هنالك رسالتان، فى الخفاء تتبادلان، راح كلٌّ منهما يقول : أحبك.

قد تفاهم القلبان، ما بين انتهاء العزف وبدْء الكلام، واستطاعت فترة الصمت، أن تفُوه بأبلغ الحديث.

حسناً، سأحمل تقريراً بذلك إلى كيوبيد.

{ألفت تعيد إغلاق الباب}

سميرة : هيه ! ما رأيك فى توقيعى ؟

وحـيد : عذبٌ مثلك.

سميرة : لَئِنْ كان فلأن القطعة جميلة.

وحـيد : اللحن بديعٌ حقًّا، ولكنه لم يكن بأبدع منه حين وقَّعتْه أناملك.

سميرة : كيف، وقد كان من فمك أبدع ؟

وحيد : {فى خبث} ماذا تعنين ؟

سميرة : تتغابَى ؟

وحـيد : كم من الوقت لك هنا ؟

سميرة : فى الكوخ تقصد ؟

وحـيد : لا، حواليْه.

سميرة : زهاءَ عشْر دقائق قبل أن أطرق بابك.

وحـيد : هه هه، قد فهمت.

سميرة : ولقد سمعتُ منك اللحن الذى كُتِب عليه الخلودُ فى قلبى.

وحـيد : كل لحنٍ جميلٍ حقيقٌ بالخلود.

سميرة : جمال النغم يكفل خلوده على الزمن، ولكنّ شيئاً آخر هو الذى يخلدِّه فى القلب.

وحـيد : وما هو ؟

سميرة : أنْ يسـمعه وهو متفتِّـحٌ لاسـتقبال كل محبَّبٍ إليه جميل، النغم، والعطور، والمناظر، لابد لها من مناسبة تقترن بها لتتغلغل فى

القلب وتصبح قطعة منه.

وحـيد : لفتةٌ بارعة، غير أنى لم أفهم بَعْدُ المناسبةَ التى راحت تحبِّب إليك تلك القطعة.

سميرة : لأنك لا تود ذلك.

وحـيد : كيف ؟

سميرة : لقد أنتظر منك سـؤالاً منذ جئت، ولكنك على ما يظهر لى آثرتَ الصمت.

وحـيد : أىّ سؤال ؟

سميرة : أجَل، ما الذى جاء بى إلى هنا ؟

وحـيد : أحسبُ أنه البرْدُ، أو البلل، أليس كذلك ؟

سميرة : البرد أو البلل لا يكفى لأن تَطرق فتاةٌ مخدع رجل.

وحـيد : على كل حال أنت أدرى بالذى جاء بك.

سميرة : نعم، ولكنْ ألم بخاطرك السبب ؟

وحـيد : أخشى أن يكون ذلك.

سميرة : ألَكَ أن تخبِّرنى لمَ تلفّ هكذا فى القول وتدور ؟

وحـيد : لست أفهم مَن منا الذى لفَّ ودار.

سميرة : ليكنْ أننا نحن الاثنين، فلمَ ذلك ؟

وحـيد : قبل أن أجيبك علـى هذا السـؤال، استميحك عذراً فى أن أوجهه إليك.

سميرة : ولِمَ ؟

وحيد : لأن موقـفك من موقفـى، والسابق إلى الملاحظة لابد أن يكون أكثر درايةً بالسبب.

سميرة : ولكنْ، أمَا كان ينبغى أن تفهم من نفسك ما رحتَ تسأل عنه ؟

وحـيد : وما دامت الإجابة على السؤال بهذه البداهة، فلمَ سبقتِنى إليه ؟

سميرة : كـم أنـت عنيـد! الحـقّ أننى لم أجد قَط من هو فى مثل صلابتك، ولكنْ لا بأس من أن أجـيـبك، إننى أدور فـى الحـديث لألـوِّح لك بسـرٍ لا أريد أن أكون التى تقـوله، أريد أن أمـهـد لك لكى تراه وتظن أنك عفواً رأيته، أنك كشفتَه على الرغم منى.

نعم، إنى ... {تميل برأسها خجلا} ... ولا أود أن أصـرح.

وحـيـد : {بلهـجـة المداعب} وأنا أيضـا، أدور فـى الحـديث لأنـى ... {يميل برأسه مقلدا لها} ... ولا أود أن أصرح.

سميرة : أتتهكم على أسلوبى ؟ المتهكم بالكلام مُراءٍ فى القصد.

وحـيد : ليس دائماً، فلقد تغلِب النكتة إذا راق الحديث.

سميرة : ولكنْ قُلْ لي، إذا كنتَ حقًّا تشعر نحوى بذلك، فما الذى جعلك تنتظر حتى أبدأك ؟

وحـيد : جعلنى الذى جعلك أنت تنتظرين ذلك.

سميرة : أفٍّ منك ! لولا خجلٌ من نفسى لضربتُك.

وحـيد : ذلك ما قام بذهنى.

سميرة : إنك تغيظنى !

وحـيد : هذا شأنك أنت. مَن قال لك أن تغتاظى ؟

سميرة : مـاذا تقـول ؟ يا سِـمّ ! لن أكلـمك، دعنـى أذهـب، {تتظاهر بالانصراف}

وحـيد : ما أجمـل غضبـك! وددتُ لو تجسَّمَ فمـاً فقبّلتُه! خـذى هـذه الزهرة عربون صفحك.

{ يناولها زهرة }

سميرة : {وقد تناولها} بِسلّة ؟

وحـيد : نعم، زهرتى المحبوبة.

سميرة : حسناً، سيكون موضعها القلب، ولكن ...

وحـيد : ماذا ؟

سميرة : {في دلال} أتحبني ؟

وحـــيد : قولي أنت أولا.

سميرة : نعم أحبك، وحقِّ طرفك الذي سَحَرَ، وقلبي الذي سَكِرَ، أحبك!

وحـــيد : وأنا أيضا.

سميرة : أتحلف ؟

وحـــيد : وحقِّ مَن سهَّدني الليلَ أمسِ، أحبك !

سميرة : يلعنك الشيطان ! بعد متى تنطلق ؟

وحـــيد : بعد أن تأكدتُ أن أذنك معي.

سميرة : كم أنت بديعٌ حين تطيع !

وحـــيد : {مداعبا} وقليلاً ما أفعل.

سميرة : {مستطردة} وأبدع منك حين تَعْصي !

وحـــيد : وإني لَكذلك غالبا.

سميرة : أعبدك !

وحـــيد : وأنا !

سميرة : وأود لو كنتَ بجانبي !

وحـــيد : مُرِي فأكون.

سميرة : آه، لو كلُّ مَن وَدَّ يستطيع !

وحـيد : وماذا يمنعك ؟

سميرة : أنـت ابـن المراعـى وأنـا ابنـة القصـور، وبعيدٌ أن يجمعنا الحب فى عشٍّ واحد.

وحـيد : مَن لا يجمعهمـا العشَّ دائمـاً، قد يجمـع بينهما الغصن فـى فتَرات.

سميرة : وهذا ما يحزُّ فى نفسى.

وحيد : ولمَ ؟

سميرة : لأن المحِبَّ يروم الأبد.

وحـيد : الأبد قد يجمـع بين قلبين لا يجمـع بينهما مكـان، مادام قلبى عندك فأنا، وإنْ غبتُ، معك.

سميرة : نعم أحبك، أحببـتُ فيكِ جمـالاً ملهِماً يبعث الشِّعر حنينـاً فى القلوب، وتَيَّمنى فمٌ منكِ يتأهب للبكاء، وعينان تَنزعان للمَغيب، وأهدابٌ على الجـفن ظلَّتْ اللحظَ، ونعـاسٌ فـيـه يغـرِى بالهـوى ويهيب، وإنى لَواهبك فؤادى فما أمْلك له بعد اليوم ردّاً، ولا أنا ساليك ولو ضمَّنى القبرُ ورحتُ فيه أغيب.

سميرة : يعلـم الله يا حبيبى أننى ما عشقتُ سواك، وما كان لى إنْ دعا

غيرُك القلبَ لأجيب، ولكنك فنانٌ، والفنانُ يَعشق الحسْنَ أينما كانَ وله منه في كل يومٍ هوًى، وسمعتُ أنك كالطير تنتقل من غصنٍ إلى غصنٍ ومن دوحة إلى دوحة، تعتصر ثمارها وتتركها وبها من حَرِّ الفراق وجيب، وإني لأخشى يا شاعرى أن يكون مصيرى معك مصيرَ ثمرك وعمرى من عمْر زهرك، فاتَّقِ الله فى سبابى وارحمْ صبابتى ولا تعَذرْ فتجعلَنى من الهالكين.

وحيد : معاذ الله يا حبيبتى وهذا جمالك، أن يُشْرِك بك القلبُ ولو كان قبلاً من الكافرين.

سميرة : كيف وأنت شاعرٌ، والشاعر يَطلب الجدَّةَ أبداً ويزهد فيما ملَكتْ يداه ولو بعد حين.

وحيد : نعم أطلب الجدَّةَ، ولكنْ أمَا تُراكِ من فرْط الجمال تتجددين ؟ إلىّ أدْنيِ فمك من فمي، ودعى الشفاهَ تُرْجِعُ لى ما سلبتْه منى الجفون.

{ يتعانقان ويقبلها }

سميرة : وحيد !

وحيد : مُرِى.

سميرة : أتحبنى ؟

وحـــيد : وهل فى ذلك شك ؟

سميرة : صِفْ لى كيف أقع منك ؟

وحـــيد : كما لو قد أُذبْتِ فى كأسٍ ورُوِّى بك قلبى.

سميرة : ويحكَ، الكأسُ تَفْرغ !

وحـــيد : نعم، وإننى لَبسرعة البرق ما أُفْرِغُك.

سميرة : حنانك !

وحـــيد : {مستطردا} وإنك لَبسرعة البرق ما تمتلئين من ينبوعك الأزلى، لِتظلَّى لى المعَين الذى لا ينضب، ولِيظل جمالك نوراً فى عينىَّ، وحبك أبديًا فى فؤادى.

سميرة : الآن لِيطمئنّ القلبُ، فلقد مضى الزمن الذى تشككتُ فيه، وآمنتُ أنك بحفظ العهود ضَمِين، وسلامٌ عليك الآن، فأنى قد أمسَى بَى الوقت، وصديقتى تنتظر ببابك، ولنا إن شاءالله عوْدٌ قريب. {تهم بالانصراف}

وحـــيد : ولكن ، إينتهى اللقاء ولا أعرف من أنت؟

سميرة : بَعْدُ تعرف كل شىء، دعنى دعنى أظل لغزاً إلى حين، ليكن حبنا الآن غامضاً كقصة، لأنت فنانٌ ولابد من مستهويك الغموض.

وحـيد : وأنت، ألست فنانة ؟

سميرة : أنا ؟ أنا لا، ألأنى أضرب الكمنجة ؟

وحـيد : وهل هذا كل فنك ؟

سميرة : أرسمُ أيضا، ولقد رسمت كوخك.

وحـيد : والتمثيل ؟

سميرة : أحب أن أشاهده.

وحـيد : أيتها الشيطانة! لشدّ ما تتقنين دورك! لأنتَ الآن بين يدىّ بارعةٌ مثلك على المسرح !

سميرة : {فى دهشة} ماذا تقول ؟ رباه !

وحـيد : أتحسبينى لم أعرفك ؟ ألستِ ممثلة ؟ ألست سميرة ؟

سميرة : {فى ارتباك} نعم ممثلةٌ، وصيتى لمْ يَذع، أنا بالمسرح مازلتُ حديثةَ عهد.

وحـيد : ولمَ أردتِ ألاّ أعرف ذلك ؟ لمَ كتمتِ عنى ؟

سميرة : غلبتْنى صناعتى.

وحيد : {ينظر إليها ويبتسم}

سميرة : {مستطردة} أردتُ أن أدّخر لك مفاجأة، ويحك! لمَ تنظر لى

هكذا؟

وحـيد : أخاف عليك من ذكائك.

سميرة : أخشى أن أكون نزلت من عينك.

وحـيد : ولِمَ ؟

سميرة : لأننى ممثلة.

وحـيد : ذاك مما يرفعك.

سميرة : أتظن ذلك ؟

وحـيد : نعـم، وأؤكـده، أنا أيضـا شاعر، نحن من سائر الناس كالثريًا من أرضنا.

سميرة : ولكنْ، ممّ عرفَتنى ؟ أشَهدتَنى على المسرح ؟

وحـيد : أنا لا أرتاد مسارح.

سميرة : إذن رأيتَ رسمى فى الصحف ؟

وحـيد : لست أقرأ الصحف.

سميرة : مم إذَن ؟

وحـيد : من حبيبك.

سميرة : {فى تجهم} أىّ حبيب ؟

وحـيد : مراد فتحى، أمَا تعرفينه ؟

سميرة : إنه ناقدٌ كَتَب عنى.

وحـيد : وهل هذا كل ما بينكما ؟

سميرة : ربمـا كـان يحبنـى، غير أننى الحبَّ لا أبادله، ولكنْ بأية مناسبة تحدثتما فى شأنى ؟

وحـيد : وصـفتُ زيـارتك لـى أمس فى مجلسٍ كان حاضره، فعرفك على التوّ، وقام من فوره يسبُّ ويلعن.

سميرة : وأية ريبـةٍ لعمـرى داخلتْـه فـى ذلك؟ ألم تقـل له إننى كنت فى صحبة أبى ؟

وحـيد : أجَل، غير أننى أشَرت فى كلامى إلى أن ثمَّةَ حديثاً قد دار بيننا بالعيون.

سميرة : إذَن فلقد أذعتَ مـا لسـت تَملك، حديثُ القلب لا يذيعه اللسان، أفرأيت إذن كم كنتَ أحمق ؟

وحـيد : لم يَدُرْ بخلدَى أن مراداً يعرفك.

سميرة : رباه ! أية متـاعبَ سببتَ لى ! لكم أخشى أن يتـربص الوغدُ ويعلم أنى أحبـك ! ومنَ يدرى؟ ربمـا شَـهَّـرَ بِى وراح يَفـضح سـرى، أنا نَغَم ممثلة، ولكنّ حبِلى لم يتُرك على غاربى، إننى

ناشئة، وصبية، وأمُتُّ إلى بيتٍ عريق.

وحـيد : ومال العمل ؟

سميرة : لا شـــيء، الله معنـــا، لا أظنه يجرؤ على إذاعة سرٍّ لى كائناً ما كان، نعم، إنه لَيرهبنى وسوف يحْذر غضبى، غير أن ما أخشاه هو أن يستغل هذا الظرف ليحقق مآرب غرامه الضائع، آه ! الويل له إن فَعَل.

وحـيد : أقلقتِنى !

سميرة : لا يخيفنّك ثَمّ شىء، سأذود عن حبى حتى النهايـة، لا نَوىً ولا الزمان نفسه يستطيع أن يعترض سبيلى إليك، أنتَ، أنتَ لا شىء إلاّك أصبحتُ أحسِب حسابه، والآن إلى اللقاء فأنى ذاهبة.

وحـيد : فى رعاية الله، خذى هذا. {يناولها القلب}

سميرة : مـــاذا؟ القلب الذهب ؟ لقد ظننتُه فُقِد، حَسَناً القلب الذهب، وأترك قلباً من لحمٍ ودم.

{ستار}

الفصل الثالث

المسرح قسمان : اليمين كوخ واليسار

مرج. وحيد داخل الكوخ

الوقت فى الأصيل.

وحيد : {وحده} سمراءُ سوداءُ الشّعر والعينين ولكنّ سمْرتها التى تشبه الليل تستحيل نهاراً فى فؤادى، ممشوقة القوام كالغصنِ، ممتلئة الساقين فى استدارةٍ، يتمنى مَن يراهما تخطوان على الأرض لو يكون الترابَ الذى يحظى بوقعهما.

همجيةٌ كالنَّوَر فى شكلها، عذبةٌ كالأحلام فى روحها، تشبه الطفل اللعوب سذاجةً، وتفُوق وثّاب الطيور رشاقة.

أهابَ جمالُها الوحشىُّ برقْدتى، وحرك فىّ الحنين لفطرتى، فتمنيت لو فررت بها إلى الغاب، حيث نحيا بين أحضان البرارى ونرعى فى رُبَا الأحراش الغنم.

نُطعم الزاد من برِّىِّ الثمر، ونفترش الحشائش فى مبيتٍ أو

سـمـر، ونأوى إلى النوم لدى مـغـرب الشـمس، ونـهبُّ منه لدى تنفُّسِ السَّحَر.

وأراها وقد توحَّشتْ مع الطبيـعة فأرسلتْ شَعرها كالعشب الطليق، ومضت حافيةً فى الطريق، فيزداد جمالها نوراً فى عينىّ، وحبُّها لهيباً فى فؤادى.

{وقد خيل له أنه سمع حركة فأطل من الباب وعاد} حسبتُها الجميلةَ أتت، لقد طاف صوتها بأذنىّ، آه يا سميرة ! لكمْ أصبحتِ شُغْل القلب !

{بعد فترة صمت} لمّا رأيتك آمنتُ أن الجمال لكِ وحدكِ فمنحْتكِ من فؤادى الحبَّ وحدك. وآمنت أنَّما الحبُّ الأيثارُ مَن شغفه الكلُّ لمْ يُشغَف بأحد.

لكَمْ خادعنى قلبى فحسبتُنى قد ذقتُ قبلك الهوى، فما إنْ عرفتُك حتى أيقنتُ أن ما كان بِى لم يكن حبًا وإنْ أكُن خُيِّلْتُ أنَّهْ، هى صورتكِ أنتِ تلك التى طَوَّفتْ بفؤادى والعمرُ بَعْدُ وليد، فلمّا أن ضللْتُ عن فهم الجمال فرُحتُ أيهم بالغيد من كل لونٍ، وكنتُ فى هيامى جَهولاً دعيًا.

والآن يا حبيبتى وقد وجدتُك، فأنى أقْسم بجمالك الفريد أن أول عهدى بك هو أول عهدى بالهوى، وأننى لم أكُنْ فيما مضى

مذبذبَ القلب، وإنما كنت سيء الاختيار.

{يطرق ثم يعــود للكلام} آه ! إنـي وربِّى أنا العــابث المتــقلب أصبحتُ أجِدُ فى الوفاء قَراراً ولذة، هَبِى الغدر طبعى فأىٌّ بقيةٍ من جمالٍ قد تخلَّفَتْ عن حسْنك حتى يكون فيـها للقلب الطَّموح مطمـع ؟ أنا مـذ تَجَمَّعَ فيك الجمـالُ قـد جَمَّعتُ فـيك يـا مناى مطامـعى، ولئنْ يحكُنْ قد شابَ منـى الوفـاءَ اضطرارٌ، فـإن ذلك مما يجـعله بالدوام أحْرى، ذلك أنه يستمـد من تَفَرُّدك بالجمـال قابليته للخلود.

{ يسمع طرق بالباب فيفتح وتدخل ألفت }

ألفــت : طاب صباحك يا سيدى.

وحـيد : طاب صباحك يا آنسة، تفضلى، {لنفسه} ما أروع هذا الجمال!

ألفـت : جئت أحمل إليك رسالة من سميرة. {تناوله الرسالة}

وحـيد : شكراً يا عزيزتى، أصَديقةٌ أنت لها ؟

ألفــت : أجل، ولقد صحبتها إليك أمس. كنتُ أنتظر خارج الكوخ.

وحـيد : كـذا ؟ كــان يســرنا أن تدخـلى، وإنـه لَشرفٌ عظيم أن تعودى فتجيئينا اليوم، {وهـو يقدم لـها بـعض الحلوى} ليس فى كوخى المتواضع ما أقدمه لك إلا قليلا من الشكُّلاتِ أهداها إلىّ بعض

أصدقائى.

ألفــت : شكراً، وماذا فى القصور خيرٌ منها ؟

وحــيد : {لنفسه} رباه ! أكلُّ هذا الجمال ؟ لقد والله كدت أفقد الصواب، هـأنذا أرتجف كَمَنْ مسَّتْه حُمَّى {لألفت} لحظةً واحدة حتى أقرأ الخطاب.

ألفــت : {وهى تأكل} حسناً، ريثما أحشو فمى.

وحــيد : {فى خبث} تحشين ماذا ؟

ألفــت : فمى.

وحــيد : {وقد نظر إلى فمها وهز رأســه} آهٍ، {لنفسـه وقد تنهد} آهِ من فمك هذا !

{يقرأ الخطاب على حدة}

حبيبى :

أتَذْكُرُ أمس ؟ لقد سرَقْنا فى تلك الليلة بعض الوقت الذى طالما يَسـرقُنا، واسـتطعنا أن نعيش سـاعـةً لأننا التـقـينا فى الحب سـاعـة، فى حين يطوِى غـيـرُنا السنينَ دون أن يمرّ ولو لحظة بالحياة.

كان بودى أن أخفّ للقائك اليوم لولا مرضٌ بات يُقعدنى، ولكنْ،

أتُرانى وإنْ بَعُد الجسمُ منى قد نأيْتُ بفؤادى عنك ؟

كلاّ، أنا وإنْ جفانى النوم ثملةٌ كالحالمة، تتفتّح عيناى عن طيفك فأخفّ إليكْ، وأتخيلك إلى جوارى فأفتح ذراعىّ لكْ، دعوتُ فى حاضرى أمسِى فعشتُ معك، وأدنيتُ من يومى غَدِى فظفرت بكْ.

ما الحب إلا أن تتلاقَى على الأحلام القلوب، وما دام قلبك عندى فأنت على الدوام معى.

{حبيبتك سميرة}

{ لألفت } لا بأس عليك يا سميرة، ممّ تشكو يا تُرى ؟

ألفــت : من صداع أصابها إثر جهد الأمس.

وحــيد : شفاها الله! وما اسم الآنسة ؟

ألفــت : ألفت.

وحــيد : اسمٌ بديع، خافتُ اللحن كنَقرات الدفوف.

ألفــت : ما أروعه من تشبيه! حقيقةً إن الفاء والتاء مجتمعين تحكيان نقرةَ الدف. لَفَتاتك أبداً تذهلنى. إنّ لك لَفؤاداً لَمَّاحاً يكاد يتحرَّى الذرَّة فى الهواء.

والآن، أنتظر رد الخطاب ؟

وحـيد : نعـم، وهـأنـذا أشـرع فى كتابته، فقط لأشعلْ لفافةً كيما تواتينى المعـانى طيِّعة، إن النَفَّس من " الجـولْد فلْيك "، لَيشـحـذ الذهن ويقـتنص الفكرة الطائرة. {يضع لفـافـة تبغ فى فـمـه ويتظاهر بالبحث عن شىء}

ألفـــت : أتبحث عن الثقاب ؟ ها هو ذا أمامك.

وحـيد : {لنفسه} أعلم ذلك، {وقد ابتسم} ها أنتِ ذى تقعين فى فخ النكتة الذى نصبتُـه. أجَل، لقد نجحَت الحيلة، وكـانت على البـديهـة، والآن، استعدى للقذيفة، { لألفت } مـاذا تقولين ؟

ألفـــت : أقول إن الثقاب تحت بصرك.

وحـيد : وماذا أفعل بهِ ؟ نحن الشعراء لا حاجة بنا إلى الثقاب.

ألفـــت : وممّ، إذا أردتم أن تشعلوا النارِ ؟

{لنفسها} ويحى ! إن شيئاً مـا فى هذه الجملة يُشعِر بأنها غير محتشمة.

وحـيد : ممّ نشعل النار ؟ ها ها ! من قلوبنا.

ألفـــت : مجُونٌ ظريف.

وحـيد : أجل، ومن خدود العذارى الملتهبة أمثالك.

ألفـــت : كلا، إنك تتجاوز.

وحـيد : جمالك يغرينى بذلك.

ألفــت : {لنفسها} رباه ! لمَ بدأتُ أرتعد.

وحـيد : {مستطردا} نعم، إن التبعة لَعلى جمالك.

ألفــت : لا تتهم جمالى، اتهم قلبك أنت.

وحـيد : الجمال والقلب يشتركان دائماً فى الجريمة.

ألفــت : إذَن فأيُّنا لا يسُوغ اتهامه على حدَة.

وحـيد : ولكننا الآن مجتمعان.

ألفــت : إلا أن الجريمة لن تقع.

وحـيد : غير ممكــن. حيثمــا وُجِدتْ حسـناءُ وشـاعر، فثَمَّـة جريمـة لا محالةَ واقعة.

ألفــت : أنا لست حسناء.

وحـيد : تبَارك الذى خَلَقَ، جدائلُ شقراءُ تنسدل على كتفيها، وقد تجعدت أطرافها كأنها موجاتٌ رسمتْها يد الريح على الرمل.

وعينان زرقاوان تَسْبح الأسرارُ فى زرقتهما، فتبدوان كالبحر العميق يحار الإنسان فى فهمه فلا يلبث أن يؤخذ به.

وساقان ممتلئتان تنسحبان فى هوادةٍ إلى أن تلتقيا بكعبىْ

قدميها المستديرين كشِقَّىْ مشمشة، عاريتان دائماً إلا من شَعرٍ أصفرَ دقيقٍ يلُوح فوقهما فى الضوء كأطياف الذهب.

وبعد هذا كله تقولين غيرُ جميلة ؟

ألفــت : {لنفسها} رباه ! كيف سحرنى فسكتُّ عن هذا الغزل !

وحــيد : وعلى فكرة، ما هذا الذى فى فمك ؟

ألفــت : {فى دهشة} شُكلاَتٌ مما جئتَنى.

وحــيد : أفلا تعطيننى بعضها ؟

ألفــت : {مشيرة إلى طبق الشكلات} خُذ من هذه.

وحــيد : جوابك لا يدل على الكرم.

ألفــت : لا تَنسَ أبــى ضيفتك، والضيف لا يُبحث فى أمر كرمه، ذاك من شأن المُضيِف.

وحــيد : أوَلستِ مضيفتى ؟

ألفــت : وكيف، لَعَمرك ؟

وحــيد : ألستُ ضيفاً على جمالك ؟

ألفــت : أمرك عجَب !

وحــيد : {وقد سدد نظرة إليها} والآن ؟

ألفــت : ويحك ! لمَ تنظر لى هكذا ؟

وحــيد : { يبتسم}

ألفــت : هِهْ. {تزدرد اللبسة}

وحــيد : {يظل ينظر إليها}

ألفــت : {تجفل منه وتحدث نفسها} رباه ! إنى أنتشى !

إن فى عينيه لَمفتــاح عالَمٍ مجهول، هاهـو ذا ماثــلٌ الآن أمامى، أطلّ عليه وأتوغل فيه، ويا لَغرابة ما أرى ! أسرارٌ خفيةٌ مـجهولة ! وأطيـافٌ سَكْرى ذاهلـة ! وأحـلامٌ تتـرنح هنـا وهناك ! إنه عـالَم الجمال، ومن غضونه عالَم الحب يزاحمه.

وحــيد : {وقد اقترب منها} ألفت !

ألفــت : لبيّك وحيد !

وحــيد : {يقبلها}

ألفــت : {فى استسلام} كفى ! {وقد تخلصت منه} آه ! ماذا فعلْت ؟

وحــيد : قطفــتُ زهــرة، الفــم فى روض الجمـال شجرة، زهرُها القُبَلُ، وعبيرها أنفاسه.

ألفــت : { تحجب وجهها بكفيها }

وحــيد : {لنفسه} ما أبدعهــا قبلــه! هــا هــى ذى حرارتهـا تنسـكب فى
جسدى، وكأنما ينسكب معها جمالك يا ألفت، وروحك، ودمك !
وكأنك كلَّك قد استحلتِ نوْباً يجرى فى عروقى ! يا الله ! يخيل
لى أننى سرقتُك وأضفتك إلى نفسى، فإذ بك قطعة منى !

ألفــت : {تبكى}

وحــيد : ماذا بك ؟

ألفــت : {فى ذعر} دعنى! دعنى! رباه! ماذا أرى؟ {فى جزع} سـميرة!
سميرة!

وحــيد : أين ؟

ألفــت : طيفها ! ها هو ذا ! أوه ! دعنى ! دعنى !

{تفلت منه وتعدو وتختفى فى المرج}

وحــيد : {وحده} ألفــت! ســميرة! أنا بين نداءين كلاهمــا حبيب، وأحار
إيهما أعصى وأيًا ألبِّى !

آه ! لا القلبُ يَقْنعْ، ولا العين تشبَعْ، والجسد الضعيف يذوب
ويَنحلْ، واحترقنا، وهيهات يَعذر الناسُ أو النار تَشفعْ.

إن طموحى أكثر مما أحتمل، ومما يحتمله أى إنسان، ولكنّ
طموحى جزءٌ لا يتجزأ من نفسى ، فإنْ أنا حاربتُه حاربتُ

نفسي، وإنْ أنا أذعنتُ له حاربْتني الطبيعة مجتمعة.

إنّ في طبيعتي جرثومةَ فنائي، وقد خلقني الله ليكون بعضي حرباً على بعضي، ومهما يكن من قوة نفسي، فإنني لن أحاربَ في شخصي إلا قوتي هذي.

وأنا كالفرَاشة لابدأن أدنو من النار لاحترق، فإنْ أنا لم أحترق من النار احترقتُ من لهفتي إليها، ولكنّ الذي لا شك فيه هو أن النار مصيري.

ولكنْ، لكل شيء نهاية، بقدر ما في كلمة نهاية من رهبة، فإن فيها أيضا ملاذ، أليست هي الشيء الذي تخشاه ونرجوه في وقتٍ واحد؟

إننا نبكي آمالنا الضائعة لأننا زائلون، ولأننا زائلون نتعزى عنها. فالعدم هو الذي ينبثق منه سرٌّ الوجود.

ولقد تمنيتُ العدم لولا لذة الخلود، وتمنيت الخلودَ لولا راحة العدم، ثم عدتُ دون أن تكون لي أمنية.

سأُغمض عينِي عن حقيقة نفسي، وانطلق في الحياة كطائرٍ ملهَم تدفعه قوة الخالق أنَّى شاء وإلى حيث شاء. أمنح الجبَّ كلَّ شيء، لا أهاب لظاه في شيء، فإذا ما فاتني بعد ذلك أن أنجو بنفسي، فحسبي أنني قد تفوقْتُ بها ولكَمْ قالوا لي برَّحك الوجدُ

وقرَّحَت الدموعُ جفونَك، فقلت لهم، عذَّبنى ربًّى فطهَّرنَى.

{ يسمـــع طـرق بالبـاب فيفتـح وحيد ويدخل

حمدى ويوسف وراشد والشقلباظ ويسلمون }

حمدى : {لوحيـد} أقـدم إليك صـديقى الأسـتاذ محمد الشَّقْلباظ، شاعر الغرام.

وحـيد : تشرَّفنا يا أستاذ.

حمدى : {للشقلباظ} وهذا صديقى الشاعر وحيد.

الشقلباظ : شرحُه.

وحـيد : ؟

الشقلباظ : {لوحيد} أقْصد تشرفْت.

حمدى : {وقد أخذ يتحرى بأنفه شيئا} إنى أشم بقية عطر امرأة.

الشقلباظ : {وقد هم بالقيام} عن إذنكم.

حمدى : إلى أين ؟

الشقلباظ : أستوحِي الطبيعة.

حمدى : حسـناً، لا تتأخر. {لوحيد} قلتُ إنى أشم عطر امرأة، فهل كانت عندك حبيبةُ القلب ؟

وحـيد : كانت عندى صديقتُها.

راشـد : مَن؟ لعلها ألفت ؟

وحـيد : نعم، وقد قبلّتُها.

يوسف : لا عجب، إن وحيداً هو وحيدُ دائماً.

وحـيد : فقط لا تتحدثوا بذلك فتعرفَ سميرة.

حمدى : نحن أنـاسٌ لا نلج فيما لا شـأن لنا به، ولكنْ خبِّرنى بـالله، كيف استبحتَ عهودَ الأمس تنقضـها ؟

فيم كان تأكيدُك الوفاءَ لسميرةَ إذَن، وعلام الغيرةُ تلهب أحشاءَك كلماطاف بخاطرك شبح مراد، مادمتَ فى حبك لها كاذباً مثلك فى أى حبٍّ تَقدَّم ؟

وحـيد : {كالمخاطب نفسه} أوّاه من غيرةٍ قاتلةٍ فى فـؤادى، ومِن طمعٍ فيه قاتل ! كلما اعتـزمتُ الوفـاءَ رفـقاً بقلبى، سـاقنى نحو الجـمـال المحرَّم نزَقٌ، فـإما ألَمَّ بِى منه عابرٌ غريب، سكنَت نفسى الحائرةُ إلى الحنين وأسلمتُ للحب الجديد قلبى.

هيهات أن يَفِى للفرد مَن وفَى للجماعة إلا أن يضحِّى فى سبيل ذلك تلك، إنما الإيثار للواحدِ، بالكلِّ جُحود، وأنا حبيب الحسْن أينما كان ، وحاشاىَ أن أبيع بالجميل الجمال.

راشـد : الآن ، أنت وحيد

وحـيد : دعك من هذا وقُلْ لى: مَن ذا يكون ذلك الشقلباظ أو القَرَهْ جُوز، إذا كان هذا يروقك ؟

حمدى : إنه لعبتى الجديدة ، وهو على ما تَرى لعبةٌ مسلِّية .

وحـيد : يُخَيَّل لى أنه معتوه .

حمدى : نعم، وإن خبله لَمِن النوع الظريف، فمن خواصِّه أنه يصدق كل ما يقال ولو لم يكن من تكذيبه بُد، ألقيت فى روعه أنه شاعرٌ فصدّق، وأن أسمه الشقلباظ فصدّق، وأن لقبه الأدبىّ شاعر الغرام فصدَّق، وإنى لأنظم القصيدة الساخرة وأمهرها باسمه ثم أقدمها له على أنها من الشعِّر الرصين فيصدق، وهأنذا جاءلك تسمعه، {للشقلباظ مناديا} هيا يا أستاذ شقلباظ، يا حِدِقْ قَرِى . هيا وليستمعْ شاعر الحب لشاعر الغرام .

{يدخل الشقلباظ}

الشقلباظ : أينادينى أحد ؟

حمدى : صحَّ نومك، ماذا فى جعبتك من الشعر الجديد ؟

الشقلباظ : أحسب أن " العنول " آخر قصائدى .

حمدى : هيا وألقها على وحيد .

الشقلباظ : حسناً، لحظةً واحدة حتى آتى بكشكولى .

{يحضر كشكوله وينهمك فى تقليب صفحاته}

وحيد : {للفنانين} وعلى فكرة، ماذا فعلتم بمراد ؟

حمدى : لا شيء، لقد جعل ينبح كأن أحداً داس على ذنَبه.

وحيد : وبَعْد ؟

حمدى : وبَعْدُ سكتَ بعدَ أن تعِب كما تسكت الحمقى دائماً.

وحيد : أف ! إنى أتقزز، تلكُم الطبائع الجعجاعة لا تعجبنى، وإنها لَكالكلاب الضالة، إينما حلّت تثير الصخَب.

يوسف : ها هو ذا وحيدٌ بدأ يعلن غيْرته، لقد أضحى مرادٌ قذًى فى عينيه لأنه يشترك وإياه فى حب سميرة.

وحيد : ولكنّ سميرة لا تحبه.

يوسف : ليكن، إن المحب يخاف على حبيبه اللَّمَم، هو يود لو سجنه فى كهفٍ فما تعود تراه العيون.

الشقلباظ : {فى احتجاج} أما فى نيتكم أن تسمعوا ؟

حمدى : نعم نعم.

الشقلباظ : إذنْ فعلام هذا اللجَاج ؟

وحيد : تفضل يا أستاذ.

الشقلباظ: الآن ألقِى على حضراتكم قصيدة " وحيدٍ العنول ".

حمدى : الله أكبر ! قُلْ، لافُضَّ فوك.

الشقلباظ :

سميرةُ تيَّمها الشقلباظ

ومنذ رأتْ حسْنَه لم تَنَمْ

أحبَّت شعاعاً كومض النجومِ

يضىء بصلْعتهِ فى الظُّلَمْ

فيا عاذلاً فى الهوى لا تلْمها

فيا رُبَّ عاذِل صَبٍّ ظَلَمْ

يغار وحيدٌ إذا ما رآنا

ويرمقنا بعيونٍ، يا دمْ

فأقتل فى وجههِ شاربىّ

وللوغْد سوُسوُ تقول : ياسِمْ

وقانا الفسوخُ عيونَ الحسودِ

وأعطَى الحبيبَ بخوراً يَشمْ

وَفقَّأ كل العيون اللواتى

يعكِّرنَ صفو غرامى المهمْ

الجميع : { يصفقون }

وحـيد : { لحمدى ضاحكاً } أفعلَتها بى يا شيطان ؟

{ يخرج الشقلباظ }

راشـد : الرجل تسرَّب !

حمدى : تلك عادته، لا يستقر فى مكان، دَعْه، سيعود من نفسه.

وحـيد : إنه تحفةٌ ممتعة حقًّا، { لحمدى } من أين عثرتَ عليه ؟

حمدى : فى أرض الله الواسعة.

لقد كان المسكين ينَعم بعقله كسائر الناس، ولكنه أحبَّ فى صباه امرأة خانتْه ومازالت به تذيقه من العذاب ألواناً حتى أطارت عقله، لقد كانت دلاَّلَةً تبيع الحرير للحرائر، وكان اسمها نفوسة، ولقد هام بها إلى حد الجنون، فهجر زوجته وأطفاله واكترى لها منزلا حازها فيه ثم آثرها بدخله، غير أنها جازته جزاء سنمّار، وجعلت من بينها وكراً يقصد إليه الرجال، فما من مرةٍ كان التعِس يَلِجه فيها إلا ويلمح عند عتبة الباب ظِلَّ رجُلٍ مايزال يجدّ فى أثر صاحبه، كأن الله قد انتقم بذلك لأطفاله وأخذ يسوء ما صنع ولكنْ لعله سبحانه قد عفا عنه أخيراً حين ابتلاه بالجنون، فما أحسب غير العقل شيئاً يُشقِى صاحبَه.

وحـيد : كلا يا حمدى، إن المجانين يتألمون مثلنا سواء بسواء.

حمدى : كيف، وهُم غُيَّبٌ من أمرهم ؟

وحـيد : لا يشترط أن يخرج الألم إلى الوعْى كيما نشعربه، إنه قد يعيش في الأعماق ويظل يفعل فعْله في الخفاء كما يفعل السمّ، إن أقلّ ما يقال في المجانين إنهم يشعرون بمضض الحرمان.

حمدى : مم ؟ إنهم لا يدركون شيئاً عما حُرِموه، أيمكن أن يشعر المرء بشيءٍ لا وجود له في اعتباره ؟

وحـيد : يمكن، عندما يكون هذا الشيء واجب الوجود، ما يجب أن يكون هو في حكم الكائن، لأن له فراغه المهيّأ في نفوسنا من قبْل.

هم لا يشعرون بالشيء المفقود ولكنهم يشعرون بفراغه، وإنهم لكَالأطفال، إذا ما أعياهم العجزُ عن فهم ما بهم، سكنوا إلى الوحشة والانقباض وارتضوهما عن الدموع بديلا.

{ يدخل الشقلباظ مذعورا }

وحـيد : { للشقلباظ } ماذا بك يا أستاذ ؟ الدنيا بخير !

الشقلباظ : اللهمّ أحمدك يا ربى وألهج بثنائك، لقد كنتُ الآن من الهلاك على شفا هاوية، ولكنّ الله سلَّم ونجوتُ بأعجوبة.

راشـد : وقاك الله كل سوء، وماذا حدث ؟

الشقلباظ : حشرةٌ خبيثة اسمها " حرامى الحلّة " ظلت تطاردنى زهاء نصف دقيقة، وكنت أقفز وأدور حول نفسى وهى تحاورنى محاورة الجان، إلى أن قيّض الله لى أن أقتلها بضربة عكاز.

وحيد : وهل تظن أن " حرامى الحلة " مؤذٍ إلى هذا الحد ؟

الشقلباظ : الله أكبر ! أما تعلم أن فرصَته مميتة ؟

وحيد : لا، لمْ أعلم بعْد.

الشقلباظ : ها قد علمت، والمصيبة فيه أنه لا يَقرص إلا فى مَقتل.

يوسف : { فى خبث } تعنى أنه يَقرص فى القلب مثلا ؟

الشقلباظ : أىُّ قلبٍ يا أستاذ ؟ إنه يَقرص فى القفا.

راشد : كذا ؟

الشقلباظ : أجَل فى القفا، وصرصور الأذن، وزمارة الرقبة، والخياشيم، والنافوخ، والكيعان والرُّكَب، إنه يقرص فى المَقاتل، ولقد قرصنى مرة فى كُمِّى.

وحيد : مهلك ! مهلك ! فى ماذا ؟

الشقلباظ : فى كمى !

يوسف : سبحان الله ! وهل من سبيلٍ إلى اتقاء شرَّه ؟

الشقلباظ : أفْضل الطرق للوقاية منه على العموم هو أن ينام الإنسان فى نملَّية، أمّا إذا وقع المحظور لا قدَّر الله، فيكاد يُجمع علماء الطب على أن " سلُفات المحْشىِ " هى خير علاج له.

وحيد : { لحمدى } لابد أن يكون هذا التخريف من إيعازك أيضاً يا شيطان.

حمدى : أجَل إنه من دروسى. { للشقلباظ } ألقِ على السادة محاضرتك النفسية فى هذه الحشرة يا أستاذ شقلباظ.

الشقلباظ : لا بأس. { يخرج من جيبه ورقة ويقرأ } حرامى الحلة، ويجَمع على لصوص الحلل، هو اسم حشرةٍ فتاكة امتشقها المعلِّم " كعبلْها " عام ١٩٤٠ بعد الميلاد، عندما غزا الزناتى خليفة قلعة الكبش على ظهور الماعز والحمير.

الجميع : { يصفقون }

راشد : { وقد نظر فى ساعته } حمدى ! لقد سرَقنا الوقت، ويجب أن ننصرف، هيا أسكِت تلميذك.

الشقلباظ : { مستطردا } ومن مضارِّه أنه يسرق الحلل وما إليها من أوانى الطبخ، وله فى ذلك النوع المسمى " حصاوى "، يستطيع أن يحمل حلة بمفرده ويعدو بها بسرعة عشرين أرنباً.

يوسف : مدهش !

راشد : { وقد نهض } هيا بنا، { للشقلباظ } البقية تأتى يا أستاذ. أرجئْها للغد. { ينهضون }

وحيد : { للشقلباظ } أهذا الحرامى الحلة هو الذى بات يكرْبك كل هذا الكرب يا أستاذ ؟ اللصوص كثيرون لو تَعلم، ولكنهم يستخفْون وراء الأوضاع، وكأىٍّ من لصٍّ يسرق باسم القانون ثم يَنسج حُلَّة جاهه من المال المسروق ويباهِى بها مَن سَرقهم، وإنّ شرّ اللصوص هو ذلك الذى يسرقك ولا تستطيع أن تقاضيه، وذلك الذى تضبطه وهو متلبس بالجريمة دون أن تجرؤ على أن ترفع وجهك فى وجهه لتقول له " لص " هؤلاء هم اللصوص الخطرون حقًّا، وأمّا حرامى الحلة، فأنا أؤكد لك يا أستاذ أنه أهون خطراً مما تتصور .

الشقلباظ : لمْ أفهم.

وحيد : نعم، ولكنك تستطيع أن تحفظ، فلْتحفظْ هذا لتلقيه فيما بعد كالببغاء، وتتحدث به للناس كما تتحدث إليهم عن لصوص حلَلِك وكيعانك ورُكبك، والكلام هنا موجَّه لحمدى.

حمدى : أتنتقم ؟ سأجعل منك موضوع قصيدة أخرى يلقيها الشقلباظ .

وحيد : { مداعبا وهم يهمون بالخروج } أخرج إيها الشيطان، إياك وإلا

قرضتُ أذنك.

{ يخرج الجميع ويختفون فى المرج عدا وحيد

فيبقــى فى الكـوخ. تظهر ألفت جالسـة فى

المــرج يقـرب الكـوخ دون أن يـراها أحـد }

ألفــت : { وحـدها } ولَّيْتُ أدبارى ولكنْ لمْ أعُـدْ، ولبـثتُ مكانى مـا على شىءٍ لَوَيْت.

{ بعد صـمت رقبت فـيه الفنانين وهم يغيبـون فى المرج } الآن، عرفتُ أُحِبُّ مَن ؟ ، وتبينت يا قلب مـا كنتَ تفـتقـده. هو أنت يا وحيدُ، ولكنْ ما قيمة ذلك ما دام غيرى قد سبقنى إليك.

كلمـا جمعـتْنى الأحـلامُ على طيفك، ألفيتُ هنـاك طيف سمـيرةَ كسيـرةً ذليلة، فسرعـان ما تأخـذنى الشـفقـة بهـا، وأبادر إلى طردك، ولكنْ، ليت شعـرِى، هل أفلح ؟ كلا إنك لا تلبث أن تعود، نعم تعود، وسميرةُ فى إثرك.

لقد كانت قبلُ تحتلّ قلبك، فـإذا بى اليوم آخذ مكانها وأقصيها عنه، ثم ألقِى بهـا إلى البـاب، فـمـا تلبث أن تصـبح غـريبـةً على البيت الذى كانت بالأمس ربَّته. ما أفظع غدر الزمن ! وما أشقَّ رؤية الضـحية ! شدَّ ما يروِّعنا النسيانُ بعد الذكْر، والزوال من

بَعد الوجود.

إن فكرة الفناء في ذاتها ترهبنا، لأنها تصدم فينا حبنا للحياة، فعندما تنوى زهرةٌ كانت من قَبْل تتألق، أو يسكن طائرٌ كان فيما مضى يغنِّى، فهنالك ثورةٌ أعلنها الفناءُ على الحياطة، أو علينا نحن في شخص الضحية.

كلا، إنى لا أطيق رؤية إنسان يتعذب، لابد أن أقتل فى نفسى هذا الحب، إننى بذلك أحكم على قلبى بالموت، ولكننى أشيعه مرتاحة الضمير.

ولَئِن عصَف اليومَ بَى الحزن، فغداً يستقرّ اللهب ويصبح جمراً يحزُّ فى صمت، ومن يدرى، لعل بَعد غدٍ يسلو القلبُ فلا جمرٌ هناك ولا لهب.

أىْ وحيد، أنا فى حبك أرجو وأزهد، بقَدْرَ ما تشيعِ الحياةُ فى جوِّه كلما نفَخه أريجُك، يشيع العدمُ فيه كلما طاف به شبح سميرة.

أجَل، إن حبى لك لن يقوم إلا على أنقاض حبٍّ آخر، وأنا أكره أن استمتع بثمرةٍ هى مما يتمخض عنه الفناء ولو كانت فى ذاتها شهيةً محبوبة.

أنا أشمئز من الفناء، ولذلك أزهد فى حياةٍ تتخلف عن أخرى

مادام الفناء واسطةً بينهما.

{ وقد نظرت فى المرآة } ويحى ! مالى نويتُ وأصبحتُ كزهرة الخريف، ولمّا تَمْضِ على نكبتى غير برهة ! ولكنْ لا، إن النضرة ماتزال تنضح من شحوبى، وما تزال الوردة الذابلة تتحدث عن حسنها الغابر،

بل إن الوجد لَيزيد من جمالى ويجعله إلى القلوب أقرب.

لو إن وحيداً رآنى الآن، لَفُتِنَ بى أكثر مما مضى وتَدَلَّه، أجَل، كم ذا يستهوِى الوجهُ الحزين فؤادَ الشاعر! ولكنْ مَن لى بذلك ومِن الإثم أن أمضى إليه ! ما أنسب الظرف الساعة كى ألقاه ! لقد انصرف زائروه والجو خلا، لولا ضميرى مازال هن، نعم، إنه ينبغى أيَّان تلفَّتُّ وعيونه اليقظة ترمقنى، لا، لا، لن أمضى إليه.

{ وقد نظرت إلى زهر فى صدرها } لو أن لى قِبَلاً بلقائه، لقدَّمتُ إليه بعض أزهار البسلَّة تلكِ، إنه يشغف بها وكان يضع منها فى صدره، ولكنْ لا، إننى لن أمضى إليه.

{ وهى فى طريقها إلى باب الكوخ } ما أبدعك من زهرة ! وددتُ لو أتيح لى أن أضع واحدةً منك فى صـــدره، وأناوله أخـــرى يرشقها فى شَعرى، ولكنْ، آه ! أين أنا ذاهبة ؟ لمَ أسلك هذا

الطريق ؟ أية قوة تلك التى تدفعنى فيه ! لا، يجب أن أعود من حيث جئت. إن ضميرى قد نهانى، ويجب أن أمتثل، آه ! ما لقدمىّ لا تطاوعاننى ! يلوح لى أن الطريق من الخلف غير معبَّد، وأن غولاً اسمه الحرمان يكمن لى فيه.

ما أجمل الطريق أمامى! أرى ظلالاً على جانبيه، وَجنةً فى منتهاه، غير أن شبحاً للضمير يختبىء بين أشجاره، ولكنْ لا، سأمضى فى سبيلى غير مكترثة، إن عبير الزهر ما يلبث أن يحجبه وراء ضبابه المتكاثف.

رباه ! كل شىء يحذِّرنى من سلوك هذا الطريق، ومع ذلك انطلق فيه ! نعم أنطلق، كأننى طائرٌ ملَهمٌ تُسيِّره قوةٌ من الأعماق.

لا فائدة، هأنذا قد خلَّفتُ ضميرى ورائى، وها هو ذا شبحه يغيب شيئاً فشيئاً وعمّا قليلٍ يختفى.

نعم، إن ضميرى ينهانى، ولكنّ قلبى يحثُّنى، الضمير عدلٌ وحق، ولكنّ القلب قوةٌ وجبروت، للأول المجدُ وللأخير الغلبةُ والانتصار، إن ضمير الإنسان لمَّا يَزِنْ عواطفَه بعْد .

ويلى ! إن طيف سميرةَ عاد يلاحقنى، ولكنْ يَغلب على ظنى أنه غُلِب على أمره، إنه يبدو منهوكاً مكدودا ويوشك أن يسلِّم، يجب أن أُجْهز عليه فى هذه الفرصة، أجَل، كيْلا تقوم له قائمة.

لم أعُد أحفل بالطيف أو أقيم له وزْنا، لقد بلغ من الإعياء حالة يُرثى لها، ها هو ذا ينكص على عَقِيبه ويتعثر فى أذياله، هاهاها، يا للفضيحةِ، يا للعار ! أيها الطيفُ، إلى الجحيم ! إلى الجحيم !

قُضِيَ الأمر والطيفُ ذهب، لا أحسبه يعود فلقد مُنِيَ بشرٍّ هزيمة، إنْ عاد لاستحق اللعنة منى والانتقام، أجل، إنه يقيلق راحتى وينغص علىّ هنائى، إنه آثم، إنه شرير.

بعد برهةٍ أو أقَل سأكون بين يدي، حالَمَا أراه، سأندفع إليه فى خفة السهم ومضائه، سأرتمى بين أحضانه وأروح أشكو إليه، ثم أقبّله وأبكى.

{ وقد طرقت الباب } وحيدُ، هأنذا مواتية، هلمّ وافتحْ لِى بابك وتَلَقَّنِى بوجهٍ جَذِل، وحيدُ، هلمّ إلىّ أىْ حبيبى.

{ يفتح وحيد الباب ويدخلان ثم يغلقه }

وحيد : يا مرحباً ! إذن فأنت لم تغادرى المرج.

ألفت : هو ذلك.

وحيد : تفضلى، ولكنْ لمَ أفلتِّ منى ؟

ألفت : أفْلَتَ بِى ضميرى، غير أن قلبى لم يلبث أن لحق بنا فى الطريق،

فانتزعنى منه وعاد بِى على الرغم منى .

وحـيد : إذنْ فلقد كنتِ أزمعتِ فراقى إلى الأبد.

ألفـت : نعم، ومع ذلك خففتُ إليك كأننى منك على موعد.

وحـيد : { وقد فتح لها ذراعيه } حبيبتى ! هلمى إلىّ، لقد كنت فى التوّ أذْكرك.

ألفـت : كيف ذكَرتنَى ؟

وحـيد : أطريتُ جمال عينيك.

ألفـت : صه، أنت كلُّ العيون تعجبك.

وحـيد : ولكنّ عينيك من دونها أحببت.

ألفـت : شاعرٌ أنت قد اعتاد الكذب.

وحـيد : رُبَّ كذابٍ تبلَّج له الحق فصَدَق.

ألفـت : وماذا فى عينىّ ؟

وحـيد : أرينيهما،{ وقد تأمل عينيها } يقولون إننا نضلّ فى الظلامِ، ولكننى ضللتُ فى نور عينيك يا حبيبتى !

كلما لاح منهما النور، زاغ الوجودُ فى عينىّ ورحت أهيم فى شعاعهما المريب على غير هدى، إننى ما اهتديت إلى شىءٍ، لا

ولا بحـثتُ عن شيء، ولكننى فـقط كنت أحسُّ فى أعـمـاق قلبى بانفعالات جمةٍ خالَطها الغموض فأكسبها حلاوةً ولذة.

لو دريْنا ما سـحْرُ العيون يا حبيبتى لَمَا راعنا بَعد اليوم عبْثُ العـيـون السـاحرة، هو لغزٌ فـيـه من لَبْس الغـمـوض بيـانٌ، ومن مَضَلَّةِ الإبهام يقينٌ وهُذى

ألفــت : ماذا ؟ أسمع وقع أقدام.

وحــيد : أجل، وإنها لتقترب، ابقَىْ مكانك حتى أرى.

{ يخرج وحيد ويلف حول الكوخ }

ألفــت : { وحدها } مَنْ تُرى يكون القادم ؟ لكم أخشى أن يكون سميرة ! بأى وجـهٍ ألقـاهـا إنْ كـانت هى ؟ ثم كـيف أطيق صـبـرا على رؤيتها مع وحيد ؟ كم ذا أنفِس عليها لأنها تزاحمنى فيه ! أجَل، مَنْ ذا الذى يحِب ويطيق رؤية غريمه؟

وددت لو صفيّتُ هذه المسألة معه لأضع لنفسى حدًا لهذا القلق ! ولكن لا، أولْى بِى ألاّ أنبش النار حـتـى لا أذْكى اللهب، إنـى لأخشى إنْ أنا أزحتُ القناع عما وراءه، أن يلتقى الضـمـيران ضميرى وضميرُه، فيستحى كل منهما من الآخر، وما يلبث أن يفرّ بصاحبه فلا يعود يلتقى الخائنان، أنا وهو.

نعم، يجب ألا أتورط فى كل ما من شأنه أن يوقظ فيه الضمير، لأدَع العنكبوت ينسج عليه خيوطه، ولأمهِّدْ بالسكوت لذلك. كل ما حَجب الضمير، إنْ هو إلا أوهَى من خيط العنكبوت، فلأحْذرْ، فإن لمسةً واحدة تهدم منه نسْج أعوام.

{ يعود وحيد إلى الكوخ }

وحيد : لا أحد وجدْت.

ألفت : إذنْ ما الذى أحدث ذلك الصوت ؟

وحيد : لا أدرى، ربما كان خروفاً شَرَد.

{ يظهر مراد فى المرج }

مراد : { وحده } صَدَقَ إذْ تَنَبَّأ حَدْسِى، ها هى ذى الخائنة فى الوكر مع الخائن، ولقد ولجتْه مرتين.

كان ظهورها فى طريق الكوخ غيرَ مفهومِ السبب، ولقد نمتْ ريبتُها عن إثمه، وأرابتْنى، فارتبتُ، فتعقبتُ خُطاها، والآن والظنُّ تَحقق، فإنِّى لَمكتشفُ سراً مِن ذهب.

ذلك السر، شَدَّ ما يَخدم حبى، إنه لكفيل بأن يزيح وحيداً من طريقى، { وقد أنصت لأصوات قبل وضحك } مَرْحَى ! مرحى ! ها هو ذا صريرُ القُبَل يُدوِّى، وها هى ذى ضحكاتهما المرحة

ترنُّ فيرجِّع صداها الغاب، كل هذا وأنا هنا أبكى خيبتى، وسميرةُ هناك تتآمر المقادير بها، بينما الموكَّل بتعذيبنا غارقٌ فى اللهو لذقنه.

كان حُبُّ الشقِّى نكبةً علينا معا، هذا الحب، جديرٌ بالمقادير أن تعلِن حربهَ، إنْ يُسْحَقْ، فلقد تحيا على أنقاضه مهجتان.

إن سميرةَ لَفتاةٌ جِدُّ نَزِقَة، حبذا لو نسيَتْ حبها، ولِصوت العقل أصغت، هى إن تركتْ وحيداً وقَبِلتْنى زوجا ،فلَنعمَ الزوجُ أنا.

{ يبصر سميرة قادمة فى المرج. وفى الوقت نفسه

يظهر الشقلباظ ويطـرق باب الكوخ دون أن يراه

مراد فيفتـح لـه وحيـد ويدخـل يغلـق البـاب }

مـراد : { وحـده } مَنْ ! سـميرة ؟ ياللَّفرص المواتية والحظ الحسَن! حيَّرتْنى طريقةُ أُنهِى بها إليها الخبر، نعم، لكم خشيتُ أن تنكر أمرى وتظن فى القول وشاية، ولكنها الآن أنت لترى وتسمعَ بنفسها، آه، لو يَعلم الخونةُ أن الأسرار ما تلبث أن تفتضح !

رباه ! لمَ رقَّ لها قلبى ؟ أحقًّا إنْ هى علمتْ يقتلها علمُها ؟

إذَن ففداك يا سميرةُ الخائنان ومـرادُ وما يعلمَ، إن تكونـى

أنكرتِنى، فالقلب طوعاً أَحبَّك، أنا أخشى على عينيك الدموعَ وإنْ لم تذرفى الدمع من أجلى.

ولكنْ، نعم ولكن، كيف أسكت وأترك سميرةَ فى عماها يسْخر من براعتها القدر، ويشيّعها من وراء الستار باتساماته المقيتة ؟ كلا، إن مثل هذا التآمر الخفىّ من جانب القدر، ليَنتهك حرمة حسْن ظنها به، ويُلصق بها سذاجةً تزرى بها، بل يجب أن تعْلم سميرةُ لئلا تَدَع للأقدار عليها من حَرَج، أجَل، يجب ألاّ سميرةُ غِرَّة.

{ تدخل سميرة }

سميرة : { لنفسها وهى لم تر مرادا بعد } وأخيراً لقد وصلتُ لاهثة. كان يجب أن أعتكف لمرضى، ولقد كنتُ عوَّلت على ذلك، نعم، هذا ما كان ينبغى، ولكنْ، ألحَّ الشوق أخيرا فأطعت.

مــراد : { وقد تقــدم نحــوهـــا } أهذه أنت سميرة ؟ طاب مساؤك أيتها العزيزة.

سميرة : طاب مساؤك. فيم أنت هنا ؟

مــراد : لقد جئت أنقِّب عن سرٍّ.

سميرة – لعله سرى ؟

مــراد : كلا، سرُّك كشفتُه، ثَمّ سرٌّ آخر

سميرة : سرُّ مَن إذَن ؟

مــراد : أحسبه سرَّ حبيبك.

سميرة : وحيداً تقصد ؟

مــراد : أجَل.

سميرة : ماذا من أمره ؟

مــراد : آه يا سـميرة ! لِمَ بربك تصرفتِ هكذا ؟ لقد طالما لُحتُ لك بالزواج لنعيش معاً عيشة الأزواج الصالحين، ولكنك أبيت إلا أن تطيعى هواك، فكان ما كان ووقعتِ فيما لابد واقعٌ فيه كل من يتْبع الشيطان.

سميرة : { فى غضب } وبعْد ! هلاّ كففتَ عن هذا الهراء ؟ قلت لك مرارا لا تتحدث عن ذلك الذى تسميه الزواج.

مــراد : رويدك يا سميرةُ وأقلِّى من عَنتك، لا تَدّعى الجمالَ والشبابُ يركبانكِ أنفَك، ولْتطيبى نفساً أكثر من ذلك.

سميرة : أتعنى أنك تَعظِنى ؟ دع هذا وقُل ما وراءك.

مــراد : آه يا سميرة ! شىء.

سميرة : مرادُ، إنك تخفِى أمراً، فهلاّ تكلمْت ؟

مـــراد : ماذا أقول ؟ إنّ وحيداً يخونك يا سميرةُ، ومع أقرب الناس إليك.

سميرة : ويحك، أواثقٌ أنت ؟

مـــراد : كـــل الثقة، أومَا ســـبق لى أن حذَّرتك منه ؟ أوَما ما قلتُ لك إنه امرؤٌ بغير قلب ؟

سميرة – رباه ! ولكنه تاب على يدىّ وأَحبنى.

مـــراد : كـلا لمْ يتب، إن الغـــدر لَكامـنٌ فى طبعه، مسكينة ! ها أنت ذى تجنين عاقبة طيشك.

سميرة : أوّاه لا تعـــذلْنى ! ترفَّــقْ بـــى، ولكنْ كلا يا مراد، إن وحيداً لا يخوننى، إنك تكذب.

مـــراد : بل الصدق ما أقول، أوتريدين أن تعرف من يخونك ؟ ولكن لا، إنه لَمن القسوة أن تعرفى.

سميرة : مع من ؟ قلُ. تكلم.

مـــراد : أخشى عليك هول الصدمة.

سميرة : قـلْ يا مـــرادُ فلقد قـال لى قلبى كل شىء، وكنت أكذِّبه لا لأنى شككت فى صـــدقـــه، وإنما لأنى لم أكن أود أن أصـــدِّق. أوَ تحسبنى كنت بحاجة إلى أن أعرف منك الخبر ؟ كلاّ، إن المحب يَرَى بقلبـه، وعين القلب تـخـتـرق الـحُـجُب، وتَرَى الخـيـانة فى

مخدعها حين تحسب أنها فى مأمن، قَلْ يا مرادُ بربك، مع من ؟ أمع ألفت ؟

مــراد : ألفت، وإنها لفَى الكوخ الآن عنده.

سميرة : ويحك ! ولكننى أنا التى بعثتُ بها إليه.

أفرأيتَ كيف أن ظنك أخطأ ؟

مــراد : هل تحسبين أن مجرد وجودها معه هو كل شىء ؟

سميرة : وماذا إذَن ؟ أثَمَّ شىءٌ غير هذا ؟

مــراد : نعم، لقد مضى يقبِّلها.

سميرة : يقبلها ؟ آه ! لقد نَفَذ السهمُ الذى لاح لى شبحه !.

{ تتهالك على الأرض }

مــراد : هوِّنى الأمر عليك يا سميرةُ فما من شىءٍ إلا ومع الزمن يمَحى، ولِئن استبد اليومَ بك الحزن، فغداً لقد يدركك النسيان وكأن ما كان لم يكن، إن مستقبلاً سعيداً ينتظرك إنْ أنت عدت إلى عقلك ورضيت بى زوجاً لك، فلْتفكرى مليًا فى الأمر وما عليك إلا أن تأمرى، فإذا بِى رهْن إشارتك.

سميرة : صه يا مرادُ، إنك تختلق، إنك تَشِى بوحيدٍ لأنك تريدنى لك، نعم، هو ذلك.

مــراد : تعالىْ وتأكدى بنفسك. هيا، ومِن الكوخ اقتربى وأنصتى .

سميرة : كـــلا لن أنصـــت، فى بيوتهم يُرْخَى على الناس والأمان، أنا لا أقتحم على امرئٍ مَغْلق سرّه.

{ كالمخـاطبـة نفسـهـا } آه، ألفت ! أنا مـا اتهـمـتُكِ ولكنّ قلبى استطباك. رباه ! لا أكاد أصدِّق. مَن يدرى ؟ ربما كنتُ أظلمها.

{ يخرج وحيد وألفـت من الكـوخ

ووراءهما الشقلباظ يهلل ويضحك }

وحــيد : { لنفسه فى ارتباك } سميرة ؟ أفى حلُمٍ أنا ؟

ألفــت : { لنفسـها } رباه ! أوشك سرُّنا أن يفَتضح، أجَل، لقد لبثتُ هنا أكثر مما يجب، وردُّ الخطاب نسيتُ أمْرَه، وحتى وحيدُ نسى أن يكتبه.

{لسميرة} مســاء الخيـر يا سميـرة، مفاجـأة سعيدة.

وحــيد : { لسميـرة } طاب مساؤك يا حبيبتى، لقد كان أقلقنى خطابك، فهل لَى الآن أن أطمئن ؟ ألم تستردى صحتك الغالية ؟

سميرة : أحمد الله على كل حال.

ألفــت : { مـشيـرة إلى وحـيـد } إن السـيـد لم يشـأ أن يكتب لك رد خطابك لأنه آثر أن يراك بنفسه.

سميرة : تعنين أنكما كنتما الآن فى طريقكما إلىَّ ؟

وحـــيد : هو ذلك يا مولاتى.

سميرة : سبحان الله ! ولكنك غير مرتدٍ ثيابك !

وحـــيد : وماذا، رعاكَ الله، يرتدى الرعاةُ أكثر من هذا ؟

مـــراد : حتى وإنْ هُمُو زاروا المدن ؟

وحـــيد : { وقد رمق مرادا } ؟

سميرة : وبابُ كوخكَ، لمَ لمْ تغلقه ؟

وحـــيد : أوَ يدهشك هذا ؟

سميرة : أجب.

وحـــيد : ربما العجلةُ أنستنى ذلك ؟

سميرة : العجـــلة ، فيـــم ؟

وحـــيد : كيما أراك.

سميرة : أحقًّا هذا ؟ ولمَ إذَن أطلتما المُقام هنا ؟

مـــراد : هِـهْ ! ومـع ذلك فإن السيد يصرّ على أنه على عجَل !

وحـــيد : ماذا تقول ؟ من أنت أولاً ؟

مـــراد : أنا مرادُ ؟ أنَسيتَنى ؟

وحــــيد : ومن ذا يكون مرادُ هذا؟ أتقصد به ذلك الموتور الذى أكل الحقد قلبه.

سميرة : دع هذا يا وحيدُ وأجب. كيف يكون مبطئاً مَن كان على عجَل ؟

وحــــيد : سميرةُ، مـا هذا التحدى؟ إنْ كنتِ تَحفظِين علىّ لشىءٍ فلمَ لا تفصحى ؟

ألفـــت : أختاهُ مـاذا دهـاك؟ لَئنْ كـان أبطأ السيد بعض الشىء، فلأنه كان يتلو علىّ قصيدة، لقد استلفتت نظرى عنده، وكان كريماً فأبَى أن يمضى دون أنْ يرضىَ فضولى.

سميرة : تريدين أن تقولى إنه آثر هذا على التعجيل برؤيتى ؟

وحــــيد : معـاذ الله، كـل مـا فى الأمر أنه لم يكن فى التأخير ضيرٌ لأن الآنسة كانت قد طمأنتنى على صحتك.

سميرة : أيها السيدُ، ما بالك قد خانك ذكاؤك. أنَسيت أنك منذ برهةٍ قلتَ إنك كنتَ من العجلة بحيث فاتك أن تغلق بابك.

وحــــيد : الواقع أن ترْك الباب كان محض سهْوٍ لا شأن للعجلة فيه.

سميرة : تعنى أنك تعدل عن كلامك؟ إذَن فاعلمْ أنه ليس للحقيقة وجهان، ومادام الأمر كذلك، فالذى قلتَ الكذب.

ألفـــت : وهل تنفى قراءة السيد للقصة أنه كان على عجل، كل ما هنـالك

أنه أخطأ حساب الزمن الذى كانت القراءة تقتضيه، والظاهر أنه قدَّر لذلك من الوقت أقل مما كان ينبغى، إلا لَما تورط فيما من شأنه أن يؤخره عن رؤيتك.

سميرة : أمَا زلتِ مصممةً على أنه كانت هناك قصة ؟

وحـيد : إى والله ! وإنها لَقصةٌ ممتعة، واسمها إخلاص.

سميرة : {فى تهكم} اسمٌ جميل! ذو مغزىً جميل!{لألفت} أليس كذلك؟

ألفت : الإخلاص؟ نعم، ما أجمله!

مـراد : {فى تهكم} ولذا تحليتِ به.

ألفت : أحمد الله على ذلك.

مـراد : أية جرأة!

ألفت : خسئتَ! أتستكثر الإخلاص علىّ؟

مـراد : بل أُنكره.

وحـيد : أتلطمينه أم ألطمه ؟

سميرة : {لوحيد} دعه، إنّ معه حجته.

ألفت : ما هى؟

مـراد : القُبَل.

ألفـــت : أية قُبَل !

الشقلباظ : {فى عبط} آهْ هاها! القُبَل! القُبَل !

وحـيد : {فى ارتباك} دعا مرادا المـأفونَ يهذى، شـقلباظ اذهـبْ وائتنـى بالقصـة أريهـا لسـميـرة، إنـهـا هناك فـوق الرفِّ الحَطَب، هيّـا واذهب أيها الرجل الطيب.

الشقلباظ : {فى عبط} الحطب؟ الحطب؟

{يذهب الشقلباظ}

سـميرة : {لنفسها} وحيدٌ خَشِىَ الشقلباظ فنَّحاه !

ألفـــت : أتتهماننا؟، إننـا والله لبريئـان، بعثتنـى برسـالـة فـأوصلتُهـا، واستلفتَت نظرى قصةٌ فقرأتها. أىُّ غبارٍ لعمرك علىّ فى ذلك!

سـميرة : {لألفت} شَعرُكِ المشَّعــث لا يؤيـدك، وعيناك القلقتان تكذِّبانك، مُتعباً أرَى من التقـيبل فمَكِ، وفتـورُ العناق بادٍ فى سَقـامك، ومضَى معفَّراً بالتراب مَنكبُكِ، والعشْبُ قد غطَّى ثيابك، كل مـا يحيط بك يا ألفتُ يقطع بأنك خالصةٌ للتوِّ من بين أحضان رجل، تُرى مَن ذا يكون ذا الرجلُ الذى كسا القشُّ عشَّه وعفَّر الترابُ مزاره ؟ تُرى سرُّ مـا ذلك السرُّ الذى تلعثمتِ فيه والتوَى عليكِ فيه لسانك ؟

ولَعمرى لقد استحَت عيناك من النظر إلىّ، ووضَح النفاقُ من هذيانك، كل شىءٍ يريبنى فيك يا ألفتُ ويدفع الظنوّنَ إلى اتهامك.

{يعود الشقلباظ يحمل حطبا}

الشقلباظ : {لوحيد} هاكَ الحطب. أه هاها! القُبل! القبل !

سميرة : أية قُبَلٍ تعنى يا شقلباظ ؟

الشقلباظ : {يشير بأصبعه مترددا بين وحيد وألفت} لقد جئت، أبحث عن دبوس إبرة نسيتُه فى الكوخ، فتركنى هذا {مشيرا إلى وحيد} وراح، آهْ، يا حبيبتى نفوسة ! {يبكى}

مراد : ها قد وضَح الحق على ألسنة المجانين.

{تتهالك ألفت على الأرض}

وحيد : سميرة ! اصفحى عنى.

سميرة : {فى ألم} ليت الصفح ينفع، فيعيدُ لِى الصفاءَ الذى كان، أو ليتنى أنساك فأبْرأ، فهيا أيها القلب وودِّعْ عهودَ خلوِّك، ولْتعشْ مغلقاً على دائيْن من حبٍّ ومن حزنٍ مقيم، وأنت يا وحيدُ سواءٌ علىّ أن تَصلَ بعد اليوم أو تَهجر، ما دام جرحِى على الحالين غيرَ مندمل، فليكن ألاّ أراك بعد الآن حتى لا يعرِّض كبريائى

للهوان وجودُك، حين يذكِّرني بمأساةٍ كنتُ فيها الضحية، فهيا اذهبْ واغرب عن وجهي إلى الأبد، ولا تنْسَ أن تحْمل خطاياك معك، ودَعْ عنك صفحي فما هو مما يجديك ولا مما أنا عليه قادرة، اذهبْ، لقد وكَلتُ أمرك إلى الله.

{يتوارى وحيد}

{لمراد} وأمّا أنت يا مرادُ فإذا كان ثَمَّ ما أقوله لك، فهو أن شأني معك لن يتغير ما دام المعروف وحده لا يكفي لنيْل قلب امرأة، فامضِ أثابك الله إلى حال سبيلك، وليعوضك المولى جلَّت قدرته، خيراً عن غرام خبِتَ فيه.

مراد : {لنفسه} ربـاه، أما لألمي من نهاية ؟ {لسميرة} ولكن أمَا أبقى إلى جانبك أشاطرك حزنك ؟

سميرة : شكراً، سأتحمل العبء وحدى.

مراد : وماذا تبغين من وراء ذلك ؟

سميرة : أنْ أحتفظ بعزة نفسي، إني لأشعر بالامتهان حين يشهدني الغيرُ أتألم، أريد إنْ بَكيت، أن أبكي وحدى وفي إباءٍ وصمت، لا أطيق أن أرى دموع الإشفاق تشيعني أينما ذهبت، ولا أن أستمع لكلمات العزاء تتْرى في أذنيّ، إن هذا يقتل كبريائي ويعجِّل بي الخطَى إلى القبر.

اذهب فى حراسة الله.

{يتوارى مراد}

سميرة : {وحدها} كان حبى فى قِصَرِ الحُلُمِ وكَذِبِه، وُلِدَ ومات فما أثمر إلا أوهاماً قَلِقة، لم تلبث أن انقشعَت بعد أن شوَّقتْ الفؤاد وفتَّحتْ مغالقية.

أىْ وحيدُ، أحقًا أنك رحت تخونني، ومع ألفت ؟ أحقًا أنك لم تكن صادق الوعد، وأنك لست فى حبِّك اليوم غيرَك فى أمسِك، ولا أنت فيه معى سواك مع غيرى ؟ أحقًا أنك لم تزل كسالف عهدكَ، تُوقع القلوب فى شَرَكِ هواك لتعبث بها حيناً ثم تتركها نهباً للوعة الوجد وناره ؟

أحقًا أننى مودِّعتكَ اليوم ولمّا يَحِنْ لقلبينا لقاءُ، وأنى أطْرح الكأس ولّما يُتَحْ لشفتىَّ لمسُها ؟ آه ! ما أقصر أيامى وأطولَ بَعدك يا وحيد !

" ستار "

الفصل الرابع

المنظر الأول

سميرة فى حديقة منزلها. الوقت
ليلا والقمر مطل.

سميرة : {وحدها} هنا يا ألفت، وفى هذه البقعة، جفَّفتِ لى بيديكِ دموع الأمل، واليوم يجفف اليأسُ دمعى بسببك، هنا يا ألفت، وعند هذه الشجرة، اجتمعنا فى ظل الصفاء معاً، واليوم أقف فى هجير غدرك وحدى.

{يسمع صوت حمامة تنوح}

هذه الشجرة يا وحيد، التى كنتُ آنس بجوارها لأنها تُقرِّبك إلىّ، بتُّ اليوم استوحش منها منذ راحت تُبعدك، لأن القلب إذا دعاكَ اليومَ لن تعود تلبِّى، مع أنى لم أزل وسأظل أحبك.

طيفك، الذى كنتُ قبلاً أتشبث به لأنه يجمعنى عليك، أصبحتُ اليوم أطرده لأننى لا أظفر منه بك، لأن العين إذا أهابت بك

اليوم لن تعود تلبِّى، رغم أنى لم أزل وسأظل أحبك.

صوتك، الذى كنتُ فيما مضى أترنم به لأنه يتحدث منك، صرت اليوم لا أردده لأنه يتحدث عنك، لأن الأذُن إذا نادتْك اليوم لن تعود تلبِّى، حالَ أنى لم أزل وسأظل أحبك.

{يسمع نواح الحمامة}

آه ! إن الغد لا يميت الحبَّ، بل يزيده لهباً على لهب، ولكنه يكْسر القلبَ فلا يعود يبتهج للحب كما كان، ومايزال بنفسه يبخسها ويصدها إلى أن يذبل ويجف، اللهم إلا من بضع قطراتٍ من الدمع القديم تبقَى متعلقة به كما يتعلق الندَى بالزهرة الذابلة.

وكما تبكى الزهرةُ الذابلة بدمع الندى، تبكى القلوبُ الكسيرة بما نضب من دمعها واستحال مع الأيام فى الجوانح ذكْرَى، إنها حين تنوى، تُقفرِ من كل شىء حتى من الدمع الذى تمضى تستعيره من ماضيها، وتذرفه ألماً صامتا لا أثر للماء فيه.

{تسمع أغنية حالمة من الراديو ما تلبث سميرة

بعدها أن تأخذها سنة من النوم، وبعد برهة

تدخل مبركة وخلفها حمدى وراشد ويوسف}

مبروكة : {فى همس} إنها نائمة، أو أوقظها؟

حـمدى : كلا، ننتظر حتى تصحو. {يجلسون}

مبروكة : بمَ يأمر السادة ؟ أبقهوةٍ أم شاى؟

حـمدى : شكرا، لا هذا ولا ذاك، إننا من توِّنا شاربون قهوة.

راشـد : تُرى عاد والدها من سفره ؟

مبروكة : كـلا لم يعُد بعد، إن سيدتى تعانى آلام الوحدة فى هذه الأيام، فأبوها قد سافر، وأمها كما تعلمون ماتت منذ نعومة أظفارها وتبعـها أخوتُها، ولولا ذهابها إلى المسرح فى أوقات العمل، وزيارتكم لها بين حين وحين لقضى عليها السأم.

مسكينة ! منذ أن نُكبَت فى حبها وهى لم تعرف الراحة، ولقد ساءت حالتها فى أيامها الأخيرة، فصارت لا تذوق النوم إلا غراراً، وكثيرا ما تهبُّ من رقادها فَزِعة ثم تأخذ تهذى، هذا إلى أن شهيتها للطعام قد قلّت بدرجةٍ تثير القلق، حتى لأذكر أنها لم تذقه ليومين.

حـمدى : مسكينة ! لها الله.

{تخرج مبروكة ويسمع صوت

رجل يتوجع عند سور الحديقة}

الصوت : هـا قـد أشـرفتُ علـى الـدار التى تسكنين، النسيم الذى يخَفق يحمل إلىّ أنفاسك، والقمر يسْطع، يتبسَّم نوره عن طيفك.

راشــد : أما تسمعان؟ إنه شوكت، ذلك التعس الذى يحبها، جاء يطوف ببيتها متوجعاً بعد أن طردته.

الصوت : {مستطردا} مِن بَعد شـهرٍ قـضَيتُه فـى الريـف أتـداوىَ، هـأنذا أعودُ والنارُ تَرعىَ كهدها فى الحشـا، واللهب باقٍ فى الضلوع كما هو.

سـميرة ! يا مَنْ سقانى نورُ عينيك من الصبابة ناراً، لو أنْبَتَ فىّ الوردُ من وجنتيك اصفرارا، هل من سبيلٍ لأن أسلو أو أنال رضاك ؟ أنا مِن بَعد غيبةٍ أعودُ، أفَمِن مَطمعٍ سوى أن أحجَّ لدارك ؟

وداعاً ! وداعاً ! يا حبيبتى، وفى حراسة الملائكة نامى، لا ذقتِ السهاد الذى يقرِّح جفنى.

وداعاً يا مَن أرَّقْتِ بناعس الجفون عيونى، وليْهنأ بالنوم طرفُك الساجى، فى حين أصحو أساهر النجم وحدى.

يا دموعاً تشْبه غيثَ الغمام وتحكى قطرات الندى، حتّامَ يستمر هطلك وقد جفَّت مآقيك !

أيها الليل الساجى متى تَنْفض عنك وحشتك ؟ ومتى ينبثق ضوء الفجر فيبدد ظلمتك ؟ إنّ ساهرك ليستوحش فى دجاكَ ويرقب بَعد طول النوى صبْحك.

حـمدى : إن التَّعِس يظن أن سميرة ماتزال سعيدةً تنام قريرة العين كما كانت، وأغلب الظن أنه كان فى رحلة قدِم منها من فوره، ولا يعلم شيئاً من أمر نكْبتها، ولا فى أى حالٍ من البؤس هى.

راشـد : حقًّا إن عالَمَنا ملىءٌ بالشقاء، ويكفى أن يفتح الإنسان عينيه جيداً، فلا يقع فيه إلا على بائسٍ أو مخزون.

يوسف : الذى لا أستطيع أن أفهمه، هو كيف أن سميرةَ لم تَسْلُ وحيد؟ لمَ لمْ تَنْسَه كما نَسيها وتتقلب فى الهوى مثله، مع أن كِلا الاثنين فنانٌ وعلى دينٍ فى الحب واحد ؟

حـمدى : كـلا يا يوسف، إن الفنان على تقلبه مثْله مثل أى عاشق، لن ينَسى غراماً فشل فيه، لأن الفشل عندئذ يعذبه بالحرمان الأبدىّ، الذى يلهب الحب فيغدو وما من شىءٍ قادرٌ على أن يطفئه سوى الموت، هذا هو الوجه الدقيق للمسألة، ولو أن سميرةَ كانت هى التى بدأت بالنسيان، لَمَا استطاع عندئذ أن يَنْسَى وحيد، فالنظرية صحيحة، وإنما أدت إلى هذه النتيجة لأنها انطبقت كما ينبغى أن تنطبق.

على أن ما أخشاه على وحيدٍ هو عذاب الضمير لا عذاب القلب، حقيقةً ليست هذه أول مرة غدَر فيها، ولكنّ غدره فى هذه المرة بالذات يوشك أن يقترن بجريمة كبْرى، تلك هى القضاء على سميرة من جراء حزنها، إن ضميره الآن ما يزال مختفياً وراء صخب الحياة، ولكنّ حَدَثاً ربما وقع فهزّه من الأعماق وبَعث من الرقاد ضميره.

نعم، فلقد أصبحتُ شديد القلق على سميرةَ لشدة ما بدا عليها من تغيُّر، وأخشى أن ينتهى أمرها بفاجعة تأخذ فى أذيالها وحيد.

راشـد : ولكنْ هناك شيءٌ نسيتموه، ومن أدراكم أن وحيداً نسَى سميرة؟ حقيقةً هو خانها ولكنّ هذا لا يعنى أنه نسيها، إن قلب الفنان، وقلب وحيدٍ على الخصوص يتسع لأكثر من واحدة، وقد يكون فى إباء سميرة وصدّها له أخيرا، حافزا يلهب حبه لها ويغذيه بمثل الحرمان الذى غذى قلبها.

وأغلب الظن أن وحيداً يوشك أن يقع فريسة عذابين، عذاب القلب وعذاب الضمير.

حـمدى : إن كلامك معقولٌ يا راشد، مسكينٌ أيضاً وحيد !

يوسف : إن سميرةَ تتقلب، وأخشى أن يوقظها لجنا، فهل لكم فى

شـوط نقطعـه سـيـراً على الأقـدام فـى هذا الشـارع الخلوىّ الجميل، ثم نعود بعدئذ ريثما تكون قد استيقظت ؟

حـمدى : لا بأس، هيا بنا.

{ يخرج الفنانون وعقب

ذلك تستيقظ سميرة }

سميرة : {وحدها} مـا أفظـع مـا رأيـتُ فى نومـى اللحظـة! كنتُ كَمَـنْ تطوف عجْلَى بالحياة كأننى منها على سفَر، وثمّ شعورٌ رهيبٌ راح يتملكنى ، بأننى لم أعُدْ بَعْدُ إلا ضيفةً على هـذه الدنيا، فكنتُ أطيل النظر فى كل مـا حولِى، عسانـى أُشبِع منه ظمـأ الأعوام المقبلة .

وطفقتُ أطوِى البقاعَ أمامى على عجَل ، كأن قوة خفيةً تدفعنى، أو كـأننى على مـتْن الرياح طائرة ، إلى أن بلغتُ النهـايةَ من طريقى ، فـإذا المدائنُ والقرى تغيب حتى لتصبح كالطيف، وإذا الأصوات تخفت حتى لَتغدو كالصدى.

ثم إذا الطيفُ يزول ، والصـدى يَخـرس، وإذا بى أرانى فى منطقةٍ مُفْرَغَة ، لا شىء فيها تَراه العينُ أو تسمعه الأذُن ، فألَّمت بى الوحشةُ من ذلك المكان ، وحاولتُ جهدى أن أستغيث ولكنّ صوتى كان يحتبس ، والتمستُ البكاء فخانتنى دموعى .

وكأن هذه الرؤيا المفزعة قد روَّعتْ أثناء النوم نفسي الواعية ، فجعلتُ أبكي على غير علمٍ مني وأنتحب ، حتى إنني عندما استيقظتُ في الصباح ألفيت بقايا من الدمع مازالت على جفوني .

تُرى ماذا يخَبِّئه لي القدر في لوحه ؟ لَعمري أراحت الروحُ تنبأ بما باتتْ عنه العين غافلة ؟

{تدخل مبروكة}

مبروكة : سيدتي! أما تعلمين؟ لقد عثرتُ في إحدى شجيرات البِسِلَّة على زهراتٍ بنفسجية، فأحضرت لك بعضها لعلمي أنك تميلين إلى هذا اللون البنفسجي! أليس كذلك ؟

سميرة : نعم ،الفاتح منه على الخصوص، شكرا، آتيني بكمنجتي من فضلك .

مبروكة : سمعاً وطاعة يا سيدتي .

{تخرج مبروكة}

سميرة : {وحدها وقد تأملت الزهر} أيتها الزهرةُ التي شَغَفْتِ وحيداً، يا زهرةَ البِسِلَّة! إن عبيرك المتأنِّق لَيذكرِّني بليلةِ حبِّه، والشذا يبعث الأيامَ من طيِّ الزمان ويدنيها إلى القلب ، فنراها ونحيا معها بأعماقنا ، بعد أن نكون قد نَفَضْنا منها أكفَّنا ،

{مستطردة} إيه، أيتها الزهرةُ يا زهرةَ البسلة ! كلُّ ما فيكِ ذكّرني بأمسٍ ووحيده، أين كمنجتي تُسمعَني "الذبولَ" أيضاً، فتُعيد لِي مِن مثوَى الزمان عهوداً خالية؟ يا حبذا لو متُّ إذ ذاك، وشذا الأمس يغمرني بِطيبه، ونغمُه الحبيب مِن حولي يرقص! إن روحي عندئذ لَتصعد جَذلِة، حاملةً معها من دنيا الماضي الجميل جنة .

{تعود مبروكة}

مبروكة : هاك الكمجَة يا سيدتي، {تناولها الكمنجة} أثَمَّ شيءٌ آخر تريدينه ؟

سميرة : كلا شكرا .

{ تخرج مبروكة }

سميرة : {تغني تتبعها كمنجتها}

دَعونْا الجمالَ فلمْ يستجبْ — فعدْنا بأفئدةٍ تضطربْ
ينمُّ عن الوجد فينا شحوبٌ — ودمعٌ يحار ولا ينسكبْ
تَرانا فتحسبنا هامدينَ — كما قرَّ بَعد الوثوب الحببْ
وما نحن إلا زهورٌ تجفُّ — وتحفظ من حسنها ما ذهبْ
إذا الليل حرك فينا الحنينَ — تفجَّر من دمعنا ما نضبْ

{لنفسها وقد انتهى العزف} لكأن الأيام تَرْجع بِى، ولَكأننى أعيش فى أمْسِى ! ولَكأنى بك يا وحيدُ يومَ اللقاء وقد رحتَ توقَّع "الذبولَ" بِنَايك، وأنا من خارج الكوخ أسمعُك! يومَ كان الزمانُ يحبونى بعطفه، والأمل يرفرف فوقى بجناحه، لك الله أيها اللحن المقدس! إنّ دنيا بأسرها تعيش فيك وتتحدث بفمك!

ما أوثق الصلةَ بين النغم والقلب! ولَشَدَّ ما تمتزج الأغانى بحياتنا حتى لتكاد كل أغنيةٍ تذكِّرنا بعهدٍ منها مضَى، فكأنها صوت الماضى وقد انطلق من فم الزمان، وأخذ ينادينا من بعيدٍ فَيبْلُغنا رشاشهُ الخافت، كما يَطرقُ آذانَنا صدى أنشودة ملاحٍ راح يغنِّيها فى اليمِّ وهو ينآى ويبتعد.

رباه! مالى أترنَّح ويَثْقُلُ رأسى؟ أىْ سميرةُ ها هو ذا الحلمُ المروِّع يتحقق أو يوشك، بَرُدَتْ من جسمك الأطرافُ، واصفرَّ المودَّدُ من لونك، وغدَت روُحك حيْرَى تلتمس الطريق لتخرج، هى لحظةٌ ثم يؤذِّن القضاءُ، وتأزف الساعة فتزهق. {يغمى عليها}

{يدخل حمدى وراشد ويوسف ومبروكة}

حمدى : {وقد نظر إلى سميرة} أتُراها عادت إلى النوم؟

راشد : {لمبروكة} قلتِ لنا إنها استيقظت.

مبروكة : نعم، وكانت من توِّها تعزف على الكمنجة.

يوسـف : يخيل لى أن ما بها ليس نوما، إنه إلى الإغماء أقرب.

حــمدى : {وقد هزها} سميرة! نعم، هى مغمى عليها. يا إلهى!

مبروكة : {فى جذع} سيدتى!

حــمدى : اذهـب يا يوسـف وادعُ الطبيـب على عجل وأنـت يـا مبروكـة، أعطينى كأساً من الكونياك، هيا اسرعا.

{يخرج يوسف ومبروكة}

حـمدى : {وقد هزها} سميرة! سميرة!

سميرة : {وقد أفاقت} آه! أين كنت؟

راشــد : ماذا بك يا عزيزتى ؟

سميرة : لا شىء، {لنفسها} يخيل لى أننى استعرض عشرين عاماً خلَتْ، يا الله! جُمِعَت الحياةُ فكانت لحظةَ الموت.

حــمدى : بِمَ تشعرين ؟ أثَمَّ شىءٌ يؤلمك ؟

سميرة : {لنفسها فى صـوت ذاهـل} الدنيــا! التــى كانـت تمـلأ الآذانَ ضـجـيـجـاً قـبل أن تمضى، ها هـى تبـدو من وراء الزمـان فى خُفوت الطيف .

إنهـا أدنَى إلى القلب وإنْ تكن مِن متَناوَل العين أبعد، عـجـبـاً! نعيش قدْر ما نعيش فى الدنيا، فلا نرها إلا بعد أن تذهب!

إنها إذْ تشغلنا فى الوقت ذاته عنها، فإذا كفَّتْ أفقنا وإليها انتبهنا، وعلى الرغم من تَعدد هيآتها، نغماتها لا تأتينا إلا فى صورة الطيف وهمْس الصدى.

هى شيءٌ، لا يُرى، عندما تكون، وهى لا تُدرَك عندما تقترب، ولا تقترب عندما تدرَك.

هى أملٌ حيناً، ثم ذكرىَ آخر، ثم لا شيء بعد ذلك.

{تدخل مبروكة وبيدها كأس}

حمدى : {لسميرة وقد تناول الكأس} خذى هذه الجرعة من الكونياك فهى تنشطك .

سميرة : دعنى، أنا لا أشرب الخمر وأنا أتأهب للقاء ربى. {لمبروكة} مبروكةُ، ألم يعدْ أبى ؟

مبروكة : {فى صوت مختنق بالبكاء} كلا يا سيدتى.

سميرة : حسناً، بلِّغيه إذا ما رحلتُ فى غدٍ سلامى، ونبِّئيه بأننى مبلَّغةٌ أمى سلامَه، نعم، ها هو ذا طيفها الحبيبُ بدا وعليه مسحةٌ من نور الملائكة. أُمّاهُ، هل استبطأتنى؟ أماهُ، أتعانين من شوقٍ إلىّ؟ إذَن فقرِّى عيناً، هأنذا موافية.

مبروكة : رباه! أمَا حضر الطبيب؟

سميرة : أين صورة وحيدٍ يا مبروكة؟ {مشيرة إلى حقيبتها} ربما كانت فى حقيبتى هذى، هاتيها من فضلك آه! آه! صدرى! يختنق!

راشـــد : {لحمـدى على حـــدة} يظهـر أنها أصيبت بهبوط فى القلب، أما ترى كيف أن تنفسها غير منتظم؟

حـمدى : إذَن فلقد انتهت، آه! وأأسفى عليها!

مبروكـة : {لســميرة وهى تناولهـا الصــورة} هـاكِ الصـورةَ يا سيدتى.

سـميرة : {وقـد حدقت فـى الصـورة} هـذا أنت يا وحيد؟ منـذ بعيدٍ لم أرك!

حمـدى : {لنفسه فى همـس} ويحـى! لمَ تنظـر إلـى الصــورة بكـل هـذا الظمـأ؟ لم تكنْ عـيناها فى الحيـاة بـأقـوى مما همـا الآن وهـى نصف ميتة ! إن توهـجها ليخطف البصر !

سـميرة : لا غَـروْ، فـأنـا أودُّ بنظـرةٍ واحـدة أن أُشْبِـعَ منـه شـوقَ الأبـد.

حـمدى : {لنفسه فى همس} رباه! كيف سمعتْنى؟

سـميرة : لأننى أعيش الآن فـى الأبـديـة، المحتضَرون يَـروْن الدنيـا مـن الآخـرة، أنا أرَى وأسمع أضـعـاف ما تقْـدرون. {تلقى الصـورة وتترد عيناها بين الغمض والفتح}

راشـــد : {لنفســه} ربـاه! تنظر صوبِى ولا تكـاد تـرانـــى! ليخيل لِى أن عينيها تُفْرِغان ما بهما، وأن نورهما ينسكب!

حـمدى : {منــاديـا} سميرة! {لنفسه} يا إلهى، إنها لا تجيب! وفقط تنظر إلىّ، وكأنها تقول كَمْ أودُّ ولا أستطيع!

سـميرة : {لنفســها} كـلاّ لـمْ أنتحـر وإنما قتلنى من أجلكَ الحـزن، فـإذا

طوتنى المنيـة فـابْكِ يا حـبيبى، لا علىّ وإنما على الحب الذى سيَبْلى، واحـملْ إلى القبـر السـحيق طاقاتٍ من الزهر الذى تبادلنا إبان حُلْمْ الحياة .

أىْ وحيدُ، ما بعـزيـزةٍ علـىّ نفسـى وإنمـا الحبُّ الذى تضمه لك نفســى، ولا هالنــى انطفـاءُ النـور مـن عينــىّ، وإنما أن يغيب بانطفـائه نـورُك، حـين أُمسِـى فلا بِى هوًى بالفؤاد ولا بى فؤادٌ يَهوَى، وأُحرَم حتى الشعورَ بأنى حُرَمْتُك.

إذا أوشكتْ أن تغيب ، تَعلَّق القلبُ حتى بالذى برَّحه من الهوى، وددتُ وأنـا فى سباتُ الموت لو أحلمُ مرةً بالحياة. {تسلم الروح}

{ يحضر يوسف ومعه الطبيب ومراد }

حـمدى : آه! سيدى الطبيب؟ لقد قُضِيَ الأمر يا سيدى.

إنا لله وإنا إليه راجعون .

مــراد : ماتـت؟ عزيزٌ علـىّ أن أرى الجمـالَ ذا الضحايـا ضحية!

{يتهالك على مقعد}

{ تدخل ألفت }

ألفت – آه يا سميرة ! لم أكن معك فى الحياة كما يجب ! { يغمى عليها }

" ستار "

المنظر الثانى

وحيد وألفت على قبر سميرة

الوقت فى الأصيل

وحـــيد : سـميرةُ، لئِنْ خنّـاك حيةً، فـهـا نحن أُولاءِ نأبـى أن نخونك ميّتة، بعـد إذ رعينـا حـرمـة العـجـز الأبـــدىِّ المقـدس، عجْز المـوت.

وإن الحـب تغلَّب علـى قـــوة الضمـيـر فهزمهـا، لَيتراجع اليـوم متقهقراً أمام ضـعف الموت، ذلك الشعف الذى تخـرُّ أمامه القُوىَ خاشعة.

ولقد كتُــب عليك يا سـميرةُ أن تفـوزى بالإخـلاص ميتةً بعد أن حُرِمْتِه حيــة، وهكــذا لا يظـفـر المرء بقلوب دنيانا الفانية، فكلنا نتــرك الحيـاةَ ظمِـاءً، ثـم يغمـرنـا الغيـثُ حين يستحيل علينا أن نرتوى.

أجَل، لقد ظلمنـاك يا سـميرة، وإن المظـلـوم لَيبدو منكسراً أمام بطش القـوة، ولكـنْ لا تلبث أن تتألف من انكسـاره قـوةٌ سـلبيــة

هائلة تقتحم ضمير الظالم وتعذبه من الأعماق ، قوة تولَدُ في الضمير لتحارب الضمير .

ما من قوةٍ في العالم توازى ضَعف المظلوم، وإن هذه القوة لَتكمن في ضمير الظالم نفسه فتخلق منه ألدَّ أعداء نفسه.

ألفت : {كالمخاطبة نفسها} لأسمع صوتاً من الأعماق يتكلم! صوتُ مَن أنتَ أيها الصوت وماذا تريد منى؟

الصوت : أنا الضمير، أنا صدى صوت الله فى الإنسان، كما أن الروح طيفُه تعالَى فيه.

ولن يبْرح صوتُ الله الإنسانَ حتى يبْرحه طيفُه فأنا باقٍ فيكم ما بقَيت الروح فى الجسد.

ولقد جئتُ أحاسبك على ما اقترفتِ فى حق سميرة، لأننى وإنْ أكن أعيش فيك الغير ضدك، ولا يغرنَّك أننى أعنيمك بالخطاب وحدك، لأننى أنا الضمير، أُحِسُّ للمجموع حين أتحدث للفرد.

أنا هنا رسول الواحد فى الأفراد إلى أن يعود فيندمج الكلُّ فى واحد، أنا ذلك الشعور المشتَرك الذى تتحد الكائنات فى إيجاده، والذى ينبثق من الكل لِيحيا للكل. فأنا لست بالمستقلّ، ولا بالذى فى وسعه أن يستقل، لأن فى ذلك جرحاً

لكرامــة الصلــة المرهفة التي تربطني كفرد، بنفسي كمجموع.

أنا صدَى الوحدة قبل أن تنفصم، فإذا تحدثتُ فعنها ولها، وكما يضيع الصدى في الجلبة، قد اختفي وراء ضوضـاء الأذُن، ثم أعود إلــى الظهور إذا خَفَتَ الصوت؛ وهأنذا قد عدت؛ وكان حتماً أن أعود، لأن الصوت كان حتماً أن يخفت.

ألفــت : أيها الضميرُ افعلْ ما شئتَ فعدلٌ كل الذى أنت فاعل، لك الفوز فى النهاية على ما عداك، وللنزوات الخزىُ والنكوص أمامك.

كل ما نقمْتَ عليه بات فيه القلبُ يَزهد، أجَل، قُضِىَ يا وحيدُ الأمرُ فلا غرامَ اليومَ ولا صبابة، والتَقينا فلا العيونُ متعارفةٌ كهدى بها، ولا القلوبُ خافقةٌ كما كانت، عفوَك اللهمّ واغفرْ لِى ماجنتْه يداى يومَ دلَّه القلبُ وضللتُ فى غياهب الهوى .

{يسمع حفيف جناحين وصوت يتكلم}

الصوت : وحيد! ألفت ! كيف حالكما؟

وحــــيد: مَنْ؟

الصوت : أنا سميرة.

وَحــيد : رباه! روحها حضرَت!

الصوت : اطمئِنا فلقد عفوت.

وحـــيد : رحماكَ، ولكنّ الضمير لن يعفو.

الصوت : إنه حقى أنا، وقد تسامحتُ فيه.

وحـــيد : حقك أنت، ولكنها خطيئتنا نحن.

الصوت : ليكن، أفَما يمحو الغفرانُ أثر الخطيئة؟

وحـــيد : يمحـوه من ضمير المظلوم لا الظالم، لا قِبَل للنفس بأن تستريح حتى تكفِّرَ عما جنَت.

الصوت : علـى أى حـال لا تيأسا من رحمة الله، ما لا يُبْرِئه الصفحُ يبْرئه الزمن.

وحـــيد : الزمن يسكِّن الأوجاع فقط، ولكنه لا ينتزعها من القلب.

الصوت : إن الجرح إذا اندمل عاد الأصبع كما كان.

وحـــيد : ولكنْ يبقى أثـر الوشـم على اليد، ما مـن شـىءٍ فـى الـوجــود يُمــحَى، وكل مــا هو غـائبٌ اليـوم عن حـسِّنا لأنه مـضـى، هو مسطورٌ فى قلوبنا شـاخصٌ فى خيالنا حتى الأبد ، ولقد يَذهب الصوتُ ولكنْ يبَقى صداه يطنُّ فى الآذان محدِّثاً إيانا عنه راقنا ذلك أم لمْ يَرُقْ .

الصوت : إذَن فترقَّبا البُرْءَ فى غدٍ عندمـا تَفْـرغُ الحياةُ وتنْفُضان اليدين من دنيـا شقيـة، كل شـىءٍ بالموت ينتهى، عندمــا نمـوت، يُسـدل

الستار على كل آلامنا، ما لا يَفرغ أمامنا ونحن أحياء، يَفرغ معنا ونحن موتى، الموت خير ما يجفف الدموع ويعلّم الناس كيف لا يكترثون لها، لا تنزعجا، فالبرءُ مواتيكما على كل حال، أنا نفسى برئْت، فاصبرا أعانكما الله، والآن، قد حان لِى أن أذهب، الله يدعونى.

{يسمع حفيف جناحين يغيب فى الفضاء}

وحـيـد : هنيئاً لك يا سميرةُ ذلك الملأ تمرحين فيه، للأرواح الزكية الخُلْدُ، وللآثمين لظَى الضمير.

ألفــت : من ذا الذى كان يتكلم؟

وحـيـد : الروح.

ألفــت : الروح؟ ما هى؟

وحـيـد : شــىءٌ يعـرفَ الأشـياءَ ويَخفَى على نفسه، كالنور يَكتشف عن غيره ويَظل من أمر نفسه فى جهل ، إنه لفرط ما شَفَّ لا يَلمسُ ذاتَه، التناهى فى الوضوح يَقلب الشىءَ غامضا .

ألفــت : إذن فسميرةُ باقية!

وحـيـد : نعم.

ألفــت : ولكنْ أما تُراها قد انتهت؟

وحـيد : فـى عرفك وحدك، كل شىءٍ فى اعتبـار الغـير ينتهى، ولكنه يظل باقياً فى ذاته، الفناء والموجود نسبيان للإنسان.

ألفـــت : ومَن نبَّأك هذا؟

وحـيد : شـعورى، كم من حقـائـقَ أو مـن بهـا، يوحـى إلـىّ بها شعورى، وإن يكنْ يعجزِ عن إقامة الدليل عليها عقلى.

ألفـــت : أنا أيضا كذلك، فماذا عساه يكون ذلك الوحى الذى نأبى إلا أن نكذِّبه، فيأبى هو إلا أن تصدْق نبؤاته؟

وحـيد : وعلامَ العجب وفى إحساساتنا الفذة دليل روحانيتنا وما تنطوى عليه من إلهامٍ ونور ؟ لكَم يضللنا العقلُ المريب فنشقَى ، ولكننى ما أحسب أن بصيرتنا تخطىء، ذلك أنها لا تعوّل على منطقٍ قد تفلت قضيته من يديها ، وإنما على قوتـها السماوية الخارقة التى تتلقى الحقائق من الغيب الذى ليس دونها وإياه الحجاب ، ثم تنقلها إلينا صادقة بريئة كما هى .

لَكثيـراً مـا يخـدعنى منطقُ عـقلى بما يخـالف وحى شـعـورى فـأوشك أن أقتنـع متـورطا، ولكنْ سَرعان مـا أثوب إلى نفسـى فـأكـذِّب عقلى وأصـدِّق شـعورى عـقلى! كم أعقُّ عـقلى! لأننى أرتاب فى عقلى.

ألفـــت : هو ذلك، هو ذلك، سأقص عليك حديثاً عَجَبا، رؤيا رأيتها قبيل

موت سميرة.

وحـيـد : قولى.

ألفــت : كانت على ما أذكر ليلةً من ليالى الشتاء، وكانـت رهيبةً حافلة بالمطر والرعود القاصفة حتىَ مطلعْ الفجر.

ولقـد أغفيتُ ليلتئذٍ فرأيت فيما يرى النائم أننى وإياك جالسان إلى بحيـرةٍ مياهـها آسـنة، كأنما قد خَيم على سطحها الذى لا أثر لارتعاش الموج فيه سباتٌ عميق.

وقد قامت عليها شـجرةٌ هائلة يدل منظرها المتهدم على الهرم، ويلـوح من شـحوب أوراقهـا الحـزنُ والأسى، ولقد تكاثرتْ عليها الغـربان التـى ما فتئت تـروح وتغـدو بين أغصانهـا فـى إعيـاء وضجـر كأنمـا تنـوء بَهـمٍّ ثقيـل، وكانـت تنبعث منهـا بين الحين والآخــر أصــواتٌ خافتــة حزينــة تشـبه فـى لوعتهـا البكـاءَ وفى عمق نبراتها الأنين.

وقد أحاطــت بهذه البحيرة صحـراءُ مترامية الأطراف لا يدرك البصـر مداها، تقوم عليها تلالٌ قد تبعثرتْ فى أنحائها المغاراتُ والكهـوف فاغـرةً أفواهَها كأنها قبورٌ منبوشة أو سباعٌ جائعة.

ولم يكن هناك أثرٌ لنباتٍ أو حيـوان اللهـم إلا ضبـعٌ مريضة قد أسندت ظهرها إلى صخرة ملقاة، وجعلت تتلفت يَمنةً ويَسْرة فى

بطءٍ وتثاقلٌ بنظراتٍ ملؤها التبرم والانقباض.

وكان الوقت قبيل الغروب، ومع ذلك فلم يكن للشفق أثرٌ في الأفق، وكان الجو ملَّبداً بلونٍ أدكن يشبه في قتامه الغيم يسبق نزول المطر.

وكنتُ في جلستي دائمةَ الأطراق إلى البحيرة، أحاول أن ألحظ في مائها الحياةَ على غير جدوى، وكان لأنين الغربان صدىً يكاد ينهلع له قلبي، ولصفرة الأوراق رهبةٌ تبعث خاطر الفناء في نفسي .

وكنتُ كلما نظرتُ إليكَ ألفيتك واجماً كالتمثال الصمت وقد تحجّرت عيناك وتصلبتْ أعضاؤك، كأنما كنتَ تشْخص إلى الغيب وتحاول عبثاً البحثَ عن شيءٍ تائهٍ فيه.

وإذْ نحن كذلك، إذا بي أبصر سميرةَ في أقصى البحيرة، وقد علَتْ وجهَها غبرةٌ دكناء، وشاعت فيه خطوطٌ سوداءُ معْوجَّة، ولقد بدتْ وقتئذ هزيلةً شاحبة، وكأنما شاءت الرؤيا ألاّ تكتفي بذلك، فخلعَت عليها من البعد ضباباً كثيفا حتى لقد كنتُ بشقٍّ النفس أتبينها، وكانت في جلستها تبدو كمن يحاول أن يغتسل، غير أنه لأمرٍ ما، كان يستعصي عليها الماء، ثم ما لبثَت، ولا أدري كيف، أن سقطتْ في اللجة وابتلعها اليمّ.

وحـيـد : {فـى توجـع} مسكينـة! لا حــول ولا قــوة إلا بالـلـه! {يبكيـان}

ألفــت : {مستطردة} عندئذ أحسستُ بقلبـى ينقبـض وبعضـلات وجهـى تتقلص.، ولقد حاولتُ أن أقول شيئاً ولكنّ الكلمات كانت تختنق فى فمــى، وإذْ أنـا كذلك، حانت منى التفاتةٌ إلى إصبعى فألفيت الخاتـم الذى أعطيتنيه قـد عَـلاه الصـدأ، وذهـب عنــه ذلــك الوميـض الــذى كــان يتوهــج فيه من قبـل، فاســتولى علىّ إغــراقٌ طويـل، وكـأنــى بنفسى أفتِّش فيها عن ذكرَى سحيقة غابـت حوادثهـا عـن عينىّ ومضتْ إلى حيث يمضى كل شىء.

ثم قمنـا فتبادلنـا النظرات بعيونٍ كأنها ما تعارفتْ من قبل، أو كأنمـا نُسِــج عليهــا من النســيان حجــابٌ كثيف، وسلكتُ طريقـاً وسـلكتَ آخــر، ثـم غــاب الطيــف عن منظرنـا ونحن نشـقّ طريقنا وسْط الصــخور.

فصحــوتُ من نومى وقــد أخـذ منى التشـاؤمُ كل مأخـذ، لأننى كنت ألمـس فى نفســى بعـض القدورة على التكهن بالغير، وكثيرا ما تكهنــت بأشــياء قبــل ذلـك، ورأيـتُ المقــدَّر الخافـى كأنه حقيقةٌ سافرة.

وحـيـد : يا لله! إنها لَرؤيا رهيبة.

ألفــت : {مستطردة} بعد ذلك ماتت سميرة، ثم ما كان كان من أمْر

حبنا الذى مات بموتها ، أفرأيت إذَن كيف أن شعورى صدَق .

وحيد - { وقد تنهد } نعم نعم .

لسوف تتجلى لك آياته بأوضح من ذلك، كلما قاربت الحياةُ النهايةَ ، أشرقَت فى المرء قدرةٌ على قراءة الغيب الذى أصبحَ وشيك الاندماج فيه ، وما الحياة إلا كأسٌ من الشراب تُضيع صوابنا فتنقطع صلتُنا بالكون إلى حين ، وكلما بَعُد الشرطُ الذى قطعناه منها وأخذ يدبُّ فينا الفناء ، أشرفنا على الإفاقة وبدأنا نستأنف صلتنا بالكون شيئاً فشيئاً ، حتى إذا ما استعدْنا عقلنا نهائياً بالموت ، عُدناأوثق ما نكون صلةً بالوجود، وأعلم ما نكون بأسراره التى عشنا رهْنَ احتجابها عنا.

وما المشاعر الخفية التى تنتابنا وتزاحم فى تصوراتنا العالَم المحسوس ، إلا بقيةٌ من ذلك العقل ما تفتأ تعاودنا بين الفنية والفينة ، ترجِّع فى نفوسنا صدى معرفتنا القديمة بالكون ، كلما جرَّد الإنسان نفسَه من عَرَض الحياة ، أشْرفَ على الإفاقة وطغى فيه الإلهامُ على قوة الإدراك للمحسوس ، فما يلبث أن ينكشف له السر ، ويتملكه اليقين بأنه جزءٌ لا يتجزأ من الوجود، وأن ثمة حبًا عنيفاً متبادلاً يربطه به ، فعلام الجزعُ إذَن من النفاء ونحن ما نفنىَ وإنما نستأنف وجودَنا مع الكون؟ حياتنا سكَراتٌ تنتهى بإفاقة الموت.

ألفـــت : كـلا، لسـت أجـزع من الفنــاء. يخيـل لـى أننــى بلغـت المرحلـة التى أطمئن فيها إليه.

وحـيـد : وأنا أيضاً بلغتُها.

ألفـــت : وحيدُ، إننا نتطهر!

وحـيـد : الحمدلله على ذلك.

"ستار"

المنظر الثالث

وحــيـد : (وحده) أغمضتُ عينيّ لأذرف دمعةً حكَم القضاءُ بها علّيْ، فلما فتَحتهما، لمْ أبصرالنورَ الذى عهدتُه من قبْل.

فودَّعتُ بقاعاً من الأرض كانت تتلقانى الآمــالُ فيهــا ضـاحكـة، وفى جنحٍ مِن دجَى الحزن، اتخذتُ سبيلى إلى الفرار من الدنيا.

وفى بقعةٍ نائية على سفح الجبل، حيث لاتقـع العين على ذى بالٍ من شئون الحياة، نَقَبْتُ كهفى بين الحصى والصخر.

وبـدلاًمن أن تطـوِّقه الأزهـارُ التـى همْتُ فيمـا مضـى غراماً بها، راحت تعفِّرالأتربةُ جدرانه حتى لَيُشبه فى وحْشَته القبر.

ومن الخرائب المنبثَّة فى الفلاة حولى، أحضرتُ بومةً اويتـها فيه، لكـى يبدد نعيبُهـا الجــافُّ مــالا يــزال عالقــاً بأذنــىّ مــن الأغانى الماضية .

وصَنعـتُ من سَعَف النخل سلَّةً ملأتُها بالملـح والخـبز اليـابس،

وحفظتُ الماء في جرةٍ كانت الريح قد ألقت برأسها إلى الأرض فانكسر.

وأعددت للَّيل قنديلاً من الزيت يشْبه ضوؤه الخافت طيفَ النجم أو يَقبِلْ،

ثم أغلقتُ كهفي في وجه دنيايَ لئلا يزعج نورُها البهيج نفسي الثاوية في ظلامها.

وما في هذا القبر القائم في صميم الحياة، دفنتُ حياتي الغارقة في صميم الموت.

{ يسمع نعيب البومة }

ولقد قالوا غادرٌ هَجَر الناس واعتزل، فقلتُ وفيٌّ غاب عنه الحبيب فأبَى الحياةَ بَعده.

وقالوا ضعيفٌ غلَبَه الحزنُ فاستوطن قلبَه، فقلت قويٌّ كَبُر عليه النسيانُ فاحتمل.

وقالوا جبانٌ آثر العيش ميِّتاً على أن يميت نفسَه، فقلت شجاعٌ يذوق الموت كل يومٍ وتذوقه الناس مرة.

وقالوا خاملٌ أصبحَ مِن بَعد نابِهِ شهرة، فقلت كارهٌ هو للحياة فما به للصيِّت حاجة.

وقالوا زاهدٌ يدَّعى ولمّا يزل يَكتب، فقلت ما لنفسه كتَب وإنما ليتَّعظ غيره

وقالوا تَبَلَّدَ وخلا من لمعة الفن شعره، فقلت لمْ يَعُدْ شاعراً لكنه تفلسَف.

وقالوا هيِّنٌ فى سبيل الهوى ضيَّع نفسَه، فقلت بل فى سبيل الوفاء لا الهوى ما فعَل.

وقالوا لعلها غانيةٌ هَجرتْ وتَصِل، فقلتُ بل حبيبٌ قَضَى فما تُرجَى أوْ بتُه

وقالوا إنما نَدفن الآحياءَ وللدنيا نعود، فقلت غَدرْتم فنَسيتم وَوَفَى فذكَر وقالوا انْيكُن هكذا الوفاء مابَقِىَ فى الدنيا أحد، فقلت ما للحياة خُلقَ وانما للموت. وقالوا لم يَعدْ منا إذَن ولآنحن منه. فقلت ولهذا ترككم واحتجب. وقالوا نسيناة كأنْ لم يكُ شيئاً يُذكرَ، فقلتُ إن تكونوا نسَيتم فلقد نَسيَكم مِن قبْل. وقالوا إذْ تركناه وداعا. فقلت إلى لا ملتقى.

{ يسمع نعيق البومه }

هية يا وحيد! عَظُمْتَ فشقيتَ، وغاليتَ فى طلب الصواب فوقعتَ فى الخطأ، وهذا هو خطر الطفرة فى الرأى ولو كان صائبا، كان خيراًلك وللناس أن تكون امرءاً عادياً ولوعلى خطأ، من أن

تَشذٌ فى الرأى ولو إلى صواب.. ولكنك شاعر. والشاعر من دأبة أن يسبق الزمن، ويحاول تحطيم الحياة ولكنّ الحياة تحطمة.

{ يدخل حمدى وراشد ويوسف }

حمدى : اىْ وحيد، لقد جئتُ أزفٌّ اليك بشرَى قد تبعث بصيصاً من الضوء وسط ذلك الظلام الذى أمسيتَ غارقاً فية، لقد صح عزم فرقتنا على تمثيل قصتك "عفاف"، تلك القصة التى وضعتها فى كوخك لعامٍ خلا، أيام كانت حياتك حافلةً ودنياك دنيا وأسَفا على تلْكُمُ الأيام الخوالى، التى أذهلتنا فيها بعبقريّ شعرك، حين واتاك الفنٌّ فطبَّقَت شهرتك الآفاقَ، وتربعتَ على عرش النبوغ كما لو كنتَ إلهة!

وحيد : شكراً ياعزيزى، وإن كانت الشهرةُ لمْ تَعُدْ تخلبنى، ولا عاد للفن علىّ سلطانُه الذى كان؛ فيما مضى كانت الدنيا تفتننى، وكانت مباهج الحياة تأسر لُبى وتخلِّفنى كفراشةٍ حائرةٍ مأخوذةٍ حيالَ شعلةٍ من نور، أما اليوم فلمْ أعدْ أراها إلا كما أرى الحلُم الغابر، ولمْ يَبْقَ لها فى نفسى سوى ذكرياتٍ خامدة دفنتُها فى جانبٍ مهملٍ من فؤادى .

{وقد تنهد} أفحقًا قد نسيتُ دنيايَ فنسيت معها الفن والحب،

وخمـدتْ فى نفسـى الشـهوات العاتية ما خـلا شـهوتى إلـى تعذيبى؟ هـو ذلك يـا إخوانى، إنما جئـتُ إلى هنـا لأقتصَّ مـن نفسـى لا لأمتعهـا بدنيـا فانية، جئت لأنتقم من وحيدٍ لضحاياه، ولهذا أعيش، نعـم أعيش، لأؤدى لهم ديْنـاً فـى ذمتـى.

لكم فكرت فى أن أنتحر لأنتهى، ولكننى عدتُ فاستقللتُ الموت جـزاءً لجرمـى، فآليت على نفسـى أن أواصـل حياتـى الشـقية، لكيْمـا أمـوت بـدل المرة مرات، وأظـل هكـذا فـى مـوتٍ أبدى، وعزائـى أننـى كلمـا تقدمتْ بَـى الأيـام، ألفيتُنى أديتُ جانباً من ديونى، وكلما حزَّ فى نفسى الألم، شعرتُ بأننى أتطهَّر وأسمو.

يوسـف : وما للسمو وللألم يا وحيد ؟

وحـيـد : أحـدهمـا نتيجةٌ والآخر سبب، ليس كالألم شـىءٌ يضاعف قوانا الروحية ويؤكدها.

يوسـف : ولكنَّ الألم يصهر الجسم.

وحـيـد : الأجسام فانية ، وأمَّا الروح فتبقَى .

يوسـف : أوَما تتعذب الروح حين يتعذب الجسد ؟

وحـيـد : أجَل، ولكنها لا تَعافُ الألَمَ بقدر ما تعاف الضَّعَة، قُدَّتِ الـروحُ من سموٍّ وإنْ تعذَّبت بعد ذلك.

يوسف : لو أن الأمر هكذا لمَا جفَّت دموع البشر.

وحيد : ليكنْ أنها لا تجف، وسُمِتَ الحياةُ بالطابع الحزين وانعكست على نفوس البشر فصبغتْها به، لا فائدة فى أن نتجاهل حقيقة الحياة ونحيا وَفْقَ خيالٍ مفتعَل.

يوسف : لَئِنْ ننظرْ إلى الحياة تلك النظرة الحزينة، فإن ذلك إذَن لدليل الضعف.

وحيد : وهل القوة أن نأخذ الحياة على غير صورتها هرباً من صورتها الحقيقية، وأن نتكلف الابتسام حين تدفعنا الطبيعة إلى الألم؟ كلا إنما القوة أن نصيب فهْمَ الحياة ونحتمل الإحساس بها كما هى، ولو كان هذا الإحساس في ذاته ضَعفا، أن نصبر على غضاضة ذلك الضعف ونجاريَه ونستسلمَ إلى ما يزج بنا فيه من آلام مضنية، هذه هى القوة، القوة المبنية على مجابهة الصعاب لا على تَحيُّن المهْرَب منها.

خُلِق الإنسانُ لِيحزنَ فيسمو فيبْلُغ ربَّه، فمن فرَّ من الألم فقد نجا بنفسه وبها تضاءل.

يوسف : وهل الوصول إلى الله غايةُ الوجود ؟

وحيد : أجَل، لأن الوصول إليه سبحانة رجوعٌ إلى الوحدة، وما دامت هذه الوحدة أصل الوجود، فلا بد أن يكون العودُ إليها غايته.

حمدى : دعُونا من هذا الجدل، {لوحيد} أأفهم من ذلك أنه ليس فى نيتك أن تشاهد تمثيل "عفاف"؟

وحيد : كلا، ولكنْ! عفاف؟ عفاف؟ مَن تكون عفافُ هذى؟ نعم نعم، إنها تلك الفتاة الخمرية اللون التى جاورَت منزلى قبل أن أسكن الغاب، والتى كان لى فى حبها قصة. آه! لكم كانت حياتى حافلةً كأنها دنيا قائمةٌ بذاتها! والآن، هأنذا أقنع منها بهذا الركن المنزوى.

أحقًّا أننى كنت فيما مضى عاشقاً تدلَّهَت بحبه النساء؟
أحقًّا أننى كنت شاعراً قرأه الناس وحفظوا شعره؟
أحقًّا أتى علىّ حينٌ من الدهر كنتُ فيه أُقيم الدنيا وأُقعِدها؟
يميناً بالله إننى لَعظيم!

رباه! لقد بدأ يعاودنى من مجد الحياة نورٌ قديم، وإنه لَيشقٌّ فى جوف الظلام طريقه إلى مثواى، فما يلبث أن يزعجنى ويجرٍّ عنى من الحرمان الغُصَص، حتى ماضىَّ الحبيب أضحى ينتقم منى! كل ما فى الدنيا تنَكَّرَ لِى! وددتُ لو أن ذكرياتى امَّحتْ، أو لو أن حياتى كانت خاملة، فما كان يزعجنى إغراؤها وهى تُفلت منى.

إنّ حياتي كانت جدّ جذابة، غير أنها مضتْ والأمر انتهى، لو أن هذا كل ما هنالك لهان الخطْب، ولكنْ، ويا أسفاه، إنّ لها لَصدىً ما يزال يترجَّع، آه يا حمدى! لمَ بربك ذكرَّتَني؟

أوّاه! لمْ أعُدْ أقوى على احتمال ألمٍ جديد. لقد أوهنَت الحوادثُ جسدى حتى غدوت بكل جهدٍ أعيش، والآن، ها هى ذكرياتى تفيق فتذهب بالبقية الباقية من طاقتى على الحياة، أواه! إن ذكرياتى لا تنفك تلوِّح لِى كأنها تتآمر على قتلِى، نعم، يخيل لِى أن كل دقيقة تمتعتُ فيها فى ماضى حياتى، قد هبَّت الآن تنتقم منى.

حمدى : رَفَّــهْ عن نفسك يا وحيدُ، فإن مَن أوتَى مثل مجدك ليس بالذى يَأسَى على شيءٍ أخْلفَه، إنْ تكُ أنكرتك الحياةُ، فلقد دان لك مجدُها، والمجد خيرٌ من الحياة وأبقَى. أنَسيتَ أنك وحيدُ الشاعرُ العبقرى؟ أنسيت أنك مؤلفُ "عفافٍ" أو "زنبقة الرُّبا"؟ أنسيتَ أنك مؤلفُ "سعيد"، و"سعاد"، و"حميدة" وغير هذى من القصص الخالدة؟ ما هذا يا صاح؟ إنّ الحياة لَتَبلَى وتَبقَى أنت. قُمْ، لا حَزنَ مَن كان له مثلُ أدبك.

وحيد : سعيد؟ سعاد؟ حميدة؟ يميناً بالله لقد شوقتمونى إلى أدبى، أين تكونى قصصى هذى؟ لأبحثنْ عنها بين الكتب.

{لنفسه وهو يبحث} أحقًا أنىَ فذٌ عظيم؟ أحقًا أنِى {وقد عثر على ورقة} رباه! ما هذا؟ {يتلوها فى سره}

حمـدى : أية ورقةٍ هذى يا وحيد؟

راشـــد : ماذا بها؟

وحـيد : حديثٌ قديم! صوتٌ من الزمن المنسىِّ تَرَجَّع! خطابٌ من سميرة.

الأصدقاء : {فى جزع} يا رَحِمَها الله!

راشـــد : لَنَتْلُوَنَّ على روحها آيات من القرآن. {يتمتمون}

وحـيد : إخوانى !

الأصدقاء : ؟

وحـيد : {مستطردا} اسمعوا ما قالت الراحلة لى.

الاصدقاء : {يطرقون}

وحـيد : {يتلو الخطاب فى صوت متهدج}

حبيبى

أتَذْكُـرُ أمــس؟ لقد سرَقْنا فى تلك الليلة بعضَ الوقت الذى طالما يســرقنـا، واستطعنا أن نعيش ســاعةً لأننـا التقينا فى الحـب ســـاعة، فى حين يطوِى غيرُنا الســنينَ دون أن يمـرّ ولو لحظــةً بالحياة.

كان بودى أن أخفَّ للقائك اليوم لولا مرضٌ بات يُقعدنى، ولكنْ، أتُرانى وإنْ بَعُد الجسمُ منى قد نأيتُ بفؤادى عنك؟

كلاَّ، أنا وإنْ جفانى النومُ ثملةٌ كالحالمة، تتفتح عيناى عن طيفك فأخفّ إليكْ، وأتخيلك إلى جوارى فأفتح ذراعىّ لكْ، دعوتُ من حاضرى أمسى فعشتُ معكْ، وأدنيتُ من يومى غَدِى فظفرتُ بكْ.

ما الحب إلا أن تتلاقى على الأحلام القلوب، وما دام قلبك عندى، فأنت على الدوام معى.

حبيبتك

سميرة

{وهو يطوى الخطاب} آه، يا سميرة! لَكأنى بها من الأبد تتحدث، نعم لأكاد أسمعها لولا أننى لا أصدق أذُنى، لولا أننى أستمع إليها كما يستمع إلى موتاهُمُ الأحياءُ، ولولا أنها تتحدث كما يتحدث هؤلاء لهؤلاء.

تلك التى تتحدث اليوم بِفَمِ الزمان وتَحْضُر فى ثوب الأبد، كانت منذ حينٍ بيننا، تتكلم كما نتكلم، وتبدو مثلما نبدو، ولكنها الآن

اختفت فما عادت تُرَى كما يُرى الأحياءُ وكانت ، ولقد خرسَت عن الكلام فما عادت تُسمَع كما يسمعون.

كانت قبْلُ تجيء القومَ أيْقاظاً ويَرونها وتَراهم، أمّا الآن فلم تَعُدْ تَفِدُ إلا علـى جَناحَيْ منَـام، وإنها حين تحْضُـر لَقصيرةُ اللُّبْثِ ليست تُطيل المُقام، مُريبٌ شُخُوصُها ما يكاد يصدِّق نفسَه فيه الحالمُ المشتاق.

آه! لمَ يا موتُ خطفتَ أحبَّتـي؟ لـمَ أزمعتِ يا سميرةُ فُرْقَتـي؟ {يبكى}

الأصدقاء : {يكفكفون دموعهم}

حمـدى : {وقـد انحنـى علـى وحيد مواسيا} وحيد! كفاك بربك! كفاك ما كابدْت! حتّام تتألم! حرام! أيا ربِّ حرام! {يبكى}

يوسف : {بصديقيه على حدة} رباه! ما هذا؟ إن فمه يختلج!

راشـد : وعيناه لَتغالبان الغمض!

حمـدى : والوجهُ منه شَحُب!

يوسف : وبدا الجلالُ على قَسماته!

حمـدى : إنه يموت! نعم، يموت! {يكفكفون دموعهم}

{يدخل مراد}

وحـيـد : خيراً يا مراد! زيارةٌ على غير انتظار، ما هذه الدموع التى تبلل خدك؟ وما هذه الكآبة المرتسمة على جبينك ؟

مـــراد : جئتُ أنعى لك ألفت، براً بوعدٍ قطعْته علىّ وهى تحتضر.

وحـيـد : ألفتُ ماتت؟

مـــراد : أجَل، قَضَت اليوم مع الفجر.

وحـيـد : وهـأنـذا الآن أقضـــى، ومن قبْـلُ قَضَـت سـميرة، غـداً يلتقى الخـلاّنُ ويعـودون كمـا كـانوا إلى الصـفـاء، بعـد أنْ لمْ يبقَ ثَمَّـةَ للعداوة موجب.

اليـومَ تَبْلغُ السـفينةُ مرسـاهـا، وتُخْتَتَـمُ رحلـةٌ بلغَت من الأعـوام ثـلاثـين، هـا هـى ذى مدينـةُ الأبـد تبدو وقد تلألأتْ أنوارها عن كثْبٍ، إنهـا لَمدينـةٌ جِدُّ سـحـريَّة، تلك التـى شـادهـا الأوَّلون منذ الأزل، وحوَت السـابقَ من رفاقنـا الراحلين، ممـن أكسَبهم القدم أو بُعْدُ المزار عَرَاقة.

أيهـا الأخـوان، لَئِن متُّ وطوانـى الزمن فاذكروا فـى غَدِكم وحيد. {يموت}

"خـتـام"

سهير أو التمثال

١٩٣٨

إهداء

إلى شقيقي سعيد عفيف

أشخاص الرواية

سهير - فتاة، أبنة أحد الكبراء

عقيل - مثّال شابّ

جلنار

عديلة

ثروت - شاعر شابّ، وصديق عقيل

حسام - ضابط شابّ

فكرية - فتاة، صديقة لسهير

منيرة

حميدة

فوزى - مساعد ستوديو عقيل

سليمان - خادم ستوديو عقيل

زنوبة - خادمة حسام

مضيفون ومضيفات.

مكان الرواية

القاهرة والإسكندرية.

الفصل الأول

المنظر الأول

حديقة عامة قليلة الزوار. سهير جالسة على
مقعد تحجبها عن الجانب الآخر من
الحديقة شجرة. الوقت نهاراً

سهير – {وحدها} أيها النور تمهَّلْ، ورفقاً بزهرةٍ في كمِّها آمنة. أيها النور ألاَ خُذْ سناك، وارجعْ أدراجك، فلَمِنْكَ أضجُّ، ولَبِكَ أتبرَّم.

ياما أشدَّ ما يعاني القلبُ حين يَبدأ يتفتح!! نعم، إنَّ عُودي لَبَعْدُ نِديٌّ، وأوراقي لأغَضُّ وأنضر من أن تواجِه النورَ الألِق.

آه، كم أود، لو أغمضتُ عينيَّ دونه، وانطويت على ظلمتي

السابقة، عائذةً بها من عبْث سحره! ولكنْ، أنَّى لِمُفتَّحِ الورد أن يعود فيُغْمِض، بعد أن مزق الضوءُ الأثيم عِذاره!

إيه أيتها الأكمام المغلَقة على نفسك، لَأنتِ وقد تلَثَّم وجهك، مِثْلُ قدّيسة ! يا ليتنى لبثتُ مثلُك عذراءَ لم يخدش النورُ حياءَك !

والهفى على طهارتى الماضية، حين يلوِّث ضميرى من الأغراض دَنَس ! لم أكد أتفتح للضوء، وطيالعنى من سناه أولُ خيط، حتى عصفتْ بِيَ الأهواءُ مرَض. واحسرتاه ! لقد ودَّعتُ من هنائى ما سلف، ورحت أتوجَّس الخيفة من الحرمان بعد أن تنوقتُ الوجود، وتعلمتُ الحرص مذ مَلَكتْ يداى. سحقاً لك أيتها الشهوات العاتية ! لَأنتَ الظمأ لا يُروَى، وإنْ يُروَ يَعُدْ.

ثلاثُ ليالٍ لم تذقْ عيناى فيهنَّ الكرى، مذ فاتحتَنِى يا عَقِيلُ بحبك، وفتَّحت من قلبى الموُصَد المغلَق .

ولَكَم طربتُ يومئذ، واعترتْنى لنجواك رجفةٌ كزهرةٍ راح يقرعها الندى، ولكنْ، لم أكد أخلو إلى نفسى وأتدبَّر ما بِى، حتى شعرتُ بالعبء يثقل كاهلى، وأبصرت خلْف بشاشتى دمعةً تترقرق. فأيقنتُ أنّ زيْفاً ما أصبحتُ فيه، وأن هناء المرء بعضٌ من شقائه. إيه أيها الظلام الحبيب، لِمَ فارقْتنى، وإلى أين ؟ عُدْ إلىّ بربك، وباركْ عينىّ بتقواك، وعمِّرها واغمرها بصلاحك، أنتَ أيها التقِىْ.

ذَلِكُمْ النور، إنى أتهيّب لونه. ذلكم السّنا، إنى أستحيى منه. يا

طيف عقيلٍ أستحلفك الله ألاّ تدعْنى.

أوه، دعنى، بربك دعنى! {تبكى}

{يظهر عقيل من الجانب الآخر من الحديقة

دون أن يـرى سهيـرا أو تـراه، ويقف عند

شجرة يتأمل فيها عصفورا تسمع زقزقتـه}

عقيـل - {وحـده} لعـنك الله من عصفـور نَزِق! مـن غصـنٍ إلى غصن! ومـن نغمـة إلى نغمة! يكاد قبل أن ينادِى يجيب! وقبل أن يصل يئوب! مثُل الجمال لَحوحٌ دؤوب! لايَنِى فنتركه. أو يستقرّ فنملكه. {وقد حول وجهه عن الشجرة} هذا العصفور المَرِح، الذى يعبث الآن بالغصون، دونكِ يا سَهيرُ حيويّةً وخفة !

إن ما انطوتْ عليه روحك من معانٍ، لتَتحدث عنهاعيناك اللتان تجيدان الكلام بأكثرَ من لسانك الفصيح. وإنك لَمِثْلُ الغزال فى لَفتتك، ولتشبهين الطير فى رشاقة مشيتِك.

يا أخّاذة الحسْن مَن يَسبق جمالك بتوقُّد ناظرى، ما أعجبَ أن يومض كالبرق لحظُك، وأن يضىء كالشرر اللمَّاح سحْرك ! كم من مرةٍ حاولتُ أن أتملىَّ من جمالك، فكان بصرى يعجز عن اللّحاق به فيرتدُّ إلىّ وهو أخلَى ما يكون منه، وأظمأ ما يكون إليه.

لآمنتُ يا حبيبتى أن بينى وبين إدراك نورك، ما بين العيون وإدراك البُروق الخاطفة.

سهير - {وحدها مستطردة} لا، لا. إنّ سهيرَ لم تزل كعهدها قدّيسة. لن تكون قَطُّ حوّاءَ التى باعتْ بتفاحة جنة. له الويل عقيلُ إنْ حدّثتْهُ بأن يرجع نفسُه. سأولّيه ظهرى إنْ أتى، وإذا تمادى أطرده.

عقيل - {وقد لمح سهير} مَن أرى؟ سهيرُ معبودتى؟

{ يتقدم من المقعد الجالسة عليه سهير ويُحدث خشخشة بأوراق الشجرة الملاصقة له ثم يختفى وراءه }

سهير - { وقدالتفت فى دهشة } ماذا ! أعفريتٌ مَرَقْ ؟ أم شياطينُ هنا؟

عقيل - { وقد أظهر نفسه } بل عقيلٌ، وذلك الجنُّ أنا .

سهير- { فى غضب } يا ويح لك ! مَن ذا هَداكَ لموضوعى !

عقيل - أُلْهِمْتُ ...

سهير - صه. بئس وحىٌ ألهمَك !

عقيل - ماذا ! ليلاىَ غَضْبىَ ؟

سهير - ....

عقيل - فِداك الدموع التى تَشْفع عندك.

سهير - ...

عقيل – خبِّرينى بربك ماذا أحال رضاكِ، وما الذى أوجب غضبكْ ؟
أأشواك الورود أدمتْ إصبعكْ ؟ أم مرور النسيم آلم خدكْ ؟ أم اعتداداً بحسنك المرموق قد تحدّيتِ القلوبَ بصدكْ ؟

{ تنهض فى ضجر وتخطر الهوينا فى الحديقة وهو يتبعها }

عقيل – { مستمراً } الرياحين فى الروض يا غَضْبَى تتمسّح بأذيالك، والحصى والعشبُ يلثم قدمكْ. والغصون المغرورقاتِ بأدمع الطَّلِّ قد ندَّينَ بالعبرات غضبكْ. جذلاتٍ من البكاء لسْن يدرين أمِنْ حلاوةِ البذل طربْنَ أم مِن تذوُّق ظُلمكْ.

سهير – أفٍ لك ! هِهْ { تلطمه ثم تجلس على مسافة منه }

عقيل – { على حده } رُبَّ ظلم رُمْتهِ لمتيمٍ أشهى إلى القلب المعذَّب من حنانك. لطْمةٌ من كفِّك الناعم تنعش الخدَّ كلمس القُبَل. وتغاضٍ من ناظريْك وإعراضٌ ربما فاق عناق الرضا .

مَن يكُنْ مسَّهُ الحبُّ فسواءٌ لديه شهْدُ الجمالِ وصابُه. لأنتِ فى عبوسك اليوم حسناءُ مثلما كنتِ فى ابتسامك. مَن لِمَن أوْلى الجمالَ يقينَه بمؤوِّلٍ بسوى المعجزاتِ فعَالَه ! ليلاىَ، حبذا أنتِ يا ليلاىَ غضْبىَ وراضية ! كذلك أراك، ورأتْك الرياض معى، وكل مفتونٍ مدلَّه بذاتك.

سهير – { على حدة } خطأً كان ما قدَّرتُ لنفسى. نعم، لقد غضبتُ وسمحتُ لنفسى بالغضب. عَلَّ فى حممه تُحرَق عواطفى فأستريح.

ولكنْ، إذا النار تلفح النار، واللهب يذكى اللهب، فما أن حاربتُ نفسى حتى ازددتُ بها تعلقاً، ولا حنقتُ عليك يا عقيلُ حتى تَضاعف شغفى بك .

عبثاً نحاول بالصدِّ نسيانَ ما نريد تجنبه. إنه لَيعتصم إذ ذاك فى خفائه، وينتفخ على حساب جهلنا به ويتورم.

أجَل، إنْ نزمعْ الكرُه لشىءٍ نُغْرِ النفْس به. ورُبَّ أحبِّ الأشياء إلينا أشياءُ أضمرنا لها يوماً المقت.

إلىّ إلىّ أيها النور، واملأْ عينىّ بسناك، وكحِّلْهما به. هلمّ وأفْرِغْ فىّ نفسك، علّنى أستنفدك فأستريح، أو آنس إليك فأحبك. ذَلكمُ الكبْت، ذلكم الخفاءُ، ما أقتَله { تقترب من عقيل }

سهير – عقيلُ، لقد كنتُ حمقاءَ فهلاّ عفوت عن زلتى ؟

عقيل – نعم حمقاءُ يا من حدثتْك بالتهجم على كبريائى نفسُك. لو أنّ مزحاً كان ما بدا منك لَمَا حملتُ لك قط لوماً، بل ولَطلبت المزيد من عذب ضربك. ولكنك تجنيتِ، والتجنى أكثره سلُوٌّ وأقلُّه ملل. فلا يطمعنّ بعد ذلك فى الصفح قلبك، فلَنجوم الليل أدنى إليك مما تطلبين { يهم بالانصراف }

سهير – { وقد تشبث به باكية } أوَ تتركنى ؟

عقيل – نعم. ولِحيث أُلْفَى حتفيَهْ.

سهير – أيها الظالم رفقاً، وارحم دموعى الجارية.

عقيل – أوَ تدعينني ظالماً، وأنتِ بَعْدُ الجانية ؟

سهير – بل عليّ جنى السّنا.

عقيل – أيُّ سنا ؟

سهير – سناكَ، ومن أجله هذى الدموع الغالية.

عقيل – سناى أنا ؟

سهير – نعم، فلقد كنتُ قبلك فى ظلامٍ ثاوية. فلما طلعتَ عليّ بسناك بُهِتُّ وغشّى بصرىَ النورُ، فتأوهتُ لفورى وقلت يا ليتنى ما تفتحت أو خُلقت فانية.

عقيل – كذا ؟

سهير – نعم، فهذا الضياء غريبٌ على مَن هى من ظلامٍ آتية. أوَ تحسب أننى أرجفتُ أو أننى فى ادعائى هاذية ؟ آه، رَبِّ وللسّنا يرهقنى ! ما للضياء وما لِيَهْ !

عقيل – إذنْ فَلأَنْتِ غير مذنبة ؟

سهير – بل مدفوعةٌ غلبتْ أمرىَ الحظَوظُ، فما وعيتُ لنفسى ولا دريت ما بِيَهْ.

عقيل – رفقا سهيرُ بنفسك واحمدى الله على نعمة النور الغالية. ولأنا مثُلك ومعك تفتحتُ، فما ضجرتُ ولا شكوت أمراً، بل لأرانى من النور فى عافية.

سهير – آه يا عقيلُ، كم أنت تتفاءل ! إنّ قلبى لَيحدثنى بأننا ما تفتحنا

إلا لنذبل. ذَلكم مصير مَن يَخرج للنور، أنْ يحترق فيه، وهو يحسب أنما يضيء معه. نعم، ما يزال النور يستحثنا إليه، إلى أن نودِع طاقتنا فيه.

عقيل – صبراً صبراً يا سهيرُ، فكلنا من النور أتينا وللنور نوَهب. وليس يَعصم الوردَ من ذُبولٍ أن يأوِى إلى الغمض، فما الغمض إلا الظلامُ، وإنّ وردةً قابعةً فى كمِّها لهى بَعْدُ ذاوية. ولأنْ نُبعث مرةً ثم نمضى خيرٌ من أنْ لا نُبعث قط، ما دام الفناء مصير كل حيّ. فدعى الخوف عنك يا حبيبتى وهيا إلى النور معى.

سهير – آه، كم هو ساحرٌ ذلك النور، لولا أنه دَنِس ! وَهَجُهُ من شهوةٍ، والظل منه معصية.

عقيل – حذار يا سهيرُ أن تنكرى شهواتك لئلاّ تنكرى الحياة، فأن تلكم الشهوات هى الحياة بعينها. واعلمى أن الرجْس ليس فى النور ولكنه فى الظلام، فينا نحن. وليس يطهرنا منه سوى أن يخرج للنور ويحترق فيه، تاركاً لنا وراءه رائحةَ دخانه وقد فاح منها عطرٌ عَبِق. تلكم الرائحة، هى رائحةَ رذائلنا، رائحة اللذة، رائحة الحياة.

فلئن نستمتعْ نتطهَّرْ، وإلا انطوينا على قَذَرنا. وهكذا الحياة ملهًى ومعْبَدُ معاً ومَن لم يَلْهُ فما تَعبَّد.

سهير – عقيلُ لا تغْرِنى بربك.

عقيل – آهِ لو أولَد من جديدٍ فأقضى الحياة على النحو الذى فاتنى ! إذنْ لَزهدتُ فى الجِد الذى حسبتُه سبيلا إلى غايتى، فما أبقَى على وقتى ولا حقق غايتى. ولا أطلقتُ نفسى مع الطير أرشف القبل من ثغور الأقاحي، وأحتسى الراح من كئوس الثمر. ولَشغفتُ بالشعر والغناء كيما ترقص الأحلام حولى كلما غردتُ بالنغم الحنون

ولرضعتُ من الهوى صبيًا، ولم أرجيء إلى غدى ما قد لا أكون قادراً عليه فى غدى. قلوبنا كالزهر لا يتفتح إلا فى ربيع الحياة، وإذا طلع عليه الخريف نوى. فحرامٌ علينا أن نستمهل الشبابَ بينما دنيا الشباب المجدة لا تمهل .

سهير – سواء أردتُ يا عقيلُ أم لم أرد، فلقد قُضِىَ الأمر وخرجتُ للنور.

عقيل – يا رعى الله النور !

سهير – النور ! نعم، ما أفتنَه !

عقيل – مالى أراك ذاهلة !

سهير – قَضَّيتُ ليلى ساهرة.

عقيل – أنا أيضا لم أنم. وإذ نبا المضجع بى أمس، هجرتُ فراشى وانكببت أبثك الوجد فى خطاب.

سهير – خطاب ؟

عقيل – نعم خطاب. مداده من دموعٍ، ومن نفحات الشوق كلماتهُ .

سهير – وهل أرسلته ؟

عقيل – كنت أوشك أن أفعل، ولكنك سبقته إليك .

سهير – كم أنت مجازف ! وأين هو ؟

عقيل – هاكه. { يناولها الخطاب }

سهير – { وهى تفض غلافه } وبه زهرة ؟

عقيل – نعم، من غرس يدى. ولقد عاصرتْ حبك السعيد فنذرتُها له. أوافيها كلما جُنّ الشوقُ والقلبُ اتّقد .

سهير – دعنى أقرأ. { تتلو الخطاب }

غرستُها زهرة فى آنيةٍ، وسقيتُها من دموعٍ جارية. شمسها كانت من لهب الفؤاد، ونسيمها من تنهُّدات البعاد، غنّيتُها ألحانَ الهوى، وشكوتها فى البعد آلام النَّوى .

وحباها الضياءُ فأينعتْ وتفتّحتْ عن عبيرٍ وسنَا. فبكيتُ إذْ آذنتْها من شبابها المنية، لأن صحوة الحياة إنما تتضمن غمضةَ الموت.

فراودتُها على قطفها لأستشفَّ منها المعانى قبل أن يختلسها فى غفلة الشباب البِلَى. فتمنّعتْ فقلتُ لها ما البخل بالجمال بِواقيه الموتَ، ولأن تبذليه خيرٌ من أن تدَعبه يفنَى .

فقالت أجَلْ ، أن يدَك وإنْ قَسَتْ ما إخالُها إلا أحْنَى علىّ من

الزمان يدا . وأنا وإن عزّتْ عليّ الحياة ليَروعنى أن أُمسِى فى الغَدِ فلا بى حسنٌ يَرفُّ ولا يَضُوع من أنفاسى شذًا .

فقطفتُها فقدمتُها إليك زهرةً عبقريةً ، ماؤها من عصارة قلبى ، وروحها من نُفَاثات حبى . وَعَتْ أوراقُها المذاعَ من سرى ، وأبانت بِصَمْتها المستورَ من وجدى .

أنصتى إليها تحدثْك بكلامٍ هو وإن يكن غيرَ مسموع إلا أنه فصيح. أسلوبُها الشِّعرُ وإيقاعها الأيحاءُ ، فهى تخاطب القلوبَ بلغةِ القلوب .

واحفظيها يا حبيبتى إلى يومٍ توافينا فيه المنية، وعند ذلك نهجع إلى جوارها حيث يطيب فى غياهب الأبد السحيق استذكارُ الحياة.

{ وهى تتأمل الزهرة والخطاب }

يا زهرةً تحملين فى شذاكِ أنفاس الحبيب ، ويا رسالةً بها من فورة الحب لهيب ، مكانكما القلبُ مثوَى صبابتى وحبيبى .

{وهى تضعهما فى صدرها} أواه! أىُّ نارٍ أودعْتَ الورق! كدتُ من لمس خطابك احترق .

عقيل - النار يا سهيرُ من نور عينيك فى قلبى ، وليس يطفئُها سوى رحيق فمك . آه لو أعدتِ لى بشفتيكِ ما سلبتْه منى جفونُك! إذنْ لَشربتُ فى تلك القبلة كأسَ الحياة التى أراقها من قَبْلُ حبُّك.

لا تحسبيني أكره الموتَ في سبيلك ، ولكنني أحببتُ الحياة لأجلك . ففي سبيل حبك المميت ما أتشبث بالحياة لأتذوق فيها من الموت .

سهير - { وهي تقترب منه } عقيلُ إني فداكَ فلا تبتئس .

عقيل - { وقد قبلها } وصفَها الطبيبُ خمرةً من فمك لمّا عادني . فاسقينها فاسقينها شراباً سحريًا يسيل في الروح فيحيلُها راحا . أجمل الأوقات لحظةٌ يغيب العقل فيها فتستفيق الهواجس المستحَية فيه . وحياتنا مسٌّ من الوهم فكل مسٍّ يصيبنا فيها محبَّبٌ إلينا .

هات فمك مرة أخرى وهيا نغيب برهة مع الأحلام . أجل ، وتتوه العيون منا فيتوه عنا الكونُ إلا ما شَابَهَ منه أطيافَ الكرى ، وتضطرب الأرواح فتتطاير مع التنهدات حيث تتلقاها الأنفاس المرتجفة . وتستحيل القلوب جمراً كلما أضرمه الهوى هبَّ منه علينا نسيمٌ وبردْ .

{ مستطردا وقد تمنعت } ما بالك هكذا يا حبيبتي ترفضين ، هلاّ افتديتِ بشهد الجمال شهيدَ الجمال ! أيتها البخيلة بجمالك عليّ أنا الكريم بروحي ، هبيني الحياة أو هبيني الموت ، فسيان عندي النقيضان ما دمتِ السبيل إليهما.

سهير - { وقد نظرت الساعة } أوه ، لقد تجاوزتُ وقتي . هيا بنا.

عقيل - ومتى وأين نلتقي ؟

سهير – { فى مكر } بعد شهر هـهنا .

عقيل – رحماكِ ، هذا كثير !

سهير – كلا .

عقيل – سهير !

سهير – لن ترانى قبل ذلك . هيا .

عقيل – { وقد انتحى جانبا فى غضب} حسناً . وأنا لا أقسرك على رؤيتى .

سهير – { على حدة } يا إلهى ، الطفلُ غضِب ! { وقد ذهبت إليه وربتت على كتفه } أيها المسرف الملحّ فى طمعك يا حبيبى هلا آمنتَ بلذة الحرمان فى الهوى ؟ إنك لن تكون منعَّماً حتى تكون فى طمعك شقيًا ، ولن تكون فيه شقيًا حتى تكون منه محروما .

عقيل – كذا ؟ أفلو غدوتِ مُحِبة ، ترضين لنفسك الحرمان ؟

سهير – نعم ، وإننى لَمُحِبة . ولنفسى أرتضى الحرمان . أىْ حبيبى ، هبنى سـألتُك اليوم موعداً فلْتَقُلْ غداً ، فإذا أقبل الغدُ بعد غد . وحذار أن تفى بالوعد ، إلا أن تخاف على فؤادى أن يهلكه الأسى . إنْ يفتْنى بعضُ المنى فيك أَفُزْ بأقصى الأمانى فى الهوى ، وهل لغير الهوى يا حبيبى أريدك ؟

عقيل – أنتِ يا مَن تباعدين ما بين مواعيد اللقاء وتسرفين فى الأيام كأننا نعيش مخلَّدين أو نأمن عاديات الزمن ، ما هكذا تطمئنين للأيام

والأيامُ تغافلنا وتمضى .

كل آتٍ على عَجَلٍ يئـوبُ ، وذَلِكم الهناء كـالبـرق حـرامٌ . على العيون الغافلة . فهيا يا حبيبتى نختلسْ من بارقِ الهناء المنَى، ولْنتبسَّم اليوم إليه فغداً سوف نسكب الدموع عليه .

أخلقى من كل شيءٍ ومن لا شيءٍ مناسبـةً للقـائنا ، وتحـدِّى بجنون الهـوى عـقلَ القـدَر . واذكـرى أنك إذا أردت أن تكونى مُحبةًً فلا تكونى عاقلةً ، لأن الحب والعقل نقيضان .

قَرِّبى الميـعاد وهيَّا إلى نزهـةِ النيل نشقُّ بزورقنا لُجَجَ الميـاه ، ونرشف بين رقْص الأمــواج القُــبَل . ثم نرســو باسق النخل المخضَّب الأهداب بدماء الشـفق ، فتتـعانق بين أنفـاس الرُّبا ، ونتشاكى الهيامَ بالعيون الدامعة .

سهير – { لنفسـها } نعم ، نعم . إننا ونحن فى فـجر غرامنا أوْلى بنا ألاّ نضيِّعَ الأيام ، فَلَكم يحدثنى قلبى بأن الأيام ليس لها دوامٌ ، ولا فجر الغرام له ضحى .

عقيل – إذنْ فاليوم نركب زورقاً ؟

سهير – اليوم لا .

عقيل – متى إذنْ ؟ غداً ؟

سهير – بل بعد غد . يكون قد انتصف الشهر والبدرا اكتمل .

" سـتار "

المنظر الثانى

طريق على شاطىء النيل كثير الأشجار ، به مقاعد ،
وقليل الرواد . يرسو زورق تخرج منه سهير
وعقيل . الوقت ليلا والقمر مطل .

عقيل - { وقد نظر إلى القمر } يا لَهذا القمر المطلّ من مسحورٍ وساحر!
الأزرقُ الحالم من ضوئه صبَغكِ فخُيِّلتُ أنكِ من بنفسج .

سهير - هِهْ هِهْ ! فى الصبح وردةٌ ، وفى المساء بنفسجة ! خلَع علىّ حبُّك
الجمالَ حتى حسبتُنى حقاً جميلة .

عقيل - { وقد قبلها } لأنتِ وإنْ فُقتِ زهرَ الروض زهرة . إمّا وضعتُ
عليك فمى ، عطَّرتُه بالشذا العبِق .

وإذا ما رفعتُه ، كنتُ قد أطبقتُه على حفنةٍ من نور .

سهير - { فى سذاجة } إذنْ فمِن نورٍ تلكمُ القُبَل !

عقيل – { وقد قبل فاها } نعم . وإنّ هذا النور الذى نرشفه ، لَهُوَ ما سكبْنا، لأنه ليس سوى روحينا، وقد تطايرتا كحَبَبٍ عند ثغرك .

سهير – ثغرى أنا ؟

عقيل –نعم ، فديتُه . { يهم بتقبيلها }

سهير – { وقد ابتعدت } كفَى .

عقيل – هات قبلة ! .

سهير – أخذتَ قبلتين .

عقيل – أريد أخرى على العين .

سهير – لا . خذ . آه ، أنا بين بين . { تستلم ويقبلها }

عقيل – أسَهيرُ يا معبودتى

سهير – لبّيك قُلْ يا آمرى

عقيل – غنى فأن القلبَ يُشْـ

ـفَى بالغناء الساحرِ

سهير – حسَناً فصغْ ما تشتهى

إنشادَه يا شاعرِى

وأنا ألحِّنه بما

يهفو إليه خاطرى

عقيل – ماذا أقولُ ؟

سهير – صـف الهـــــوى

في ضوء هذا الساهرِ

{ تشير إلى القمر }

عقيل – كيف السبيل إلى الكلا

مِ وأنتِ كلّ مشاعرى

هلا سمحْتِ بمهلةٍ ؟

سهير – لكَ ما تشا يا آسرى

كيما تناجيه وأشْـــ

ـبِعُ من سناهُ ناظرى

{ تتركه وتبتعد قليلاً }

سهير – { وحدها وقد نظرت إلى القمر } أتهاويلُ حالمٍ ضوءُكَ هذا يا قمر ؟ فيمَ يسْبح تفكيرُك ، وبمَ يا تُرى تهمس بك أوهامك ؟

دعَتُك ، شحوبك ، ابتسامتك ، إغراقك ، كل هذا يوحِي إليّ يا قمر بأنك حالم . أيا تُرى غَيّبك الذى غيّبنى فهمْتَ وراء الغيب واستحالت حياتك نوماً وخواطرك رؤًى ؟

كأنى بضوئك الباهت طيفٌ بعثتَ به من هواجس أحلامك بعد

أن غيَّبَ لبوسَنَ نور عيونك . وكأنى بلونك الممعن فى الإغراق تثاؤبُ الأمل المنبثق كالفجر من غضون خيالك .

أيها القمر هلمّ أنبِئنى فى ضوئك كى أسْبح معك فى واديك وأمزج أحلامى بأحلامك . بى من الهوى يا قمر حنينٌ إلى الغيب ، ويوعْى منه نزوعٌ للغياب . فَلأنْسَ دنياى إطلاقاً ، ولأضعْ رشدى بتاتاً ، كى يستحيل وجودى وهماً وشعورى إلهاما .

ولْيكن فى سَمائك مكانى . وليكن من سنائك خيالى . فأنما يعيش مثلك فى الغيب يا قمر مَن غيَّب قلبَه الهوى .

عقيل - { منادياً } سهير !

سهير - لبيك . { تخف إليه }

عقيل - ...

سهير - أوفَّقت ؟

عقيل - سنرى .

سهير - قل إذنْ .

عقيل - انصتى

سهير - ...

عقيل - إذا ألحَّ بنا الشوق يا حبيبتى ، فاصحبينى إلى الرياض فى ليلةٍ مقمرة . هنالك أرى لونك حائلاً كخواطرى ، وأقطف من فمك

بنفسجةٌ كانت قبْلُ فى لون الورد .

سهير – هَهْ هَهْ ! يا لك من لعوب !

عقيل – { يقبل فاها }

سهير – وبَعْد ؟ أوَ حقًا على بنفسجةٍ أطبقتَ فمك ؟

عقيل – وأى بنفسجة ! فلنجلس { يجلسان على مقعد يشرف على النهر}

سهير – والآن ؟

عقيل – تغنّين .

سهير – أصوتى يطربك ؟

عقيل – ككمنجة .

سهير – أعذْبٌ هو ؟

عقيل – كقبلة .

سهير – وحنون ؟

عقيل – كدمعة .

سهير – إذنْ فاسمع .

عقيل – غرِّدى .

سهير – { مغنية } إذاألحَّ بنا الشوق يا حبيبتى ، فاصحبينى إلى الرياض فى ليلةٍ مقمرة . هنالك أرى لونك حائلاً كخواطرى ،

وأقطف من فمك بنفسجة كانت قبْلُ فى لون الورد .

عقيل – آهِ من صوتك الحالم حين يَسرق الصمتَ كصدح بلبلٍ يبتعد ! ألاَ حبذا الراحة الآن من عناء القُبَل . أغمضى عينيك إذنْ وضعى فوق صدرى الخفّاق رأسك . ولْيذْرُ النسيمُ شعرَك ليداعب أجفانى كبوادر الوَسَن . إننا فى حاجةٍ إلى بعض النوم لِتَذهِب عن أنفسنا بعضَ الضنى . { تلقى برأسها إلى صدره ويغمضان كمن أخذتها سنة ، ويمضيان على هذه الحال برهة تسمع فى خلالها أصوات خرير مياه ، وتفيق ضفادع ، وغناء صراصير ، واصطفاق أوراق الشجر }

سهير – { فى صوت خافت } أحالمان نحن ؟

عقيل – بل الحالم الليل ونحن الرُّؤَى .

سهير – { تتنهد }

عقيل – نحن والليل الآن كحلْمٍ بين جفنين . وكحلْمٍ سنستغرق ، إلى أن نفيق على نقرةِ تفاحةٍ تسقط فى الماء . { يعودان إلى الاغماض، وتعود الأصوات السابقة إلى الظهور . { وبعد برهة تسمع نقرة تفاحة تسقط فى الماء فينتبهان }

سهير – { فى صوت خافت } وكحلمٍ ، سنستغرق ، إلى أن نفيق على نقرة تفاحةٍ تسقط فى الماء .

عقيل – ...

سهير – { وقد انتفضت } إيـ ! إيـ !

عقيـل – ماذا ؟

سهير – { ضاحكة } ضفدعةٌ ماجِنة !

عقيل – لا تنزعجى . إنها ما جاءت إلا لتذكِّرنا بالوقت ، لأننا قد ننسى أنفسنا إلى الصباح .

سهير – أحسب أننا قطعنا من الليل شوطاً غير قصير . تُرى فى أية مرحلةٍ نحن الآن منه ؟

عقيل – انتظرى أرَ .{ينظر الساعة} أرانا من الغروب على بعد مائتى قبلة

سهير – ؟

عقيل – { مستطرداً } على حساب أن كل قبلة بدقيقة .

سهير – { ضاحكة } ماذا تقول ؟ أتُرانا من الغرام سكرْنا ، فمضينا بلغة الهوى نتكلم ؟ قم بنا .

{ وقد نهضا متثاقلين } آه ، مالى أترنّح هكذا ؟ لأرانى أجاهد فى حمل نفسى كَمَنْ ينفُض عن نفسه بقايا نومٍ أفاق لتوِّه منه .

عقيل – { وقد مد لها ذراعه } هاك ذراعى اتكئى عليه .

سهير – ماذا بربك ؟ حسبتُك جاداً ! ألَسْتَ أوْلَى به منى ؟ أعلَى مائلٍ من

الحوائط استند ؟

عقيل – أيتها الشيطانة! هبيني قواىَ خارت، أفَمَا أستطيع بقوة الحب أن أسندك؟ أأريك كيف أنِّي قـادرٌ على أن أحملك بين ذراعيَّ كما أحمل الطفل؟

سهير – كلا . لا أحب أن نتجاوز .

عقيل – إذنْ فهاك ذراعى .

سهير – انتظر ريثما أصلح ما بنفسي ، وأزيل عن ثيابي ما علق بها من العشب .

عقيل – لا تنسيْ وأنتِ ترتبين شعرك ، أن تُلْقِي نظرةً على القمر . لَسوف تجدينه يبتسم .

سهير – { وقد نظرت إلى القمر }

{ يسمع صوت رجل يترنم بمقطوعة }

الصوت – ماهَوَيْتُك لذَاتك يا حبيبتي ، وإنما للجمال الذى أعبده . وإذْ كان الجمال موزَّعاً بين الحِسَان ، فقد وزَّعتُ ما بين الحسان قلبى .

أنا سَمْحُ القلب أضمر الحبَّ لكلِّ جميلٍ ، وأودُّ لو دَانَ قلبك في الغرام بدِيني. فإذا نازعتْنا غيرةٌ دفينةٌ في قلوبنا فلْنوطِّنْ على احتمالها النفْسَ أو نغسلها على مَرِّ السنين بالدموع .

ولَئِنْ خاننا الصبرُ الجميل فحبذا الألم يا حبيبتى فى سبيل الطُّموح . مزيجٌ من الحزن والفرح الحياةُ ، فلْتكن مزيجاً من الدموع والابتسام حياتُنا . وأنتِ يا عينُ انطلقى فى إثْر الجمال بسناهُ اكتحلى وبِأساهُ أدمِعِى . ولْتكن عواصفَ لا تعرف الخمودِ نفوسُنا ، وحاشانا نحن الأحياء أن نخْلد إلى الهدوء فالهدوء الموت .

عقيل – أتعرفين من يكون صاحب هذا الصوت ؟

سهير – مَن ؟

عقيل – إنه الشاعر ثروت الذائع الصيت .

سهير – معبود النساء ؟

عقيل – هو بعينه . أوَ ترين كيف يرى الحب ؟

سهير – نعم . ومع ذلك فشعره جذاب ، يستر طربُه مغالطاتَه .

عقيل – هو ذلك . إن من يستمع إلى شعر ثروتَ ، فكأنما يستمع إلى أغنيةٍ حالمة أو صلواتٍ تُرتَّل . إن ثروتَ لا يقول ، ولكنه يغرد .

سهير – ولَكأن ألفاظه تسْبح فى ضباب . الشعر هو هذا الضباب ، هو بعض روح الشاعر .

آه لو أن معانيه لم تكن هكذا مخيفة ! ولكنْ تُرى يؤمن هو بمعانيه تلك ؟

عقيل – نعم . إنه شخصيةٌ معقّدة ، جدٌ نهمة بالجمال إلى حد أنْ أضحتْ منه فى نصَب . وهى برغم المفْرط الكثير الذى تصيبه منه ، دائماً تشكو الظمأ وستظل تشكوه إلى ما لا نهاية . ومن أجل هذا جاء شعره مزيجاً من اللهفة حلّا ها الألم ، وحباها الحرمانُ تصوُّفا .

سهير – لَشَدَّ ما يطربنى شعره !

الصوت – لكِ قلبٌ يا حبيبتى ولى قلوب .

سهير – أنصتِ ! لقد عاد الشاعر إلى ترنيمه .

الصوت – (مستطردا) فأحببنى إنْ شئتِ وحدى، أمَّا أنا، فلابد أن أشْرك فى قلبى غيرك. لست أنكر ما للونك الأسمر من سخونةٍ تُوقد النار فى جوانحى، ولكنْ لا تنسىْ ما للَّون الأبيض ما للفجر المنبثق من روعة.

إنما وُزِّع الحسْن ما بين الحِسَان ، وما الجمال الفذ إلا مجموع ما فيهن من جمال . فدعينى إذنْ بين الحسان حتى لا يفوتنى شىءٌ من الجمال الذى من أجله أحيا ، ولا تَكلينى إلى عبْث الفناء قبل أن أحقق منه الأمانى فأن حياتى حُلُمٌ لا يعود .

هبيك بَكيتِ فما حيلتى أنا الأنانىّ ككل إنسان إذا أنا تجاهلت دموعك فى سبيل مطامعى ؟ أقرب الأشياء إلىّ نفسى ، فكيف

أجيبك إلى ما فيه حرمانى فأبرّ بك وأعقّ نفسى ؟ لك أن تشكى إلى القدَر ما أودعه القدر فىَّ من أنانية ، ولكنْ لا تلومينى أنا البرىء على أننى أردتُ ألاّ أكونَ ظلوماً لنفسى فظلمتُك .

سهير – يا ويح له ! أفحشُ الآراء صاغ فى أنقى نغم ! أىُّ سمٍّ دَسَّ فى أىّ عسل ! حقًّا هو فذٌّ هذا الرجل .

عقيل – أتحبين أن أقدمك إليه ؟ إنه من أعز أصدقائى . { منادياً } أيها الشاعر ثروت !

ثروت – {من الجانب الآخر} مَنْ؟ هو أنت عزيزى المثّال عقيل؟ لقد عرفتك من صوتك. فيم أنت هنا؟ {وقد أقبل عليهما} هالو! كيف أنت؟

عقيل – يا مرحباً بك. أقدم إليك صديقتى سهيرَ إحدى المعجبات بشعرك { يسلمون } .

ثروت – { لسهير } كرمٌ منك أن تمنحيه إعجابك .

سهير – كلا يا سيدى ، بل هو دينٌ فى ذمتنا نؤديه. لقد كنا نستمع إليك الآن وأنت تنشد إحدى مقطوعاتك ، وكأننا كنا إلى موسيقَى من السماء نستمع.

ثروت – شكراً يا آنستى .

عقيل – وهل أنت وحدك هنا أيها الصديق ؟

ثروت – نعم . ليس معى سوى شيطانى .

سهير – هذا شأن الشعراء دائماً . أحبُّ الساعات إليهم ساعةٌ يختلون فيها بأنفسهم .

ثروت – نعم ، فجميلةٌ هى الوحدة بين أحضان الطبيعة وفى سكون الليل. لَكثيراً ما أقصد إلى هنا أناجى الجمال وأبثه ظمئى .

سهير – حسَناً تتخير الليلَ لمناجتك . إنّ للَّيل لَسحراً على النفوس .

عقيل – أحسب أننا مفطورون على حبه بغرائزنا لِمَا اتَّسم به من ظلامٍ كالغمض وهدوء كالكرى .

ثروت – هو ذلك، وإن كان الليل لا يُغْمض جفنَ عاشقَيْن أو يوصد لهما أذُن. إنّ الأنغام لَيبتلعها السكون فتَخرس، والكائنات لَيواريها الظلام فتغيب، إلا عن العاشقين الذين يهتك بريقُ قلوبهم سوادَ الليل وتعتبث أناتُهم الخافتة بهدوئه، فإذا بالأزهار اليانعة تفترُّ ثغورها عن ابتسامةٍ لاذعة، وإذا بالحشرات القابعة فى جوف الغصون تُحدِّق فيهم بعيونٍ كالشرر. المحبون كالشعراء يروْن فى الظلام ويسمعون فى الصمت. {لسهير} أليس كذلك يا آنسة؟

{ يضحكون }

سهير – ماذا تقول ؟ ما أبرع لَفَتاته !

عقيل – لعنك الله من خبيثٍ لا تفارق النكتة فمه ! إلى اللقاء . ولْنتركك إلى شيطانك فهو أقْدر منا عليك . { يسلمون }

{ يخرج سهير وعقيل }

ثروت - { وحده } إنى لأشُمُّ هنا عطرَ قُبَل . بارك الله فيهما معاً . عاشقٌ جميل ، وعاشقة أجمل . والآن ، لأعدْ إلى تغريدى .{ يتناول قلما وورقة وينشد }

أنا إنْ تناولتُ اليراعَ ناديتُ قلبى ، أنا أسكب فيما أحرر روحى . من تهاويل الجمال نَضَّدْت شِعرى ، من أهواله بالشَّجَى أترعْتُه .

أنا مَن إنْ شدا انتشتْ القُلوبُ ، ومَن إن بَكى أذاب المُهَج . أنا خفقةُ كل قلبٍ ، أنا دمعةُ كل عينٍ ، أنا عاشقٌ أنا شاعر .

إمّا حلَلتْ فثَمَّ غرامٌ ، وإمّا ارتحلْتُ فثَمَّ ضنى . وفى كل روضٍ لى زهرةٌ ، كل غديرٍ لىِ فيه دمعة .

الفصل الثانى

حديقة المنظر الأول من الفصل الأول. جلتار وعديلة جالستان على مقعد تحجبهما الأشجار عن الجانب الآخر من الحديقة. الوقت نهارا .

عديلة – لأول مرةٍ ترى عيناى الضوء، مذ لازمتُ حجرتى طوال ذلك الشهر الذى قضَيته فى المرض.

ما أبشع الحياة فى الظلام وبين جدران المنازل ! إنى لأشعر وأنا هنا فى العراء، أن روحى ترتدُّ إلىّ هابطةً مع النسيم وطىَّ أشعة الشم.

جلْتار – لا بأس عليك يا عديلة. لقد والله أوحشتْنى غيبتك. ولو كنت أعلم أنك طريحة الفراش لما أخبرنى عن عيادتك شىء.

عديلة – شكراً يا جليتار. وكيف حالك ومن يلْوذ بنا من الصديقات ؟

جلتار – على غير ما نحب. أمَا أتاك نبأ ما حل بصديقتنا سهير ؟

عديلة – أيُّ مكروهٍ أصابها ؟

جلتار – لعلك تعلمين أنها على علاقةٍ بمثَّال شابٍّ يُدعى عقيل منذ الخريف المنصرم.

عديلة – أعلم ذلك. وأعلم أنه شابٌّ ظريفٌ مهذب، وأنه فوق هذا بارع فى فنه، ينْبىء نجاح حاضره عن عِظَم مستقبله.

جلتار – آه، واأسفى عليهما !

عديلة – إنك تخيفنى ! أىَّ مزعجٍ من الأخبار وراء لهجتك هذى !

جلتار – نعم، لشَدَدَّ ما هى مزعجةٌ أخبارى !

عديلة – قولى إذنْ. أيعانيان مرضا ؟ أم أنهما أصيبا فى حادث سيارة؟ إنى أعلم أنهما كثيراً ما يقضيان الأماسىَّ فى الخلوات وقد أطلقا سيارتهما فى سرعة الريح.

ولقد صحبتهما مرة فى نزهةٍ كهذى وأشهد أننى رأيت الموت يومئذ رأىَ العين. فهل انقلبت السيارة بالمسكنين مثلاً؟ أم ماذا؟ قولى .

جلتار – يا ليت شيئاً من هذا حدث. فجروح الجسد تندمل مع الأيام أو يقضى صاحبها فتستريح، وأمّا جِراح القلب فتظل داميةً تتألب من حين إلى حين وإنْ قَدُمَ عليها العهد وظُنَّ أنْ قد عفاها النسيان.

عديلة – ماذا بربك ؟ ماذا حدث ؟

جلتار – آه ! حدث ما لم تكن والله سهير ولا صديقها يستحقه. لقد خرجا ذات أمسية يتنزهان في سفح الهرم، واتفق أن كان أبوها مارًا من هنالك ...

عديلة – { مقاطعة } رباه ! وهل رآهما ؟

جلتار – نعم، فاجأهما معا.

عديلة – !

جلتار – { مستطردة } ولو أن الأرض زُلزلت، أو الجبال دُكَّت، أو السماء انفطرت، لمَاَ عادلتْ إذ ذاك هول غضبه، لقد انفجر كالبركان الثائر، وانفضَّ على العاشقين يود لو يفتك بهما بعد أن أشبعهما لوماً وتقريعاً.

وما أن أفرغ من صدره كل ما يتحمل به وقتئذ صدر والدٍ وُتِرَ في شرفه، حتى اقتاد ابنته إلى سيارته، فصعدت إليها بقدمان لا تكادان تحملانها لفرط طما أصابها من إعياء، وهناك قبعت ذليلةً إلى جواره كطائرٍ سقط في يد قانصه.

عديلة – وبعْد ؟

جلتار – وبعد انطلقت بهما السيارة إلى البيت حيث قضت المسكينة سجينة غرفتها لبضعة أيام، حُرِّم عليها فيها الخروج إلى الشارع أو رؤيته لأيما مناسبة.

عديلة – واكبِداه ! تكلمُ الفتاة الوادعة ؟

جلتار – نعم، وأخيراً وبعد وساطة عمها، نزل الوالد عن شيءٍ من غلوائه، وسمح لابنته أن تعود فتريض من وقت لآخر، على أنْ لا تفعل ذلك بمفردها كما كانت من قبل، وإنما عَهِد بمرافقتها إلى حارسٍ لا تغفل عينه، وهو خادمٌ عجوز قدِم إلى البيت منذ عهد أبيه. ومنذ ذلك الحين انقطعت على العاشقين أسباب اللقاء، فتصدَّعَ القلبان، وتضعضت المهجتان، واضطرم الشوق فى محبسه يحاول عبثاً أن يتنفس.

آه لو رأيتِها بعد ذلك يا عديلة ! إذنْ لرأيتِ تمثالاً عَرَاهُ الوجومُ فما هو ينطق. لقد أخرسها فرطُ الألم، وانطبقتْ جفونها لشدة ما دهاها المصاب، فشاعت فى محياها رهبةُ الصمت، وبدتْ على ملامحها وحشةُ الفناء. نعم لقد ذبلتْ، تلكمُ الزهرة الناضرة.

عديلة – { وهى تكفكف دموعها } وارحمتاه لها ! إنّ مَن شَهِدَ حبها السعيد، وغرّته منها ابتسامةٌ على الفم دائمة، ما كان يظن أن هذا الحب ستمتد إليه يد الأيام، وأن هذا الوجه البشوش سيأتى يومٌ فيه يَعبس. ما أقصر أمَدَ الهناء ! إنه لَلماما يزور، ثم ما يلبث أن يمضى وقد ثقّلنا بذكرياته. وكأنى به فخًا نُصِبَ على لحمٍ مسموم، لا عن كرمٍ يقدِّم لضحاياه ما يشتهون، وإنما ليقتلهم بالطعام الذى أغراهم به. ولو سألتنى رأيى لمَاَ ترددتُ

أن أقول لك إننى أفضّل أن أقضى حياتى فى ركود، عن أن أظفر بالهناء لحظة ثم أصبح فيما بعد نهباً لذكريات قاتلة. آه، لو فطِنَ أولئك الذين تبَسم لهم الأيام فيبسمون، إذنْ لاحتفظوا بشيء من كآبتهم ليومٍ يولّى فيه الهناء كيما تهون عليهم فجيعتهم. ولكنّ الناس مجبولون على الاندفاع فيما يستهويهم، ومعذورونهم فى ذلك للهناء من طعم يغرى ذائقيه.

ولكننى نسيت شيئاً أود أن أسألك عنه. أوَ كانت خلوتهما بريئة؟

جلتار - إى والله. لقد كانا سائرين جنباً إلى جنب كأى عاشقين ألفً بينهما هوًى عُذْرِىْ.

آه لو فَقِه الناس ! إذنْ لمَاَ ضحَّوْا من أجْل الشرف بما هو أجَلُّ من الشرف. وهل الحب العذرىُّ إلا الشرف بعينه ؟ أو هل هو الشرف عجمتْ صدقَة الرغبةُ عذَّبها الوقار؟

عديلة - مهلا يا جلتار. أراك تخفين لوالد سهير لوماً فى ثنايا عبارتك.

جلتار - ولِمَ لا ؟ ألم يحارب مهجتين بريئتين ؟

عديلة - ومن أين له أنهما كذلك ؟ أجَل، لو أن عذرياً كان كل حب، لمَاَ جاز أن يكون للهوى قَطُّ مضطهِد. ولكنّ أغلب الحب كما تعلمين قُدَّ من قَذَر.

جلتار - هَبِى الأمر كذلك، فلَحبٌّ دَنِسٌ يعْمُر به القلب بعض الشىء، خيرٌ من فراغٍ يظل منه كبيتٍ خَرِب. مادمنا قد خُلقنا فلابد أن نحيا،

وبأى قدْرٍ من الحظ نصيب. خبريني بالله أيهما أفْضل ؟ أهو النور الممتقع أم الظلام ؟ أهى الحياة الهزيلة أم العدم ؟ أهو الفناء فى ساعة المولد ؟ قولى .أيهما أفْضل؟

عديلة – الرأى عندى أنْ لا هذا ولا ذاك. وإنما أن نرقب الحياة الرغدة فى ظل الزوج المنتظَر.

جلتار – الزوج المنتظر ! لَيكاد يكون محض إشاعة. إن هذا الزوج قد لا يأتى. وإذا أتى فقد لا يكون على ما نحِب ونشتهى. مسكيناتٌ نحن الفتيات ! إننا نظل ننتظر وننتظر، معلَّلات النفسَ بالأمانى، بانياتٍ من الأوهام القصور ويا ويلنا إذا ما آن للعين المخدوعة أن تثوب، وللقلب الهاجع أن يتألب. إننا إذ ذاك نبحث عن بقيةٍ من الشباب لنوقِّع بها أغنية الحب الخالدة فلا نجد. وندرك ولكنْ فى آخر العمر، أنْ ليس هناك أثمن من شبابٍ لا يعود فى حياةٍ لا تتكرر.

عديلة – ربما كنت على حق. ولكنْ ما ذنب الفضيلة إذا لم تعرف كيف تستفيد منها الناس ؟ إنْ نُخْطئْها فتنعكسْ صدنا آياتُها، لا يبرر قط ثورتنا عليها. كما أن ثورةً كهذه لن تأتى إلينا بما هو خيرٌ مما نحن فيه.

جلتار – هى ذلك، وهبى أن ثمت نظاماً دقيقاً وُضع، من شأنه أن يجعل الزوج آتياً لا ريب فيه وعلى ما نود ونشتهى، فعلام ننتظر مجيئه بينما تكون قلوبنا قد تفتحتْ للحب قبل ذلك واشتهت اليد

التى تقطفها ؟ إنَّ أيام الشباب من ذهب، وإذا كان من العقل ألاّ نفرط فى أقلها.

عديلة – جلتارُ، لقد رأيتِ شيئاً وغابت عنك أشياء. أتحسبين أن الاستمتاع على إطلاقه ممكن، وأنّ طاقتنا تسمح لنا بذلك على قدْر ما يسمح لنا به الوقت ؟ كلا، إن طاقة الإنسان محدودة، وحظه من النشاط محكومٌ بوقته. وما الوردة إذا أنهكها القيظ بمُنْجيها من الفناء أنْ كان مايزال فى عمرها بقية. فلئن تقْضِ زهرةٌ فى قيلولة فمعناه أن فراغ جهدها قد قطع عليها حبلَ حياتها. الحوادث يا جليتارُ تتعجّل الوقتَ أو تستبطؤه.

وما فعَل الآباء ببناتهم إلا أنهم أحاطوهنّ بسياجٍ وحالوا بين الورود وقطفها، لا أنانيةً منهم، وإنما ادخاراً لهنَّ إلى يومٍ معلوم يواتيهنَّ فيه الهناء الحلال، واعلمى أن الرجال أنانيون متكبرون يعافون الوردة اذا قُطفَتْ، ولا تحلو لهم إلا وردةٌ يقطفونها بأيديهم.

وهم كلما فرغوا من وردةٍ سارعوا إلى البحث عن غيرها، لأنهم مجبولون على النهَم وفى سبيله يستعذبون وخذ الشوك ولو أدمى أناملهم. فارجعى يا جلتارُ إلى صوابك، وحاذرى أن يقودك خطل الرأى إلى ما لا تحمد مغبته، فأن حاضر تفكيرك لَينمُّ عن مستقبل فعلك.

{ يظهر عقيل خلف الشجر دون أن يرى جلتار وعديلة }

عقيل – سهير !

جلتار – هل تسمعين ؟

عديلة – نعم، صوتٌ يقول : سهير.

جلتار – { وقد التفتا فرأتا عقيل دون أن يراهما } عقيل ! وارحمتاه للمسكين ! لعله حَنَّ إلى المكان الذى كان ملتقاهما فجاء يسكب دموعه فيه.

عديلة – نعم، لقد قصد الطائر إلى عشِّه الخالى ينعى أليفه المفقود.

عقيل – سهير !

جلتار – انصتى !

عقيل – أنا مشتاقٌ إليك يا حبيبتى فهل بكِ شوقٌ إلىْ ؟ وهل نحن اليوم كما كنا بالأمس قادران على أن نبلِّغ الشوقَ المنى ؟

أحقًا أنّ ما كان بيننا قد انقضى، فإذا حان ميعادك لا أخفُّ إليكِ، وإذا أقبلتِ لا تجدينى فى انتظارك ؟ وأنى الآن أصبحتُ أنام ملْءَ الجفون بعد أن كنت لا أرى النهوم إلا فى نعاس جفونك ؟ أحقًا أنِّى أفقتُ مما كان بِى، ومضى عنى ذلك الشاغل اللذيذ الذى ملأ فراغى ؟

أحُلُمٌ كنتِ أم كنتِ حقيقة ؟ متى طلعتِ وأين غبتِ ومَن أقصاك ولِمَ؟ أين أيامك، أين عهدك ؟ ألْفه سلامٍ عليه أنَّى يقيم.

لو لم يكن لى أمسُ لمَاَ عرفتُ الشقاء فى غدى. أما وقد استحالت العهود إلى ذكرياتٍ فيا ويلى مما مضى من هنائى !

فقدْتك يا حبيبتى وإنه لَعزيزٌ علىَّ والله فقْدك. فيا ليتنى ما حظيت بقربك، إذن لماَ كنت ألتاع غداة الفراق لبعدك.

عندما تنزلق الابتسامة على الشفاه، يتأهب الدمع من ورائها النزول. وما الذى ينتابنا فى الحياة من حزنٍ إلا ذكرى ما نلقاه من سرور.

عديلة – أترين كيف شحب لونه وبرزت عظامه ؟ مسكينٌ، لقد شفَّه البعدُ فلم يبقَ منه غيرُ هيكلٍ، وكأنما هو وجْدٌ يَجَسَّم.

جلتار – كم هو ساحر ! انظرى. ما أرشق قدَّه ! وما أجمل قسماته ! لَمعذورةٌ هى سهيرُ فى حبه.

عديلة – صه يا جلتارُ فَلأنْ نشبِّب بميِّتٍ ليس من الأدب. لقد كسا الحزنُ جمالَه حرمةً ومن واجبنا أن نحترم هذا لذاك، واحترام الجمال بأن نغضَّ من أبصارنا عنه ونمسك عن ذكره، واعلمى أن هذا الجمال لم يعُدْ من حق أحد بعد أن قدَّم نفسَه قرباناً على مذبح هوًى عذرىْ. نعم، لقد أصبح هذا الجمال وما أحاطه من ألمٍ مقدَّس، ملْكاً لهذا الحب وحده، ولسهير صنمه المعبود. وإنَّ عيناً بعد هذا ترنو إليه، لَهىَ وأيْمُ الحق آثمة.

جلتار – حقٌّ يا عديلة ما تقولين دائماً.

عديلة – ما رأيك فى أن نذهب إليه ونسرِّى عنه حزنه ؟ إن عطفى عليه ليسوقنى إلى ذلك.

جلتار – بل أن هذا لوَاجبٌ عليك مادمت تعرفينه.

عديلة – انتظرى. ها هو قادمٌ نحونا، وأغلب الظن أنه رآنى.

عقيل – { وقد أقبل نحو الفتاتين } أوه ! أهذه أنتِ الآنسة عديلة ؟ لطالما وددت لقاءك أيتها العزيزة، فأنت الوحيدة من صديقات سهيرَ التى كان لى شرف معرفتها. { يسلمان } .

عديلة – لَشَدَّ يا سيدى ما أزعجنى مصابك ! لقد كنت آنذاك طريحة الفراش فما علمت به سوى الآن فقط، ومن صديقتى جلتارَ هذى. أمَا تعرفها ؟

عقيل – { لجلتار } لى عظيم الشرف يا آنستى. { يسلمان }

جلتار – لقد كنا عن كثبٍ منك الآن يا سيدى، ولكَمْ فتَّ فى كبدِيْنا توجُّعك. فهلاّ تذرَّعت بالصبر الجميل، وابتعدت ولو إلى أمدٍ عن موطن ذكرياتك، رفقاً بقلبك المكلوم ورحمة ؟

عقيل – آه يا عزيزتى جلتار ! وأنَّى لى ذلك ؟

لقد كنتُ غداةَ المصاب أتهيَّب الحضور إلى هنا لئلاّ أرى العش خالياً من طائره. ثم عزّ علىَّ أن أعقَّ ذكرياتى، فعدت أطيل المكث فى كنفه، واستنطق العهود من صمته.

ولكم أخلو إلى نفسى أردد أغنية بلبله الغَرِد، فما تلبث نغماتها

أن تحمل إليَّ صدى الأيام الماضية. وهنالك تغالبنى دمعةٌ طالما بذلتُ فى حبسها جهدى، فأرسلها ماءً صافياً ولكنَّما فى طيِّه اللهب، ما وَفَى مَن ضنَّ عليه بالألم، ولا بَرَّ بذكرياته مَن لم يسترخصْ فى سبيلها الدموع.

أىْ سهيرُ، كنتِ كالطائر غنَّى برهةً على الأيك ثم هجَره وخلّف لوعةً بالقلوب، أىُّ غصنٍ سيضمك فى الغَدِ يا تُرى، وأىُّ رفاقٍ إلى نزهةِ الغاب ستصبحين ؟ وهلف بكِ مثلى حنينٌ إلى الأوطان أم أنك كالطير ينَسى الغصن إمَّا يتركه ؟ {تغرورق عيناه وتبكى الفتاتان}

{ مستطردا } سألونى ما إذا كنتُ نسيتكُ، كلاّ لمْ أنسَ أملى. لئن غبتِ عن عينى فأنت ماثلة فى خيالى، أراك كما أرى الحلُم. يا من رحلتِ عن الديار وخلّفـتِنى وحـدى، ليـتنى كنت ظلك فتبعْتُك، زو كنت النسيم فرافقتُك.

عديلة – { على حدة فى ألم } كفى بربك !

عقيل – وهل ترينها يا آنسة جلنار ؟

جلنار – رأيتها لآخر مرة فى الأسبوع المنصرم. كان حزنها البالغ يدل على شدة حبها لك. وكانت كلما ذكرتْك انهمرتْ من عينيها الدموع فى حرارةٍ تذيب الحجَر. وما أعرف مرةً رددتْ فيها اسمك إلا وعطّرتْ ذكراك بالدموع الزكية.

عقيل – { وقد أطرق } وكيف حالُ صحتها ؟

جلتار – تضعضتْ فما بقَى منها سوى خيال.

عقيل – ووجها النَّضِر ؟

جلتار – ذوى كزهرةٍ لفَحها القيظ.

عقيل – وارحمتاه لك يا سهير !

جلتار – إذنْ فأنت لم ترهَا مذ فوجئتما معاً ؟

عقيل – أرى طيفها فقط، شاخصاً أمام عينىْ ولكنْ، هل يقنع بالطيف من كان فى حوزته النور ؟

جلتار – ولِمَ لا تحاول أن تراها هى ؟ أما تعلم أنها عادت تتريض أصيل كل يوم أن عَهِد أبوها بحراستها إلى بعض الخدم ؟

عقيل – أعلم ذلك. ومع هذا فلم أحاول أن أراها مرةً واحدة. إنّ ما يحوطها به أهلها من رقابة قد جعل طريقَها محرَّماً علىّ ارتيادُه. ما من أجلى أنا، وإنما من أجل سهيرَ، ما أتنحَّى عن الطريق وأظلمها وأظلم نفسى. مَن يدرى ماذا يكون المصير إذا أنا لم أفعل ذلك ؟ أليس من الجائز أن يعود أبوها فيزجَّ بها إلى السجن الذيزجّ بها من قبلُ فيه ؟ أوَ أرضى أنا لِتلكم الزهرة الزهرة أن يحيق بها الظلام ولمّا بَعْدُ تتفتح ؟

آه يا سهير، هل أصدِّق ؟ أنك كنتِ يوماً لى، أراك كلما اضطرم الشوق، وعن كثبٍ أُجْلسك بين يدىْ ؟ هل أصدِّق ؟ أنك

كنتِ إذا ما احتوتنا الروضِ لى، وأنّ يدك، وفمك، وأنفسك كانت كلها ملكى ؟

إذن فأين أنت الآن، ولم لا تكونين لى كما كنت فيما مضى؟ أجيبى يا سهير، أحالماً كنتُ أنا، أم أنّ حقًّا ما قد تمثَّلَ لى ؟ رباه ! إنى لا أطيق هذا الفراغ من شخص سهير، زريدك، نعم أريدكُ ولو لبرهة، تهَبيننى الحياة وتملئين وجودى مثلما كنتِ.

عديلة – ما هكذا تتألم يا سيدى. مَن أدراك أن سهيرَ لم تعدْ لك، وأن الحظ الذى فرقكما اليوم لن يجمعكما غدا ؟

عقيل – لا أظن، لا أظن. لقد تفرقْنا إلى غير عودة. وإذا قُدِّر لى أن أراها صدقةً، فلبرهةٍ كذلك البرق الذى يمضى قبل أن نلمحه.

إن مشيئة أبيها قد أبتْ أن تكون لى، وستأبى مشيئتها أن تكون لسواى. وإذن فسهيرُ لم تعدْ لأحد سهيرُ أضحتْ ملكاً للفناء .

جلتار – بل هى ملكك، بقلبك على الأقل.

عقيل – أوّاه من القلوب إذا اقتربتْ وبعدتْ الأجسام ! ذلكم القرب هو حينئذ البعد بعينه. لَسهيرُ وأنا الآن من بعضنا البعض أبعد ما نكون، لأننا من بعضنا البعض أقرب ما نكون. إن سهيراً لتملأ عينىْ، ومع ذلك لا تراها عيناى. وإن صوتها ليملأ أذنىْ، ومع ذلك لا أجدها فى مكان. إنها كل شىء، وهى لا شىء.

عديلة – لا تحزن يا سيدى فلعل أباها، وما أحسب إلا أنه فاعل، يرقّ لكما من الأيام، ويقْبل يدك إنْ أنت تقدمت إليها كزوجٍ شريف، فما أجد والله فيك عيباً ولا أرى عليك من غبار. ولو أنك فعلت قبل أن ينكشف له أمركما، لمَاَ ردَّ لك يداً ولمَاَ وسعه إلا أن يرحب بك. ولكنْ لا تجزع، فلعل الأيام مواتيتُك غداً بمخا فوتتْه عليك من الفرص.

عقيل – هيهات، هيهات ! إن أباها رجلٌ مستبدٌ غشوم لا يقيم للعاطفة وزناً ولا يتقن غير ذلك الحماس الأجوف، الحماس للشرف حتى ولو كان الشرف فى خير وعافية.

فيعلم الله يا صديقتى أننا ماهتكْنا للهوى عذاراً، وأننا كنا فى غرامنا كجمرتين، وفى طهارتنا كزهرتين.

عديلة – على أى الأحوال لا تيأس، فرُبّ أشدّ الناس انفعالاً لوقتهم أدناهم فيما بعْد إلى الصفح والمغفرة، اذا ما بَرُد الدمُ المحموم وخمدت فى العروق ألْسنةُ اللهب. وإلى أن تهدأ العاصفة، عليك أن تتواصى بالصبر، فما فعَل الجزع بالشدائد إلا أن زادها تعقيدا.

عقيل – هل لى فى أن أطلب منكما أن تسديا إلىّ جميلا، أىْ آنستىْ ؟

جلنار – مُرْ يا سيدى بما تشاء.

عقيل – تذهبان إليها فتبثانها شوقى وأننى على الولاء لها مقيم، ثم

تستفسران منها عما تطور إليه أمرنا، وألقاكما هنا غدا إذا استطعتما فتنهيان إليّ ما وقفتما عليه.

جلنار – نحن فى خدمتك يا سيدى.

عديلة – إذنْ فهنا غدا، وفى مثل هذا الوقت.

عقيل – شكراً، وإلى اللقاء، فأنى على موعد مع صديقى الشاعر ثروتْ فى مكان قريب من هنا. سأذهب للبحث عنه، وربما وافيتكما إلى هنا بعد ذلك، فلكَم أجد فى الجلوس إليكما ترفيها عن نفسى.

{ يخرج عقيل }

جلنار – مرَحى مرحَى ! أتعرفين من ذا يكون ثروتَ هذا ؟

عديلة – وهل ثمت من يجهل الشاعر الذى غزا القلوب وما غزا قلَبه أحد؟

جلنار – وما رأيك فيه ؟

عديلة – أحنق عليه بقدْر ما أعجب به. إنّ سخونة عواطفه قد أضرمتْ فيه نار جاذبيةٍ خارقة، ولكنها مع الأسف قد أحرقت ضميره.

جلنار – هل رأيته ؟

عديلة – رأيته مرة. والحقّ أقول إننى خشيته وما زلت أخشاه. إنه أكثر فتنةً من النور وأشد خطراً من النار. بالله دعينا من ذكره. هل لك فى شوط قصير نقطعه سيراً على الأقدام فى هذه الفحديقة، فلقد بدأت أشعر بالخمول لطول ما أمضينا فى الجلوس من وقت؟

جلنار – لا بأس، ولْنقصد إلى الغدير القريب من هنا. فقط لا يفتنْى أن

أقول لك ولو مداعبِة، إن الخوف من الحب قد يكون الحب بعينه.

{ تخرجان وتدخل من الجانب الآخر سهير وحسام }

حسام – خبرٌ يسرّك يا خطيبتى العزيزة.

سهير – ؟

حسام – لقد اختليت بأبيك هذا الصباح، أفتدرين فيم كنا نتحدث؟

لقد كنا نتباحث فى تفاصيل حفلة الزفاف. أبديتُ رأيى وأبدى رأيه، وأخيراً اتفقنا على أن تكون فى أواخر الصيف، ريثما يكون قد عاد من رحلته السنوية إلى أوربا .

سهير – { لنفسها فى سخرية } وافرحتى !

حسام – خبرٌ يسرّك طبعا. فلقد أصبح وشيكا ذلك الوقت الذى يتجاوز الجسدان فيه ليقطفا معاً ثمرة الحب الشهية .

سهير – {لنفسها فى مرارة} أىُّ سمٍّ سأتجرع !

حسام – ثقى يا حبيبتى أنك ستكونين سعيدة . جدَّ سعيدة . بل أسعد العرائس على الإطلاق . أفهمتِ ؟

سهير – {لنفسها فى امتعاض} أف! فهمْت، فهمت، أننى سأكون أسعد أهل الأرض طراً . أفما لهذه القصة السمجة من نهاية ؟

حسام – مالك لا تجيبين؟ هِهْ هِهْ هِهْ! يلوح لى أنك خجلة. أليس كذلك ؟ آه، يا حبذا أنتِ من وردةٍ مُغْمضه! {يهم بتقبيلها}

سهير – كلا. لا تفعل.

حسام – ولِمَ ؟ ألستُ زوجك ؟

سهير – كلا. أنت الآن خطيبى فقط.

حسام – يا رعاك الله من طاهرةٍ كقديسة !

سهير – {على حدة وقد نظرت إلى الشجرة} حقًا يا عقيلُ أن هذه الشجرة كانت ملتقانا ؟ وأننا تحتها كنا نرشف كئوس الحب مترَعة ؟

حسام – فيم تنظرين ؟ أراك ساهمة.

سهير – إلى تلك الشجرة.

حسام – ماذا ترين بها ؟

سهير – {فى صوت خافت} أرى طائرين !

حسام – {وقد نظر إلى الشجرة} طائران ؟ أين ؟ لا شىء.

سهير – {على حدة فى ذهول} نعم طائران ! غَردِان ! آه، أين هما ؟ {تبكى}

{مستطردة} عقيلُ، يا حبيبى ! إلْفك عاد إلى العشّ وحده. لِمَ لمْ يجدْك أو لمْ تأتِ معه ؟

عقيلُ، أىْ حبيبى ! مُوحشاً صار هو العش بعدك ما كهذا قَبْلُ كان حين كنتَ بلبله .

حسام – تبكين ؟ لا شك أنه قد آلمتْكِ جرأتى. صفحاً يا حبيبتى ومغفرة .

سهير – { تستمر فى البكاء }

حسام – سهيرُ، أما تصفحين ؟ أعدك ألاّ أعود إليها مرة أخرى.

سهير – دعنى أجلس.

حسام – حسناً، ولْنتحدث عن سعادتنا المقبلة. تالله إننى لأبله ! ما كان يجب أن أطمع الآن فى أكثر من قلبك. والآن فلْنلقِ نظرة على مستقبلنا الباسم. سأشترى لك سيارة فخمة. وداراً أنيقة بالزمالك، ويا حبذا لو كانت على النيل مشرفة. أليس كذلك ؟ ولا بأس من أن نقتنى كلباً من نوع " الوولف " أو إنْ شئتِ فليكن " لولو ". وسألازمك ليل نهار، لا أفارقك إلا حين تدعونى ضرورة العمل. أجَل، لسوف أكون لك كظلك .

سهير – { لنفسها فى ضجر } أىُّ كابوس !

حسام – { مستطرداً } ستكونين سعيدة يا عزيزتى. جدًّ سعيدة ...

سهير – {مقاطعة فى تهكم} بل أسعد العرائس على الإطلاق، {لنفسها} هأنذا أتمُّ لك القصة.

حسام – لا فضَّ فوكِ يا حبيبتى. الآن فقط تأكدت أنك تحبيننى. أحقًّا راضيةٌ أنت عنى ؟ هلاّ يروقك أن يكون زوجك ضابطاً ؟

سهير – { غارقة تفكر }

حسام – لِمَ لا تجيبين ؟ أوَما يروقك ذلك ؟

سهير – أوه ! بالطبع .

حسام – لا عدمتُك يا حبيبتي. هذا طبيعيٌّ لا يختلف فيه اثنان، فالضباط مرموقون دائماً وفي كل مكان، وإنهم لسادة الجميع بلا مراء، فالضي يحكم، والمالي يدبِّر والسياسي يمكر، ولكنّ أعمال كل هؤلاء لابد أن تتم في النهاية على يد جندي. نعم، إن كل هؤلاء مدينون لنا بوجودهم.

ألولانا كان يمكن لأمة أن تستعبد أخرى وتكفل لنفسها على حسابها الرخاء ؟ ألولانا كان يمكن أن يقوم طاغية يؤدب الجماهير العاصية ويُلهب أظهارهم بالسياط ؟ ألولانا كان يمكن أن توجد وسيلة لَبِقة لأبادة النسل الزائد والتخلص من الضعيف كيْما يزول ويَبقَى الأصلح ؟

سهير – كلا

حسام – إذنْ فأنت معي يا عزيزتي في أن جندية رمز القوة، القوة التي في سبيل المصلحة لا تعرف المصلحة لا تعف الرحمة أو الشفقة أو غير ذلك من الصفات المخنثة. أليس كذلك يا عزيزتي؟

سهير – بلى.

حسام – إذنْ فاعلمي أننا نحن الجنود، أعداءُ تلك الرذائل، وتلك الحشرات الآدمية التي تحملها. ومن هنا راح يلقِى اسمُنا الرعبَ فى نفس كل ضعيف مُستخْذ.

سهير – {لنفسها فى ضجر} أف ! {لحسام} يا عزيزى حسام، هل تذْكر أننى جادلتك فى هذا الموضوع حتى تطرحه على بساطة البحث ؟

حسام – إذنْ فأنت مقتنعة به. بارك الله فيك. بارك الله فيك. لَطالما تاقت نفسى إلى زوجة تفهمنى وأفهمها. ولكنْ، سؤال واحد يا عزيزتى سهير. أفما يضايقك أن قد تضطرنى مقتضيات المهنة إلى أن أتغيب عنك فى بعض الأحيان مدداً طويلة ؟ عندما تنشب الحرب مثل؟

سهير – ولماذا ؟

حسام – أقصد أن بُعدى ربما يضنيك ؟

سهير – أوه ! مطلقا.

حسام – طبعاً أنتِ أعقل من أن تتأففى من شىءٍ يمليه الواجب. والله لأنتِ خير الزوجات طراً. نعم، هكذا تكون الخلُق. هكذا تكون التضحية.

{ فى صوت عال } آه ! مَنْ بنيران حربٍ شعواءَ تُشْعَر. إذنْ لامتشقتُ حسامى وانطلقتُ إلى ميادين الكَرِّ والفرَّ، فصلّتُ وجلْتُ وجندلْتُ وقتّلت، وسبيْت الرجال ويتّمت الأطفال ورمّلتُ النساء وأهلكت الحرث والنسل، وملأت الفيافى والقفار بأشْلاء قتلاىْ، وسخِرتُ من صراخ المثخنين من ضحاياىْ، وقهقهتُ إذا ما المستضعفين ولولوا، وهرولتُ إذا ما الأعادى تقهقروا، لأريك ..

سهير - { لنفسها فى جزع } وَحْش !

حسام - { مستمرا } نعم، لأريك يا حبيبتى، مبلغ شجاعتى، وإلى أىّ حدٍ حسام بحمل الحسام جدير .

سهير - { لنفسها } يا للفظاعة !

حسام - آه ! يا شياطين الأنس والجن ! يا براكين الأرض ويا عواصف السماء! يا شلالات نياجرا! ألا أرغى جميعا! وأزبدى، واشعلى نيران حربٍ ضروسَ لا تبقى ولا تذرْ {يخبط بقدمه شيئاً على الأرض ثم يستمر} سحقاً لك أيتها الضفدعة اللعينة! أوَ تجرئين على أن تعكّرى خلوة ضابط وخطيبته ؟ من زنت حتى تقفى فى وجهى.

سهير - { صارخة } إيـ !

حسام - ماذا ؟ هل أفزعك شىء ؟

حسام – هِهْ هِهْ هِهْ ! لشهوة القتل. أما يكفيك هذا من سبب ؟

سهير – كيف طاوعك قلبك ؟

حسام – سبحان الله ! الذى يقتل الناس، أفما يقتل ضفدعة ؟

أوه ! نسيت شيئاً غاية فى الأهمية. بضعة دقائق يا عزيزتى ريثما أدق تليفوناً. إبْقى هنا. سأوافيك على عجل.

{ يخرج حسام }

سهير – { وحدها } سلامٌ عليكَ يا عقيلُ وعلى سجاياك. لكَم طاعتْ علينا فى هدأة الليل ضفدعةٌ فداعبْتَها برقيقِ كلماتك. ولفرط ما جُبلْتَ عليه من خيرٍ، زعمتَ أنها كيما تذمِّرنا بالوقت جاءت. وهكذا ينعكس صفاء النفوس على الظنون فتصفو، وتُلْقِي الأمان على كل شىء. وأمّا أنت أيها الظالم، فلغير ما سببٍ تسىء الظن بالخلْق، ومن الأبرياء تقتصُّ من دون مبررٍ.

{ تدخل جلتار وعديلة }

عديلة – سهير ؟ أيتها الحبيبة ! { يتعانق } ماذا جاء بك ؟

سهير – الحظوظ العاثرة .

عديلة – عقيلُ كان هنا، وهو لتوّه منصرف.

سهير – وفيم كان وجوده ؟

عديلة – لست أدرى. لقد التقيت بجلتارَ هنا، وبيْنما هى تقص علىّ نبأ مـأساتك، إذ لمحناه يبكى من خلال الشجـر ويبث شكواه فى لهجة موجعة، وما أن أبصر بنا حتى أقبل علينا حزيناً كاسفاً فواسيناه ما استطعنا وطيّبنا خاطره، ثم انصرف بعد أن توسل إلينا أن نقصد إليك فنسألك عن حالك ونؤكد لك ولاءه، على أن نتقابل وإياه غداً فى هذا المكان لننهى إليه نتيجة ما حدث.

جلتار – على أنه ربما عاد الآن كما يؤخذ من كلامه.

سهير – {علـى حـدة} ليـت أنـه لا يفعـل. أىُّ نـار فـى الحشـا سـيضرمها حضوره ! { للفتاتين } وكيف وجدتماه ؟

عديلة – على أسوء ما يكون. أضنْى جسدَه الوجدُ، وقرّح البكاءُ جفونه.

سهير – له الله عقيلٌ، وعوّضه خيراً فى غرامه.

جلتار – هبيه لا يحضر الآن فماذا تريديننا على أن نبلّغه ؟

سهير – رحماك يا جلتارُ، لم يعد عندى ما أقوله.

عديلة – أمَا من سلامٍ تحمّليننا، زو خطاب تبعثيننا به ؟

سهير – بروحى كنت أود ذلك. ولكنْ ...

عديلة – ماذا ؟

سهير – لا استطيع.

عديلة – ولِمَ ؟

سهير – لأن الأقدار كذا شاءت.

عديلة – وهل تمنع الاقدارُ تخرج الآن من فمك ؟

سهير – نعم تمنع. الواجب، الشرف، حق الزوج على زوجته، كل هذه تمنع.

جلتار – أيُّ زوج ؟

سهير – زوجي. أو إنْ شئتِ فخطيبي.

عديلة – خطيبك ؟ أخُطبْت ؟:

سهير – نعم

سهير – منذ أول أمس. أمَا تريان الخاتم في إصبعي ؟

عديلة – وارحمتاه لك يا عقيل !

سهير – نعم وارحماته له !

جلتار – ولِمَن خُطبت ؟

سهير – لضابطٍ في فرقة أبي.

عديلة – وكيف قبلتِ ذلك ؟

سهير – كان حتماً أن أقبل.

جلتار – وعلام حتما ؟

سهير – نعم، كنتُ إمّا أن أقبل أو أسام العذاب حتى أموت. وأنا لا أود أن أموت، لأنني أريد أن أعيش لأعبد عقيلا. نعم أعبده على بُعد ما بات بيننا، وعبقريةُ تكون العبادة حين لا يرى العابدُ المعبود .

ولئن خَلَتْ من رسمه عيناى، فلقد أصبح بالبعد مِلْءَ خواطرى، أوتاه عنى مكانٌ، فلقد صار منى بالغياب فى كل مكان.

فيما مضى كنت أهوى فيه جسداً من لحمٍ ودم، وأمّا الآن فإننى أعبد فيه فكرة. نعم، لقد مضى الزمن الذى كانت تتعانق الأجسامُ فيه، وأُفسِحتْ الطريق للأرواح كيْما تَتَعبَّد. تلكم الأجسام قد فنيتْ أو هى بالبعد تكاد، ولمْ يَبْقَ بَعْدُ غير فكرةٍ تقدِّس فكرة .

أىْ عقيلُ، لأنتِ الآن فى ذمة البعد أدنَى إلىّ مما لو كنتَ جسدا يُلمَس. نعم، لقد أحالك البعدُ معنىً مقدَّساً وأضفَى عليك من تهاويله ما جعلك فى ناظرى تتألَّه. تلكَمُ الأسرار المحجَّبة، تلكم الألغاز الخفيَّة، شدَّ ما نظلُّ رَهْنَ غموضها فى فتنة !

عقيلُ، لأنتِ صنمى وتمثالى إلى الأبد، إنْ أكنْ عليك حرَّمتُ جسدى فلقد وهبتُك عن رضاً خواطرى، وما بحبٍّ يقوم

بالخواطر عيب، قَبَسٌ من الطهر أضحى حبًّنا، والطهر لا تُقَبل الغيرة أو الايثار فيه، إذهبا إليه وقولا له ذلك، قولا له إنَّ سهيرَ ستعبدك فكرةً، والعبادة تَوجُّه واندماج، وليست شيئاً أكثر من هذا، فلا يطعمنّ بعد اليوم فى أن يظفر منى بكلمة أو ينتظر أن أقبل منه ذلك .

وسلامٌ على عهوده الناضرة، التى وإنْ تكنْ فى ذمة الزمان أصبحتْ، إلا أن ذكراها لم تزل وسوف تظل تعمِّر قلبى ما بقِىَ فىّ عرْقٌ ينبض، هذا كل ما أريد أن أقوله لكما، ولْيُقفل هذا الحديث إلى الأبد.

جلتار – وهل تريدين منا أن نبلغه نبأ خطبتك ؟

سهير – نعم، كيما ييأس فيستريح من خداع أملٍ كاذب. وكل ما أتوسل به إليكما أن تترفقا فى القول به وتواسيانه إلى أن تبلَّ من وقْع الفجيعة نفسُه. ها هو خطيبىَ أقبل.

{ يدخل حسام }

حسام – { لسهير } هل تأخرت عليك يا حبيبتى ؟

سهير – كلا. {مشيرة إلى الفتاتين} صديقتاى جلتار وعديلة.

{ يسلمون} والآن هيا بنا.

حسام – وفيم العجلة وفى الوقت متسع ؟

سهير – أرانى تعبة.

حسام – { على حدة } حتى من صديقاتها تغار علىّ ! ما أشد غيرة النساء إذا أحببن ! بمجرد أن لمحتْ شبح امرأةٍ يقترب منى راحت تطلب الفرار بى وتلحّ فى ذلك.

{ يظهر عقيل وثروت }

سهير – {على حدة وقد أخفت وجهها} عقيل؟ رباه! أمَا قلتُ لهذا الشقىّ خطيبى إنه يجب أن نذهب؟ {لخطيبها} هيا. قلتُ لك هيا.

{ تخرج سهير وحسام }

عقيل – ماذا رأيت ! سهيرُ صحبة عشيق ؟ سهيرُ تخوننى ؟

عديلة – لا تظلم سهيرا يا عقيل.

عقيل – إذنْ مَن ذا يكون هذا الرجل ؟

عديلة – إنه ... آه ! أعفنى بربك.

عقيل – تأبى الحمائم أن تكون غربانَ سوء. لابد وأنْ يكون فى الأمر فاجعة. قولى بربكَ من ذا يكون ؟ أخطيبٌ لعله ؟

عديلة – نعم.

عقيل – وامصيبتاه ! سهيرُ تُخطَب لسواى ! { يسقط خائر القوى }

ثروت – صبراً صبراً يا عقيلُ فما مِن حبّ حَمَلْناه أو قلاً يوم، وكأيٍّ مِن صبابةٍ أضرمتْ الجوانح زمناً، ثم انطوت وأصبحت فى ذمة النسيان، قم يا عقيلُ واستقبلْ حياتك رابط الجأش، تصحبك البشاشة ويحدوك الأمل، فلَلجمال أكثر من أن يحُصر فى واحدٍ، ولأفق الحياة أرحب من أن نضيق نرعاً به، قم وانْسَ ماضيك واطَّرِحْ جانباً أحزانك، ولْتهيِّىءْ لنفسك سبيل حياةٍ جديدةٍ فى كنف حبٍّ جديد ،فلأن نطوِى ما مضى ونستريح خيرٌ مِن أن نظل من ذكراه فى كَبَد.

جلتار – {على حدة} سديدٌ أنت فى رأيك دائماً يا ثروتُ، ولكنْ ليت شعرى هل ينتصح عقيل ؟ وإذا انتصح، فهل يرضىَ بى بديلة عن ... أوه، كلا كلا، إن سهيَر صديقتى، أيها الساحر بجمالك وفرْط ألمك يا عقيل، ألا كُفَّ سحرك عنى أو اتركنى أرحلُ عن مكانٍ أنت فيه، ولكنْ، بم ينفع البعد الآن وقد قُضِىَ الأمر ووقعتُ فى شراكك ؟ وهل يخلِّص الطائرَ من أسرٍ أن يطير بالفخِّ الذى أُخذِ فيه ؟ أهكذا تكون يا جلتارُ نهايتُك ؟ تأتين كيما تخلِّصى عقيلا من شركٍ فما تفلحين وتقعين فى مثل شرَكه !

عديلة – { على حدة } لَطالما حذَرتك يا ثروتُ فكنتُ كمن يَحْذَرُ القدرَ لا يُفلح، لقد نفذ السهم وتيَمْتَ قلبى، ولكنْ ليت شعرى هل من

زمل؟ لو أننى على شيىءٍ من الجمال كنتُ، لَتغاضيت وإنْ كرهاً عن تقلبك، وطمعتُ ولو فى قلب من قلوبك، ولكنْ أنَّى لمن كانت مثلى متواضعة الجمال أن تظفر من قاهر النساء بنظرة !

عقيل - { وقد نهض } سهير! يا صاحبة القلب الحنون ! لِمَ تنسين بهذه السرعة حبيبك ؟ لِمَ أقصيتِنى اليومَ عن قلبك، وقد كنتُ فيما مضى أقرب الناس إليك ؟ أنتِ يا مَن يُبكيك نوْحُ الحمام وتجرحك خطراتُ النسيم، ما بالك اليوم لا تأبهين للصارخ من دمعى ؟ لِمَ تبدَّل عطفُك، ورفقك، وحنانك، أنتِ يا صاحبة القلب الحنون ؟ أيها القمر الذى أغرقتْنا بشعاعك، هل سيطلع علينا بعد اليوم نورك ؟ أيها النهر الذى بلَّلتْنَا برشاشك، حمل سيثب إلينا بعد الآن موجك ؟ أيها الروض الذى جلَّلتْنَا بظلالك، هل سيجمعنا فى غدٍ دوحك ؟ حبيبتى ! يا أعزَّ من فى الوجود ! ويا حلُماً مضَىَ فما يعود ! سقَىَ الله عهداً كنتُ فيه حبيبك.

عديلة - عقيلُ لا تبتئس، فسهيرُ على رغم الزواج تحبك، وما عن رغبةٍ سهيرُ تزوجتْ، ولكنما من أهلها أكرِهتْ، والعذارى ليس بهنَّ على الرفض اجتراءٌ، ولا لهنّ بالعصيان قَبَل.

عقيل - أمِنْ بعد ما خبأتْ عنى وجهها تزعمين أنها عن كرهٍ تزوجتْ، وأنها ماتزال على حبى تقيم ؟

عديلة – بل خبأتْ وجهها لتخفِي هياماً تخشى عليه إذا ما تلاقت العيون أن يفتضح، ثم أنها الواجبات يا عقيلُ، واجبات الزوجة نحو زوجها، قضتْ عليها بأن تحبس عنك جسدها وإن ظلتْ بقلبها منك على صلة، فلا تظننَّ سواءً بالفتاة فتظلمها وتكون لقلبك الجريح من الظالمين، بهذا تحدثتْ إلينا سهير، وهذا ما أرادتْنا على أن نبلغه لك، فاصبر أيها الأخ على قضاء الله وقدره، وليكن لك من وفائها البالغ عزاءً وسلوى.

عقيل – يا رعالكِ الله يا سهيرُ من بارَّةٍ وفية ! إذنْ فلمَ ينطوِ الحب وإن كان الحبيبان قد افترقا إلى الأبد، فيما مضى كانت سهيرُ وعقيلُ جسدين، ولقد أصبحا فكرتين، فلْيُسدَلْ الستار على سهير وعلى عقيل، ولتبْقَ منهما فكرةٌ تَدِينُ لفكرة، والآن، الوداع أيها الماضى، الوداع أيها الحلْم.

" ستار "

الفصل الثالث

المنظر الأول

حجرة فى ستوديو المثال عقيل، جملة تماثيل
مختلفة، عقيل واقف أمام تماثل
لسهير، الوقت نهارا

عقيل - {وحده} الآن يا سهيرُ أُتمُّ تمثالك، بعد أن أودعتُ مهجتك ومهجتى فيه.

ولئن ضنَّتْ على جسديْنا الساعاتُ الفانية، فها هو ذا الخلْد يجمعنا على الفن فكرتين، نعم، لَسوف يوماً نموت ويخلُد التمثالُ وصانعه، وإذا الحبُّ أبَى أن يثمر ولداً فبشِّرْهُ بأنْ سوف يثمر فكرة .

يا تمثال سهير كلاّ ما أنتَ بحجَر، لأنت معنَى النفس منها مجسَّداً، أو لأنت الجماد بسرٍّ مَن أهوَى نطق، بل لأنت كثر من

سهير، لأنك سهيرُ قد أحاطتْها تهاويلُ البعد بهالاتٍ مقدسة .

ليس يعنيني أين تقيم مُلهمتك، مادمتُ قد استوحيتُ ذاتَها فيك، ما أنتَ إلاّها مِن دون غُلالة الجسم شفَّتْ، ومن ربْقة العظام تحررتْ، هي شابتْ روحَها الدماءُ، أمَّا أنتَ فمن روحٍ فقط، أيها التمثال ما أنت غيرُ معنىً، ما أنت غير فكرة .

إنْ تكُ فَلأنتَ بالخاطر سامعي، أو تكُ أخرسَ فلأنا بالخاطر أسمَعك، ماذا يهمني إنْ قبلَتُك، أنْ بحجَرٍ صلدٍ فمي سيصطدم، ما دمتُ لا أقبّل فيك غير الفكرة التي عليها انطوت أعماقكُ .

ما أنا كقبْلُ لحمٌ ودمٌ حتى اشتهى اللحم منك والدم، لقد طهّرتني الآلامُ فلم يعدْ فيّ غير فكرةٍ تتوقّد، أنا وأنت أيها التمثال فكرتان على جمرة الألم نضجا وضبًا معا .

{ وقد جثا عند قدمي التمثال } أيها التمثال يا معنى الخلود من نفْس سهير، ها أنذا أجثو عند قدميك وأعبدك، ليس شرْكاً بك يا ربِّي أنْ أفعل، ما دمتَ أنت أصل الجمال كله، سبحانك يا منبع الحسْن، أنا ما فعلت سوى أنني عبدتُ النبع في قطرة .

{وقد نهض} لاموني لأنني عبَدتكِ وقالوا ملّحدٌ مشركٌ بالله! وفاتَهم أننا ونحن في الكون حَدَثٌ، إنما نحن والكون من روح الإله.

فرضاً عليّ يا ربي إنْ أنا عبدتُكَ أن تشمل عبادتي الوجودَ، وهل في الوجود ربي سواك ؟

سبحانك ما كفَرَ بكَ من آمن بالجمال فيكَ، ولا آمن بكَ من كفر بالجمال لأجلك، أعبدكِ يا حبيبتي والجمال يُعبَد، فمنه أتينا وله نحيا وإليه نؤوب .

{ يدخل ثروت }

ثروت - وإلى متى يا عقيلُ تظل تتألم ؟ تالله إنك تظلم نفسك .

عقيل - كلا أيها الصديق لم يبقَ ثَمَّ ظلم، فَرَغَتْ من المحاجر الدموعُ، وتآكلت النار فإذا هى رمادٌ هامد، وكمثْل راهبٍ أصبحتُ، ما للجِراح إلى قلبه من سبيلٍ، والهوى عنده تقىً وعبادة .

ثروت - إذن فلقد انتهيت .

عقيل - نعم، فَرَغَ الجسد منى، وإذا ما فرغ الجسد فلقد تهيأتْ للخلْد روحُه.

ثروت - نعم نعم، ولكنْ علام تتعجل المنايا والمنايا مواتية، سيوافينا غداً ذلك اليوم الذى تَفْرغ الأجسام فيه ونصبح محض أرواحٍ فى السماء تسْبح، فهلا ادخرتَ لهذا اليوم جسدك، وأعطيته الآن حظه من حياةٍ فانية ؟

عقيل - غير أننى تعشَقتُ الخلود، ومَن هام بالشىء تعجلَه .

ثروت - أىّ خلود أيها الصديق، وأنت لم تزد على أنك فى فانٍ فنيت ! أليست سهيرَ، تلكم البشر، هى القبر الذى طواك ؟

إذنْ فاسمع الآن منى، إن كنت حقًا تبتغى الخلود بفافْنَ فى باقٍ تبْقَ، إفْنَ فى روحك، سرُّ الخلود منك، لا تفْنَ فى غيرك فَتَنْتَهِ، وإنما افْنَ فى نفسك تظل منطوياً على نفسك، وبالاختصار، أحبِ نفسك .

دع الكل يحبك، ولكنّ أحداً لا تحِب، اهضم فى شخصك مَن عداك ولا تمكِّن من أن يهضمك أحد، تبقى أنت ويفَنى مَن عداك.

ولتكن لك قلوبٌ إذا ما كان للناس قلب، ليكن لديك احتياطىٌ دائماً، حتى إذا ما غابت عنك فتاةٌ ألفيت فتيات، وإذا ما فاتتك قبلةٌ وافتك قُبَل .

لن أقول لك لا تحب، فنصيحةٌ كهذه لا تصدر من شاعرٍ لمثّال، ولكن ما أقوله هو أن تحب ما شئت، وتتألم كيف شئت، على شريطة أن تحتفظ بشخصيتك فى كل الأحوال .

كن كالطائر يجوب الرياض فتتعلق به قلوب ألْف زهرةٍ وزهرة، ولكنه بعد أن يقبِّلها جميعاً يمضى إلى وكره سليماً معافىً فى حين يظل طيفه يؤرق الجميع طول الليل، أفتدرى ماذا يكون الفرق بينه وبينها عندئذ ؟ إنه يستطيع أن يعود فى الصباح إلى حيث كان بينما تكون من صبابةٍ نوت، غير أنه حين لا يجدها لا يضيِّع فى الحسرة عليها وقته، وإنما يقصدل من فوره إلى الجديد الذى منها تفتّح .

إياك وإن تتعلق بشيء غير نفسك، فالتعلق بالغير علة أغلب الآلام، ولولا فناء الحبيب في حبيبه، والأب في ولده، والأخ في أخيه، لَما أحسنا بألمٍ لفراقٍ أو خيانة أو موت، الناس كالنار تتآكل إمّا دنَت، وإذا ما أريدُ بأنسانين الفناء قُدِّر عليهما الحب.

عقيل - كفى كفى، إنك لتَعتزُّ الآن بشباك، وتُوقع في حبائله من صنوف الجمال ما اشتهيت، ولكنْ لَسوف يأتي يومٌ يدركك فيه الهرم وتعافك القلوب التي كانت عليك متكالبة، وعندئذ لا تجد ثمت مَن يرغب فيك أو يعطف عليك اللهمّ إلا قلباً إئتلف وإياك في سالف أيامك، وتأصلت فيه جذور محبتك، وهو ما لا سوف تظفر به أبدا ما دمت على مذهبك هذا .

ثم إنك بأيصادلك قلبك دون طارقٍ يطرقه، ستحتفظ به مدى حياتك خالياً من أيِّما ذكرياتٍ تعمِّر، غير منطوٍ على شيءٍ سوى نفسه، مع أنه أوْلَى بك أن تعدَّه من الآن ليومٍ يزول الشباب فيه فلا تعود تحيا إلا بما مضى من ذكرياتك، نعم، إن تلكم الذكريات هي سبيل الحياة الوحيدة، يوم ينقضي الشباب وتفتر الهمة ويخبو المستقبل ويُحيل الحاضر على الماضي، وعندئذ يعيش المرء بذكرياته ولها فقط .

والأكثر من هذا كله أنك بتفاديك الألم تتفادى اللذة أيضاً، لزنك حينئذ تتفادى الحياة، فأنت من حرصٍ على الحياة تفقدها، كَمَنْ

يغْمض دون النور عينيه حذَر العمى فيقوم ويقعد فيه .

ثروت – ومَن ذا الذى أدراك أن ذلكم الجمـال تفـوتنى لذتُه ؟ إننى وإن كنت لا أتعلق بالجمال إلا أننى أشتهيه وبشره أتنوقه .

ألا أعلم أن الحب كمـا تفـهـمـه الناس ضـربٌ من الوهم، وأن الجمال يستحثّ فضول القلوب إمّا نُصبِتْ الحوائل فى طريقه، فإذا ما أُفسِحَتْ الطريق وأصبح فى متناول القلب، استنفده وبسرعةٍ زهد فيه .

وأنت مـا تَعَلَّقْتَ بسـهـيرٍ إلى هذا الحـد ولا تعلقتْ بك، إلا لأن الحرمان وقف منكما بين القلب وفضوله، ولو أنك نلتها أو نالتك لسرعان ما ملّ كلٌّ منكما صاحبه ولَحطمْتَ وحطمَتْ التمثال .

ولو أن سهيرَ حقًا مخلصةٌ لك لأنفتْ من أن تتزوج من سواك، ولو أدّى بها الأمر إلى أن تظل عذراءَ إلى الأبد .

وأغلب الظن أنها نسْتك أخيرا بعد أن رأت ما رأت من عظيم وفائك، فهذا لعمرى طبع المرأة، تجدُّ فى أثر الرجل ما فَرَّ منها، فإذا ما حدّثتْه نفسه بأن يقف، فرَّتْ هى وأمعنتْ فى الفرار .

إن المرأة يا صديقى مخلوقٌ ذليل يستعذب لَسْعَ السياط ويطغيه الاحترام ويضايقه، وما أنت يجريك وراء سهير هكذا إلا طالبٌ القرب ممن لاينى فى البعد عنك .

فارجع إلى صوابك وعاهدني منذ اليوم على أنك لا تخلص أبدا لامرأة، إنما المرأة مخلوقٌ خائنٌ فخنْهُ قبل أن يخونك، كما تسمعهم يقولون في الأمثال " كلْ الدُّود قبل أن يأكلك "

عقيل – آه يا ثروتْ ! لو علمتَ أنك تسدد إلى قلبي خنجراً حين تحسب أنك تأسو جِراحه ! إن من معنى كلامك هذا أن سهيرا لم تعد تحبني، فهل يا تُرى حقًّا ما تقول ؟

ثروت – إذنْ فيم تؤوِّل تصرفها إن لم يكن كذلك ؟ على أنني، يعلم الله، ما أردت بخنجري من قلبك سوى موضع سهيرَ منه، هذا الموضع هو ما بيَّتُّ النية على أن أستأصله، ولسوف تتألم ما من ذلك شك، ولكنْ كما يتألم المريض أسلَمَ نفسه إلى مبضع الجرّاح، لا يلبث أن يبْرأ من الألم بعد أن تَنزف منه الدماء الفاسدة .

عقيل – إذنْ فاعلم أيها الصديق أن سهيرا ملءُ قلبي، وأن مَن أراد أن يستأصلها منه كان لزاماً عليه أن يستأصل قلبي .

ثروت – وهذا هو عين الوهم الذي صحّ عزمي على أن أدوايك منه .

عقيل – حنانك يا ثروت !

ثروت – أعلم أنني قسوت عليك ولكنّ قسوتي هذه هي الحنان بعينه، إني لأتعمد إيلامك لاستنفد ألمك وأريحك منه، أجَل، يجب أن يخرج

إلى الخلاء ألمك هذا، والآن اسمعْ ماجئتك من أجله، لقد عزمت على السفر الآن إلى الاسكندرية بالسيارة لأمضى هناك بعض الصيف، فما رأيك فى أن ترافقنى فى هذه الرحلة لتبتعد عن القاهرة موطن ذكرياتك، وتعيش فى جو مطَهَّرٍ من شوائب الماضى، عسى أن تنسى أوجاعك وتبْرأ من حبك ؟

ثم إننى هناك سأروِّضك على أن تحيا حياتى وتلفّ لفِّى، وأنا كفيلٌ بأن الحياة العبث هذه ستسدل الستار على همومك إلى الابد، فإن المرأة لَتُنْسِى المرأة، والجمال ليَعالج من الجمال .

وأعلم أن جلتارَ جدُّ متيمة بك، وقد طرقتْ باب قلبك مراراً وكنتَ فى قسوةٍ دونها توصده. وإنها والله لفتاة رائعة، ولست أدرى كيف سمحت لنفسك أن ترد مثل هذا الجمال خائبا، ثم إنها على ما علمت من صديقتى عطيات موجودة الآن بالأسكندرية وربما مكثت هناك شطرا طويلا من الصيف، وفى وسعى بوساطة صديقتى أن أوافيك بمكان إقامتها وأجمعك بها إذا شئت، فماذا علك لو وصلت وقتك بوقتها، وأمضيتما الأمسيات السعيدة معا على شاطئ البحر فوق رماله الندية وعن كثب من هدير أمواجه؟

لا أريد منك أن تتردد، الأمر لا يحتاج إلى إيما تفكير، ومع ذلك فلتجربْ هذه الطريقة فى العلاج وسوف لا تخسر شيئاً إذا

هى لم تفلح، هيا أيها الصديق العزيز وضع ملابسك فإن السيارة تنتظرنا بالباب.

عقيل – { مشيراً إلى تمثال سهير } وهذا التمثال ؟

ثروت – تحطمه، أو أحطمه أنا .

عقيل – لا تنسَ أننى لم أبرأ من غرامى بعد .

ثروت – لَسوف تبرأ منه ما هبطتْ قدماك الاسكندرية، ونَعِمْتَ بالجلوس إلى جوار جلنار الفاتنة .

عقيل – أتظن ذلك ؟

ثروت – بل أؤكده .

عقيل – أوَحقًا سهيرُ نسيْتنى ؟

ثروت – نعم نسيْتك .

عقيل – وسأنساها ؟

ثروت – نعم .

عقيل – لا أظن .

ثروت – هيا ولا تُضِعْ الوقت .

عقيل – { يدق الجرس }

{ يدخل سليمان }

عقيل – { لسليمان } ناد مساعدى يا سليمان، وتعال

سليمان – سمعاً وطاعة يا سيدى .

{ يخرج سليمان }

عقيل – وفى أى الفنادق سنقيم ؟

ثروت – إنى أفضل " البوريفاچ " . وإلا فما رأيك ؟

عقيل – لا بأس . والآن فلأغطٍ هذا التمثال حتى لا تنتهك العيونُ حرمته . نعم، إن جماله لَجِدٌّ فاضح، ولو أن راهباً رآه لَهجر الديرَ من فوره، وتهتك فى حبه واستهتر .

ثروت – مجنونةٌ هى عين الحب دائماً .

{ يدخل سليمان وفوزى }

عقيل – { لفوزى } والآن أىْ مساعدى العزيز، لقد عزمت على السفر إلى الاسكندرية لأمضى هناك شهراً أو بعض شهر، فلتكن عنايتك بالاستوديو كما عهدت وأعهد فيك، بع ما تشاء من تماثيله دون حاجة إلى أخذ رأيى، ما خلا تمثال سهيرٍ فلا تبعينه قط وإن أعطيَتْ لك فيه أموال قارون، إعتنِ به ولْيكن بالغاً عليه حرصك، ودع غطاءه مسدلاً عليه دائماً فلا يراه إنسانٌ حتى أحضر.

فوزى – وهو كذلك يا أستاذ .

عقيل – { لسليمان بينما يرتدى سترته } وأنت يا سليمان اذهب إلى منزلى من فورك وأعدّ لى ملابس تكفينى شهراً كاملا، وابعث بها هناك بعنوانى بفندق " البوريفاچ " بِلُوران . أفهمت ؟

سليمان – نعم يا سيدى .

عقيل – والآن أستودعكما الله .

فوزى وسليمان – فى حفظ الله .

{ يخرج عقيل وثروت وفى أثرهما سليمان }

فوزى – { وحده وقد كشف عن وجه تمثال سهير } أيها التمثال يا ما أبْدعك ! لكأنك تنبض من حياةٍ، ووشيكاً فى فصاحةٍ تتكلم !

آه لو رأتك مُوحيتُك ! إذنْ لآمنتْ بعقيلٍ الفنان إيمانها بعقيلٍ الحبيب .

أيها الجمال الذى اهتزَّ له قلبُ المثّال العظيم، أيها الألم الذى رقّق فؤاده وحفّز للخلود نفسه، لَحقٌّ علىّ بدورى أن أجثو عند قدميك وأعبدك {يجثو عند قدمى التمثال}

{ يدخل سليمان }

سليمان – سادةٌ بالباب يريدون شراء بعض التماثيل .

فوزى – دعهم يدخلون .

{ تدخل سهير وحسام وزنوبة }

فوزى – { لنفسه } مَن أرى ؟ سهير صاحبة التمثال ؟

حسام – طاب صباحك يا سيدى، أهذا أنت الاستاذ عقيل ؟

فوزى – كلا يا سيدى، أنا مساعده، أما هو فقد سافر، أية خدمة ؟

حسام – شكراً، فقط نريد شراء بعض التماثيل .

فوزى – بكل سرور يا سيدى، هاكم التماثيل انتقوا منها ما شئتم،

حسام – { لسهير } هيا يا سهير، اختارى معى، { لزنوبة مداعباً } وأنت يا زنّوبة، هلاّ شاركتِنا بذوقك السليم ؟

زنوبة – بالطبع يا سيدى، خصوصا وأنّ لى إلمامٌ بهذا الفن الجميل، أفما كنتُ فى صباى أصنع التماثيل من الفطائر؟ {يتفرجون}

فوزى – {على حدة } أسهيرُ وتمثالها معا؟ الوحى والفكرة؟ النهور والظل؟ الجمال والفن ؟

ما أسوأ حظك يا عقيل ! لو أنك انتظرت قليلاً لرأيت الآن معذِّبتك .مسكينةُ هذه الفتاة ! ما أحسبها أتت إلا لأنها متشوِّقةٌ إلى طلعتك ولكنْ، ها هى ذى ستعود كاسفة البال كما جاءت .

مـاذا يكون لو أنـها رأت التمـثـال وقـد سُطِّر عليه حبُّ الماضى وآلامه ؟ ليت شـعرى أيُجنُّ جنونـها فتضرب صـفـحاً عن خطيبـها وتعود فتَهَب نفسـها لهذا الحب غير ملقيةٍ بالاً لشىء، أم أنها تقـاوم رغبـتـها وتتـجلد ؟ ولكنْ كيف السـبيل إلى التـجلد وتلكم الذكرى الماثلة تحفز إلى كل شىء ؟

سـهيـر – { على حدة } يا للأقدار القاسية ! بَعد لأيٍ حـضرتُ لأراك يا عقيل فإذا بك غائب !

حسام – { لفوزى } أهذا تمثال شوقى ؟

فوزى – نعم، شاعرنا العظيم . وها هو ذا تمثال الزعيم الخالد سعد . وها هى ذى تماثيل مصطفى كامل، ومحمد عبده، وسلامه حجازى، ومختار .

حسام – حسناً حسناً . وهل عندكم تماثيل أخرى ؟

فوزى – هنالك التماثيل الرمزية بالحجر المجاورة .

حسام – جميل . لنفرغْ من هذه أولاً . { يبتعد هو وسهير }

زنوبة – { لفوزى } أوَ عندكم تمثالٌ لجُحَا الرومى ؟

فوزى – ماذا تقولين ؟

زنوبة – جحا الرومى أقول .

فوزى – آه ! كان عندنا ويعناه . كانت عندنا تماثيل كثيرة تعجبك ولكنها نفدت للأسف .

زنوبة – مثل ماذا ؟

فوزى – كان عندنا مثلا تمثالٌ " لميكى ماوْس " وتمثالٌ " لقرقوش " وتمثالٌ " لعوج بن عُنُق "، ولكنها بيعت كلها .

زنوبة – يا للخسارة ! وبكم بعتم تمثال عوج بن عنق هذا ؟

فوزى – بثلاثين جنيها .

زنوبة – ليست كثيرةً عليه . وأمَا كانت عندكم تماثيلُ حيواناتٍ أو طيور ؟ تمثالٌ لديك رومى مثلا ؟

فوزى – كانت . كانت عندنا تماثيلِ لديَكه رومية وأخرى هندية ...

زنوبة – { مقاطعة } هندية ؟ مِن تلك التى تتشاجر ؟

فوزى – نعم .

زنوبة – وهل بيع أيضاً ؟

فوزى – كلا . اختفى .

زنوبة – تعنى أنه سُرق مثلا ؟

فوزى – لا .

زنوبة – ماذا إذنْ ؟

فوزى – كلٌّ من الديكين أكل صاحبه .

زنوبة – ماذا تقول ؟ أتظنني بلهاء ؟

فوزى – العفو !

سهير – { على حدة وقد تخلفت عن حسام وكشفت غطاء تمثالها }

تمثالٌ لى أنا ؟ { تعيد الغطاء }

حسام – { لفوزى وقد اقترب منه } لندخلْ الآن إلى الحجرة المجاورة .

فوزى – تفضلوا يا سادة .

حسام – هيا بنا ياسهير .

سهير – سوف أتخلف هنا قليلا لأنى متعَبة . لا بأس أن تسبقنى وسأوافيك بعد أن أستريح . { تجلس }

حسام – حسناً . هيا نحن .

{ يخرج الجميع عدا سهير }

سهير – { وحدها وقد عادت فكشفت غطاء تمثالها } كم ذا فى صنْعكَ كابدَ العاشقُ الفَذُّ ليخلِّدنى ويخلُدُ ! لَكأنى به ساهرُ الليالى على الضنى ينحت فى الحجَر الأصمِّ شكواه فينطق .

أيها الخافقُ القلب بالغرام الشقىِّ يا تمثالى، حتّام يستمرُّ مدوِّياً خفقك ؟

جَزَعِى عليكَ من الخلود حين يستريح الموجَعون بموتٍ ويظل أبدياً ألمُك ! { وقد عثرت على تمثال لعقيل } وتمثالٌ لك أيضاً يا عقيل ؟ كم أنت بديع ! منذ بعيدٍ لم تكتحل عيناى برؤيتك . { تبكى }

{ وقد كفت عن البكاء }

أوحَى لعينَّى السَّهرْ   سِحْرٌ بعينيهِ استقرْ
فشكوتُه وشكا إلىْ   ىَ سهادَنا حتى السَّحَرْ
وكم اختلفنا للربا   فى ظلّ ليلٍ نستترْ
ثم ارتمينا نرتوى   من راحنا بين الزَّهَرْ
للهِ عهدٌ ضمَّنا   أقصاه فى الغيب القدَرْ
بكتْ الطيور لبعدهِ   وله السحاب قد انفطرْ
ولقد نوى الورد النضيرُ   وجفّ بالروض الشجرْ
إنْ غيّبوه فأننى   ألقاه طيفاً فى الفِكَرْ
وأراه فى غيْم الدمو   عِ إذا استفزَّتْها الذِّكَرْ
أهديه ما مَرَّ النسيمُ   لواعجَ الشوق الأحرْ
وأنا الوفية فى هَوَا   هُ غاب عنى أو حضرْ

{ يدخل حسام وفوزى وزنوبة }

حسام - { لسهير } لقد عثرتُ على تمثالٍ يعجبك يا سهير.

سهير - وماذا يكون

حسام - فارسٌ ممتطٍ صهوة جوادٍ أشهب، ويرمز للطعن والنزال.

سهير - حَسَناً، فلتشتره.

حسام - { لفوزى } بكمْ هذا التمثال ؟

فوزى - بعشرين جنيها.

حسام - لا لا، هذا كثير. فلنبحثْ عن غيره أرخص منه. { مشيرا إلى تمثال سهير} ما هذا التمثال المغطى ؟ أما كشفَته فربما راقنا؟

فوزى - { على حدة } رباه، أوشك المحظور أن يقع !

سهير - { على حدة } أية نكبةٍ على الأبواب !

فوزى - كلا يا سيدى إنه ليس للبيع.

حسام - { وقد تقدم إلى التمثال } ولكنْ لا أظن أن هناك ما يمنع أن نراه من قبيل المشاهدة. { يكشف الغطاء }

سهير - { على حدة } أوّاه، لا تكشف الغطاء عن قلبين !

{ يبتعد فوزى وزنوبة }

حسام – { لسهير فى دهشة } أتمثالٌ لك هذا ؟ وبأية مناسبةٍ المثّالُ أقامه؟ أكلّفتِه ؟

سهير – ...

حسام – أكلفه والدك ؟

سهير – كلا.

حسام إذنْ فمن كلفه ؟

سهير – ...

حسام – أراكِ هو ؟

سهير – ... نعم

حسام – أوَ يعرفك ؟

سهير – نعم.

حسام – لماذا أنتِ مرتبكة ؟

سهير – ...

حسام – ألعله يحبك ؟

سهير – ...

حسام – هلا أجبت ؟ أيحبك ؟

سهير – نعم.

حسام – أتحبينه ؟

سهير – نعم.

حسام – ماذا تقولين ؟

سهير – يحبنى وأحبه.

حسام – منذ متى ؟

سهير – منذ تفَتَّح للنور قلبى. منذ الخريف المنصرم.

حسام – وهل تلتقيان ؟

سهير – الآن كلا .

حسام – وقَبْل ؟

سهير – كنا نلتقى. { تبكى }

حسام – ومتى كففتما عن ذلك ؟

سهير – مذ خُطِبتُ لك.

حسام – أوَ ما يزال يحبك ؟

سهير – نعم، ولم أزلْ

حسام – ولِمَ تزوجتنى ؟

سهير – زوجنى أبى.

حسام – أعَلى رغمٍ منك فعل ؟

سهير – نعم

حسام – إذن فأنت غير راغبة فىّ ؟

سهير – أكاد أقول ذلك.

حسام – ولمَ لمْ تصارحينى بعذا من أول الأمر ؟

سهير – لمْ تسألنى.

حسام – ولمَ لمْ تقولى ؟

سهير – حسبتُ إعراضك عن السؤال قلة اكتراثٍ لجوابه.

حسام – فسكتٌ !

سهير – نعم.

حسام – ولكنّ السكوت رضا.

سهير – رفضا قد يكون

حسام – كان يجب أن تقولى.

سهير – كان يجب أن تسأل.

حسام – تطوعاً منك على الأقل.

سهير – المتطوع لا يُجبَر. هو بالخيار إنْ شاء فعَل.

حسام – وماذا منعك من أن تشائى ؟

سهير – ألقوْا فى روعى أنه عارٌ فكتمته.

حسام – وعلام عوَّلتِ بعد أن أصبحتُ زوجك ؟

سهير – أنْ أهبك جسدى.

حسام – وقلبك ؟

سهير – يظل لحبيبى.

حسام – غير أنى صاحب الحق فيه.

سهير – إنما وهبتك ما أملك.

حسام – وقلبك، أليس ملكك ؟

سهير – كلا.

حسام – ملْك من إذنْ ؟

سهير – ملْك نفسه. يَهب من شاء نفسه.

حسام – أمِنْ أجل هذا كساك الألم ؟

سهير – نعم، فشقيةٌ ما أنا. { تبكى }

حسام – { على حدة } يا لَخيبة الأمل ! حين ينكشف لنا هزُل الزمن

تنهـار قـصـورٌ من كـاذبِ الأمل شُـيِّـدتْ، لَبين جنبَّى الآن قلبُ عاشقٍ، وأمامى أنفُ جندى، عاقبة العصيان لأوَّلهما نارٌ وللثانى زراية، فلأخترْ أهونهمـخا شراً. ولأوِّدع وأمضى بلوعةِ مشتاقٍ وإباء رجل.

{ لسهير } هيه ! وإذا أنا تركتك لحبيبك ؟

سهير – تهبنى حياةً ثانية.

حسام – وهل تتزوجين منه ؟

سهير – أحاول إن استطعت.

حسام – وإنْ لم تستطيعى ؟

سهير – أظل عذراءَ إلى الأبد.

حسام – أإلى هذا الحد تحبينه ؟

سهير– لو أن فى النار مثواه لأحببتها من أجله.

حسام – إسمعى يا سهير.

سهير – نعم.

حسام – لَسوف أتركك

سهير – { تبكى }

حسام – أمَا تسمعين ؟ لسوف أتركك.

سهير – وأنت

حسام – أعالج نفسى بالصبر.

سهير – وأبى

حسام – أتوسط لك عنده.

سهير – أتَعِدُنى ؟

حسام – بشرف جندىٍّ أعدك

سهير – نبيلٌ ما أنت !

حسام – ألك أنبل.

سهير – ولكنك تحبنى.

حسام – نعم.

سهير – وكيف عن رضاً تتركنى ؟

حسام – ما فعلتُ غير ما وجب.

سهير – يا للتضحية !

حسام – رخيصةٌ هى فى سبيل قلبين.

سهير – وأنتَ ما ذنب قلبك ؟

حسام – لا شيء سوى أنْ أخذتْه الاقدار على غرة، فحقٌّ عليه أن يتحمل تبعة غفلته.

سهير – لو وثقتُ أنّ عرْضاً كهذا ليس يجرحك، لتوسلتُ إليك أن تتشبث ولو بمن سواك أحبّتْ.

حسام – جميلٌ منك أن تلاحظى ذلك.

سهير – لَيرهقنى كرمُ أخلاقك.

حسام – علّمنى ألمك الكرم.

سهير – حسبتُك قاسياً.

حسام – هى المهنة ببعض قسوةٍ طبعتْنى، ولكنّ ألمك لم يلبث أن كشف منى عن قلب إنسان.

سهير – وأىٌّ إنسان !

" ستار "

المنظر الثانى

شاطىء جليم، مصيفون ومصيفات. جلتار
جالسة تحت مظلة، تتقدم نحوها
عديلة، الوقت نهاراً

جلتار – هالو ! أين أنت يا عديلة، وكيف حالك ؟

عديلة – بخير وعافية. وأنت ؟ على ما يرام ؟

جلتار – أحمد الله على كل حال. حسنةٌ صحتى وهادىء بالى.

عديلة – وفيم أنتِ هنا ؟ أعَلى موعدٍ مع حبيبٍ لعلك ؟

جلتار – أىُّ حبيب

عديلة – { تبتسم }

جلتار – هلاّ تكلمتِ ؟ أىُّ حبيب ؟

عديلة – لا شىء كلمةٌ طرأعلىّ أن أقولها { فى خبث } أترين عقيلاً يا جلتار؟

جلتار – أيتها الخبيثة ! هلاّ أبنْتِ عن قصدك ؟

عديلة – على كل حال لم تعد بك إلى الايضاح حاجةٌ ما دمتِ قد فهمت.

جلتار – ومن أين علمت بعلاقتى به ؟

عديلة – وهل بقَى ثمت فى " جْلِيمْ " مَن لا يعلم ؟ عقيلٌ مثَّال أشهر من نارٍ على علَم، وجلتارُ عروس الشاطىء هذا الصيف وجميع الانظار ترمقها، أتحسبين أنّ عاشقين هذا شأنهما يظل أمرهما فى طىّ الخفاء؟

جلتار – إذنْ فلقد ذاع أمرُنا !

عديلة – ذيوعَ الاشاعة بين الهمج.

جلتار – لَشَدَّ ما يطربنى أن أتخيل ذلك ! فلكم تشوَّفتْ نفسى إلى هذا الغرام الذى أخفقتُ من قبلُ فيه، وها هو ذا الآن لا يواتينى فقط، بل ويصبح مِلْءَ الدنيا بأسرها.

عديلة – داعرةٌ أنتِ فى خيالك هذا .

جلتار – ياَ للذَعةِ أسلوبك !

عديلة – ربما أدهشم يا جلتارُ أن تعلمى أننى توقعتُ لك هذا الغرام من قبل.

جلتار – وكيف ذلك ؟

عديلة – أتذكرين ذلك اليوم الذى رأينا فيه عقيلاً يبكى فى الحديقة

فذهبنا إليه وواسيناه ؟

جلتار - نعم أذكره.

عديلة - أتذكرين أنك يومئذ أطريتِ جماله ونهيتك أنا عن ذلك ؟

جلتار - نعم، وقلتِ لى أن التشبيب بميتٍ ليس من الأدب، ولكنْ ما دخل هذا فى نتنبؤك ؟

عديلة - يظهر زنك لازلت جاهلةً بأسرار بنى جنسك، إذن فاعلمى أن قلب المرأة على لسانها دائماً، وهى إذا ما تحدثتْ أفشت ما فيه وإن خَفِىَ عنها.

جلتار - تعنين أننى أحببتُ عقيلاً منذ ذلك اليوم، ولذلك لم أتمالك عن الاشادة بجماله شأن كل من يحب ؟ ولكننى أقسِم لك أن هذه العاطفة لم تَدُرْ بخلدى فى ذلك الحين.

عديلة - بل دارت به، ولكنها كانت لم تزل عليك خافية، إنّ الحب يبدأ غامضاً فى القبل، ثم ما يلبث أن يشقّ طريقه إلى الحواسّ هبّت من بطن الليل،

ثم شيء آخر يا جليتار، وهو أنك كنت مدفوعةً إلى مساعدته فى حماسٍ أقلُّ ما يقال فيه إنه لم يكن من الطبيعىّ فى شىء، وسرعان ما رحبّتِ بفكرة الذهاب إليه بمجرد أن أشرتُ إلى ذلك من طرف أنفى، كأنك كنت تنتظرين ذلك أو على وشك أن تلفتى

نظرى إليه .

كل هذا لم يدع عندى وقتئذ مجالاً للشك فى أنك كنت، ولو عن غير قصد منك، تعلمين لحسابك.

جلتار – أوه يا عديلةُ ما أظلَمَك ! والله ما دفعنى إلى الحدَب عليه غير الشفقة به، ولو أن ثمت عاطفةً بى لم أفهمها كانت تعمل لحساب نفسها كما تقولين، لَمَا راحتْ يومئذ تساعده على حبه لسهير، وتتجه هذا الاتجاه الذى يبدو من أول وهلة متعاغرضاً مع طبيعتها.

عديلة – لقد أُلجئت عاطفتك إلى أن تتجه هذا الاتجاه لأن الموقف لم يكن يحتمل غير ذلك. ولكنه كان منظوراً لها، وهذا اندفاعها، أن تتحول فى الوقت المناسب إلى طريقها الطبيعى.

إن اندفاعك إلى مساعدة عقيلٍ لم يكن مجرد اندفاع، بل كان أكثر من ذلك تشوفاً وظمأً إلى شىءٍ ما فيه.

جلتار – اسمحى لى أن أقول لك إذنْ إنّ ملاحظتك الفطنة هذى، قد كشفت الآن أمامى عن شىء أحب أن أسألك عنه

عديلة – وما هو ؟

جلتار – لقد كنتِ أنتِ أيضاً مدفوعةً إلى مساعدة عقيلٍ بمثل الحماس الذى كان عندى، فهل لى أن أتهمك بدورى بأنك أحببته أيضاً ؟

عديلة – كلا، أنا ما أحببت عقيلاً ولكننى أحببت عطراً فاح من ثيابه، لقد أحببت صديقه ثروت، وكان هذا يتمثل لى فيه كلما رأيته، فحدبى على عقيلٍ لم يكن من أجله وأجل سهيرَ فقط، وإنما كان من أجل ثروت أيضاً، ولَلصراحةُ تدفعنى إلى أن اعترف لك بأن المرأة لا تعمل معروفاً خالصاً قط، وهى إمّا فعلت خيراً فثمت طيف رجلٌ يدفعها من الوراء.

جلنار – قاسيةٌ أنت فى حكمك على المرأة.

عديلة – الشواهد الآن تؤيدنى فى ذلك.

جلنار – نعم، وشقيةٌ ما أنا فى حبه.

جلنار – ولِمَ ؟ أردَّكِ عن قلبه عندما طرقتهِ ؟

عديلة – بل ردنى الوجل من ذلك، إذ أين تكون عديلة المتواضعة الجمال من ثروتَ الجميل الخلاب، الذى تحطم على مذبح حبه ألفُ قلب وقلب ؟

آه يا جلنار لو تعلمين كم أتعذب ! إننى فى حب ثروتَ كمن يقبض بقلبه على جمرةٍ من نار، وكلما حاولتُ أن أصارحه بحبى علَّ نارى هذه تبرد، تراجعتُ من خوف الفشل، وعدت أنطوى على اللهب الذى أحمل، لَشقىٌّ حبى يا جلنارُ بقدر ما هو آثمٌ حبك.

جلتار – وعلام آثمٌ ياعديلة ؟

عديلة – وهل فى هذا جدل ؟ ألم تكن سهيرُ صديقتك ؟

جلتار – نعم، ولكننى ما أحسب أن هذه الصداقة تتطلب فوق المعقول وتحرمنى من حبّ أصبح حلالاً لى.

عديلة – وعلام حلالاً أصبح ؟

جلتار – ألم تتركه سهيرُ وتتزوج ؟

أتريدين من عقيلٍ أن يظل راهباً إلى الأبد ؟

عديلة – إنها مكرهةً فعلتْ، ولئن يكن راهباً كان عقيلٌ، فراهبةً قد أزمعتْ سهيرُ أن تكون.

جلتار – مهما يكن من الأمر فصلتهما قد انقطعت إلى الابد، وليس يضير أيهما فى شيء أن يَصِل نفسه بَعدُ بمن شاء.

عديلة – ومن أدراكِ أن صلتهما قد انقطعت ؟

أما تعلمين أنه أقام لها تمثالاً يعبده، وأنها أقامت له مثيلاً فى خاطرها ؟

إن بينهما فى الغيب لَصلةً روحية لم تزل، وما أحسب إلا أنك بحبك لعقيلٍ قد انتهكتِ حرمة هذه الصلة، وشوشت على قلبين كانا يعيشان كأصفى وأسمى ما يكون عليه قلبان مضطهدان.

جلتار – أواه يا عديلة ! إنك بكلامك هذا تشعلين حرباً شعواءَ بينى وبين

ضميرى .

عديلة – أوَ لم تشتعل هذه الحرب قط من قبل ؟

جلتار – كلا ، ولكنّ ضميرى كان يتألب علىّ أحياناً دون سبب بيديه ، غير أنى كنت كلما فعل ، فزعتُ إلى عقلى أستجليه حقيقة الأمر، فإذا به يقنعنى بأنْ ليس ثمت غبارٌ على تصرفى .

عديلة – خذيها منى نصيحةً يا جلتار ، كلما شَجَرَ خلافٌ بين ضميرك وعقلك فحكِّمى الأول دائماً ، نعم ، إن العقل قد يخطىء لأنه من منطقٍ يستمد أحكامه ، وأمّا الضمير فلا ، لأنه يستقيها مباشرةً من السماء .

جلتار – رباه ! لقد بتُّ بين عذابين، عذاب الضمير وعذاب الخوف من الفشل. نعم، فلقد أصبحتُ أخشى ألاّ يكون عقيلٌ قد برأ من حبه الأول، وأنه ما لاذ بى إلا ليتسلى عن غرام خاب فيه.

عديلة – هو ذلك يا جلتارُ وإنْ أحزنك ما أقول، إن عقيلاً لم يبرأ من حبه ولن يبرأ منه، لأن الحرمان قد غذّاه بالشوق الأبدى، وحوّله إلى عبادةٍ تجاوزت القلب إلى الروح، وإن حبًا كهذا استطاع أن يقهر الشهوات فى قلبىْ حامليْه، لَفى استطاعته أن يقهر الزمن ويبقى أبد الآبدين، إنّ سهيرَ لم تزل لعقيل، وعقيلاً لم يزل لسهيرَ، شاءت الأيام أو أبت، مسكينتان نحن الاثنتين ! كلانا صادف حبه تربة غير ملائمة.

جلتار – أواه من خاطرٍ ما أزعجَه !

عديلة – ماذا ؟

جلتار – خاطرُ راح يتمثل لى.

عديلة – قولى.

جلتار – هبى ... أواه ! إنى لا استطيع ! لا استطيع أن أتصور.

عديلة – ماذا بك ؟ هلا قلت ؟ أهب ماذا ؟

جلتار – هبى أن سهيراً من خطيبها فُرِّقتْ وتمكنت من أن تعود لعقيل، وهذا محتمل لما بينتِ لى من أنهما لايزالان متحبين، هبى أن هذا حدث، فأينا يصبح صاحب الحق فى عقيل، أنا أم هى ؟ حقًا إن هذه لمشكلة المشاكل.

عديلة – وعلام مشكلة؟ ألم أبين لك وجه الخطأ فى مسلكك واعترفت أنت به؟

جلتار – نعم، غير أنى لم أكن أتبين هذا الخطأ حين عولتُ على حبه فى بادىء الأمر، لقد كنت أظن، وربما خدعنى عقلى فى ذلك، أننى فى حبى لعقيلٍ على حق، ولكننى الآن بدأت أرى أشياء كانت عنى خافية.

عديلة – وهل تظنين أن جهلك بالحقيقة فى حينه يؤثر على الحقيقة ذاتها، وعلى أن سهيرَ هى صاحبة الحق فى عقيلٍ بلا مراء ؟

جلتار – إذنْ فضحيةُ الجهل أو ضحية الاقدار أنا، ولكنْ ما قولك فى أن

عقيلاً شريكى فى الخطأ ؟ ألم يشجعنى هو على عاطفتى هذى

عديلة – ولكنْ ما ذنب سهيرٍ إذا أخطأ عقيل ؟

وفضلا عن هذا فأنت، باعترافك قد أحببتِ عقيلاً قبل أن يشجعك على ذلك، وأعلم أنك قد طرقتِ باب قلبه قبل أن يفتحه هو لك. فأنت إذنْ متقدمةٌ عليه فى الإثم، بسريرتك على الأقل.

ولكنْ كيف مرَّ هذا الخاطر ببالك، خاطر عودة سهيرٍ إلى عقيل، ولِمَ تفترضى الاشياء قبل أن تقع ؟

جلنار – هو هاتفٌ راح يهتف الآن بى، وما أحسب إلا أنه بصدقٍ هَتَف، لقد طهَّر نفسى فرطُ الألم. فأصبحتُ بالغيب أوثق صلة، ورحتُ أقرأ صدقاً فيه ما قد أقول.

{ يدخل عقيل }

عقيل – مرحباً بالصديقة العزيزة عديلة.

عديلة – مرحباً بك أهلاً وسهلا.

عقيل – طاب مساؤك يا جلنار.

جلنار – طاب مساؤك يا عقيل.

عقيل – أين زنت يا عديلة ؟ منذ زمنٍ بعيد لم أرك.

عديلة – هكذا الزمن يفرِّق ويجمع.

عقيل - { على حدة } إى والله. لولا أنه لغير ملتقى فرَّقنى وسهير.

جلنار - { لعديلة على حدة } انظرى يا عديلة.

عديلة - ماذا ؟

جلنار - سفينةٌ ترتحل.

عقيل - { مستمرا على حدة } ليت شعرى أأموت ويقدَّر على عينىّ الغمض دون أن أراك يا سهير ؟

عديلة - { لجلنار على حدة } وماذا فى سفينةٍ ترتحل ؟

عقيل - { مستمراً على حدة } ليت شعرى أتطول حياتى فتطول بى الأيام التى أقضيها رهن غيبتك ؟

جلنار - { لعديلة على حدة } حزينٌ هو الرحيل يا عديلة. أليس كذلك ؟

عديلة - { غارقة تفكر }

جلنار - { لعديلة على حدة } انظرى ! إن السفينة تغيب !

عديلة - { لنفسها على حدة } تُرى أأراك اليوم يا ثروت ؟

جلنار - { لنفسها على حدة } نعم ! إنّ السفينة تغيب ! وقد لا تؤوب !

عديلة - {مستمرة على حدة} ومع مَن سأراك؟ أبين رهطٍ من الحسان كعادتك ؟

عقيل - { للفتاتين } فيم أنتما غارقتان ؟

جلتار – فى تلك اللانهائية التى تبتلع الاشياء. هذا البحر، بل هذا المدَى، قد ابتلع الآن سفينة.

عديلة – والأن إلى اللقاء أىْ صديقى العزيزين.

جلتار – وهل من دا عٍ إلى العجلة ؟

عقيل – إنه لَيسرنا أن تبْقى معنا.

عديلة – شكراً. ولكننى أريد رؤية بعض صديقاتى. إلى اللقاء .

جلتار وعقيل – إلى اللقاء أيتها العطزيزة.

جلتار – اجتهدى أن تعودى إلينا بعد ذلك.

عديلة – سأحاول.

{ تخرج عديلة }

عقيل – هيه يا عزيزتى جلتار، كيف أنت، ومالى أراك مكتئبة هكذا ؟

جلتار – لا شىء، إنه صوت الموج الحزين يبعث الأسى فى النفس أحياناً.

عقيل – وأمَا كان هذا الصوت موجوداً بالأمس حين ملأتِ أذنىّ بضحكاتك المرحة ؟ ليس ثمَّ حزنٌ أو فرحٌ فى الطبيعة، ولكنما نفوسُنا عليها تنعكس. إنك ما رأيتِ حزيناً موج البحر إلا لأنك من خلال عينين حزينتين تبصرينه.

جلتار – وماذا عساك تراه الآن من خلال منظارك ؟

عقيل – برغمي أيتها العزيزة أراه على عكس ما ترين .

جلتار – لابد وأننا رحنا نقرأ الغيب من لوح واحد، وإلا لما اختلف المنظاران.

عقيل – وما علة اختلاف المنظارين إذا كان اللوح واحداً ؟

جلتار – لأن المدوَّن فيه يسرُّ أحدنا ويحزن الآخر.

عقيل – لمْ أفهم بالضبط قصدك، هل حدث ما سبَّب لك القلق ؟

جلتار – كلا. ولكنّ ثمت شعوراً خفيًا يحدثنى بأن سعادةً يوشك موكبها أن يرتحل.

عقيل – وأية سعادة تعنين ؟

جلتار – لست أتطفل على الغيب، ولكنها ربما كانت سعادتى.

{ يدخل حسام ويقترب من عقيل }

حسام – نهارك سعيد يا أستاذ عقيل.

عقيل – نهارك سعيد يا سيدى.

حسام – بعد استئذان الآنسة، أتسمح لى بأن أتحدث إليك على انفراد ؟

عقيل – بكل تأكيد يا سيدى.

{ عقيل وحسام ينتحيان جانبا عن جلتار }

جلتار - { وحدها } ليت شعرى فيم حسامُ جاء ؟

وأىُّ ودِّىَ هكذا من الحديث يمكن أن يكون بين غريمين؟ لابد أن أحداً منهما سلا حبَّه أو أخلىَ الطريق لمزاحِمة، فيا ويلى إذا كان السالى حسام! تُرى أنذيرُ القلب صدَق، وأننى كتابٍ مفتوح كنت أقرأ، حين رحتُ أتوقع الزوال لحبى؟

{ تظهر فتاة مارة على الشاطىء يتبعها شاب }

الفتاة - وافِنى عند الصخرة. عند الصخرة. ابتعد الآن. والدتى ورائى.

{ تظهر فتاة تجالس شابا }

الفتاة - هات رقم تليفونك، وبمجرد عودتى إلى القاهرة سأكلمك.

{ يظهر ثروت يجالس فتاة زرقاء العينين }

الفتاة - لو وصفتَ لى القبلة منحتُها لك.

{ يظهـــر رجـــل بديـــن بملابـــس الاستحمام يسير فى رهط من الناس }

الرجل - لقد أوشكتُ الآن أن أغرق.

فتاة ممن معه - { مشيرة إلى صلعته } لولا أن أنقذتْك قرعتك هذى.

{ تظهر فتاة تسير مع أخرى }

الفتاة - { مشيرة إلى رجل } أتعرفين ذلك الرجل ؟ إنه صحفى. هيا

نقترب منه فربما كتب عنا فى باب الطبقة الراقية، {وقد تلفتت فجأة إلى حذائها} انتظرى! إن كعب حذائى العتيق قد لاذ بالفرار.

الأخرى - { مشيرة بأصبعها } ها هو ذا يتدحرج كأنما دبّت الروح فيه. ومع ذلم تريدين أن يُكتب عنك فى باب الطبقة الراقية ! يا لك من متبجحة !

سيدة عن كثب منهما - لا تبتئسا يا بنيتىّ فليس ثمت فى الثراء من مجد، ما الاثرياء إلا مغتصبون لأنهم لن يستطيعوا أن يثبتوا أن ثرواتهم توازى جهودهم ولو ادعوا أنهم يعملون طوال النهار والليل، أو أتوا مقدرة الشياطين.

{ يظهر رجل يرتدى ردنجوتا ويضع
عيونات سوداء ويحمل تحت إبطه
مجموعة من الكتب ويسير مع آخر }

الرجل - ما رأيت الشاطىء فى الصيف بهرجه ومرجه إلا وخُيل أن الانسانية سكْرَى.

إحدى الفتيات - {لنفسها وقد مرقت من جانبه} ما أقل عقول الشعراء! يقنعون من الحياة بتصويرها، وأما الحياة نفسها فتفلت

من أيديهم.

{ يظهر ثروت مع فتاته، وتظهر على مسافة

منهمـا عديلـة ترقبهمـا دون أن يريـاهـا }

ثروت - لقد كسبتُ الرهان. لا مفرّ من القُبَل.

{ يختلس منها بعض قبلات على مرأى من عديلة }

عديلة - { على حدة فى ألم } فلذَاتٌ من كَبِدٍ أودعتُه ما يهبُكِ الآن من قُبَلاتٍ نادية، ولَنورٌ على شفتيك هى، وفى فؤادى نارٌ حامية، أحلالٌ لأجنبيٍّ الشفاه دمى، حرامٌ هو على شفتِيَهْ ! { تبكى }

{ تخرج الفتاة مع ثروت }

ثروت - { وحده } إنك تحملين الجمّ الكثير من الاغراء ما من هذا يا حبيبتى شك، ولكننى على الرغم من ذلك أحمل بقلبى من الحب أكثر مما عندك من الجمال.

شدّ يا زرقاء العينين ما يخفق اليوم قلبى للسواد من العيون ! خالستْنى من لياليه شموسٌ فراح ينبثق من بريقها بريقٌ للصبابة فى قلبى، وعبثاً ما حاولتُ فى سبيل الوفاء أن أقاوم، فاستسلمتُ مرغماً، ولكننى مع ذلك لبثتُ طول الليل أترنم بهذا الانهزام اللذيذ.

أحائذةٌ أنتِ يا حبيبتى إذنْ عن الوفاء لمن بدأ بالخيانة عهدك ؟

أَجل، ومـا كنت لألومكِ فـى ذلك فـأكـونَ لقلبك البـرىء ظلَومـا، ولكنْ، هل يطفىء الانتقام لوعةً فيك للحب متأججة ! ستعصف الغـيـرة بقلبك وقلبى، وسنسـهـد الليـالى الطوال نذرف الحـار العـزيز من الدمـوع، ولكنْ أنَّى سللقلب الشـارد الجمـوح نحـو الجمـال أن تستـوقـفه توسـلاتُ الدمـوع الجارية ! سـأحبك مـا ترددتْ فىّ أنفاس الحياة، ولكنّ قلبى النزّاع بطبيعته إلى الطمع والحرية سيأبى إلا أن يُشبِع أهواءه من دُمَى الجمال المتعددة.

فى فـؤادى مـتَّـسعٌ من الحب على قـدر مـا فى هذه الحـيـاة من حِسَان، فهلاّ أطفأنا يا حبيبتى نيران الغيرة فى لقبينا، ورحنا نهيم بحب الجمـال أينمـا كـان متنقلين عابثين كمـا تنتقل النحلُ الحـائمـة بين الزهـور ؟ إننا نؤمن بالتنقل فى كل شىء، ولكم تفتننا العيون الزرق والعيون السود فى آن واحد، فلماذا نرضى لأنفسنا بنصيبٍ من الجمال أقلّ مما بقلوبنا من الحب ؟

لو كـان فى وسـعك أن تحـوى الجـمـالَ كله لأوليتك من فـؤادى الحبَّ كله، ولكننا إذ نفترض فى الجمـال المحـالَ إنما نرجو من الحب المستحيل

{ يظهر عقيل وحسام }

عقيل – إلى اللقاء أيها السيد الكريم، وموعدنا غداً فى القاهرة، شاكرٌ لك ما حييت نبل أخلاقك.

{ يخرج حسام ويعود عقيل إلى جلتار }

عقيل - { على حدة } صدقاً كان ما قرأتِ يا جلتارُ في لوحة القدر. لَيكاد يكون المحبون أنصاف أنبياء .

جلتار - ماذا كان يُسرُّ إليك هذا الضابط خطيب سهير ؟

عقيل - لا شيء، كان ينهى إليّ خبراً يخصني، والآن لَيؤسفني أيْ صديقتي العزيزة أن أكون مضطّراً إلى توديعك، إذ يجب أن أعود من فوري إلى القاهرة.

جلتار - إلى القهرة ؟ ومن فورك ؟ وعلى أثر حديث ودّيٍ مع خطيب سهير؟ والبِشرْ هكذا منك آياته ؟ قلْ لي ماذا حدث ؟

عقيل - ...

جلتار - أما تجيب ؟ ماذا حدث ؟

عقيل - ...

جلتار - أتوارى وجهك مني، وبالصمت تتذرع ؟ ما وراءك من أخبار تَسرك وتخاف أن تزعجني ؟ تكلم هلاّ تكلمت ؟

عقيل - ...

جلتار - قلْ يا عقيل. أسهيرُ عادت إليك ؟

عقيل - نعم، إلى اللقاء. { يهم بالخروج }

جلتار – إلى أين أنت ذاهب؟ كلا، إنك لن تذهب، إنك لى أنا. {تتشبث به}

عقيل – جلتار !

جلتار – نعم، أنت لى، أنا صاحبة الحق فيك، أنا أحبك، { يتخلص منها ويبتعد} كلا، لا تتركنى، بربك لا تتركنى، { تبكى }

{ يخرج عقيل وتقبل عديلة }

عديلة – { لجلتار } ماذا حدث ؟

جلتار – { مستمرة فى البكاء }

عديلة – هل أغضبك عقيل ؟

جلتار– يا سعادةً لم تستقرّ. ويا فرحةً ما تَمَّتْ، لِمَ بالرحيل تعجِّلين ولمّا يَحِنْ وقتُك ؟ لَكأنى بموكبك الحافل وهو ينأى، سفينةٌ ملْؤُها الأحبابُ، خَلَّفَتْ الأجسامَ على البرِّ وأقلعتْ بالمُهج. يا ليتنى كنتُ ضمن روّادك، أو أننى ساعةَ البَيْن لم أَرَكْ ! يا ليتنى جسداً لم أكُنْ، وكنتُ مهجةً ذابت، أو كنتُ حلْماً ومَضَى.

" ستــار "

الفصل الرابع

المنظر الأول

حديقة المنظر الأول من الفصل الأول، منيرة
وحميدة جالستان، الوقت نهاراً

منيرة - أتقرأين مجلة " الزنبقة " يا حميدة ؟ لست أدرى لِمَ انقطع الشاعر ثروت عن الكتابة فيها لأربعة أسابيع مضت ؟ ألعله لم يعدْ على وفاقٍ مع رئيس التحرير؟ أم أن النساء تكاثرت عليه فلم يبق عنده وقت للكتابة؟

حميدة - إية نساء يا منيرة! أمَا تعلمين ماذا حدث له ؟ مسكينٌ هذا الشاب! لقد أصيب منذ ما يقرب من شهر فى حادث سيارة فتكسرت ساقه وتَهَشَّم وجهه. لو رأيته الآن لأنكرتِ هيأته، ذلك الذى كان يتألق حسناً كوردةٍ نضرة.

منيرة – واكَبِداه ! ثروت ! ذلك القمر ! تكون تلك خاتمته ؟

حميدة – تصوَّرى يا منيرة، هذا الشاب الفاتن يتحول فيما بين يومٍ وليلة إلى شخصٍ مشَوَّاه يسير على عكازين، ويحمل فى وجهه أنفاً طار نصفه.

منيرة – يالَقسوة القدَر ! لَشدَّ ما أصبحتُ أعطف عليه برغم ما اشتهر به من غدر وقسوة.

حميدة – لا عجب فالنوائب من دأبها أن تستنزل الرحمة من القلوب كيفما كان ملوَّثاً ماضى الضحية، وليس من شيمة القلب أن يؤاخذ إنساناً أصبح فى ذمة الموت أو كاد، فلئن نَقْسُ فثَمّ شىءٌ بقسوتنا نتحدّاه، وما ترك الضعيفُ بضعفه شيئاً يُتَحدَّى.

منيرة – نعم، وإنّ وقْع الفاجعة ليعظُم، وهول المصاب لَيتضاعف، إذا ما اقترن بمجدٍ سابق وعزٍّ تليد، هنالك يشعر المرأ بفرق ما بين الحالين، وبوَحشة الفرا غ من بَعد الوجود.

تصورى أن يلتفت هذا التَّعِس حوله فلا يجد فتاةً واحدة من أولئك اللاّتى كنّ يتهافتن عليه ويلتففن حوله أيام عنفوانه، وإذا به يرَى نفسه وحيداً منبوذاً بعد أن كان فى موكبٍ منهن، أىُّ شعور بالخيبة ينتاب هذا المسكين حين يدرك بشاعة ما انتهى إليه، ويصبح فإذا به كَمَن كان فى حُلمٍ لذيذ وأفاق منه على

صــوت بـومــةٍ تنعب، فــلا الحلمُ ينسى ولا هـو فى وســعــه أن يسترجعه !

حميدة – مسكينٌ، لقد كان قلبه عامراً أبداً كقصور الملوك، فإذا به الآن أخلَى من خَرِبَة.

ولو أنه اتقى ربه فى سالف أيامه واقتصر على حبيبة واحدة تخلص له، لوجدها الآن إلى جواره تحدب عليه وتنير ظلمة قلبه. فللَحب إذا ما تجاوز دائرة الجسد وامتزج البروح، عسيرٌ ذلك اقتلاعه ولو تشوَّه الجسم وهدَّته عوادى الزمن.

منيرة – مسكينٌ ابن آدم ! إنه عن جهل يخطىء، ومع ذلك لابد أن يؤدى حساباً عن خطئه.

هيا بنا يا حميدة.

{ يدخل ثروت يسير على عكازين ومعه عديلة }

حميدة – انظرى ! ها هو ذا ثروت أقبل، مسكين ! أمَا ترين كيف أصبح مشوَّها ؟

منير – ومن تلك التى تصحبه؟ أراها إلى الجمال تفتقر كما أصبح هو.

منيرة – لا أعرفها. هيا بنا بربك. إنى لا أقوى على رؤيته هكذا.

{ تخرج منيرة وحميدة }

عديلة – لن يضيرنى شىء مما أصبحتَ فيه، فلقد أحببتك وسأظل أضمر لك الحب على أى الحالات كنت.

وإن حبى لك القديم يرجع إلى المرة الأولى التى فيها رأيتك، ولكنى لم أكن لأجرأ على أن أصرح لك بشىء لأنك كنت يومئذ كالسماء لا تُنال.

ثروت – { فى غضب } والآن ؟

عديلة – ...

ثروت – أصبحتُ كالأرض أُنال ! إن لم أكن أوطأ !

ثروت – كلا ما قصدت إلى هذا.

ثروت – هو ذلك. عندما كنتُ فى عافيتى كتمتِ عنى حبك، فلما تشوهت لم تجدى بأساً من أن تفاتحينى به لأنى نزلت فى نظرك إلى المستوى الذى أعطيتِه لنفسك.

عديلة – رحماك ! ما هذا التعسف ؟

ثروت – حسناً حسناً !

عديلة – ثروت ! ما هذا ؟

وليكن أنى لم أسعَ إلا وأنت فى محنتك، أليس هذا غاية الكرم ؟

ثروت – نعم، لو أنه كانت لك قبلاً حرية الخيار فى معرفتى، ولكنك فى واقع الأمر كنت فى ابتعادك عنى مكرهة.

كفَى كفَى أيتها الآنسة، أمِنْ أجل هذا دعوتنى إلى مقابلتك ؟ لتزفى إلىّ بُشْرى المكانة الجديدة التى هبطتُ إليها ؟

إذنْ فاعلمى أن تصريحك قد جرح كبريائى كيفما كان شرف الباعث الذى ينطوى عليه، وإنى وإنْ تغيَّر الجسد منى فلقلبى ونوقى وكبريائى باقيةٌ كلها كما كانت، فإذا كانتِ فيما مضى لم تجدى من نفسك الكفاية لى، فما أحسبُ أنْ قد جدّ عليك ما يجيعلك كفئاً لى الآن.

إن شخصيتى لم تزل على عهدى بها جبارة، بل لقد زادها العجز جبروتا عما كانت عليه، لأنها وقد دهمها الضعف باتت فى حاجةٍ إلى مضاعفة قواها لتقاومه، وإنه لَمن كرهها الضعفَ ما تزدريه، ومن خوفها مظنَّته ما راحت تدفع الشُّبُهات عنها بتحدِّى القُوَى.

وإنى وإنْ أكنْ أصبحتُ غير مرغوبٍ فىّ من أيما امرأة، إلا أننى لا أملك سوى أن أتعفف اليوم عما أنفتُ منه فيما مضى، قانعاً بالجوع عن الطعام العَفِن، بالوحدة عن رفيقٍ لا يملأ حيِّزا ما فىْ.

أجَل، لن يخضع أو يلين للأيام عجزى ما دام للعجز كبرياءٌ تحميه، سأعيش منطوياً على نفسى أولِّد من صراعى وإياها القُوَى ثم اتحدَّى بها الزمن.

عديلة – أبهذه القسوة تخاطبنى، أنا التى حملتُ لك الحب منذ القدمِ، وتحملتُ فى كتمانه الأهوال حتى كدتُ أروح شهيدة ؟

ثروت – نعم، فلقدْ كنت أيضاً علىّ قاسية، ماذا تريدين بعد أنْ جئتِ تنعين إلىّ شخصى ؟ لو أنك فى لباقةٍ عرضتِ، لَرددتُك بمثل لباقتك، ولكنك لَّمحتِ من قربٍ أو بُعْد لعاهتى، وذو العاهة لا يغتفر التلميح بعاهته.

{ تخرج عديلة باكية }

ثروت – { وحده } حانَ الخريفُ يا قلبُ واصفرَّ عُودُك، فغادرتْكَ صادحاتُ الطير إلى حيث تنعم بالغصون المُورقة، وتركْتكَ وحدك للرياح تَصْفُر فى آذانك، وتملؤها بالاناشيد الخَربة.

لهفى عليك تَرى ناضرِات الزهر جيرانَك، وقد تجمَّعَتْ حولها الطيور الغَرِدة، ومضى الكل يقضُّون اليوم فى لهوٍ ولعب، بينما أنتَ غارقٌ فى لُججِ دمعك، رازحٌ تحت أعباء همومك، يا وحيداً وسط الجموع الحافلة، يا سجيناً ولمَّا يُشَدّ وثاقك.

جميلاً كان ذلك العهد الذى تربعْتَ فيه فوق عرش شبابك، حين وَفَدَت عليك الطيور متهافتةً تتملق حسنك، وأنت تبْسم لها من فوق عرشك العالى، وقد أسكرتْك نشوةُ ظفرك، وأذْهلتك روعة سلطانك.

والآن وقد ولَّى الربيع وشقَّت عصا طاعتها عبيدُك، غدت تمرّ بك

الطير غير عابئة، وفى كل مرةٍ تخطف القليلَ الذى بَقَى من صبرك، وتحرق اليسير الذى تخلّف من زيتك، يا عَطوفاً مازلتَ رغم قلة جهدك، يا طموحاً أنتَ رغم ظاهر زهدك.

وعندما أتاك الآن طائرٌ عليلٌ يخطب ودَّك، صعّدته بنظرةٍ من طرف عينك، ثم انثنيت على ماضيك تجْمع من ذكرياته حطام عرشك المتهدم، لتعود فتتربع عليه متناسياً ما أنت فيه من هوانٍ وضنى.

وهكذا أبتْ إرادتك إلا أن تكون الكبرياءُ أبديةً فى دمائك، رغم الليالى التى نزعتْ عنك تاجك، والعوادى التى جردتْك من صولجانك. يا عظيماً برغم ضيعة مُلْكك، يا أبيًا برغم قلة زادك.

{ تدخل سهير وفكرية }

سهير – طاب صباحك أيها الشاعر ثروت.

ثروت – طاب صباحك يا عزيزتى. صدفة سعيدة.

سهير – { مشيرة إلى فكرية } الآنسة فكرية من صديقاتى.

سهير – { لفكرية } جدّ مسرور بمعرفتك يا آنستى.

سهير – لشد والله يا سيدى ما أزعجتنى نكبتك، ولكنْ لا تبتئس، ولا يكنْ للحزن إلى فؤادك من سبيل، فلئن عصفتْ الحادثات بجسدك، فلقد وَهبتْ الطبيعةُ الخلودَ معناك.

فأنما الشاعر العظيم يبقَى وإن ظُن أنْ قد تشتتَ شمله والردى

عفَّاه، وزيْفُ ذلك الذى فقدتَ، لسوف يفقده الجمنيع يوماً ويُطووْن من دونك معه، حين نفنىَ وتبقى أنت تتحدى البِلى بخلودك، وللأجيال بفم الزمان تتحدث .

ثروت - شكراً يا عزيزتى سهيرَ على جميل عطفك وحُسْن تقديرك، وحاشا كما قلتِ أن يدركك الفناء مع الفانين، فأنما يخلُد فى الدنيا شاعرٌ عظيم أو عاشقٌ عظُم، وما أحسب أنّ عاشقيْن قد ضربا فى العشق مثَلاً كما ضربتِ أنت وعقيل، وإنى لانتهز هذه الفرصة فأقدم لك الآن ما قد حالت النوائب بينى وبين تقديمه من واجب التهنئة على رجوعك لحبيبك، وعودة المياه إلى مجاريها .

سهير - شكراً أيها الشاعر العظيم، وإن كانت المياه إلى مجاريها لم تعد، ولا عاد عقيلٌ ذلك العاشقَ الذى وصفتَ والذى فيما مضى كانَه، نعم لقد صحا الجو برهةً حتى حسبتُ أن أيام الصفا قد عادت، ولكنه ما لبث أن رجع بالغيم يتلبد، فإذا بهذا الصحو حلمٌ قصيراً كان لُبْثه، كصحوة الموت فى زيْفه، أو كتوهُّج المصباح شَحَّ زيته.

ثروت - وماذا، رعى الله حبكما، حدث ؟ ولَم لم يعد عقيلٌ العاشق العظيم الذى كانَه ؟

سـهـيـر - نعم، لقـد كـانَه فى فـجـر حـبنا عندمـا راح يحنو علـى براعتى ويترقرق بى، وكانه عندما توطدت بيننا أواصر المحبة فحمل لى من الحب أقصاه ومن الوفاء أجمله، وكانه عندما فرقت بيننا الأيام فبقى على العهد وأقام لى تمثالاً يعبده، ولكنه لم يكنْه عندما خاننى أخيراً وأحب جلنار، أنا التى وإن أكن كنت على وشك أن أهب جسدى لسواه، إلا أن قلبى لم يتزحزح قيد شعرة عن حبه .

ثروت - إذن فأنت لم تكونى على علم بعلاقته بها عندما بعثت فى طلبه غداة تركت خطيبك ؟

سهير - كلا لم يأتنى العلم إلا متأخرا، كان ذلك بعد أن سعى خطيبى عند أبى وزلل من جهته كل عقبة، ومن ثَمَّ سافر إلى الاسكندرية موفداً من قبَلى ليبلِّغ عقيلاً الخبر، ولو كنت أعلم يومئذ بعلاقته بجلنار لتعففْتُ عن أن أوفد إليه مَنْ ينتزعه من أحضان سواى ليُلقِى به من أحضانى.

آه يا عزيزتى ثروت لو تعلم كم يحزُّ فى نفسى هذا الخاطر كلما تبادر لى،

نعم، فى اللحظة التى كانت فيها قدما خطيبى قد هبطتا الاسكندرية لينهى إلى عقيلٍ خبر عودتى إليه، فى هذه اللحظة

نفسـها نما إلىّ خـبر صلته بـجلتار، نعم جلتارُ صديقتى. ولو أننى استطعت إذ ذاك أن أركب البرق أو أسـخِّر الجنَّ لِلَّحـاق برسـولى والحيلولة بينه وبين تنفيذ رسـالتـه لَمَـا ترددتُ فى أن أفعل، ولكنْويا للأسف، لم يكنْ فى وسعى أن أغلق فمه فى تلك اللحظة التى بدأت أشعر فيها بأنه على وشك أن يتكلم.

ثروت – لا يدهشنّك جهلى مما تطورتْ إليه الحوادث بالنسبة إلى صديقين حميمين مثلكما، كان ينبغى أن أكون عن كثبٍ من أمرهما دائماً، ولكننى مذ عاد عقيلٌ إلى القاهرة تلبيةً لدعوتك لمْ أره مـرة واحدة، لأننى كنت فى ذلك الوقت لا أزال فى الإسكندرية طريح الفراش فى المستشفى، وما قدمتُ إلى القاهرة إلا أول أمس فقط.

ولكنْ هل يُفهم من كلامك بعد إذْ عرفتِ بعلاقته بجلتارَ هـذى، أصبحتِ تريدين العودة إلى خطيبك القديم، أو تتمنين ذلك على الأقل؟

سهير – كلا ما خطر لى هذا الخاطر قط، فأنا ما أحببتُ غير عقيلٍ ولا أبتغى بديلاً من سواه، ولكنّ الحب شيءٌ والكبرياء شيءٌ آخر، لقد طعننى عقيلٌ فى الصميم من كبريائى، وحطّم لى فى خاطره تمثالاً كان قد أقامه، وكنت أعتزُّ به بينى وبين نفسى وأتعزّى

عما لاقيت في حبه من أهوال .

وما كان يخلق به أن يتصرف تصرفاً كهذا، ويهدم في لحظةٍ واحدةٍ صرحاً مقدَّساً تعبْنا في تشييده معا ومن دماء قلبينا بنيناه.

ولكنها الشهوة، شهوة التكالب على هذه الدنيا الفانية، تتردَّى بالانسان حتى بعد إذ للسماء يَصْعَد، أَجل، من أجْل بضعةٍ من جسد يلمسها، يسمح لنفسه عقيلٌ بأن يهبط من هذا العلو، كأن السموَّ غريباً على بني الإنسان، أو كأن الأناسيَّ كالضوارِي يقتلها الجوع إذا هي أعوزتْها الجِيَف .

ثروت – وهل تعنين بذلك أنك عدلتِ عن الزواج منه ؟

سهير – بلا شك، فزواجي به لن يكون بعد الذى كان، نعم، إنّ عقيلاً هو مُنَى القلب، ولكنني ما تعودتُ أن أعدو وراء شيءٍ فرَّ مني أو أقنع من مطمعي بما هو دونه، ومذ عوَّدني عقيلٌ أنْ يتفانى فيَّ ولا يؤمن بسواي، لم أعُدْ أرضى منه بأقل من ذلك.

فلْيذهب بالقليل الذى جاء يقدِّمه إليّ من قلبه، أو يَعُدْ إليّ به كله، وهيهات بعد ما كان أن يستطيع ذلك.

ثروت – ولكنْ مَن أدراك أنه لم يَعُدْ يؤمن بك مثلما كان ؟

سهير – ليكُنْ أنه عاد يؤمن بي، ولكنْ كفى أنه آمَنَ مرة بسواي، إن

من الجروح ما لا يندمل، ومن الأخطاء ما لا ينفع الغفران فيه، وخيانة العهود إحدى هذه.

إنيَ لأرضى، وأية امرأة ترضى، من حبيبها بما هو دون ما أطلب، إلا من عقيلٍ إذا ما كان الطالبُ سهير، ذلك أنه كان قد شَيد لى، وشيدتُ أنا له، فى القلب هيكلاً وأقامنى إلهةً فيه، فتربعتُ مذ ذاك فوق عرشه، وبسطتُ سلطانى عليه كما تبسط سلطانَها الآلهة، فما يمكن بعد ذلك أن أرضى بأن يزاحمنى مزاحمٌ فيه.

ثروت – ولكن ألم يذهب عقيلٌ إلى أبيك ويطلب منه يدك ؟

سهير – كلا. لقد أرسلت إليه من يحظر عليه ذلك وينذره برفضى إن فعل.

ثروت – إذن فأنتما لم تتقابلا مذ تركتِ خطيبك ؟

سهير – كلا، مذ فاجأنا أبى معاً لم يرنى أو أره، ولكنه من يوم أن عاد من الاسكندرية وهو لا ينفك يحوم حول منزلى عله يظفر بنظرة منى، إلا أنه عبثاً حاول أن يجدنى فى الشرفة كما كان يتوقع.

ثروت – إذن فكل عقبة من جانبه أو جانب والده زلِّلت.

سهير – هما الاثنان رهن كلمة تخرج من فمى.

ثروت – وأما آن لها أن تخرج ؟

سهير – هيهات.

ثروت – ولكن ماذا عساه يقول والدك إذا استبطأه ؟

سهير – ليقُلْ ما يقول، ليسيءْ الظن به، أو لينتحلْ له من الاعذار ما شاء فما أصبح يعنيني هذا ما دمت قد نفضت يدى منه.

ثروت – إنك مغالية يا عزيزتى، فما فعل عقيلٌ غير ما يفعله كل عليل يريد أن يتداوى من الألم، وما عن حبّ اتصل عقيلٌ بجلنار، بل قلد كان يجالسها كما يعاقر المحزونْ كأساً من الشراب ليتسلى به، ولو زنه أحبها لما عاد إليك من فوره كما فعل، فلَلحب الجديد ينسخ ما تقدمه، لولا أن شيئاً من هذا لم يكن.

وإنْ شئتِ الصراحة فأنا المسئول عن هذا، إذ دفعنى الاشفاق عليه من فرط الألم إلى أن أزجّ به فى الطريق الذى ظننتُ أنه قد يخفق من بلواه، ولَشَدَّ ما كان يرفض فى أول الأمر مما لم يدعْ مجالا للشك فى قوة حبه لك وتمسكه بالوفاء لعهدك، وما قبِل بعد لأيٍ إلا بعد أن طرقتُ موضع الحساسية من قلبه فزعمت له أنك سلوتِه بدليل زواجك من حسام.

فإذا كان ثمت خطأ فى تصرف عقيلٍ فأنا الملوم فيه وعلىّ وحدى تقع تبعته، فلا تظلمى هذا الشاب المسكين، فوالله ما رأيت عاشقاً تمكّن من قلبه الحب تمكُّن حبك من قلبه.

سهير – جميلٌ منك هذا الاعتراف يا سيدى، إذنْ فلْتتقبل منى الشكر

حاراً على أن كنتَ السبب فى هدم غرامٍ لم يشهد التاريخ مثله.

ثروت - لا تمعنى فى لومى يا سهيرُ فوالله ما رمتُ سوى الخير له، ومَن يدرى، لعل الله أراد به وبك خيراً حين سخَّر له جلتارَ تحفظه لك من عصف الردَى إلى ذلك اليوم الذى حان للآمال فيه أن تتحقق، فلقد استبد به الحزن فى آخر الأمر حتى لقد خشيتُ عليه الجنون أو الفناء صبابة.

فأن لم تشائى أن تشكرينى وتشكريها على هذا الجميل غير المقصود، فلْتعتبرينى مخطئاً فى حقك، ولْتَصُبِّى علىَّ من جام غضبك ما تشائين، أمّا عقيلُ فاستحلفك الله ألا تمسِّى قلبَه بسوء لأنه من الذنب برىء.

{ يسمع صوت عقيل من وراء
الشجر دون أن يراهما أو يريانه }

عقيل - عُودى إلى القلب الذى هَجَرَكِ، يا أليفةَ الماضى، ويا منبع الذكريات الغالية.

ثروت - ها هو ذا المسكين قد أقبل من وجْدٍ يناديك. فلتستمعى إلى لقبه الجريحِ لِتَرَىْ بنفسك.

عقيل - عُودى إلى القلب الذى هَجَرَكِ، يا أليفةَ الماضى، ويا منبع الذكريات الغالية.

يا أول شعاعٍ تفتَّحَ عليه القلبُ، وأول قطرةٍ نَهَلَ منها وارتوَى. عُودى، فقد عدتُ، إلى الحُلُم الذى احتضن صبانا، إلى جنون العهود الماضية.

كلما مررتُ بقصرك مستطلعاً، لَوَّحَتْ لى من شُرُفَاته الذكرياتُ منادية، فأهُمُّ بأن أقف، ولكننى ما ألبث أن أجد بابك مُوصداً فأتابع سَيْرى فى قنوطٍ وضنى.

لا وعينيك ما سلاكِ القلبُ، ولكنه ولاّكِ ظهره ذات ليلةٍ حين غَرَّرَ به نجمُ تألَّقَ نورُه، ثم ما عتم أنى عاوده الحنينُ إلى نورك الباهى، فأقبل عليك وهو يلهث متلمساً عفوك.

مَن شفيعى إليك يعيد لىِ الماضى، أنا المشرَّد فى الهوى يا حبيبتى بعدك، الوحيد وإنْ كَثرُ الصحابُ بدونك.

ألا يا مَن شهدتم فى الأمس البعيد غرامنا، وعرفتم ما بها وعلمتم ما بِيَهْ، نَبِّئوها بأننى عُدْتُ لعلها تعود الغالية.

سهير – رباه ! لقد رقّ له قلبى.

ثروت – بالله قومى إليه وصالحيه.

سهير – { فى تأمل } ماذا تقول ؟

ثروت – أأناديه لك ؟ ولكنْ لا، ناديه أنتِ بالصوت الحبيب إلى قلبه، هيا، ولتكن مفاجأةً تسرُّه.

سهير – أحقًا أناديه ؟ نعم، بهيذا يأمر القلب { منادية } عقيل !

عقيل – مَنْ ! سهير ؟ { وقد خف إليها } هل أصدِّق ؟

سهير – { وقد خفت إليه } خذنى بين ذراعيك

{ ترتمى فى أحضانته ويغمران أحدهما الآخر بالقبل }

ثروت – { على حدة } مسكينان !

عقيل – ...

سهير – ...

ثروت – { على حدة } أىُّ ظمأ !

عقيل – سهير !

سهير – عقيل ! { يتعانقان مرة أخرى }

عقيل – ...

سهير – ...

عقيل – أىُّ عذابٍ تعذبتُه !

سهير – فديتك !

عقيل – هل أصدِّق ؟ أنك الآن بين يدىْ ؟

سهير – مَن كان يظن ؟ أن الأيام ستجمعنا ؟

عقيل – عنـدمـا طَرَق أذنَّى صوتك الحبيب، ظننتُ أننى أعانى سكراتُ حلْم!

سهير – ...

عقيل – نعم، مَن كان يظن، عندما ناديتك، أنك ستلبين ندائى ؟

لقد حسبْت، حسبْت، أنك بالألهام سمعتِنى من دارك، فبعثْتِ إلىَّ مع الألهام بصوتك.

ولكننى عندما خفقتُ إليك ووجدتُك، استبعدتُ ألاّ تكون أنت، ومع ذلك فقد لبثتُ فى ريبةٍ من أمرى.

أحقًا يا سهيرُ أنكِ أنت ؟ أم قد زيَّفك فرط الظمأ لعينىْ ؟

سهير – حبيبى ! هو أنا بعينى.

عقيل – {وقد رأى ثروت } ثروت ! أيها الصديق !

{ وقد خف إليه وعانقه } كيف أنت ؟ لشدَّ ما يحزُّ فى نفسى مصابُك ! ألهانى شقائى عنك، فقصّرت فى حقك.

ثروت – لا أراك الله سوءاً يا صديقى، أبارككما على هذه العودة، انتظر ريثما أجمع لكما باقةً من الزهر تذكاراً لهذا اللقاء.

{ يبتعد ثروت }

سهير – أيها المسكين ! كم أنت طيب القلب !

عقيل – ثروت ! أهكذا يشاء الزمان ويأفل نجمك ؟ أين أنت الآن منك فيما مضى ؟ لقد كنتُ أحسدك على فرط هنائك ! نعم، لَطالما غبطتُك، ونظرتُ إليك بملْء عينىْ !

والآن، ويا حسرتاه لك ،لمْ يَعُدْ فيك ما تُغبط عليه. ولقد شتَّتَ شملك الأيامُ حين راحت تجْمع الأشتاتَ وتَعطف. آه لو أنك

بسوءٍ لم تُصَبْ، إذنْ لاكتمل سروری بك، ولَمَا شاب هنائی شبحُ صديقٍ يتعذب.

سهير – عقيلُ، أباقٍ لم يزل تمثالی ؟

عقيل – نعم. أنثر الرياحين حوله كل يومٍ، والبخورَ أحرق عند قدميه.

سهير – إنما أسأل عن ذلك الذی فی قلبك. ألمْ يزل لی فی قلبك تمثال ؟

عقيل – وهل تشكِّين فی ذلك ؟

سهير – ألَم يُحِلّ غيره مكانه ؟

عقيل – وهل سواكِ القلبُ أحَب ؟

سهير – وجلتار

عقيل – رحماك ! كفانی ما ذقتُ بسبب ذلك.

سهير – ...

عقيل – سهيرُ، أمَا زلتِ غير راضيةٍ عنی ؟

سهير – كلا، لقد صفحت. هيا واذهبْ الآن إلی أبی.

عقيل – حبيبتی ! { يتعانقان }

{ يعود ثروت }

ثروت – {وقد قدم إليهما باقة من الزهر} خُذ هذه الباقة تذكار حبٍّ يعود.

" ستــار "

المنظر الثانى

حديقة المنظر السابق، جلتار وعديلة

جالستان، الوقت نهارا

جلتار– فى مثل هذا اليوم من العام الفائت، رشفتُ مع عقيلٍ أول كأسٍ من الغرام فوق رمال " جلْيِم "، ذلك الغرام الذى لم يدم سوى أيامٍ ثم مالبث أن مات فى عمر الزهر.

عديلة – آه يا عزيزتى جلتار ! إنك لا تفتئين تذكرين عقيلاً، ولا أفتأ أذكر ثروت، وما أحسب إلا أننا سنظل نذكرهما ونلبس على غرامهما الحِدَاد إلى الأبد.

جلتار – واحسرتاه ! لقد عجّل بنا الدهر وألبسنا السوادَ قبل أوانه، فغدونا فى سبابنا كراهبتين، والنُّسْك فى شرخ الصبا قبيحٌ هو. ما أشبهنا بزهرتين تفتحتا فى قيلولة حرارة الشمس وقَضَتا فى ساعة المولد.

عديلة – نعم، ولكننا فى الأعماق لم نمت. إننا وإنْ كسا ظاهرَنا البِلَى، ما
نزال ننطوى على شىءٍ نابضٍ بأيما حياة، على تمثالين شبيهين
بذلك الذى أقامته فى لقبها سهيرُ لعقيل، وأقامه هو فيه لها.

جلتار – نعم، ولكننا إذ ننطوى على تمثالين كهذين من حرمانٍ نُصبًا،
فعلىَ قاتلٍ من الألم ننطوى، والانطواء على قاتلٍ منيّةٌ راهنة.

عديلة – كلا، لم يَعُدْ ما بنا من الألم قاتل. لقد هدّه كرُّ الزمان فخبا،
ورسب منه فى الأعماق شعورٌ هادىءٌ حزينٌ، كالظل هو أو
كالغيم فاتن.

هذا الشعور، هو ذلكم الألم العبقرىّ الذى يرى السعادة فى
الانطواء على حزنٍ علا بما يكبدنا فى سبيله.

لابد للإنسان من ألم عظيم يعيش به ولأجله. من ذكرياتٍ غالية
يضطلع بحملها كما تحمل جنينَها الأم.

أجل، لابد أن يضم فى أعماقه كائناً سواه يغلو بما يبذل فى
سبيله، ويغلو هو معه.

جلتار – لأكاد أنضم فى الرأى لك. فأنى مذ أحسستُ بشىء ثمين أحمله،
بدأت أغلو فى نظر نفسى، وشعرتُ وأنا أقيم فى حياض حزنٍ
رصين بأننى أكثر انطواءٍ على نفسى مما كنتُ قَبْلُ فى بشاشةٍ
نَزِقة أتبعثر.

عديلة – والفضل فى كل هذا يرجع للألم، يرجع للحرمان. فلولا هذا

الحرمان الذى صادفنا فى هوانا لَمَا بقَى فى القبل إلى الآن حيًا ينبض، إنّ هذا الحرمان هو الذى يخلع على الاشياء قيَمها ثم يحفظها لها، ليس ثمَّ لشىءٍ قيمةٌ فى ذاته، وإنما القيمة فى ذلك الظمأ، فى ذلك الفراغ الذى نُعدُّه لكى تقيم الاشياءُ فيه، والذى إذا ما ارتوينا فامتلأ، لم يَعُدْ لها مكانٌ عندنا ولا مكانة، فهذا الظمأ هو من نفوسنا عين الارتواء وهذا الفراغ هو منها عين الوجود.

وإنّ ذكرياتٍ كالتى نحفظ غالية، وتمثالين كاللذين نحمل ثمينين، كانت لها فى يوم من الأيام وجودٌ فى نفس كلٍّ من سهيرَ وعقيل، ولكنها الآن كما تعلمين تلاشت، إذ بمجرد أن تزاوجا وظفر كل منهما بالآخر، تحطَّم التمثالان والذكرياتُ اختفت أو هى من رِخَصٍ كادت، فما عادا ينطويان فى أعماقهما على شىء.

جلتار – نعم، فهنالك إشاعةٌ تتردد على الألسن بأن كليهما قد سلا صاحبه أو أوشك.

عديلة – هذا ما رأيته بنفسى رأى العين، فلقد زرتهما فى الشهر الأول من زواجهما فوجدتهما يكادان يجنّان من صابة.

وإتهما فى شهرهما الثانى فلاحظت أن حبهما قد شابهُ اعتدال وروية، فلما كان شهرهما الثالث لمست بينهما فتورا يلفت النظر، وكنت عندهما أمس، فلم أقع للحب فى قلبيهما على أثر.

نظراتٌ باردة يتبادلانها، وأحاديثُ أبرد، ولم يعودا يطرقان موضوعاً من مواضيع القلب، وأغلب كلامهما لغط فى مسائل الجو أو تدبير المنزل، وفضلا عن ذلك فعقيلٌ يقضى أغلب الوقت فى معمله فلا يعود إلا المساء.

أما هى فقد أصبحت جدَّ ميالة إلى زيارة الصديقات واستقبالهن، هذا هو ما انتهى إليه أمر العاشقَيْن اللذين ضربا فى العشق مثلا للناس. جلتار – الحق أن أحداً لم يكن يتوقع لحبهما الزوال.

عديلة – الأمر بسيط، لقد أحَب كل منهما الآخر ما ظل بعيداً عنه أو مهدِّداً إياه بالبعد، أحَبَّ فى شخصه ظمأً شعر نحوه به، فلما ناله زهد فيه كما يزهد فى الماء كل صديانٍ ارتوىَ.

هما ارتويا فسما الماء، ونحن ظمئنا فأقمنا للماء تمثالا، هما حطَّما تمثالين، ونحن نَصبنا مثلهما.

جلتار – إذن فنحن الرابحتان فى هذه القصة، لقد حسبتُنى وإياكِ ضحيتين.

{ يظهر عقيل وسهير }

عديلة – أمَا ترين ؟ ها هو ذا عقيلٌ وسهيرٌ مقبلان.

جلتار – إذنْ فهيا بربك.

فلكم أخشى أن يزداد بىَ الألم إذا أنا رأيتُ معذِّبى.

عديلة – ثم شىءٌ آخر، وهو أن مثل هذا اللقاء قد لا ينتهى بسلام.

جلنار – ولكنّ سهيرَ لم تعدْ بِحبٍّ فتغار.

عديلة – غير أنها قد تذكر ثأراً قديماً فتنتقم.

{ تخرج جلنار وعديلة وتدخل سهير وعقيل }

سهير – كم هو حارٌ الطقس اليوم ! يا ليتنا ما قدمنا إلى هنا !

عقيل – ألم أقل لك ذلك من قبل ؟ فلْتنوقى إذنْ عاقبة عنادك.

سهير – أينا العنيد ؟ أنا أم أنت ؟ ألم ألحّ عليك كثر من مرةٍ فى أن ننتقل إلى الاسكندرية مدة الصيف كما يفعل سائر الناس، فكنتَ تصمُّ أذنيك دونى ؟

وهكذا أنت أبداً متمسكٌ بآرائك ولا تريد أن تعيش إلا وَفْق هواك، فياللأنانية!

عقيل – على أى الأحوال فأنا لم أمنعك ومازلت لا أمنعك، فلتسافرى وحدك إن شئت، أما أنا فلا استطيع أن أترك تماثيلى وبينها الكثير الذى لم يكتمل بعد.

سهير – أبداً تتحدث عن تماثيلك ! تلك التماثيل التى لم أعدُ أفقْه لها معنى!

عقيل – كفى أرجوك. أما تعلمين أن مَن يعرِّض بتماثيلى فأنما يطعننى فى أعز ما لدىْ ؟ أليست هذه التماثيل هى التى نالت وتنال إعجاب سائر الناس وأنت فى مقدمتهم ؟ أمِن حقدك علىّ رحت تنكرين فىّ كل شىء حتى ما لا يقرك عليه ضميرك ؟

سهير – ماذا تقول ؟ التماثيل أعز ما لديك ؟ تلك الكُتَل الحجرية ؟ الحق إن الحياة معك أصبحت لا تطاق.

عقيل – على كل حال فسأريحك منى، فأن موعد عملى قد أزف، وأحسب أن معملى أحوج إلىّ منك.

{ يخرج عقيل }

سهير – { وحدها } أفيما مضى كان يمكن أن يحدث هذا الشجار السخيف الذى لا سبب له، لو أننا بقينا كما كنا متحابين، أكان يمكن أن يتركنى وحدى هكذا عرضةً لأنظار الناس ومضايقاتهم، أو كان يفعل هذا دون أن أكترث له ؟

{ وقد لفت نظرها شىء فى الشجرة } سهير ؟ عقيل ؟ مارس عام ١٩٣٥؟ إسمانا اللذان حفرناهما على الشجرة معاً فى أول لقاءنا ؟ آه، لو أن الاسماء تظل منقوشة على القلوب كما تظل على الشجر ! تالله إن الجماد لأحفظ للعهد من قلوب البشَر، لقد زعموا أن عقيلاً أقام لى تمثالين، أحدهما فى فؤاده والآخر من حَجَر، وها قد تحطَّم تمثالُ فؤاده وبقَى التمثال الحجَر .، وزعموا أيضاً أن ثمت تمثالاً قد أقمته له فى فؤادى، فأين هو ؟ لا أعثر له على أثر.

{ يسمع نعيق غراب }

أيها الغراب. لَيذكِّرنى بالفناء نعيقك !

{ يسمع نعيق الغراب }

كل شيءٍ على الأيام زائل. انقضى كل ما كان، وجَنَحتْ للرقاد صبابةٌ استبدَّتْ بالفؤاد دهراً فأقامت الدنيا وأقعدتْها. ومضتْ كالحُلْم أيامٌ حدَانا فيها موكبُ النيل وليالٍ طالعَنَا فيها وجهُ القمر. وعفَتْ، وعَفَتْ معها آثارُنا، وما يزال النيل يشقُّ مجراه وسط الحقول، وما يزال القمر يغمر بأشعته المروجَ المخضلَّة.

وعما قليلٍ تحين ساعتُنا فنَلحق بالذى مضى من أيامنا ونذهب معها إلى حيث لا عودَ يُرْجَى، وسوف يظل يجرى كما كان، والقمر يطلع كهده، ليُعيدا تمثيل المهزلة مع غيرنا.

{ تدخل فكرية }

فكرية – طاب صباحك يا سهير، فيم أنت هنا ؟

سهير – طاب صباحك يافكرية. لقد قدمت إلى هنا صحبة زوجى، فلما حان موعد عمله قصد إلى معمله وتخلفت أنا.

فكرية – وكيف حالكما ؟ أسعيدٌ به وسعيد بك ؟

سهير – كلا مع الأسف، الحب الذى خلع علينا الهناء خبا وانطفأ.

فكرية – لا تقولى هذا، ألستما متحابّين كما كنتما ؟

سهير – كلا، بدا على عينيه النسيانُ، ودبَّ الفتور فى قلبى، ونلتقى، فلا ثمَّ خفقٌ بالقلوب ولا بالعيون شغف.

فليت شعرِى هل كان حبنا سراً فسَّره الزواج فتلاشى وأمنيةً حققها فماتت ؟ لكم حذّرتْنا هواجسُنا الزواجَ فأبَى حبنا وحكم على نفسه بالموت، بل أبت علينا الطبيعةُ، لأن الطبيعة ألدُّ أعداء الدوام، ومضت تزيِّن لنا شهواتُنا أن نُغرق فيها لكى نقضى بأنفسنا عليها.

وها نحن الآن نشهد بأعيننا جنازة حبنا، وندفنه بأنفسنا فى مقره الأخير، فما كان أغنانا عن أن نقتل بأيدينا أحبَّ الأشياء إلينا، ثم نبقَى من بعدها نرتعد من منظرنا الآثم إلى الأبد.

فكرية - إنك تختطئين يا عزيزتى حين تأسفين على حبٍّ قضَى لأن زواجاً قد حلّ محله، أنتما فقدتمااللحب جذوة، ولكنكما ربحتما صداقةً وتعاوناً لأداء واجب إنسانى، أجَل، لقد تحاببتما مرةً وأخذتما نصيبكما من لذةٍ مقدسة، فوجب بعد هذا أن تنجبا من يتنوقها بعدكما ومادامت الحياة قد هيأت لكما أن تعيشا لنفسيكما مرة، فلتردًّا لها الجميل وتعيشا من أجلها مرة.

وإنه لَمِن الخير أن يموت الحب يوماً ليبقَى للإنسان ما يتفرغ به لسواه، أجل، يجب أن يَخمد اللهب الصارخ، وتصمت الخفقات الداوية، لنستطيع بَعدُ أن نستلهم الحبَّ معناه فى هدوء، مكتفين من اللهب بطيفه، ومن الخفق بصداه، إننا لا نعيش من أجل نزوات طائشة فقط، وإنما أكثر من ذلك من أجل الفكرة

العظيمة التى تنحسر عنها فى النهاية. هذه الفكرة، هى التى ينْظمها الشاعر فيما بعْد قصيدة، أو يرسلها الموسيقىُّ لحناً، أو يخطُّها الرسام لوحة، أو ينحتها المثَّال تمثالا.

فأنتما ما فعلتما بالحب سوى أن مهدتما السبيل لجنْى الثمر الذى حان لكما الآن أن تقطفاه، هذا الثمر هو تلك الخِدم التى تؤديها للإنسانية، وما قيمة الحب للحياة إلا فى أنه يفتح مغاليق القلوب ويكشف عن أسرارها الفاتنة، لنهبها فيما بعد للحياة ثمناً لوجودنا ممثَّلةً فى أعمال عظيمة أو خلَف صالح.

هذا هو الحب كما يجب أن تفهميه ويفهمه الناس. ولعلك قد اقتنعت بعد ذلك بأنك مخطئة.

سهير – آه يافكرية ! ولكنّ الحب ليس كل ما ذهب.

فكرية – وماذا إذن ؟ هل ذهب شىء غيره ؟

سهير – كل شىء ذهب. أبى ذهب. أمى ذهبت. ثروت، الذى هزنى شعره الجميل، حسام، الذى ودع الحياة ظامئاً إلىّ، كل هؤلاء ذهبوا، أجل، لقد ماتوا جميعهم فما عدتُ ألقاهم عندما تهفو روحى لذلك.

وليس هذا فقط. بل ذهب التمثال الذى أقمته لعقيل، وذلك الذى أقامه هو لى. كما ذهبتْ الأمسيات السعيدة التى قضَيناها معاً فى فجر حبنا، والآلام والدموع التى سكبناها فيما بعْد فى سبيله.

نعم، كل رَكْب العهد القديم ذهب، وذهبتْ معه دنيا بأسرها ما كنت أود أن تفارقنى. وإنى لأتخيل نفسى غريبةً على الحياة حين التفت حولى فلا أجدَ من ذكرْتُ يشاطروننى إياها كما كانوا. ولعل هذا هو علة انقباضى فى هذه الأيام، وسرُّ حنينٍ بِى مقيمٍ إلى الحياة الآخرة، يتمكن من نفسى يوماً بعد يوم ولا استطيع خلاصاً منه.

لَكثيراً ما أهبُّ من نومى فزِعة، فإذا بشبح العهد القديم ماثلُ أمام عينىّ بكل ما فيه، وكأنى برفاقى الذين ذكرْتُ ينادوننى فتتوق روحى إلى اللّحاق بهم، لولا سجنٌ من جسدٍ فانٍ أقيم فيه، وإنى لَمِن حنينٍ إلى موتاى ما أصبحتُ أكثر من الاختلاف إلى المقابر، حيث أمضِى اليوم بطوله فى صحبة الموتى من رفاقى الأقدمين، ولكم أتمنى إذ ذاك لو أننى أصبح مثلهم هامدة، أو لو أن القبور ابتلعتنى حيةً فأثوِى إلى جوارهم.

فكرية – أراك يا سهيرُ شديدة الجزع على ما فات كأن الفناء أمرُ غير منتظر، فعلام هذا، ولمَ يقلل من شأن الحوادث عندنا أنها زائلة ؟ ما دمنا أنفسنا زائلين فليس فى وسعنا أن ندرك القيمة إلا فى الشىء الزائل، إننا نَفْرَغ مع كل شىء، وكل شىء، وكل شىء يفرغ معنا، وهذا الانسجام الذى بيننا وبين الحوادث يقوم لدينا مقام الدوام.

سهير – ربما، ولكننى لشدة ما فطرتُ عليه من وفاء وحساسية، عدوتُ

وما بِي من قِبَلٍ على الحياة بعيدة عن رفاقٍ ولَّوْا وعهدٍ سلف .

ثم هناك شيء آخر أكثر من مجرد الحنين إلى أشياء فاتت، شيء كنتُ أحاول جهدى أن أخفيه حتى عن نفسى لفرط ما هو مثَّقلٌ بالألم، ولكننى لم أفلح لأنه كامنٌ فى ذات نفسى، آه يافكرية ! لَمِ ألَّبْتِ علىَّ حزنى ؟

فكرية – وما هو هذا الشيء ؟

سهير – نعم، ف هنالك ما هو أوجع من الفناء، هنالك التبعة الناجمة عنه، هنالك حساب الضمير لمن تسبب فيه، أجَل إنّ أبى وأمى لم يقْضيا إلا بسببى أنا، لقد أثَّرتْ الصدمة فيهما حين ألفيا ابنتهما خرجتْ عن الوقار مرتين، فأحبتْ الحبَّ غيرَ المباح، وأصرت على العودة إلى مَن تِحب أخرى

وإذا كانا قد قبِلا زواجى من عقيلٍ أخيراً، فإنه لَمِن أجلى أنا، وعن كرهٍ منهما فعَلا، غير أنهما لم يلبثا أن اعتراهما السأم بعد ذلك، وغربتْ من أفقهما تلك البهجة تغرى الإنسان بالحياة وتدَّخر له طاقته عليها، فودَّعاها من مللٍ قبل الأوان.

فكرية – وهل مات يا سهيرُ قبل أوانه أحد، حتى تحمِّلين نفسك تبعة انقضاء الآجال ؟

سهير – نعم، فلقد كان ما يزال فى المصباح زيتٌ يحترق، ولكنّ ريحاً

أثرتُها عليه قد أقلقتْ لهبة، فما عتم أن خبا من ضجر، آه، وارحمتاه لهما من مسكينين ! { تبكى }

فكرية – ما هذا يا سهير ؟ إنك تؤاخذين نفسك بذنوب من نسج الخيال !

سهير – ثم حسام، هذا المسكين، ألستُ أنا السبب فى موته ؟ ألم أجرّعه العذاب فى حبى حتى قَضَى من حسرة، أو على الأقل ظامئاً إلىْ ؟ أمَا كان يجب علىّ أن أرفض الزواج منه من مبدأ الأمر حتى لا يتعلق بأهداب أملٍ كاذب، وحتى لا يصعد به الخيال إلى شاهق من العلوّ لا يلبث أن يسقط منه بعد إذ يعجز لا الوهم عن حمله ؟ غير أننى لم أفعل، وأنانيةً منى لم أفعل، لأننى كنت يومئذ أريد أن أتفادى نقمة أهلى، خشية الموت الذى قد كانت تجره علىّ، لأننى كنت أطمع فى أن أعيش لأعبد عقيلا ؟ أجَل، لقد كنت أرغب فى أن أعيش ويطول بىَ العمر، لأظل أقدم نفسى قرباناً لذكرى غرامه، إمعاناً فى الوفاء له وضناً بألمى المقدس أن ينتهى بالموت، فها أنتِ ذى ترين أننى قاتلة، ولابد للقاتل من يومٍ يحاسبه فيه ضميره، وما أحسب إلا أن هذا اليوم قد حان .

ولئن يكن قد أتانى الحساب متأخراً، فما ذلك إلا لأننى كنت قبل هذا أحب عقيلاً وأرغب فى أن أعيش من أجله، فغَلبتْ فىّ يومئذ

شهوةُ الحياة على رغبة التسليم للحق، وضاعتْ أنات الضمير الخافته وسط الصاخب المثير من أغانى الحياة. فلما أن خمد هذا الحب وأقفرتْ الحياة مما يغرى بها، سنحتْ الفرصة للضمير كيما يتدخل ويتقوى على حساب قلة اكتراثى بالحياة، فَعُلا صوتُه وانطلق فى الآذان مدوِّياً فوق أنقاض الأغانى الماضية وها أنا ذا اليوم أقف من نفسى موقف القاضى العادل، لأحكم عليها بالموت، وأنفِّذ فيها الحكم قسراً كما تنفذه القضاة.

نعم. لقد وصلتُ بعد جهد إلى أمنيتى من حبٍّ عقيل، ويجب الآن أن أفكر فى الضحايا الذين خلفتهم ورائى وأنا فى طريقى إليه، يجب أن أمضى إلى قتلاى فأسغفرهم ذنبى، وأشاطرهم فى الآخرة حياةً كنتُ أنا التى طوّحتُ إليها بهم قبل الأوان.

فكرية – تلوِّ حين بشبح الانتحار؟ أمجنونةٌ أنت ؟ يظهر أن كثرة آلامك قد أثرتْ على أعصابك، فازدحمت رأسك بتلك الخيالات الفظيعة، التى لم تقتصر على إيهامك بأنك مجرمة، بل راحت تزِّن لك ارتكاب جريمة جديدة، أيتها الصديقة، ما أنتِ الصديقة، ما أنتِ فى نظرى آثمةٌ ولكنَّا مريضة.

سهير – نعم مريضةٌ، وعاقبةُ الأثم المرض. بل إننى من مرضى لَفى

حمَّى، وليس يُبرئنى منها سوى الموت، نعم إنَّ دوائى الوحيد هو أن يعود إلىَّ قَتْلاى، وما دام هذا ليس فى الأمكان فْلأذهب أنا إليهم، إنَّ ظلمى لهم قد غرس فى قلبى العطف عليهم، والعطف كالحب بعضُه قاتل.

فكرية - هدِّئى من روعك يا صديقتى. أنظرى إلى جمال احياة، إنَّ فيه الكثير الذى يغرى، أمَا ترين هذه الورود كيف يغازلها النور فتتفتح مبتسمةٍ لسناه؟ وهذه الأغصان كيف تتمايل طَرِبةً لغناء طيرها الغَرِد؟ أما ترين هذا الفَراش وكيف يتنقّل محوِّماً بين الزهور وقد رفَّتْ أجنحةٌ منه كالشرر لَمَّاحَة ؟ وذلك النحل وكيف راح يَطِنُّ كرأس سكرانٍ أو كحلْم بين أُذُنىْ نائم؟

أنظرى، ها هى ذى وردةٌ تتأوَّد حين عانقتْها نسْمة. وهذه أخرى ترتعش حين طَبعتْ عليها فراشةٌ قبلة. إن فى الحياة لجمالاً يجعل عزيزاً علينا أن نفارقها. أأمضى فأجمع لك باقةً من الزهر تهدىء أعصابك؟

سهير - لا بأس.

فكرية - إذن فانتظرينى هنا. سوف لا أغيب عليك.

{ تبتعد فكرية }

سهير - { وحدها } متى يا رفاقى نلتقى فى الغيب فتجْمعنا الصُّدفُ

التى أَلفتْ بيننا فى الدنيـا ؟ لقـد رحلتم عن واحـداً إثْر واحـدٍ وتركتمونى نهباً لنار الحنين وحدى. أوى الحياة وقد أقفرتْ منكم غريبةٌ علىّ، وترانى وقد تبرمتُبها عليها غريبة.

ما أكثر ما تَجْمع السماءُ نفوساً كانت بالأمس تحيا بيننا ! فيا قَدَّسَ الله مكاناً أضحى للأرواح الزكية مَرَاحاً ومَغْدَى ! طُهِّرتْ فيـه من رجس المعاصى، واسـتـعـاضـتْ عن ظلمة الضـلال بنور الهدى.

يا نفـوسـاً شـفَّهـا الحـرمـانُ فـغـادرتْ الحـيـاة ظمـآى، ليت الذى اختارك إلى جنواره يعوِّضك ما فاتك فى الحياة من المُنَى، وأنتِ يا نفْسُ عـجلّى، فـإن رفـاقك الأبرار لَيـرقـبـون هنـاك فى لهـفـةٍ قدومك.

{ وقـد اسـتلفت نظرهـا فى الأرض شىء فـالتـقطه } مـا هذا ؟ مـوسَى ؟ حـسـناً حـسـناً ! ها قـد وجـدتُ دوائى، وفى الوقت المناسب. أيتـهـا الموسى، لقـد عَـراكِ الصـدأ، ولكنك عـمّـا قليلٍ سـتذهبين بصدئى. وخذةٌ منك فى الشريان كما يقولون، تُورد الأنسانَ حتفه. لعلكِ إلى حسامٍ تنتمين أو إلى أبى، فأُقتَل حينئذ بيَدِ قتيلى، ويكون القصاص بذلك أكثر عبقرية.

{ وقد اضطجعت على الأرض } مالى هكذا أتهيب الألم ؟ هبْنى

تحت مبضع جرّاحٍ، أمَا كنتُ سأتألم ؟ هبنى قد وخذتْنى إبرةٌ، أو صدمنى حَجَرٌ، أو لسعتْنى نارٌ، أمَا كنتُ سأتألم ؟ كلاّ، فلأتشجَّعْ، فما وخذه موسى بأشدّ تبريحاً من عذاب الضمير، اليد التى قتَلتْ من قَبْلُ لا يجدر بها الآن أن تجبن، { وقد أمسكت بشريانها } أيها الشريان فلْتبرزْ فى شجاعةٍ إلى جلاّدك، ولْتتقدمْ إلى الموت ثابتاً بخطاك، حسناً، إن الذبيحة قد تَمّ إيثاقها وليدِ جلاّدها تهيأتْ، فلْتهوِ عليها إذنْ إيها الجلاد، ولْلْجلاد أنا، إنه لِمَن عبقرىٍّ البسالة أن يكون المرء فى آن واحدٍ قاتلاً وقتيلاً، وأن يجمع فى نفسه الخصمَ معاً والحكَم، أيها الجلاّد هيا وانقضّ على ضحيتك، فلقد تَمَّ كل شىء وتمغطستْ أمام مُفزِع نظراتك، ما أحسبها عادت تُحِسُّ وخَذْ يدك، فلقد أصبحتْ من انتظارها الموتَ ميِّته، والآن، الآن، فلأنفذْ حكمى { تقطع شريانها } آه ! آه ! آه ! .. آه! .. آه! ... آه ! حسناً، كل شىء قد انتهى. فلْينزفْ الدمُ كما شاء على مَهَل، فليس فى وسع أبقراطَ نفسه أن يَقِفَه، الآن أصبحتْ المنية محقَّقة، وعما قليلٍ ألتقى بمن أحببتهم فلأتأملْ للمرة الأخيرة الحياةَ، ولأستعرضْ الأعوام فى لحظة، { وقد أخرجت من حقيبتها صورة } ولْيكنْ أن أبدأ بنفسى فأطلّ فى صورتى هذى، وأناجى سهيراً مُمَقَّلةً فى ورقة. { مخاطبة صورتها }

يا رســولَ الحــيــاةِ للأحــيــاءِ
حــين يُطـوَى علـيّ ثـوبُ الـفـنـاءِ

ذكـــــــــــريِّـهـم إذا رأوْك بـأنــي
عشتُ فى الأرض قبل عيش السماءِ

أنتِ أقـــصـى الذى يُخَلَّف منى
مــا تَمــتَّــعتُ من طويل البــقــاءِ

فـقُـصـارَى الحـيـاة للمـرء طيفٌ
وحــــديثٌ بألسُن الأحـــيـــاءِ

{ تعود فكرية }

فكرية – ها هو ذا الزهر أحضرتُه.

سهير – أرجيئه حتى يوضع على قبرى.

"خــتــام"

زينـــــات

شبه قصة فى مقطوعات

١٩٣٩

الفصل الأول

«زيناتُ» جافاها النوم. شيء تجهله بَلْبَلَ فكرها . مذ علمتْ بأن «مختاراً» في طريقه إلى مصر .

ومختارٌ هو ابن عمها، مَات أبواه وهو لم يزل في المهد، فكفله أبوها وآواه في بيته، حتى إذا ما سلخ في دراسة الطب مرحلة - وكانت يومئذ في الثالثة عشرة من عمرها - أرسله إلى أوربا ليُتِمَّ دراسته .

* * *

زيناتُ جافاها النوم. ومنذ الصباح فاض نشاطها . فهي دائمةُ التَّطواف في حجَر البيت، لا تدخل حجرة إلا لتبرحها إلى غيرها، ولا ترتمي على مقعد إلا لِتهَبَّ منه واقفة، وعندما جلستْ إلى البِيان تعزف «فالْسَ» الدانوب الأزرق، قامت دون أن تكْمل أغنيَتها المحبوبة. كانت تحس بقوة تدفعها، ولكنْ لا تدري إلى أين . والذي لا يَعرف وجهته لا يقرُّ في مكان، لأنه لا يلبث أن ينهض ليُتِمَّ البحث. كانت قد شرِبتْ من كأسٍ سحرية ضاعفت في شرايينها الحياة، ولا تدري من أي فردوس جاءوا بالكرْمة التي عَصروا منها خمرها .

فلما أتى المساء وأرادت أن تعتقل هذا النشاط خلْف أسوار الكرى، حَطَّم

الأسوار واندفع يتألق فوق عينيها الساهرتين. وزاد أن أَسْرَى بها فى الليل مسافات، إلى أن حلّق فوق الباخرة «سوسن»، التى تُقِلُّ العائدين من أوربا. فرأتها تسير مُزَّيَّنَةً فوق العباب، وأحست بنسيم البحر البارد يلطم خدها، ونشقت رائحة الملح المذاب فيه .

* * *

دقت الساعة منتصف الليل، وما تزال زيناتُ يجافيها النوم . وهذِى حَمَاماتُ الكرى تحلق فوق أهدابها وتأبى أن تهبط، ثم تتجمع فى سربٍ جميل وتخرج من النافذة. ثم ما تلبث أن تعود لتكرر ما فعلت . غير أنها كانت كلما طافت بها ، جادت عليها بلمسةٍ من طرف الجناح ينكسر لها جفنها الكحيل، فتأخذها سِنَةٌ قصيرة، تَرى فيها الباخرةَ سوسنَ تترجرج فوق اللجج، ومن بين ركابها فَتى رسَم الضنى عليه ظلاله الشاحبة، وهو يَشْخص ببصره إلى الشاطىء. ثم تفيق وتختفى الباخرة، لتعود فتتراءى لها فى الخيال سابحة فوق بحور الغيب .

* * *

كل هذا كان يجرى وهى لا تفقه له معنى. لقد كانت حدَثة، وتَلُفُّها تلك الأكمام التى تَلُفُّ البراعم فتحجب أسرارها. أجَل، فإن سبعة عشر عاماً لم

تكن كافية لتُفَتِّح قلب زيناتَ الغرير، على الرغم مُن ذلك الحب الذى كانت تحمل جرثومته طفلة، فظل ينمو فى مخبئه بعيداً عن مرمى بصرها، كما ينمو العطر الكمين فى الزهرة، فى انتظار اللحظة التى تتفتح فيها ليفيض على حواشيها .

ولو أنها أمسكت بشمعةٍ ونزلت تنقِّب فى خفايا نفسها، لظفرت بالسر كما يظفر الغواص باللآلىء من أعماق البحار. ولكنها كانت ترهب الظلام، فآثرت أن تبقَى على السطح تتقاذفها أمواج الشكوك .

* * *

وأقْبلَ الفجــر يجرجر وراءه مواكــب الضياء، وتصايحَت الدِّيَكة فى زَهْوٍ كأنها موكولةٌ بإيقاظ الكائنات، وراحــت تَصُبُّ فى ســمع زينــاتَ أذانـها المنعش كأنه أقداح من القهوة. على حين تزاحمت العصافير على الغصــن المجــاور لنافـذة مخدعها، وقد أخذت تثب وتزقزق. وبين حينٍ وحين يلُوح منها فى الجو مُجَنَّح، أو يَدخل الغرفة ضالٌّ ما يلبث أن يعود أدراجه .

ثم غرد بلبل، وغنت حمامةٌ، وأجابها من أقصى الروض قمرى. كما جاءت يمامة فحطَّت على كُوَّةٍ فى حائط قريب، ومضت ترتل تسابيحها القانتة. فكأنما قلْبُ الفجر محرابٌ وهى عبدٌ قائمٌ لِصَلاة .

وتسربت البهجة إلى قلب زينات، وبددت ما ساورها فى وحشة الليل من

قلق. فقامت فاغتسلت بماء الصباح البارد، ثم وقفت أمام المرآة ترجِّل شَعرها، وكان الضنى قد رقّق لونها فأبَان عن حسنها الروحانى، كما أذْبَل عينيها السهادُ فزاد من فتورهما الساحر، ولاحظت هى ذلك فابتسمت وودت لو عانقت نفسها. وإنّ من الجمال لَمَا يَسْبِى الحبيب. وإنْ منه لَمَا يُعشَق حتى من نفسه. وكأيٍ مِن حِسَانٍ عَشقن أنفسهن وتدلَّهن . وكأيٍ منهن أصابها من سحْرها مَسٌ .

وعادت تتملى حسنها، وأخجلها أنه فضّاح. وكذاك يعلِّم الحسنُ الخجل .

وإذ أنتشت منه تَمَشى فى لحظها التيه . وكذاك يعلِّم الحسنُ الدلال .

وسالت لهذا الحسن ينابيعُ قلبها، وفاض بها فمضت تلتمس إناءً آخرَ تصب فيه. وكذلك يلد الجمالُ الحب، وكذلك أولُ ما يتعلم العذارى العشقَ فى أنفسهن .

وساقَها كالطير إلهامٌ مبهم. فهامت على وجهها من وادٍ لواد. إلى أن استقر بها المطاف عند حديقه الدار فوقفت .

وَرَنَتْ إلى بحيرةٍ مُخْضلَّة الشطآن هناك، وكان قد انعقد على مائها ضبابُ الفجر، فحجب براعم اللوتس النابتة على سطحها، وقابلتْ بين هذا الضباب وضباب نفسها ولم تفهم، وقابلت - ولم تَفهم أيضاً - بين قلبها المُغْمَض والبراعم. فارتمت على مقعدٍ قريب كنحلةٍ مَهِيضة الجناح .

ثم سطعت الشمس، وأخذت أشعتُها تتلصص خلال الغصون، وتمزِّق الأكمام من فوق البراعم الآمنة .

وراقبت الفتاةُ تفتُّحَها تحت أنامل الضوء، ثم أحست كأنما قد تسلل إلى صدرها شعاعٌ مماثل، وأخذ يفتِّح البرعم النابت فيه. وخيل لها أنها تستمع إلى صوت أكمامه وهى تتمزق، فتَسرق الأشعةُ أسراره المعطَّرة وتلقِى بها على جوانبه .

وفاح العطر من أعماق زيناتَ حتى وصل إلى أنفها فأسكرها، وفى غمرة هذه السكْرة حدثها بكل شىء، فلما انتبهت أيقنت أنها بدأت تدرك .

ورجعت بها الذكرى أربعةَ أعوام، حين كانت تجلس ومختاراً فى هذه الحديقة ينسقان الزهر الذى جمعاه فى البكور، وينْظمان منه عقوداً تُحَلِّى بها جِيدها، يومئذ كانت تحس فى جواره كأن شيئا يَسرق روحها، وعندما سافر خيل لها أنها شيعت هذه الروح، وصامت عن الأكل أياماً دون أن تدرى لمن نذرت هذا الصوم. كانت لم تلمس بَعْدُ الداءَ الذى تنتابها أعراضُه . كانت كبرعمٍ معصب العينين، يرتعش للسماتٍ لا يراها، ويهشُّ لأنداء يجهل كنهها.

ولكنها الآن تفتحتْ، وأصبحت تبصر ما خفى عنها من قبل. ومَثَّلَ أمامها

مختار . ولأول مرة لاحظت أن له قواماً جميلا، وعينين تَنْفثان السحر. وإذ كانت قد شُيعت روحها في أثره، فإنها الآن لَتُحِسُّ بأن عوْدته قد ردت إليها روحها .

وبَيْنَا هي جالسة تفكر، لمست ثغرَها فَرَاشة واختفت على الأثر. وخيل لها أن هذه الفراشة ليست إلا قبلة فرت من ثغر مختارٍ الباسم، وسافرت عَبْرَ البحار إلى فمها وزاغت في ثناياه، ثم استقرت بصدرها الذي يتناوح الشوقُ فيه، كشمعةٍ مضيئة تتذبذب في مَهَبِّه .

وكأنما خدشت هذه الفكرة حياءها، فجرد للنود عن نفسه جيوشاً من الدمِ راحت تنثر الورد على خدها. وكما يَخِفُّ الندَى ليكلل الأزهار، طفرت الدموع من عينيها وأخذت تكلل الورد الذي تَبعثر فيه .

ولم تكن هذه الدموع حباتِ اللؤلؤ التي تتزين بها لتستقبل دنياها الجديدة، بقدر ما كانت قطراتِ الشجن التي راحت تذرفها على فراق دنياها الأولى. وهكذا كانت على رغم انتشائها بالضياء، تحنُّ إلى عهد الغمض وتغبط البراعم المغْمَضَة، التي لم يَنزع النورُ برقُعَها بعد ويستبيح الأسرار المخبأة تحته. فراحت تأخذ من العطر الذي كان يفوح من مباسمها، وتلقِي إلى الرياح لتحمله إلى أراضي النسيان . ولكنها كانت كلما ألقت إليها بنفحة، فاحت من قلبها نفحات، فسدَّت أنفها لكيْلا تشم، وأخفت عينيها لئلا تَرى .

وأحسست كأنما تنوء بعبء ثقيل. وأى عبء أشق من أن يُدَلَّه قلب ! كانت تفهم بالغريزة أن طائر الحب لا يغنِّى وحده، فراحت تتساءل عما ينتوى الأليف، وهل يختارها لتشاركه الشدو، أم يَمزج أنغامه بأنغام طائر آخر؟ وفى هذه الحالة أتغنِّى أم تنوح؟

ثم إن فى الحب إثما إذا لم يُشْهِدا اللّه عليه، وما ينبغى لها أن تفعل فى السر ما تستحى من الجهر به. ولم يكد تفكيرها يتجه إلى هذه الناحية، حتى تفتَّح خيالها عن دنيا من الأحلام. فلاح لها وكْرُ الهناء. ولاحت لها يد المأذون وهى تُبارِك طائريه .

ولكنها لم تلبث أن قلَّبت يديها فى يأس، كان ثمة شىٌّ فى حياتها يجعلها تتوجس خيفة من المستقبل، وقفزت إلى فكرها «جلْفِدَ ان»، أختها العانس الدميمة، ورأتها وهى تَنبت كشوكة مهجورة فى حوضٍ للزهور، وودت لو كرِهت من أجلها الفَرَاش الذى لا يَعطف على الشوك. فأنشأت تحدث نفسها وتقول :

– محال أن أقيم إلى شفتىِ الكأس التى حرِمَت شرابَها أختى. نعم، لا أنا أرضَى ولا الأهل يرضون. وإذَن فما دمامة جلفدانَ إلا حرب علينا معا .

وتمنت لو باعت نصف عمرها وأتت لشقيقتها بخاطِب. ولكنّ الأزواج لا

يُشْرَون، وأشكل عليها الأمر ففزعت إلى ورعها التقليدى، وراحت تبتهل إلى الله أن يحل عقدتها. وعندما فرغت من صلاتها، كانت قد غمرتها سَكينة الإيمان .

* * *

وإنها لَتجيل بصرها فى الحديقة، إذ لمحت من خلال الغصون التى تعرش على السياج، ذَيْنِكَ الفتى والفتاة اللذين اعتادا أن يمرا من أمام منزلها فى الأبكار والأصائل، فيثيرا فضولها بما كان يغمرهما من سعادة تنمُّ عنها نظراتهما الحالة، وهمسهما الذى كان يتناهى إليها رشاشُه كما لو كان نُبَذاً اقتطعتْها النسمات من حفيف غصن بعيد .

لم يكُونا من سكان الحى، وإنما كانا يقصدان إليه من حى ناء، فيمن يقصده من الرواد الذين يبغون النزهة فى طريقه الخلوى الرائق، المشرف على النيل فى أبدع مجاليه .

كانا فقيرين . فالفتى قد مات أبوه من زمن ، ولم يخلِّف له من متاعٍ سوى ذلك المنزل الذى يقيم مع أمه فى طبقة منه، ويؤجر الأخرى «لأحمدَ أفندى» والد فتاته الحسناء. ومن كراء هذه الطبقة الضئيل، وكراء الحوانيت التى تتْبع البيت، كان يقتات «مصطفى» هو وأمه الأرمل العجوز. أما الفتاة

وكان اسمها «عفاف»، فلم يكن أبوها إلا موظفاً صغيراً بإحدى الشركات، لا يكاد يكفي مرتبه نفقاته الضرورية .

وكأنما ألَّف الضنك المشترك بين الأسرتين، فانعقدت بينهما أواصر صداقة متينة، سمحت للفتى والفتاة بالاختلاط فى أى وقت شاءا كما لو كانا أخوين .

وكان من أثر هذا الاختلاط أن لَمَس الهوى قلبيهما تلك اللُّمسة السحرية، التى تُشيع من خدَرها المقدس فى القلوب، ما يجعلنا نحس معه الحياة كما لو كنا تحت تأثير حلم لذيذ .

ولكنْ لمّا كان الوقار من طبعهما، فقد جاء حبهما من ذلك النوع العذرى المكتوم، الذى يُؤْثِر الانطواء على الجوى على التنفيس عنه بالغزل غير المباح. فكانا كلما التقيا على الضنى فنهاهما الحياء عن البوح، شرحا ما بهما بنظرات كلها صبابة، ثم افترقا وفى قلب كل منهما نار تستعر .

وكان مصطفى ينتظر بفارغ الصبر إتمام دراسته الجامعية، ليتحرر من أكبال فاقته المرهقة، وليسقِي زهور الحب النابتة فى قلبه بالزواج من عفاف، كيما تزدهر وتنضح حياتَه بالعطر. فكان لهذين الحافزين أثرهما فى إذكاء حماسته، فراح ينكبُّ على استذكار دروسه فى صبر ودأب. ولمَّا كان إلى

جانب ذلك متقد الذكاء، فقد جاز امتحانه النهائى بنجاح، وكان ترتيبه الأول بين أفراد فرقته .

وطار الفتى فرحاً بهذا الفوز، وأيقن أن المستقبل بدأ يبسم له، وأن وقت الفرح قد حان. وأخذ يستمع إلى صرير أبواب سجنه وهى تُفْتَح، فيُشْرف منها على عالم طليق، كله رياضٌ غُنٌّ، تزدحم أغصانها بالزهر والفاكهة، وتمرح فى أجوائها الطيور الغَرِدة .

وتحت تأثير ثقته بالمستقبل، وخوفاً من أن يسبقه غيره إلى عفافَ معبودة شباب الحى بأسره، بادر إلى التقدم لخطبتها . ورحب والدها بهذه الخطبة، لِمَا كان بين الأسرتين من ود قديم، ولِمَا كان يتكهن به من مستقبل باهر لجاره الشاب النجيب .

وبعد أن أتم قراءة الفاتحة مع أحمدَ أفندى ، لم يَبْدُ أنه كان على وجه الأرض أسعد من الفتى ومخطوبته، وقد بدآ يقيمان إلى شفتهما الكأس التى لبثا سنينَ طوالا يرنوان إليها فى ظمأ .

ومذ عقدت خطبتهما، كانا كثيراً ما يخرجان للنزهة على ضفاف النيل مارين بقصر زينات، حتى إذا ما تمَّت لهما الخلوة فى جوار شجرة تحجبهما عن الأنظار، أطلقا العنان لأحلامهما، وراحا يرقبانها تارة فى الفجر الوردىِّ وتارة فى ذهب الأصيل .

وكانت زيناتُ لا تكاد تلمحهما حتى تحس نحوهما بحنانٍ خفىٍ طالما

حارت في تعليله، فتظل تتابعهما ببصرها وهى تبتسم إلى أن يغيبا عنه .

وتوالت الأيام وزينــاتُ يأخذها الطرب كلما مــرا بالقصــــر، حتى لكأنها أصبحت كوكـــباً يـــدور فى فلَك سعادتهما. إلى أن كان ذلك الصباح الذى تفتح فيه قلبها وراح يبصر من الأضواء ما كان محتجباً عنه، أدركــتْ سر تلك الألفة المبهمة التى تربطها بذلك الزوج الســعيد من الناس، بالرغـــم من أنه لم يسبق لهــا به مــعـرفــة. ذلك أنهــا رأت فى منظــرهمـا يومـئـــذ ولأول مــرة تأويلا لتلك الرؤَى المختلطة التى كانت تُطِيف بقلبها مذ كانت حدثة، كما سمعتْ فى نجواهما تعبيراً عن نغمات كانت ما تنفك تجيش بصدرها حبيسة، ولا تجد القوس الذى يخرجها إلى الوجود .

فلما أدركت ذلك ازدادت شغفاً بهما، ولم تملك حين وقع نظرها عليهما إلا أن لوحت لهما بيدها محيية، ثم عادت وهى أخجل ما تكون لإقدامها على هذه الفعلة الجريئة، ولبثت وقتاً غير قصير قبل أن تهرب الحمرة التى صعدت إلى خدها .

أما العاشقان فلم يتمالكا أن أومآ لهذه الفتاة الظريفة، التى طالما لفتت نظرهما وغبطاها على جمالها وغناها. ثم واصلا سيرهما، تشيعهما بين آنٍ وآنٍ نظراتُ زيناتَ وهى تنساب متواريةً بين تلافيف الشجر .

* * *

الفصل الثانى

فى الوقت الذى كانت فيه زيناتُ فى الحديقة، كان أبواها يتشاوران فيما ينبغى أن يكون عليه الاحتفاء بمختار. واستقر رأيهما على أن تستقل الأسرة قطار المساء إلى الثغر، فتبيت فيه ليلتها ثم تستقبل سوسنَ فى الصباح، وتعود بمختار إلى القاهرة .

وهنا قال «رمزىٌّ باشا» :

– حالَما تنتهى أيام الضيافة، يجب أن تسافرى إلى الضيعة بحجة تبديل الهواء، وتصحبى معك زينات .

ورفعت «شريفةُ هانم» حاجبها متسائلة، على حين استطرد الباشا :

– على أن مُقامكما هناك لن يستغرق إلا ريثما يبحث مختارٌ له عن سكن خاص . وأظنك معى فى أنه لا وجه لأن يقيم بيننا بعد الآن، وفى البيت عذراء فى جمال زينات. أجل، فيما مضى كانا فَرْخَيْن لا خوفَ عليهما من الجوار، ولكنْ الحمامة نَبَت ريشها، كما برزت مخالب الصقر، وما أظن أن عشّاً واحداً أصبح يصلح لإيوائهما .

وكانت مفاجأةً للسيدة راحت بعدها تقول :

- ولكنْ ألا يحزنك بُعْد مختار؟ ألم يكن بمثابة ابننا؟ ألم يَسِلْ لطفولته حناننا؟ كيف نتخلى عمن احتضناه صبيا فى المهد؟

- لأننى لا أريد أن أتخلى عن ابنتى. لقد أدينا واجبنا وربينا الصقر مع الحمامة، فبقى علينا واجبٌ آخر، هو أن لاندع الحمامةَ يأكلها الصقر. ولعله من حسن الحظ أن مختاراً لم يعد بحاجة إلى حدبنا بعد أن كملت رجولته. كما أنه غنىٌّ عنا بما ورثه عن أبيه .

أراك تسرف فى الاحتياط يا رمزى. أنسيت أن لزيناتَ من ورعها تميمةٌ تقيها نَفَثَات السحر؟

لا شيءَ يقى من السحر على الإطلاق. حتى التمائم التى تُجْدى مع الجنّ لم تُجْدِ معه . ذلك أنه أحمى من الجِنَّة أنفاساً وأسطع لهباً . وصرعاه يستدرجهم نوره حتى يحرقهم فيه. مثل الفَرَاش يجذبه الصباحُ إلى حتفه. فلا سلامةَ إلا فى البعد عنه وإن شق البعاد. ومن أجل هذا اعتصم النساك بالجبال، لأنه كان من غير الممكن أن يَعْصبوا أعينَهم أو يقاوِموا. ذلك هو ،لسحر لا ينجو من نفثته أحد. بل لعل أكثر الناس تعرضاً لغزواته الورعون، لأنهم لا يتنفسون فتنتفخ صدورهم بالشوق الحبيس، وعندئذ تكفيهم غمزة إبرة ليندفع يبغِى المتنفَّس، فعلَى الورِع قبل سواه أن لا يَرى، إذا رغب البقاء فى محرابه، وإلا فما أسهل أن يخرجه الحسنُ من معبده، كما أخرجتْ حواءُ

من الجنة آدم. وأنا أعرف رهباناً أحبوا، وآخرينَ ماتوا شهداء غرامهم. ومن ثم فخيرٌ لنا أن لا نضع النار بجوار الحطب، من أن نجمع بينهما ونقول للحطب لا تحترق .

وجذب الباشا نفساً من لفافته ثم استطرد :

– ومما يجعل المباعدة بين الطائرين أوجب، ما كنت ألْمحه من دلائل الوجد في عينيْ مختار، لقد كانت نظراته تنطق بأنه ذاب في سحرها، وعندما سافر لم تَخْفَ عني بُرَحَاؤُه. وما طمأنني إذ ذاك إلا علمي بأن قلب زيناتَ كان يتحصن وراء طفولته، فكانت صبابات الفتى تَفنى عليه قبل أن تخترق شغافه . ولولا ذلك، وما كانت تلمسه عيناى الخبيرتان من دلائل الطهر في حب مختار، لفدح الخطب وجُن جنونى خوفاً على ابنتى. ولعل مخاوفى تلك هى التى جعلتنى أُزين له إتمام دراسته في لندن، بحجة أن الاغتراب يزيد في اطلاعه. آه، ما أشد فجيعتى في حبه، حين ثارت نقمتى عليه !

فهتفت السيدة فى استنكار :

– ولكنك لم تكاشفنى بذلك فى حينه !

– ما أحسب أنْ كانت بكِ إلى مكاشفتى حاجة. فعهدى بالنساء أقدر منا على كشف خفايا القلوب .

– هب ذلك، أفما كان يجب أن تشاورنى فى الأمر؟

– كلاً . لقد فضلت حَذَر الخلاف أن أستقل بحسمه. فإنكن معشر النساء أقل بصراً بالعواقب، وإن كنتن أسرع فى الفهم .

– أراك كثير التوجُّس من هذا الحب .

– ذلك ما ينبغى .

– ولكنْ عَلاَمَ الجزع والنبتة قد غُرست فى أرض طيبة؟ أيمكن أن تُنتج إلا الريحان بذرةٌ نَمَتْ فى قلب هذين الطاهرين؟

– وهذا ما أزع منه. لأن هذه النبتة لن تداعبها النسمات. إن العواصف لتترصدها لتقتلعها من أرضها غصةً، وتَذْروها فى الفضاء أشْلاء .

فسألته وقد تجهم وجهها :

– ماذا تعنى ؟

– أعنى أن الشقيين هيهات أن يجمع بينهما رباطٌ حلال .

– ولمَ؟

– فكَرى قليلا. اذكرى جلفدان .

وراح يذرع الغرفة ذهاباً وجيئة. على حين امتقع وجه السيدة، لأنها تذكرت أمراً طالما فرت من مواجهته .

أما الرجل فما لبث أن تابع حديثه قال :

– أجَل، إن زواجهما محال قبل أن تتزوج جلفدان. فحرامٌ أن نقيم عُرْساً في بيتٍ به عانسٌ تتشوف .

فقالت كمن تتعلق بخيط واه :

– ولكنْ في وسعهما أن ينتظرا .

– الانتظار يَشُفُّ المحبِّين إذا عَفُّوا، ويهوِى بهم إنْ تبذَّلوا. ما ينبغي أن تطول الفترة بين شبوب الحب والزواج .

ثم استطرد وهو مطرق كمن يحدث نفسه :

– إيِ والله حرام، أن تكون الصغرى العروسَ ومن تَكْبرها متفرجة. لهفي عليك ياجلفدان ! لَكأني بك عندئذ وأنت تنصتين إلى موسيقَى الزفاف، قد انقلبت أنغامها نائحةً في نايك الحزين، فانتحيتِ بنفسك في ركنٍ منعزل، وأخذت تستمعين إلى ولْوَلَتِه وحدك. وكأني بهاتيك الشموع المُوقَدة بدلا من أن تُنْر قلبك، قد عَكستْ عليه من دون القلوب ظلالها السود، وأقامت في نواحيه مأتما. كلا يا ابنتي. يا طائراً خُلق بغير جناح، ويا قلباً يَدقُّ بلا أمل، لن اعترض بالأفراح جنازةَ أملك . ولَتلبسنَّ عليه الحداد حتى نموت، أو تنقلب الجنازه عرساً بمعجزة .

* * *

وفى هذه اللحظة دخلت جلفدان. كانت تَسقط على وجهها الشاحب، تلك الأشعةُ الصفراء التى تُسيلُها الآمالُ الغاربة. وكان فى نظراتها الذابلة، ذلك المعنى الفانى الذى يوحى به الغيب. لم تكن فى البنات بزهرة، ولكن كانت لها رغبات الزهور. فكانت تنظر إلى الزهور المدللة وتتحسر. وكانت كلما لاحت لها منهن جميلة، أحست بجرج يدمِى كبرياءها. فانتبذت من الزهر مكاناً قَصِيّا . وكانت تمرّ بها فى عزلتها الطيور، فلا تقف ولا تتمهل، وسرعان ما تختفى آخذة معها لبُّها. كان كل شىء يوليها ظهره، لأنها لم تكن تسترعى انتباه شىء. وكانت الآمال تولد فى يديها مفقودة، لأن كل شىء كان يمضى سريعاً فى حياتها. عدا أيامها الملة، فهى الوحيدة التى كانت تبطئ، فكانت حياتها كليْلةٍ لا فجْرَ لها . فلما طال بها الانتظار، انعقدتْ بينها وبين السأم صداقة، حتى لَكأن الكآبة قطعة من ملامحها. كانت تمثالا ناطقاً للصبر والعذاب. وكانت فى وجومها وصمْتها أشبه شىء بتلك التماثيل الحجرية، التى ترمز إلى فكرة ثابتة لا تتغير فكان الناظر إليها يخيل له أنها ليست إلا تمثال امرأة ماتت من زمن. وفى الحق أنه من التجوُّز الكبير أن نعتبر جلفدان من الأحياء .

وسألتْ العانسُ فى صوت حزين :

– أحقًا أبتاه أننا سنسافر اليوم؟

وأجاب أبوها :

- نعم، فى قطار المساء .

وعادت تسأله :

- ومتى يصل مختار ؟

وفاهت باسْمه، وبدا أنها تتعذب. لقد كان أحدَ الآمال الغاربة التى مرت بها واختفت فى وادى العدم. لقد عَبَر بها كسواه من الآمال، ولكنها كعادتها نفضت يدها منه قبل أن تحاول إمساكه. كانت تشعر أن الحب محرم عليها، فلم تقربه ولم تحترق بناره، ولكنها كانت تكتوى بنار أخرى أشد لهبا، هى نار الظمأ إليه، وهى نارٌ صفراءُ كالعذاب المرتسم على وجهها، خالية من ذلك اللون الدموى الذى يصبغ نار الحب، وينبئ عن ثورة وحياة. نارٌ كالمغيب كلها موت .

ورفع الوالد إليها بصره، وأخذ يعبُّ من ذلك الألم الذى تعانيه، وكأنه يكفرٌ عن عجزه أمام دمامتها.

ثم أجاب :

- فى صباح الغدِ تصل الباخرة .

- حسناً. هل أهيئ معدات السفر ؟

- نعم يا ابنتى، باركك الله .

ثم أدنى فمه من جبينها الكابى، وفى قبلةٍ نائحة كتلك التى تطبعها الريح

على غصن ذابل، سَكب فوقه حسراته .

* * *

وخرجت جلفدان. وسادت فترة صمت، راح فيها والداها يتبادلان النظرات الكسيرة. ثم قالت شريفةُ هانم وهي تمسح دمعها :

– وهل تصحبنا جلفدانُ إلى الضيعة؟

وأجاب الباشا :

– الأمران سيان. جلفدانُ هنا أو هناك في مأمن .

قال هذا وأحَس أنه خدش كرامة ابنته، لقد صرح بأنها أهون من أن يلحقها أذى. وغُصَّ حلقه بهذه الجملة التي فاه بها عفوا، وزاد من ألمه أن الضحية كانت غائبة، ولا تستطيع الذود عن نفسها ولو بنظرة عتاب، على أنه تذكر أنها لم تكن مما رماها به في نجوة، وأن الكل في لحمها ينهشون. فأدرك أن الجرح الذي بها قديم، وأن الأقدار قد سبقتْه إليها به. ومع ذلك فقد ندم على أنه اشترك في طعنها. كان يود لو تعفف هو على الأقل عن ذلك، فنهض وهو محزون الفؤاد، وجعل يُصعِّد الزفرة تلو الزفرة، كأنما ظن أن الزفرات تقتلع الهموم .

* * *

والتقى بزيناتَ فى البهو، كانت فى نضارتها تحكى الغصنَ الرطيب. وكان السحر من حولها كالسنا من زهرة، كانت بمثابة ترضية من الطبيعة عما حَرَمَتْه أختَها .

ورآها وكبَّر للّه. وخاف عليها من نَفْث العُقَد، وهَمَّ بأن يتلو فوقها التعاويذ. وأحس بأن جمالها يكلفه من رعاية الأب الكثير. ولكنه لم يأسف، فكأىٍّ من أبٍ سِيمَ الأذى من ابنه وهو قرير .

ثم قفزت إلى ذهنه جلفدان. كانت كفسوخةٍ فى جبين أختها. فراح لسان حاله يقول :

– واحسرتا ! يُعْوِزُها الجمال الذى يكبدنى السهر عليه ! ألاَ ليته لم يعْوزها وكبَّدَنى، ألا ليت !

ومَثَلت أمامه ابنتاه . فأشفق على جلفدانَ من الجِراح التى يحْدثها بها جمال أختها، وتمَنَّى لو لم تكن زيناتُ ابنته فكرهها. ثم عاد فأشفق على هذه وقد جرجرها نحس الأخرى فى ذيوله، وتمنى لو لم تكن جلفدانُ ابنته فكرهها. وهكذا حار أىَّ الابنتين يحابى، وعجز عن الفصل فى قضيةٍ كِلاَ الخصمين فيهما ولدٌ له .

ولم يكد يفيق من خيبته، حتى أمسك بخناقه ذلك الإشكال الآخر، الذى بدأ يحتل له مكاناً من فكره مذ أزفت عودة مختار، وهو كيف

يقصيه عن بيته حينما يعـود؟ هــل يصــارحـــه بالحقيقـــة على ما فيهــا من غضـاضـــة، أم ينتحـل له ســببـاً آخـر؟ وفــى هذه الحالة مـاذا يكون ؟ فلمـا لم يوفق إلى حـل، انصــرف عن التـفكيـر فى ذلك أيضـاً، وترك حله للزمن .

* * *

الفصل الثالث

وسْط ضباب الصباح، كانت تسير الباخرةُ سوسن. مختالةً تحت علَمها المصرى .

وكان بين الوقوف على ظهرها شاب يخيل للناظر إليه أن عينيه تخترقان الحُجُب. كان يبحث عن شىء فى الغيب، ويود لو بمعجزةٍ رآه. ولعل النور غْير المنظور الذى كان يبعثه هذا الشىء فيبْلغ قلبَه، أَصدق دليل على أن المعجزة تحققت .

ولو أنك تعقبتَ حبل النور الذى كان الفتى مشدوداً إليه، لرأيت فى نهايته شيئاً عجَبا : فتاةً فى ربيعها الثالث عشر، جالسة إلى فتى فى عامه العشرين، ينسِّقان الزهر فى بستان. وفجأة تمر فوقهما أربعة أسراب من العصافير، فتحجبهما كما لو كُنَّ أربعَ غمامات . ثم تنقشع الغمامات فإذا الفتى والفتاة كلٌّ أكبر من سنِّه بأربعة أعوام.

وأوَّلَ الحالمُ رؤياه فكان هو الفتى وزيناتُ الفتاة . وكانت العصافير السنين. فقال يحدث نفسه :

- إذَن لقد كبرت الحسناء الصغيرة، ونفضَت السنونُ أنوثَتها. وها هى ذى تفور على جسدها كما يفور الزَّبَد على حِفَاف الكأس، وتنبثق منه كما

تنبثق الفاكهة. وآية ذلك صوتها الجياش، وصدرها الناهد. وأراها وقد تعلمتْ من الدل ما لم تكن تعلم، وزادت سهامُ عينيها مضاء .

وتوقف ريثما يبتسم طرباً، ثم استطرد :

– بروحى أنت زينات ! فلْتجرحنى كما شاءت سهامك، فمنذ سنينَ أشتاق لهذِى الجِراح. ولكنْ ماذا من أنباء قلبك؟ أتعلَّم الهيَمان وبمن يهيم؟ أبمن كَتم فلمْ يخْفَ عنك سره؟ أم بسواه لكِ بالسر باح؟ أم ما برحتِ خليَّة القلب كما خلَّفتك؟ وعندئذ فمن السعيد الذى سيشغله؟ وهل أكون أنا هذا السعيد؟

وجعل يفكر : منذ سنينَ كان يمسك فى مصرَ كأس الهناءَ، ويوشك أن يدنيها من فمه، فإذا بالقدَر ينتزعها منه قبل أن تمسها شفتاه. فهل ضنَّ الزمان بها عليه والزمان ضنين؟ أم أنه أرجأها ليوم لم يكن حان ؟ كان يتحرق شوقاً لأن يعرف. وخيل له أن السفينة تبطىء فى السير. وود لو استحثها لتسرع، أو استعار للوصول جناح طائر .

* * *

وفى الضحى دنت سوسن من الثغر. ورآها المستقبلون منه كنقطةٍ من دُخان. ودقَّ قلبُ زيناتَ دقًّا وحشيا. وخيل لها أنها تعتقل فى صدرها طائراً بريًّا، وأنه ما ينفكّ يَضرب بعنفٍ أسلاك القفص ليحطمها ويخرج .

ومن مكانه أخذ مختارٌ يصوب بصره إلى الشاطىء. وكان يرسله بحدَّة، لعله يَختزل تحته المسافة الباقية ويسقط على الأشباح البعيدة قبل الأوان .

* * *

ووقفت السفينة بعض الوقت ريثما تُتخذ إجراءات الشرطة. وفي هذه اللحظة تمنى مختارٌ لو وصل إلى البر سبْحا. وبعد مدة خالها سنين، واصلت سوسنُ السير على مهَل، كأنها عروس تتهادى في مشيتها. ودق قلبُ زيناتَ مرة أخرى، وأجابه من البحر قلب مختار .

* * *

وظلت تقترب وكِلاَ القلبين تسرع دقاته، إلى أن أصبحت على مسافة بدأ معها الركاب يميزون وجوه مستقبليهم. ولَمح مختارٌ بينهم ضوءًا يسطع ويختفي كأنه خفْق نجم . وخاله أول الأمر ألِيقَ خاتمٍ من ماسٍ في يدِ حسناءَ .درت منها حركة. ثم تَبينه فألفاه زينات، تلُوح في الفترات بين الجمع. وكانت كما رآها في حلمه وهو على ظهر المركب، عروساً مكتملة الأنوثة. .إذَن لقد تَفتَّح البرعم الذى خلَّفه مغْمَضا، وأصبح يعرف كيف ينْفُث سحْرَه ـع ورقه، ويبعث أسراره خلال عبيره. فلم يتمالك أن هتف :

– يا حبًّها !

لقد فرح بها عندما رآها وقد زادت بهاء، لأن جمالها كان ينعكس على دنياه، فيجعلها تبدو حلوةً عَبْره. ولم يجْفل منه عندما ألفاه وقد أصبح أقدر على أسْر لبه، لأنه كان يستعذب هذا الأسر، ويرى بين قضبانه عالَماً أفسح من الحياة. ولا هو أشفق على قلبه من الجِراح التى كان يزمع إحداثها فيه، لأنه كان يعلم أن ربَّتَهَا ستعيش فيها، وتنْقل بين آنٍ وآن قدميها المحبوبتين، على نغم الألم العذب الذى تبعثه .

* * *

ولمحته زيناتُ بدورها. ورفرف بين ضلوعها الطائر، واهتز به غصنه فهزها من الفرع إلى القدم .

* * *

ورسْت السفينة. وأسرع مختارُ يهبط الدرَج، ولم يكُ فى هبوطه وئيد الخطا. ثم أقبل يصافح مستقبليه. وكانت زيناتُ آخرَ من صافح، لأنه شاء أن لا يلقاها وهو مشغول بالتأهب لتحية غيرها. وكانت هى قد انتحت بنفسها جانباً، كأنما قصدت أن لا يخلطها بغمار القوم، وأن يوليها حفاوة خاصة .

وعندما تلاقت عيناهما، تبادلتا أداء الرسالة التى كانا يتلهفان عليها. وتم ذلك خفْيةً وفى مثل لْمح البصر. وهكذا تسعف العشاق عيونُهم عندما يمنعهم الحياء من البوح، أو يضيِّق الرقيب عليهم الخناق. ولقد كانت رسالة وافية، أجابت عن كل ما راح قلباهما يتساءلان عنه، وبددت ما كان يساورهما من شك. ولاعجب فلَئِنْ عجزت عن التعبير لغة الكلام، فإن لغة العيون لا تعجز. وإذَن فلقد ارتبط العاشقان أمام نفسيهما، ولم يبقَ إلا أن يرتبطا أمام اللّه. وما إن وصلا إلى هذه النتيجة، حتى كان الإجهاد قد بلغ أقصاه بالطائر المرفرف بين جنبىْ كل منهما، فلَوَى مؤقتاً عنقه ونام، وبدت آثار أحلامه السعيدة فى عينيهما .

* * *

وفى القطار، وقف مختارٌ وزيناتُ يطلان من الشباك. وكانت النسَمات لا تفتأ تحرك خُصَلات شعرها فتعبث بجفنه، وتحمل إلى أنفه رائحة العطر المُطيَّبة به. فخيل له أنه يحلم، وأن هذه اللمسات الرقيقة ما هى إلا دبيب الأطياف التى تداعب كَراه، وذلك العطر إنْ هو إلا أنفاسها. على حين أخذت زيناتُ تبصر فى المروج الخُضْر فردوسها الموعود. وترى أحلامها الذهبية منثورة على حقول الحنطة المهيأة للحصاد، وقد زادتها أشعةُ الشمس شبَها بالذهب .

* * *

وفى النافذة المجاورة لهما. كان يقف شخصٌ آخر يطل على المنظر نفسه، ولكنّ شيئاً منه لم يلفت نظره إلا اصفرار الشمس التى كانت تنحدر للمغيب، يشيِّعها طنين السواقى النائحة، الذى يبدو كأنه أنين شيخ عليل، أخذ يتوجع فى خمولٍ خليق بهيكله الواهن. كان هذا الشخص جلفدانَ التعسة، أثارت عودة مختارٍ فى نفسها ذكرى آمالها الضائعة، فوقفت ترقبها فى انحدار النهار، وتستمع لصداها نُوَاح السواقى .

* * *

وكان رمزىٌّ باشا لا ينفك ينظر وهو متجهِّم الوجه ناحية الشباك الذى كان يقف إليه الحبيبان. ولما طال بهما الوقوف وطال قلقه معه ، دعا زيناتَ لتطالع له بعض الصحف، وبذلك أراح من العذاب فؤاده .

ولم يجد مختارٌ بداً من أن يوجه الحديث إلى جلفدان فحدثها حتى أثار شجونها، ثم لم يلبث أن قادته قدماه إلى حيث ذهبت حبيبته، فجلس قبالتها يخالسها النظر بين لحظة وأخرى. وفى كل مرة كانت تلتقى فيها عيناهما، يتبادلان رسالة جديدة، توثِّق العهد الذى أخذاه على رصيف الميناء .

وكثيراً ما كانت نظراتهما تقع فى الفخ الذى كان ينصبه لهما الباشا من تحت منظاره، فيرتبكان فى مقعديهما .

* * *

ودخل القطار القاهرة مع الليل، وشعر مختارٌ والسيارة تجتاز به مدينة أحلامه، وتجوس خلال شوارعها المنوَّرة، بأن تلك المصابيح القائمة على الجانبين، ما هى إلا أطيافٌ لآلافٍ من الشموع أُوقدَتْ بقلبه، وبأن تلك الضوضاء التى تحْدثها المارة، إنْ هى إلا أصداءُ لحفْلٍ حاشد أقامه. وما إن رأى نفسه عند باب عشه القديم، حتى طالعه منه عطرٌ معروف لفؤاده، وهو عطر الياسمينة التى تمرش على السياج . فهمَّ من مقعده يترنَّح كمخمور.

أما زيناتُ فكان الناظر إليها وهى تهبط من السيارة، يرى على رغم الظلام طيفَ ابتسامة ارتسمت على ثغرها. ذلك أنها لَمحت العاشقين الفقيرين يسرقان بعض الياسمين المطل من خلال القضبان وهما عائدان من رحلتهما اليومية، كما يَسرقان خلواتهما من عمر الزمان. فطربت لهذا الضرب البرىء من السرقة. ورقصت لعينيها ساعاتٌ حلوة مماثلة، تمنت لو سرقتْها هى الأخرى وعاشتها .

وإذ ولَجَ مختارٌ باب القصر، راح يطوف بحجراته حجرة حجرة، يستلهمها ذكريات هواه حين كان فى فجره، ثم انتظمه المجلسُ الذى انتظم زيناتَ وأسرتها .

ما أسعده ! إنه الآن معها فى مكان واحد. يستطيع أن يُغْفِى على لحْظ عينيها الناعس فى كل وقت، ويسكر على نغمات صوتها الحنون. ومما يزيد فى قيمة هذه السعادة، أنها جاءت بعد ظمأ أعوام، وتبشِّر بما هو أعظم.

ذلك أن نظرات الفتاة إليه – تلك النظرات المفعمة صبابة – كانت بمثابة خيوطٍ من الرجاء يَرى في نهايتها حلمه . كما كانت بسَماتها له، كنوافذَ تتفتح أمامه عن ذلك المستقبل الجميل، الذى يتألق وسطه عشٌّ الزواج، وقد بدا وكأنه مشيَّدٌ من بِلَّوْر، أو من نورِ فرْحةٍ فرت من قلب. بهذا راح مختار يناجى نفسه وكثيراً ما أذهلته نشوة السعادة التى كانت تغمر قلبه، عن حديث عمه الطويل. والأسئلة الكثيرة التى كانت زوجته لا تكفُّ عن إلقائها .

وعندما أوى إلى مضجعه، لم يغْمض له جفن. ولو أن عينيه شقَّتا الجدران، لألفى زيناتَ مسهَّدة فى مضجعها مثله. ولكنْ بما أن النوم يقصى الحبيبَ عن فكر الحبيب، وإنْ زوَّر عليه أحياناً فى الرُّؤَى طيفَه، فقد بدا على العاشقيْن أنهما سعيدان بسهدهما .

* * *

الفصل الرابع

في صباح اليوم التالي للعودة ، بكَّر مختارٌ في النزول إلى الحديقة، فهبطها وما تزال الأنداء تُخَضِّل زهرها، وفلولُ الليل تلثِّمها بالضباب، ثم قصد إلى المقعد الذى اعتاد أن يجلس عليه هو وزيناتُ أيام طفولتهما .

وكان هذا المقعد يشرف على بركْةٍ منعرجة الشواطىء، تنتهى إلى غدير يسير ملتوياً وسط مساحات العشْب الواسعة. وكانت تَنبت على جوانبها حُزمٌ ملتفة من أعواد الخيزران، فتطبعها بطابع البرِّية. وتتخللها جزر مخضرَّة، بُعثرت فيها على غير اتفاق. وكانت كلما تجاورت منها جزيرتان، انحصر بينهما مجرى يغيب ماؤه وراءها، فلا تدرك العين منتهاه. فكان مما يزيد في جمال هذه البركة، أنها لاتدعك تبصر آخرها، فيظل أمامك دائماً شيء تتوق إلى أن تراه، وتستطيع أن تتلهى بتصوره. وكثيراً ما كنت تلمح بطة تمرق في مجرى وتختفى خلف جزيرة، فلا تملك إلا أن تتابعها بخيالك إلى حيث اختفت وترسم لها من الصور ما حلا لك، فكنت أيان جلست إلى هذه البركة، تفتحتْ أمامك آفاق من التأمل لا حصر لها.

وفى كلٍّ من البركة والغدير، كانت شجيرات اللوتس تخترق بسيقانها الماء، ثم تطل بزهرها على سطحه، فيبدو كأنه مرصع بأحجار كريمة. وكان

مايود ان تبصر على زهرةٍ من هذه، عصفوراً واقفا يترجح فوق الماء، وفجأة ينشر جناحيه ويطير. أو سَرِيَّةٌ من النحل تحُوم حولها وتَئِزّ .

* * *

إلى هذه البحيرة جلس مختارٌ وأخذ يترقب حضور زيناتَ كأنما كانا على موعد. ذلك لأنه كان يتلهف إلى جلْسَةٍ معها على هذا المقعد بعينه يَصِلُ بها ما انقطع من ماضيهما. ولقد يؤدى شغف المرء بأمنيته إلى أن يحسبها حقيقة واقعة .

فلما انقضى وقت طويل ولم تحضر، عزا ذلك إلى خجلها، وراح يحن إلى عهد طفولتها البرئ، أيامَ لم يَحُل دون لقائهما شيء. وتمنى لو عاد به الزمن إلى الوراء أربعة أعوام، ورأى نفسه جالساً إلى جوارها دون تحفُّظ، يلعبان ويمزحان تحت سمع الأهل وبصرهم. وبدأ يشعر بأن تَرعرعها وإن كان قد أنمَى فى طريقهما الورد، قد أَنبت الشوكَ فيه .

ولكن، هل كل ما كان يمكن فى الماضى أصبح يستعصى الآن؟ إنه يستطيع على الأقل أن ينْظم لها عقداً من الياسمين كما كان يفعل، وبهذا يُرضِى بعض كلفه بهذا الماضى الحبيب. وقام فجمع منه حفنةً وجلس ينضِّدها فى خيط أعدَّه من سعف النخل .

وكان بين حين وحين يرهف السمع لعله يَسمع وقع قدميها فوق مماشى

الحديقة، كما كان يسمعه أيام كانت طفلة تَرْكَبُ رجْلها وقتما تشاء، ولكنّ هاتين القدمين اللتين أصبحتا أرزن من أن توافياه في كل وقت، طالت غيبتهما عليه، وأبتا أن تُسمعاه أحلى نغماتٍ دقّ لها قلبُه. واستبد به الشوق وتصوَّرَ قدميها، وكم هما صغيرتان وجميلتان، وود لو يقبِّلهما ويبكى .

وفى هذه اللحظة أطلت زيناتُ من الشرفة ورأته وهوَ ينظم العقد، فأدركت أنه لها وراحت تتبسم. لقد سرَها ما رأت من اشتغاله بشأن لها. وتاقت إلى أن تنزل إليه فيلبسها إياه كما عودها فى سنين خلت، ولكنّ الحياء عاودها فبقيت فى مكانها من الشرفة. ولو ذهبتْ لسبَقها الحراس إلى هنالك، لأنها كانت مذ عاد مختارٌ محوطة برقابة ما برحت تجهلها .

وكان الفتى قد أكمل تنضيد العقد وجعل يتأمله. وبحركة غريزية راحت هى أيضا تتأمل جيِدها، وكأنها تَعدُّه للبسه .

* * *

وكأن شعاعا منها نبهه فحانت منه نظرة إلى أعلى فرآها.

فانتفض ولوَّح لها بيده محيًيا، فردت له التحية بإيماءة عذبة من رأسها الصغير. ثم أشار إليها أن توافيه، ولكنها هزت كتفيها برشاقة وظلت حيث هى .

وكأنما كانت هذه الحركة بمثابة نداء حارٍ ألهب الجذوة فى قلب مختار، إذ لم يلبث أن وجد نفسه وقد نهض من مكانه وأخذ يصعد إلى الشرفة ويتقدم نحوها .

ولم تكد تراه حتى حدَجته بنظرة حادة، هى مزيج من اللوم والترحيب، وكأنها تقول له :

– لماذا حضرت؟ إنها جرأةٌ منك . غير أنى أشتهيها .

وصافح يدها البضة. وود لو رفعها إلى فمه فلمستْها روحُه الظمأى، تلك الروح التى كانت وقتئذ قد بارحت وكْرها وطارت ترفرف بين شفتيه. ولكنه ألفى نفسه يرخيها فى حزن، لأنه لم يشأ أن يكون لصاً. حقيقة أن الفتاة تَهَب قلبها حين تُحِب، ولكنْ جسدها يبقَى ملْك شرفها. وهو يظل كذلك حتى يتسلمه حبيبها على يد المأذون .

بهذا ناجاه ضميره. غير أنه ما لبث أن راح يتساءل :

– ولكنْ ما لِلقبلة وللجسد؟ إنِ القُبَلُ إلا تحايا الروح للروح. فى روحى، أحس فعْل الجاذبية مذ شُغِلْتُ بزينات، فلابد أن يكون فى روحها سِر المغنطيس. فأنا إذ أقبِّلها أقبِّل هذا السر. أقبِّل الروح .

قال هذا وعاد يرد على نفسه :

– ولكن أكانت تَشُوقنى القبلة لو لم تكن يدها بهذا الجمال؟ أفَلسنا إذَن نقبِّل الجسد فيما نقبِّل؟ حقيقة إن الأرواح تتلامس، ولكنها تتلامس خلال

الأجسام . وهى لا تنفذ إلا خلال أجسام جميلة، فيها من الشُّفوف ما يمكِّن للإشعاع. فكأن للجسد دوراً يلعبه. وكأنه وقد حوى عطْرنا بمثابة الورق من زهرة. ومن ثم فنحن نقبِّل الجسد مع الروح. نقبِّل هذا المزيج الذى لا يتحلل أبدا . وجسد زيناتَ لم يصبح بَعْدُ ملكى .

* * *

مرت هذه الخواطر بذهنه فى مثل لمح البرق. ولعل الحركة الغريزية التى حدَت به إلى أن يرخى يد الفتاة، كانت نتيجةً لسبْق تواردها فيه، قبل أن يتناولها بالتمحيص من جديد. وفى الواقع إن كل شىء قد مر بغرائزنا من قَبْلُ وتركَ أثره فيها. وهذا الأثر يبدو فى تصرفاتها الحاسمة، التى تأتيها عَفوَ الساعة ودون تدبر. وما الرويَّة إلا طرحٌ جديد للمسائل على بساط البحث، غالباً ما يؤدى إلى نقض ما سبق أن اهتدينا إليه من صواب. لأن من دأب العقل إذا تفلسَف، أن يمهِّد لخطئه بسلسلة من المقدمات، قد لا تعدم بينها حلقة مفقودة، تفسد عليها ما تحرر من نتائج. فلو أن مختاراً لم يكن من التوفيق بحيث خرج من بحثه بمثل النتيجة التى خرجت بها غرائزه دون بحث، لكان من الممكن أن يقف عند قوله بأن القبلة شىء روحانى بحت، ثم يغيب عنه ما بقى من عناصر *المسألة*، وبذلك يُقْدم على تقبيل زينات، ويرتكب شططاً قد لا يقرُّ به عقله، ولَكنّ ضميره لا يفوته أن يحس به ويؤنبه عليه .

غير أن مختاراً لم يفكر. أو هو فكر بعد أن اتخذ قراره وفقاً لما أشارت به غرائزه. ولعل من حسن حظه أنه فعل، فليس يهوِّن ارتكاب الجريمة كالتفكير فيها. لأن التفكير فى الشئ ما يلبث أن يوطن النفس عليه. ولو أننا وقفنا دائماً عند حد شعورنا بالاشمئزاز من الإثم، ولم نتورط فى مناقشة الأسباب، لما ظهر بيننا مجرمون .

* * *

على أن مختاراً وإن كان قد انتهى من تفكيره إلى أنه أصاب عندما أرخَى يد حبيبته وحرم على شفته تقبيلها، فإنه لم يجد حرجاً فى أن يرفه عن نفسه بالغزل البرئ. ولم يأبه لرأى القائلين بأن الاستمتاع بالنظر حرام، لأنه كان يعتقد أن النظر الخالص عذاب، والعذاب مَطْهَرٌ لا يأتيه الدنَس. ومن ثم فقد دنا منها وراح يُزْلِقُ فى رأسها العقد، حتى إذا ما استدار على جِيد من خام، تراجَع قليلا ووقف يتأمله .

وغمر زيناتَ شعور من السعادة، نمَّت عليه بسمةٌ تلألأت على ثغرها. ولمَ لا تفرح؟ فيما مضى ألبسها عقوداً كثيرة، ولكنْ واحداً منها لم يحمل ذلك المعنى الذى راح يحمله هذا العقد. ذلك أنها وقد أَحبت باتت تَرى فيه شبْكة الزواج .

وإنهما لغارقان فى نشوتهما، إذ شعرا كأن عينينِ متَّقدتين ترمقانهما من

نافذةٍ فى المنزل المجاور. ولكنهما عندما التفتا نحوهما لم يجدا شيئاً «فبقيا حيث هما» زيناتُ يختال على صدرها العقد، ومختارٌ ينْزع منها عينيه .

وأخيراً قال لها فى وله :

– ما أجملك فى هذا العقد يا زينة ! زينة ! أتتذكرين إذ كنتُ أدللك طفلة، وأناديك بهذا الاسم ؟

وأطرقت حياء. وعاد يسألها :

– ولكنْ لمَ لم توافينى إلى الحديقة عندما أشرت لك؟

وأجابته وهى تهز كتفيها تلك الهزة الرشيقة الساذجة :

– لا أدرى . لمْ أوافكِ وكفى .

وذاب مختارٌ فى سحر جوابها. ثم بدا له أن يسألها سؤالا آخر، وكأنما قد أراد المزيد من دلها، فقال :

– وهل توافيتنى إليها الآن؟

وكان ما توقعه فأجابت :

– ربما !

– ولمَ لا تقولين نعم ؟

ولم تجب. وما زادت على أن أخذت تتلهى فى فنورٍ بتمزيق ورقات زهرة.

وفجأة رمقته بنظرة عناد، ثم ولت الأدبار مسرعة وهى تبتسم. تاركةً إياه مأخوذاً من سحر دلالها .

كانت تشعر بأن الدلال مكمِّلٌ لحسها فتدللت. ولا عجبَ فالدَّلُّ بعْضُ سحْر المرأة الدفين، وهى إذ تعرضه تعرض أغلى كنوز جمالها .

وفيما كان مختارٌ يستدير ليذهب فى أثرها، لمح العينين المتَّقدتين تختفيان من نافذة المنزل المجاور، وكأنما كانتا قد عادتا ترقبانهما. ولم يشكّ هذه المرة فى أنهما عينان. وشعر بأن فى الجو شيئاً مريباً، وإنْ كان لم يدرِ ما هو .

* * *

الفصل الخامس

بعد أن اختفت زيناتُ من الشرفة واقتفى أثرها مختار، ارتمى صاحبُ العينين المُقدتين على المقعد الملاصق للنافذة التى كان يُسارِق منها العاشقيْن النظر، وقد أخذ يصعِّد الزفراتِ كأنها شوَاظٌ من نار. وفي جواره جلستْ فتاةٌ تسرِّى عنه .

وقال صاحب ذيْنك العينين فى ألم صارخ :

- آه ! أىُّ نار تضطرم فى قلبى !

وغمغمت الفتاة وقد كانت أخته :

- رفِّه عن نفسك يا محرز .

- وكيف أرفِّه ؟ أما رأيتِ كيف كانت متهللة الأسارير عندما كان يُلبسها العقد؟ وكيف أنها فرت لتغريه بها؟ إنها تحبه، لم يَعُدْ عندى شك . ذلك هو أسلوب المرأة : تتمنع لتستحث الرجل على اللحاق بها، وهى لا تستحث إلا رجلا تهواه .

ثم لطم جبهته فى عنف وصاح :

- والأمرُّ من هذا أنهما اختفيا معا. وكأنى به الآن يقبِّلها، ويمتص

رحيقها في روحه اللعينة. كما تمتص النحلةُ عصير الأزهار. آه، رَبِّ اجعلْ لَمَاها الذى يَبزُّ الشهدَ فى حلاوته، والحُمَيّا فى سلْبها للعقول، سمّاً يسرى فى عروقه، وناراً تكوى حشاه ! مَن لي ! مَن لى بمن يمكّنني من أن أقتله، وأشرب من دمه كما يشرب الآن من دمى !

وهتفت الفتاة :

– محرز !

– درية !

ثم استطرد :

– ماذا تنكرين علىّ ؟ ألا أقتل قاتلي؟ أليست كل نظرة يسددها إليها تصيب منى مقتلا؟ أواه أسعفيني بجرعة ماء. جرعة ماء. إنى أحترق .

– الصبرَ يا محرز !

– وكيف أصبر وقد سلبتْني الشقية نُهاى؟ لستُ أدرى أى شيطان وسوس لنا بالسكنى فى جوارها؟

– لو علمتَ المفاجأة التى أُعِدّها لك لهدأت من روعك .

– وأية مفاجأة بحق جهنم؟ هل سيقبض عزرائيلُ روحه؟

– وأنّى لىَ أن أعلم ذلك؟ أتظن أنّ عزرائيلَ اتخذَني كاتمةَ أسراره؟

– إذَنْ ففيم المفاجأة؟

– احْدسْ .

– لعل اللّه سيمسخه قرداً فى عينها؟

– أوه يا عزيزى ! ما أحسبنا نعيش فى بلاد السحّرة. ولكنْ قُلْ لِي : هل نفدتْ جميع السبل فلم يَبْقَ إلا أن تستعدىَ الأقدار عليه؟ أما من محاولةٍ تغزو بها قلبها ؟

– وكيف السبيل ونحن لا نلتقى؟

– وما رأيك فى أن اللقاء تَهيأ ؟ أما تعلم أنك ستحدثها غداً، وربما راقصتَها ؟

ففغر فاه من الدهشة وهتف :

– ولكنْ هذه أحلامٌ يا درية. أحلام .

– غير أنها ستتحقق .

– أين ؟

– فى حفلة دُعينا إليها ثلاثتنا .

– أية حفلة؟

– هاك بطاقة الدعوة .

وناولته البطاقة. فألقى عليها نظرة ثم قال :

– كذا ! «مجدىٌّ» يحتفل بعيد ميلاده! ومن أدراك أن زيناتَ مدعوة؟

– لأنها من الأسرة .

فعاد وجهه يتجهم. وهتفت الفتاة به :

– ماذا دهاك ؟

– ألا تفهمين؟ إن معنى ذلك أن مختاراً مدعو أيضاً.

– بالطبع للسبب عينه .

– وإذن فستكون ليلةٌ مشهودة من ليالى جهنمَ بالنسبة لى .

– ولمَ؟

– لأنى سأشهد عن كَثَبٍ عينيهما وهما تتبادلان الغزل . وقد أُبصر يده وهى تطوق خصرها الضامر، وتهصر فى راحتها النعومة السارية فيه. أو تنتهى إلىّ من همسهما كلمةٌ عذبة تكون وقْراً فى أذنِى . فأى خير توقعتِه لى بربك فى هذه المغامرة؟ لَكأنى بكِ ما تسوقيننى إلا إلى حتفى .

– صدِّقْنى إنه لا يعجبنى منك هذا اليأس يا محرز . من أدراك أنك قد لا تربح المعركة؟ إنى أعلم أن لك عينين لم تعرفا الإخفاق قط .

فقال فى صوت كالأنين .

– وأين هما من عينىْ غريمى؟ أمَا رأيتِهما؟ ما هما قطٌّ بعينين. ولكنهما

ما ستّان، لمائهما أديمٌ صاف، وتقوم للشعاع فيهما قيامة. وكأنى بكل ومضة تنبعث منهما، تكفى لأن تخْطف حشْداً من قلوب .

وامتقع وجه درية. وحاولت أن تخفِى رعشة سرت فى جسدها . على حين استطرد محرز :

– إنى لَأشهد له والفضل ما شهدت به الأعداء. ما لكِ وجِمْتِ؟ هل مغطسك حديثُ عينيه؟

وجاهدت الفتاة جهاد اليائس لتحتفظ برباطة جأشها، ثم قالت فى أعياء :

– وعلام عولت ؟

– على الذهاب إلى الحفل .

ولم تملك إلا أن انفجرت ضاحكة رغم ما كانت فيه، ثم صاحت به :

– وفيم الثرثرة إذَن ؟

– آه يا أختاه ! إنها ثرثرة المحموم الذى لا يفتأ يهذى. أو حيرة الغريق الذى أينما تَلَفَّتَ ألفى لججاً تبتلعه. ماذا تريدين منى ؟ لا أنا أطيق التخلف عن الذهاب ولا أنا إنْ ذهبتُ بقادر على النجاة، فلْأذهب إذَن وليكنْ ما يكون. فكل شئ يَهُون فى سبيل عينيها .

وفجأة سُمِع فى منزل زيناتَ وقْعُ أقدامٍ تعدو على أرض الشرفة، أعقبتْه ضحكةٌ كرنين أكوابٍ قضية.

وفى هذه المرة لم يَثِبْ محرزٌ وحده إلى الشباك، وإنما وثب معه شقيقته، وأخذا يخالسان اللاعبيْن النظر بعيونٍ محمومة. ثم لم يلبث أن تأوّه محرز، وعاد وجه درية يمتقع .

* * *

الفصل السادس

كان حفلا مشهوداً ذلك الذى أقامه الأستاذُ مجدى وقرينته، ودَعَوَا إليه الأقارب والأصدقاء .

ففى ذلك اليوم لم يكد يوافى المساء، حتى أخذ المدعوون والمدعوات يفدون على مقر الحفل، وقد ارتدوا ثياب السهرة وأزَّينَ النساء منهم بأبهى الحلى .

وكان من بين السيارات التى وقفت بباب الدار، سيارةٌ فخمة نزلتْ منها شريفةُ هانم تتبعها ابنتاها ومختار .

وتشاء المصادفات أن يلُوح على أثرهما مصباحان، ثم يقتربان فإذا بهما لسيارةٍ تُقِلُّ محرزاً وشقيقته. فكان يخيل لمن وقف على ما جرى منهما بالأمس، أن هذه السيارة تسير على دِين صاحبيها فى تعقُّب العاشقيْن، بمصباحيها اللذين يشبهان عينين .

* * *

وتفرق القوم فى شُرُفات القصر وأبهائة، وقد أخذوا يَسْمُرُون ويتنادرون . فهذه طائفة من الفتيان والفتيات يتحدثون عن آخر قصة شاهدوها على

الستار الفضى، ويطرون هذا الممثل أو هذه الممثلة. وتلك أخرى أخذت تتطارح النكات وترسل بين حين وحين ضحكاتها مدوِّية . أمّا الشيوخ فجعلوا يتناقشون فى السياسة كدأْبهم على حين جلس العجائزِ يثرثرن فى وقت واحد، فكان أن تَكلمن جميعاً ولم يسمع أحد.

وكنت أينما سرّحتَ الطرف فى الشباب، ألفيتَ أقماراً جالساتٍ على الأرائك، أو جائساتٍ خلال الحجرات. فإذا استثنينا الشيوخ والعجائز، وإذا استثنينا جلفدان، فإن هذا الحفل كان بمثابة معرض صغير للجمال، احتشدت فيه نخبة شائقة من أجمل فتيات مصر وأظرف شبانها .

وبعد أن تناول المدعوون العشاء، عزفت موسيقى «الجاز» فهرع الشباب إلى البهو الكبير، وخاصر كل شاب فتاة، وأخذ يدور بها على أنغام «الڤالس» الحالمة. فكان الجمْع والأقدام تتنقل بهم فى خُطاً رتيبة، وخصورهم اللَّدْنة تتثنى على إيقاعها، أشْبه شىء بفراشاتٍ تخطر فى بستان. وهكذا انقلبت القاعة فى طرفة عين، إلى مسرح جميل لشِعر الجسد، لا يقلُّ فى روعته عن شِعر الروح .

وكان طبيعيًّا أن يراقِص مختارُ زينات . وبدت الفتاة وهى بين ذراعيه، وكأنما تنوب صبوةً فى قامته المديدة، وغريمته التى كانت تحركها هنا وهناك، كما يحرك النسيمُ زهرةً أسلمته نفسها فى طرب .

ولاح على الفتى أنه ثملٌ كذلك. وكان حتما أن يثمل، وهذه يدها الحريرية تسيل نعومتها فى جسده، وعطر شعرها يفوح ويملأ رئتيه .

ولما كـان مـخـتـارٌ من أمـهـر من نقل القـدم، وزيناتُ من أبرع من دَقَّ بسـاقـه، فلقـد بدا الاثنان زينة الحلَبـة، وانتـزعـا الإعـجـاب مـن أعين المشاهدين .

ومال مختارٌ على زيناتَ وهو يراقصها وقال :

– لماذا تبدو الحياة أحيانا أجمل مما هى يا زينة؟ إنى َلأحس كما لو كنتُ قد نسيت حياتى الماضية، ووُلدت من جديد فى عالم غير هذه الأرض، لا أرى فيه إلا رياضاً فِيحاً وطيوراً تغرد، مع أن الحياة هى الحياة، وأنا أنا لم أمُت ولم أُبعَث؟

وسألته زيناتُ بتدله :

– أجل، فما هو السر ؟

وأجاب مختار :

– السر فى هذه السكْرة التى تعترينا. فى تلك الخمر المقدسة التى إذا شربنا منها ثملنا، فتكشفَت الدنيا أمامنا عن هذه الفراديس. فهل تعرفين هذه الخمر، التى تخلقنا هذا الخلْق العجيب ؟

وأدركت زيناتُ مرمى كلامه. إنها نفسها شربت هذه الخمر فتحولَت

الدنيا فى نظـرها إلى جنــة فيحــاء. إنها خمــر الحب، لأنها رأتها تَصِبُ من عـينىْ مـخــتــار، وتتــفــجــر ـ ـ ثـنايـاه العِــذاب، وتقْطر من كل ذرة من جسده. إنها خمر الحب، ولذ‌ا ‌ هى تخجل، فلا تجيب وإنما تنظر مطرقة إلى الأرض .

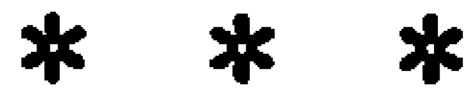
ولاحظ مـخـتـارٌ خـجلهـا فـتـناسـى سـؤاله، وأخـذ يدور بهـا فـى صـمتٍ مع الراقصين، وقد أسبل كلاهما أجفانه، واستسلما لأنـغام «القالس» التى كانت تنادى أحلامهما النائية، وتحلِّى بها وسَنهما السعيد .

وكـان هناك مَثْنًى من الراقـصين لا يكفُّ عن مـلاحقـتـهمـا ، حـتى إذا مـا أصبح منهما عن كثَب، حـاولت درِيةُ وهـى بين ذراعىْ أخيـها أن توقـع مـخـتـاراً فى شِباك فتْنتها بحبالٍ من نظراتها تلقيها عليه. ولكنها كانت كلما أرادت أن تصيده صادها عن غير قصد، حتى تعالت دقات قلبها واضطربت خطاها. أما مـحـرزٌ فكان يتحين الفرصـة التى تغضـى فيها زينات، ليسرق منها نظرة تضـع فى رجليـه قـيـداً جـديدا. وهكذا كـانت كل خطوة ينقـلانهـا فـى أثر الحبيبين، تزيد فى عِثارهما حتى بدَوَا كمن يرقصان وهما مُوثَقان. واستمرت هذه الحال طول الرقصة، ومختارٌ فى عَجَبٍ مما يحدث، وزيناتُ فى جهل به .

* * *

وفى ركـنٍ من القـاعـة، جلسـتْ فـتـاةٌ لم تشـــترك فى الرقص، تغـالب

دمعة توشك أن تنحدر من عينيها. لم يكن بها حزنٌ أو حسد، لأنها سبق أن نفَّضت يديها من كل شىء، فلم يَعُدْ للآلام إليها سبيل. ولكنها الموسيقَى تثير فى بعض النفوس أحزاناً لا وجودَ لها . ولذا لم تكد موسيقَى الرقص تَعزف، حتى أخذَت الدموع تنهمر من عينىْ جلفدان، وكأنها تكفِّر عن ذنوب لم تجنها. ذلك أن جلفدانَ كانت تحمل نفساً من تلك النفوس التى يَهِيج شجنَها النغم. وهى نفوسٌ تُعرف بأنها سبَق أن انطوتْ على حزنٍ قديم، رمتْها به أحداثُ الزمن، أو وُلِدَ معها كجزء من طبيعتها، ثم نسَج عليه النسيانُ طوَال أعوامٍ عِدَّة، ولكنْ الموسيقَى التى تنادى كل شىء، ما تلبث أن تمزِّق عنه الأكفان، وتدعوه لينُوح فى الفؤاد من جديد .



ولمحت زيناتُ أثناء الرقص جلفدانَ أختَها تبكى. فأفاقت من وسَنها على نغم بكائها النائح، وخيل لها أن أحلامها تغرق رويداً فى دموع أختها ثم تحتويها الظلمات .

وفجأة سكت «الجاز» فتفرَّق الراقصون. وَسَلَّتْ زيناتُ يدها من يد مختارٍ وذهبت تحدث جلفدانَ وهى تتجاهل ما رأت من بكائها. على حين تقدمتْ دريةُ إلى مختارٍ وأخذت تهنئة على براعته فى الرقص وترمقه فى شغف .

وعزفت الموسيقى من جديد، وزيناتُ ما تزال مشغولة بالحديث مع أختها. وألفى مختارٌ نفسه وحيداً هو ودرية، وقد أخذت تتطلع إليه وكأنما تدعوه ليراقصها. وإذْ كَرِه أن يكون جافًا معها، مدَّ لها ذراعيه ودخل بها فى الحلبة، وجال بها مع الجائلين. ولكنّ رقصه كان فى هذه المرة فاترا. وكانت كلما حدثته الفتاة أجابها فى اقتضاب .

والتفتت زيناتُ بعد قليل، ورأته وهو يراقص جارتها فجمدت فى مكانها. كانت تعلم أن ما أتاه مباح فى شريعة الرقص، ولكنه الحب، الحب المجنون الذى لا يعترف إلا بشريعته. الحب الذى يأبى إلا أن يستأثر بكل شىء فى المحبوب، حتى ظله وخواطره. الحب الذى يود لو سَجن هذا المحبوب فى حصن منيع، أو فرَّ به إلى الكهوف النائية، ليكون بنجوةٍ من العيون. ومن ثم أخذت عقارب الغيرة تلسع قلبها الغض. وأحست بكراهية شديدة نحو هذه الفتاة، بل نحو الرقص كله .

وكان الجو قد خلا لمحرزٍ باشتغال مختارٍ بالرقص مع درية، فجمَع أطراف شجاعته وتقدم إلى زيناتَ فانحنى أمامها ودعاها للرقص. وكأنما قد أرادت أن تنتقم لنفسها فناولتْه يدها وانتظمت وإياه فى سلك الراقصين، بعد أن ألقت على مختار نظرة كلها كيد .

ورآها مختارٌ بين ذراعىْ فارسها الجديد - وكان قد قدمه إليه صاحب الدعوة فى بدء الحفل - فعرف فيه جارها. وبعد أن قرأ آياتِ الوله فى عينيه،

واستعرض قصةَ العينين اللتين تلصَصَتَا عليه بالأمس، لم يشكَّ فى أن الفتى صاحبهما. فشعر نحوه بالمقت، كما ثارت نفسه غضباً على زينات، وود لو انقضَّ عليها فاختطفها من غريمه وألقَى بها أرضاً ثم صفعه على وجهه. ولكنّ العذاب الذى كان ينوقه شفع لها عنده، لأنه أدرك أنه، قد أذاقها مثله من قبل، ومن ثم فقد اضطر إلى أن يكظم غيظه، وجعل يرقص وهو نادم على غلطته التى ورطته فيها الظروف .

أما زيناتُ فلم تلبث أن أحست وهى تراقص محرزاً برعشات يده فى يدها فكشفت سر قلبه وتملَّكها الذعر. ثم سرعان ما عاودها الحنين إلى مختارٍ عندما رأته يُسْرَقُ فى حبه، فاشتد بها الكرب، وراحت تلعنْ فى سرها غريمه صاحبَ تلك اليد الآثمة وأختَه التى كانت السبب فلما كفت الموسيقى عن العزف غادرت القاعة ميممةً نحو الشرفة، وهى تشعر بأنها تكاد تختنق، وبأنها فى حاجة إلى الهواء .

وبَصُرَ بها مختارُ وهى تخرج محنقة، فأيقن أن الانتقام لم يُجْدِ مع حبها، وخَلَصَ من ذلك إلى أنها لم تَسْلُه فاطمأن. غير أنه لمح فى عينيها بوادر زوبعة توشك أن تهب، وتثير الغبار فى جو علاقتهما فتكدره. فخرج فى أثرها يفتش عنها ليسألها الصفح .

ولاحظ الغريمان ذلك فاتقدا غيرة. وما كان من محرزٍ إلا أن أشعل لفافة وراح ينْفث فى دخانها حقده . على حين تهالكت دريةٌ على أحد المقاعد وقد

أدركتْ عاقبة اللعب بالنار. ذلك أنها كانت قد أرادت أن تمثِّل دوراً مع مختارٍ لتنقذ أخاها منه، ولكنّ التمثيل لم يلبث أن انقلب حقيقة، وأصبحت نفسها بحاجة إلى منقذ .

* * *

وعثر مختارٌ على زينات تبكى فى الشرفة، فما ازداد إلا يقيناً بأن التشفى لم يكن بلسما على جرحها، وفى حنان الحبيب، تقدم يسألها وهو يتجاهل سبب بكائها حتى لا يقف منها موقف من يرتاب فى نفسه، قال:

- نعم تبكين يا زينة ؟

فكان جوابها أن أشاحت عنه بوجهها غاضبة. من قَبْلُ جَهِدتْ فى أن تكتم حبها عنه استحياء، ولكنّ لذعات الغيرة أخرجتها هذه المرة عن صمتها. كانت تشعر برغبة مُلِحَّة فى أن تعاتبه، علَّها تظفر منه باعتذار يزيح عن صدرها الغمَّة. وهى فى هذا العتاب مضطرة إلى أن تبوح. بل إن العتاب نفسه بوح ومن ثم فقد عقدت العزم على أن تخوض المعركة، وراحت تمهد لها بهذا الغضب الصامت، الذى كان بمثابة الغيم الذى يسبق العاصفة .

وظل مختارٌ يكرر عليها السؤال وهى لا تجيب، إلى أن شعر بأن تَزَمُّتَها قد خنق الجو، فلم يجدْ بداً من أن ينبشها لتفضى بما عندها، علَّ الزوبعة

إذا ثارت يعقبها صفاء. فقال لها وهو واجف :

- أساءك منى أننى راقصتُ غيرك؟ إن كان هذا فلقد كانت المجاملة تقضى به .

وأراد أن يستمر فيشرح لها الموقف، غير أنها قاطعته بحدة قائلة :

- ومن قال لك أن تجاملِ على حسابى؟

وطاب نفساً بغيرتها عليه، فأخذ يُرَبِّتُ يديها فى حنو ويقول: يا لك من طفلة! أثمة من يستحق أن تغارى منه، يا أفتن من فى الوجود؟

فنحَّت يده وهى تقول له :

- دعنى ! واذهب إلى من كنت تراقصها .

وضحك لسذاجتها وقال :

- ومن عساها تكون؟ إنى لأنسى حتى شكلها، كما نسيتُ كل الحسان من قبل. أقْسم ما طلعتْ فى سمائى مليحة، إلا غرقتْ من توها فى موجة حبك، وابتلعها النسيان. أنتِ أنت، ليس إلاك موجودٌ فى حياتى .

وارتجفت تحت وقع كلماته، إذ كانت هذه أول مرة يكاشفها فيها بالحب. حقيقة أنها كانت تقرأ آيات هذا الحب فى صوته وفى نظراته، ولكنها كانت تتشوف إلى كلمة صريحة تنقع غلتها، وإنها إذ تَسمعها الآن، لَتطرب لنغمتها وتطلب منها المزيد. ولذلك راحت تقول له وكأنها تستحثه على أن

يستمر :

- لا أصدق. لا أصدق .

وهتف فى توسل :

- رحماك يا زينة ! لا تقولى هذا. ألا تصدقين من أَحَبَّك طفلة، وراح يكتم صبْوته ويتعذب؟ ألا تصدقين من تفتَّح قلبه حدَثاً على نورك، فشبَّ وما يؤمن فى الحسان بسواك؟ أنتِ يا من لك جِدَّة الشعاع الأول، ورواء قطرة الندى المبكِّرة؟ إنى أحبك يا زينة ! وحقِّ عينيك الساحرتين، هاتين النجمتين المغلَّفتين بجفنك الكحيل! وحقِّ شَعرك الحالك كالليل، على جبين كالنهار! وحقِّ فمك هذه البسمة السرمدية، المملوءة لألاء! وشفتكِ السفلَى، تلك الياقوتة المدلاَّة - أحبكِ !

وسكت. وكان القمر يطل على الشرفة فيُغرق العاشقيْن فى أشعته الزرقاء، ونغمات «التانجو» تتناهى إليهما خافتةً من البهو، بما تحمل فى ثناياها من أحلام. وفى وسط هذا الجو الشعرى الجميل، وعلى أضواء القمر الشاحبة، لمح مختارٌ ابتسامةً ساحرةً ترتسم على ثغر زيناتَ وتزرى بضوء القمر، ثم سمعها تقول بنغمة كانت أحلى من نغمات «التانجو» .

- حسناً، لقد صفحت عنك .

وتنهد مختارٌ ملءَ صدره، ثم قال لها :

- شكراً لك. لقد رددتِ علىّ هنائى .

وأراد أن يعاتبها على رقصها مع محرز، ولكنه ذكر أنه لا يستطيع أن يتهمها إلا إذا اتهم نفسه، وهو الذى دافع عن موقفه من قبلُ فى تهمة مماثلة، فآثر أن يلتزم الصمت. إلا أنه لم يجد حرجاً فى أن يستفسر منها عن سر العلاقة بين الشاب الذى راقصها والعينين اللتين كانتا ترمقانهما أمس. فقال لها :

- ألم تلمحى أمس ونحن فى الشرفة عينين ترقباننا؟

- أذكر ذلك. ولكننى لا أدرى أكانتا عينين حقا أم شُبِّهتا لى !

- حسنا. فإذا ثبت أنهما عينان، وأنهما كانتا تطلان من منزل جارك، ألا تجدين صلة بينهما وبين ما حدث الليلة؟ ألا ترجحين وقد حرص محرزٌ على أن يراقصك، أنه كان صاحب تينك العينين ؟

فأجابت وقد شعرت بأنه يتهمها :

- ربما. ولكننى أقسم أنى بريئة مما يريبك.

وترددت، أتحدثه بما كان من اختلاج يد هذا الشاب وهو يراقصها، أم تكتم ذلك لئلا تثير بلابله؟ واختارت السكوت. على حين راح يسألها :

- منذ كم سكن فى جوارك؟

- منذ أقل من شهر .

- وهل زرتِ أخته؟

– كلا. ولكنها لا تفتأ تلح عليّ في ذلك كلما لمحتنى من النافذة .

– لا أريد منك أن تزوريها أبدا .

وبدأت تحس بقيود الحب وتستعذبها، فهمست فى خنوع :

– حسنا.

– وثمة شيء آخر، هو أن لا تقفى بنافذة تطل على هذا الجار .

فأجابت، وقد شعرت بسلطانه عليها كما لم تشعر به من قبل :

– لن أقف .

وشاء أن يجاذبها أطراف الحديث في شئون أخرى، ولكنها سبقته قائلة :

– ألا نعود يا مختار؟ إنى أخشى أن يفتقدنا القوم فلا يجدونا .

وتردد قبل أن يوافقها على قطع هذه الخلوة الجميلة، ولكنها عادت تقول له :

– مختار ! أتوسل إليك ! إذ ماذا يقولون إذا رأونا هنا وحدنا ؟

ونهض العاشقان. وفيما كانا يقصدان إلى البهو، صادفا محرزاً ودريةَ فى طريقهما إلى الشرفة. فرمقهما مختارٌ شزراً، وأسر فى أذُن زينات :

– أرأيت كيف يلاحقك؟

– أفٍّ ، كم أمقته! وأمقت تلك الفتاةَ أختَه !

واستأنفا الرقص. ولكنّ كلا منهما كان مُبلْبَل الفكر بسبب المزاحم الذى ظهر فى أفق حبه .

وعند انتهاء الرقصة، أقبل مجدىٌّ وأخذ يحدث مختارا. على حين اشتغلت زيناتُ بالتحدث إلى زوجته.

وإنْ هو إلا قليل، حتى تعالت أنغام لحن محبوب من الجميع، ومن مختارٍ على الخصوص لأنه طالما سمعه من حبيبته، وهو لحن «الدانوب الأزرق». فانطلق الراقصون يحركون أقدامهم على إيقاعه وقد أخذوا ينشدون مع النغم. وترنَّح مختارٌ نشوان. وأجال بصره فى الحضور يبحث عن زينات. وفى اللحظة التى رآها فيها وأوشك أن يدعوها للرقص، ظهرت والدتها فى البهو وأومأت إليها أن تتّبعها، فلبت الإشارة على التو. وعندئذ لم يجد مندوحة من الجلوس وحده، يتعقب بفكره عصفورته الشاردة، ويبعث بالرسل من الأشواق فى أثرها.

وبعد هنيهة عادت زينات، فخفَّ نحوها وبسط لها ذراعيه، ولكنها انكمشت عنه فدهش، ثم ما راعه وقد رفع إليها عينيه إلا أن رآها كاسفة البال .

فسألها وهو يمسك بقبضة يدها البضة ويعود بها إلى الشرفة .

– ماذا بك؟ ألا تودين أن ترقصى معى ؟

فتهدت وقالت فى أسى :

- من قلبى أود، ولكنْ ...

- ماذا؟

- أمى نهتنى . أتذْكر إذ نادتنى من القاعة؟

لقد كانت تقول لى : ما ينبغى أن ترقصى .

- معى ؟

- مع أى أحد .

- أحسب أنى المقصود بالمنع .

- ربما .

وبعد فترة صمت عادت تقول :

- أجل، أمى نهتنى يا مختار. وكل شىء ينهانى عنك .

- كل شىء .

- نعم فضميرى ينهانى أيضا. أواه، ما كنت أود مطلقاً أن أقف منك هذا الموقف . أين صلاحى وأين تقواى؟ أين غمضى القديم الذى يشبه غمض البراعم، حتى أسمح لنفسى أن أخلو بك وأعاتبك فى شأن من شئون الهوى، ثم أنصت إليك وأنت تلقِى فى أذنىّ بهذا الغزل؟ دعنى أنهض، فلَشَدَّ ما أنا خجلةٌ من نفسى ومنك !

وهمت بأن تنهض، ولكنه وقف فى طريقها وقال، وقد أحس بأن كلمات

أمها قد ردَّتها إلى عهد براءتها الأولى :

- بل ابقىْ يازينة وهدئى من روعك. لن تخجلى منى بعد اليوم. ولن ينهاك عنى أحد. لقد عزمت على أن أبدد من جونا الريَّب، وعندئذ نظفر بالحب المباح. لن نَسرق خلواتنا كما نسرقها الآن، لأنها ستغدو ملْكنا . ولن تغَنِّى كلماتنا المحبوبة فى غفلة من الضمير، لأنه لن يؤنبنا عليها، سنَنْقل خطواتنا فى وضح النهار. وننطق بأحاديثنا جهرا .

- وكيف السبيل وهذه الأشواك فى طريقنا ؟

ولم يفهم مختار . واستطردت :

- أوه! الأشواك ! الأشواك! إنى أراها ثابتة فى كل مكان. وأكاد أحس وخزها فى قدمى .

- أيةُ أشواك؟ غداً أقتلعها. غداً يصبح أزهاراً طريقُنا، وندوس عليه بأقدامٍ من ذهب. سألقَى أباك من فورى، وأنتزعها كلمةً من فمه، لن تَزرع فى طريقنا إلا وردا .

- كلا، لا تفعل . لا تفعل بربك .

وظن مختارٌ أن تحذيرها من قبيل الخجل فهتف :

- بل سأفعل. وعندئذ لن يكون أسعد منا .

أرأيتِ إلى هذه الفراديس التى نبتت فى حياتنا، والتى حدثتك عنها أثناء الرقص؟ إننا لن نقنع بعد اليوم برؤية زهورها، بل سنقطف من هذه الأزهار ونلقِى على أجسامنا. وسنجوس خلال مماشيها ونجلس فى خمائلها. وسنقف على ضفاف غدرانها ونقذف بأنفسنا فى مائها ونستحم. كل هذا الذى نراه اليوم أحلاماً تداعبنا من بعيد، سيصبح ملْك أيدينا .

وذابت زيناتُ فى سحر العالم البديع الذى كان مختارٌ يضعه بين يديها، ولكنها لم تلبث أن جذبت نفسها منه، لأنها كانت تعلم أنه لن يكون ملْكها، وراحت تقول فى إصرار :

- كلا . كلا . لا تقابل أبى .

وفر لون مختارٍ عندما رأى إصرارها . وبدا فى اصفراره كالفَنَن الذاوى . ثم قال :

- لست أدرى لمَ تنهيْننى عن لقاء والدك؟

أفى الأمر شىء أجهله؟

- نعم فى الأمر أشياء .

- وما هى ؟

- أعفنى من ذكرها .

فهتف فى غضب:

– وكيف أعفيك؟ أسرٌّ عليّ وأنا الحبيب؟ وفى أمر يمتُّ إلى الهوى؟ تالله بدأت أرتاب فى حبك!

ونظرت إليه فى عتاب وهى تقول :

– ترتاب ؟

نعم أرتاب. إن معنى تَكتُّمك أن فى الأفق غيرى . ومن يدرى ، فربما كان جارَك. ألم يأت بتصرفات مريبة؟ وإلا فلمَ يتعقبنا ظله فى كل مكان، وكأنه يسير فى ركابِنا؟

وصرخت فى قنوط :

– مختار ! إنك تظلمنى .

– إذَن تكلَّمى. ما هذه المعمَّيات التى تضعيننى فيها ؟ إن صَيْدَ الظلام لا يكون إلا شُكوكا. ولقد امتلأتْ بالشك جعبتى .

ثم رمقها بنظرة صارمة أجفلت أمامها ولم تملك إلا أن هتفت :

– وكيف أتكلم ! أواه يا جلفدان ! لن أقيم عرساً فى مأتمك .

وخرت تبكى .

ووقف مختارُ مصعوقاً فى مكانه، وقد أدرك سر الأشواك التى تقف فى طريقهما وإنها لأشواك هائلة، تسفك دمَ كل من يحاول قصفها. ألم تَنبت من الدمِ لتذود عن روابطه؟ ألا تقاتِل إذَن بسلاح الدمِ تبتغى الدم؟

وراح يحدث نفسه ويقول :

- ما أنبلك يازينات! إنك تأبين أن ترفعي إلى فمك الكأس المعسولة، على حين تجرع أختك العلقم ليلَ نهار. ولكن ماذا يكون مصير حبنا؟ إني أراه معلقاً بمصير جلفدان. وجلفدانُ لا يعلم إلا اللّه متى تتزوج .

فواحسرتاه علينا وألف حسرة !

وأحسَّ بالوهَن يدب في أوصاله. وَبصُر بآ ماله تتسرب من بين يديه كما تتسرب العصافير .

أما زيناتُ فكانت تحدِّث نفسها أيضاً وتقول وهي تشهق بالبكاء :

- رحماك يا جلفدان ! اصفحي عني . لقد أقْحَمْتُكِ في حديثي، وما كان ينبغي. واتهمتُك بأنك عقبة في سبيل سعادتي، مع أنك من الذنب بريئة. إن الأقدار التي تحاربنا معاً، قد شنت عليك الحرب قبلي. ومن يدري أنك لا تحملين العبئين، عبئك وعبءَ من نُكبوا بسببك؟ رحماك يا جلفدان! رحماك يا جلفدان !

واستمرت تنتحب .

* * *

وعـادت أنغام «الـچاز» تعـزف. لأنه كـان فى بقـعة أخـرى من الدار، قـومٌ سعداءُ يرقصون .

* * *

الفصل السابع

بعد أيامٍ قضَاها العاشقان فى بُرَحَاء، التقيا عَرَضاً فى حديقة المنزل. وما إن تَبادلا التحية، حتى قالت زيناتُ فى التياع :

– إنى مسافرةٌ غدا يا مختار .

واضطرب الفتى وهتف :

– أحقٌّ ما تقولين ؟ إلى أين؟

– إلى ضيعتنا «بأوسيم». إنى منفية هناك. وإلى أجل غير مسمى .

– منفية؟ أتُرَى سِرّنا ذاع؟

– أجَل فاح عطْر حبنا. وهوَى الأبناء فى أنوف الأهل زكام. لقد لاحظوا شحوبى ، ولم يَخْفَ عنهم اصفرارك. فلما كان أمْسِ مَساء، استدعتنى أمى وتصنعتْ المرض، وزادت أن زعمت أننى نفسى بحاجة إلى تبديل الهواء، ثم اقترحت أن نسافر معا. اقتراح معقول، لولا أنى قرأت الباعث عليه فى عينيها .

وسكتت لحظة ثم عادت تقول :

– أذاكرى أنت يا مختار ؟

وأجاب الفتى المضنى :

– وما شغلى غْيرك؟ نعم سأذْكرك يا زينة . سأذْكرك كلما غرد طائر، فأبْلَغَنى منك رِيالة. أو نشرتْ زهرةٌ عطرها، فنشقتُ فيه أنفاسَك. سأذكرك كلما سمعتُ حديثك فى خرير الجدول، أو أنصتُّ لهفهفة شعرك فى حفيف الغصون. سأذكرك فى كل وقت، وأراك فى رِكاَب كل شىء جميل. فى مواكب الضياء التى يجرجرها الصبح، وفى القمر المطل على المروج مَسَاءً، سأراك، نعم سأراكِ يا زينات .

– وأنا أيضاً سأذكرك ، وسأبعث إليك بشوقى الجريج فى مغرب كل شمس، وبالتحايا مع الطيور العائدة إلى أوكارها. فإذا ما رأيتَ الدماء فى الشفق تسيل، فاعلمْ بأنها أشواقى؛ أو طَرَق سمعَك نوحُ حمامة، فاعلمْ أنه بَثِّى تُرَجِّعه. وسأقطفُ الأزهار فى الصباح، وأضعها فى الجدول ليحْملها إليك، وأضمِّخ بالعطر النسيم السارى، لِيَمْلأ به جوَّك. ارقبْنى يا مختارُ فى كل شىء. وانظرْنى فى كل شىء. وإذا ما رأيتَ كوكباً يَتَهاوى، فاعلم أننى خررتُ صريعةَ حبك، ولا تترقبْنى بعد ذلك .

– فِداؤك روحى يا زينات! بل ستعيشين وتعودين وشيكا إلىّ . ونحيا معاً كما يحيا على أيكةٍ غَرِدان. إننا لم نقنط من رحمة اللّه. ولم نُلقِ للرياح بأزهار الأمل. ابتهلى إليه سبحانه، عساه يزيل الأشواك من طريقنا. من يدرى فقد نتزوج غداً جلفدان؟ وعندئذ نبنى أيضاً عشنا.

- إنى أبتــهل فى كل وقت. فكلمــا زاد بىَ الكرب، رفــعتُ كـفَّىَّ إليــه بالضراعة، واستعنتُ على شقائى بالصلاة .

- وإنه تعـالى لَرحـيم. ولسـوف يرحم يومـاً شكوانا، ويـجـزينا خـيـراً عن صبرنا .

- استودعك اللّه يا مختار. فقد لا يتاح لى غداً وداعك .

- فى حراسة اللّه .

وتركتْه ومضت فى سبيلها. وفيما هى تصعد درج الحديقة، رفعتْ عينيها إلى نافذة دريةَ وتنهدت . كان قلبها يتساءل :

- أتُرى تلاحقه الفتاة بغزلها كما فعلت فى الحفلة؟ وهل ينشد السلوى عندها ؟ حقا إن النافذة مغلقة الآنَ، ولكنْ من يدرى فقد تُفْتَح غداً، وتصبح السماءَ التى يطلُّ منها كوكبه .

ثم ازدردت حسرتها وتابعت الصعود، وإنها لكذلك إذ لمحت العاشقْين الفقيرين فى طريقهما إلى شاطئ النهر، فحيتهما بكآ بة، وغبطتهما على سعادتهما التى كانت تَفيض على ثوبيهما البسيطين بما لم تَفِض به على ملابسها الحرير. وكانت قد بلغت البهو فدَلَفَت فيه وهى تبدو فى ذلها أفقر من أى إنسان. ما أرخص السعادة وما أغلاها! إنها قد تُشْرَى بمجرد خفقةٍ مشتركة بين قلبين تغْمض عنهما عين الزمان . ولكنّ ذلك الذى قد يتم من تلاقى نظرتين، ربما كلَّف المرءَ عُمْرَه ولم يُدرَك .

أما مختارٌ فأحسَّ وهو واقف يشيعها، بأنه يشيع نور عينيه، فتهافت على مقعد قريب، وأخذ يتصور آلام الفراق، وغُربْتَه بعد أن ترحل حبيبته. لن تغرب شمس الغد، حتى تكون في بلد وهو في بلد، ويعود التنائي سيرته الأولى. أجَل هي والشمس ستغربان معاً، وتسكبان شعاع المغيب الأصفر على وجهه الشاحب. فيا ما أشقَّ الفراق على الأحبة ! ويا ما أمرَّ الحياة في غياب الحبيب ! غداً لن يُظله السقف الذي يُظلها. ولن يَنْشَق من النسيم الذي تتنفس فيه. غداً لن يغنِّيهما طيرٌ واحد. ولن يقطفا من زهر واحد. سيكون لها طيرها وله طيره. ولها زهرها وله زهره. وهما اللذان ما طاب لهما عيش إلا معا . كأن أحدهما عينٌ والآخر إنسانها، أو فؤادٌ والثاني حَبَّتُه. أو كأنهما الطيور تزهد في الشدو وحيدة، أو القُبَل لا تتم بفمٍ واحد. وكيف لا وحبٌّ واحدٌ يعيشان له، وقلبٌ واحد يخفقان به. فبأيِّ يَدُقُّ ينبض في الآخر عرْق، وأبَّان يخفق تسيل ببدنهما حياة .

وتطرَّق به الفكر إلى السبب الذي من أجله ستسافر . ما من شك أنها ستُقْصَى بسببه. وشعر بأنه يضايق القوم. وأنهم أخذوا ينزحون عن دار هو فيها. ومما زاد في ألمه، أن الدار كانت دارهم. وأنه وهو ذلك الغريب، راح يطردهم منها ويفسح فيها لنفسه. فعافَ ذلك الوضع الذي أرادت الأقدارُ أن تضعه فيه، وقرر في نفسه أمراً اعتزم أن ينفذه .

فلما كان الغدُ انتظر حتى شيَّع مركبة زيناتَ إلى أن غابت عن الأنظار،

وقبَّل ذرات التراب التى تطايرت خلفها، ثم هرول إلى عمه فلما دخل عليه قال :

- أىْ عمّاه !

ورفع الباشا عينيه وقال فى اقتضاب .

- إيه !

وكان متجهم الوجه منقلب السحنة. وأدرك مختارٌ السبب . وود لو تمهل عمه قليلا فاستراح .

واستطرد الفتى فقال :

- إنى أستميحك عذراً فيما جئتُ أعرضه عليك. ووضع الباشا يده على قلبه. لقد خشى أن يكون قد جاء خاطباً زينات. وكان مجرد ورود هذه الفكرة إلى ذهنه كافياً لأن ينغصه، إذ يوقعه فى ذلك الحرج المعهود الذى لازمه مذ كبرت ابنتاه. وأخيراً أفلح فى أن يُسيغ ريقه فغمغم :

- تكلم يا بنىّ .

وأنصت واجفاً ينتظر الحديث. وقال الفتى مخاطباً عمه :

- لقد احْتَضَنْتَنى طفلاً وحنوتَ علّ حُنُوَّ الأب، فأسوْتَ جراحى وخفَّفتَ عنى اليتْم الذى عاجلتْنى به الأقدار .

وعقَّب الباشا :

- وهل كنتَ إلا ابناً لنا؟

على حين قال مختارٌ متابعاً حديثه :

- وفتَّحتَ لإيوائى منزلكَ وأوسعْتَ لىِ فى حجراته فلمْ تُشعرنى بغربةٍ وأنا الغريب .

- وهل كنتَ غير أهلٍ وابنِ أهل ؟

- وعلَّمْتَنى فأحسنتَ تعليمى وسيَّرتَنى رجلاً فى الرجال .

- علَّمك اجتهادك.

- والآن وقد زودتَنى بكل ما يتزود به المرء ليبدأ كفاحه فى الحياة، فإنى لَيخلق بى أن أعتمد على نفسى فى كل ما اتصل بى من شئون، وإن تطلَّب ذلك أن أهجر مهدى العزيز، وأقيم فى سكنٍ خاص .

- تعنى أنك تريد أن تتركنا ؟

- إذا أذنتَ يا عماه .

ووجم الرجل، وخشى أن يكون مختارٌ قد فطن إلى أنه بأت غير مرغوب فيه. وسرعان ما ارتسمتْ أمام عينيه صورة الماضى. فذَكَر أخاه المائتَ من عشرينَ عاما. وكيف أنه أوصاه خيراً بابنه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة. ثم ذَكَرَ مختاراً اليتيم . وكيف حُرِم حَنَان أبويه فراح يستجدى حنانَ الغريب. ورآه وهو يحبو بين يديه طفلا ناعم الأظفار، فيستدرُّ الحنان من قلبه، حتى

استطاع أن يحتل فيه مكاناً وقَعَ فى حبته .

ذكر كل هذا فاغرورقتْ عيناه بالدموع. وتأثر مختار لبكاء عمه فبكى. ليس يحز فى النفس كمنظر شيخ يبكى، ويسكب القليل الباقى فيه من عصارة الحياة .

ومرت بين الاثنين فترة صمت، كان مختارٌ فيها ينوب شفقة على عمه، وقد رآه يعانى من الحرج والعذاب ما ينوء به شيخ فى مثل سنِّه. ولمْ يكن العم بأقل إشفاقاً على ربيبه والمعطَّر بذكريات صباه. لقد ذكَر حبَّه اليائس، وذكر ضَعف قلوب الشباب أمام سحر الغيد، وكيف أنه وهو شابٌّ اكتوى مرة بنار الحب، فكان يشعر كأن يداً خفيَّة تصب اللهب فى جوفه. ذكر هذا وعَذَر. ولَّما عذَر رثى وترفَّق. على أنه لم يلبث أن ذكَر زينات. وزيناتُ ابنته وفلذة كبده، وهى توشك أن تتردَّى فى حفرة. ومن ثم فإنقاذها مقدَّم على كل شىء، وهو ما لن يكن إلا بإقصاء مختار. وهكذا لم يتردد فى الثبات على رأيه الأول، ولكنه بقى حائراً على أى صيغة يبديه، مما لاشك فيه أنه لن يطعن كبرياء امرئ ربّاه ذات يوم. ولكنْ ما دام ليس من طعنه بد، فلْيمسك السكين بيدٍ وبالأخرى البلسم. أجل، لابد من مجاملة مختار. يجب أن يدعه يشعر بأنه يترك الدار باختياره، ولو أدى به الأمر إلى أن يخدع نفسه. فيا رُبَّ خدعةٍ أدخلها المغلوب على نفسه، أبرأتْه من جِراح. وإذَن فلْيسقه السم فى عسل . وإذَن فلْيُمَوِّه الحقائق عليه. فرفع إليه عينيه المكدودتين، وراح يقول له فى لهجة عذبة :

- ولكنّ ذهابك سيشق علينا يا مختار. إن عشرة عشرين عاما ليس من السهل أن تُنسَى . فهلاّ فكرتَ قليلا في الأمر يا ولدى؟

- فكرتُ فيه يا عماه. وهدانى تفكيرى إلى ما جئتك فيه. وشجَّعنى عليه أنه لا ينمٌّ عن عقوق فما كان بُعْدُ الدارين لِيُنْقصَ من الوداد . هبنى يا عماه لم أزل مُغترباً فى طلب العلم، أو هبنى زاولت عملا فى الريف، أفكان هذا يُنسينى مهدى، ومَنْ هُمْ لِى كأمى وأبى؟

- حاشا يا بنىّ أن أتهمك بالعقوق، ولكننى أشفق عليك من الوحدة، وأخاف أن يرهقك العبء .

- الأعباء يا عمّاه تخلق الرجال. وإنى ما جئت التمس منك ما ألتمس، إلا طلباً لهذه الأعباء. أريد أن أُثبت أن تربيتك أثمرت، وثمار التربية رجال. ولن يكون الرجل جديراً بهذا الاسم حتى يُختبر فى معركة. ولقد عولتُ على أن أخوض معركة الحياة لأجرب نفسى. وأمسِ وقع اختيارى على غُرَفٍ بشارع فؤاد، أروم أن أتخذ منها عيادة وسكنا. ولعله من الخير للطبيب أن يقيم حيث يعمل، فإن ذلك لما يحفظ عليه وقته. فإذا أذنتَ يا عماه وما إخالك إلا تأذن، ذهبت غداً لاستئجارها .

- الرأى لك يا بنىّ ما دمت تصر .

ثم انكب على مكتبه وحرر ورقة أعطاه إياها وهو يقول :

- هاك إذْناً بألف جنيه من متجمِّع دخلك لتؤسس بها عملك الجديد. فسِرْ

يا بنّى على بركة اللّه، واذكر دائماً أن دارنا دارك .

ثم تناول يده فقبلها وانصرف .

وجعل يفكر وقد خلا إلى نفسه : الآن قد كَتب بيده وثيقة اغترابه، وغدا يسير إلى المنفى بقدميه. ولكنّ ذلك خير على أى حال، من أن كانت تأتيه مكتوبة ويُرغَم على توقيعها صاغرا .

* * *

وفى اليوم التالى حزم متاعه وذهب إلى السكن الجديد. وأجال بصره فى حجراته الخاوية فلم يجد زينات. وحاول أن يستمع إلى صوتها العذب فلم يسمع إلا أصوات قوم كلهم غرباء. بعضهم خدمٌ وبعضهم من الحمالين الذين كانوا ينقلون الأثاث. فاستوحش، وأحس بالغربة فى بيته، وهو الذى لم يكد يهنأ بردً غيْبته . فمنذ أسبوع عاد إلى الفردوس الذى طُرِدَ منه من أربعة أعوام، وها هو ذا يُطرد منه مرة أخرى، ولمّا تمضِ على مُقامه فيه غير أيام معدودة. فلم يتمالك أن هتف :

– أواه يا زينة، لمَ فرقت الأيامُ بيننا؟ بل لمَ فرَّقتنا روحا عن جسد؟ فإنى وإنْ كنتُ هنا فبؤسيمَ قلبى، وأنتِ وإنْ كنتِ بها فهاهنا قلبك. ألا ليتَ الزمان يَعِفُّ حين يقسو، عن حَفْرِ الهاوى بين المرء ونفسه؟

ثم تطرَّق به الفكر إلى محرز. حقا إنها الآن بِنجْوَةٍ من عينيه، ولكنها

ستعود يوماً ما ويبث حولها أشراكه. وقد ينجح فى غزو قلبها، إذ من دأب العيون أن تسلو البعيد، وتألف من المناظر ما تَقعُ عليه .

وكاد القلق يذهب بصوابه، لولا أنه لم يلبث أن استبعد فكرة غدر حبيبته به، وقد سقاها هواه حتى أترعها. فعاد يتجلد. وأدرك أن الخور ليس من شيم الرجال، ولا هو مما يكفل النجاح فى شئ. وهو بَعدُ يجب أن ينجح من أجل زينات. فزيناتُ له وإن طال الأمد. وهى لاشك تبنى عليه آمالها، وتَرى فيه بطلها المنتظَر . وما ينبغى أن يخيِّب ظنها فيه .

وهكذا آلى على نفسه أن يولى مهنته كل عناية، عساه يصيب منها النجاح الذى يأمل. ولم يسمح لآلامه أن تهوى به. لكنه راح يتسامى بها، ويسخِّرها فى رفع تمثال المجد الذى صمم على أن يقيمه لنفسه. والآلام قوةٌ هائلة، إن أحسن المرء استخدامها أتت بالمعجزات. فهى كذلك البخار المضغوط الذى يسيِّر القاطرة، فى وسعنا أن نصعِّده فيذهب هباء ، وفى وسعنا أن نكبته فينفجر بنا، ولكن فى وسعنا أيضاً أن نجعله يدفعنا إلى الأمام .

وسار إلى الأمام تدفعه آلامه . وحالفه النجاح من أيامه الأولى، إذ استطاع أن يحوز ثقة مرضاه. فلهجوا بالثناء عليه. ودَرَّ الثناءُ عليه الصيت. قليلاً فى أوله كالقطر. ولكنّ القطر ما يلبث أن يصبح غيثاً ينهمر .

* * *

الفصل الثامن

بعد جولةٍ فى حقول «أوسيم»، عادت زيناتُ إلى بيتها الريفى. ومرَّ من تحت نافذتها راعٍ فى مغرب الشمس . وتعالت فى السكون بحَّاتُ نايه الشاكى. جريحةً تشكو إلى الشفق الجريح. وأنصتت زيناتُ للشكوى، ورفرف بين جنبيها ذبيح. كانوا عندما شرَّدوها ذبحوه. ليتهم تركوها وما قتلوه!

وراح الراعى يَنفخ فى نايه، وكأنه ينفخ دماء قلبها ويخضب بها السحب. فكانت كلما انبعثت نغمةٌ حاملةً معها ذلك النداء الذى ترسله إلينا آمالنا الغاربة، خطفتْ جانباً من هذا القلب المشُوق لأن يلبِّى .

وعندما أخذت الولولة تبتعد بابتعاد الراعى، خيل لها أنها تَذهب معها إلى ذلك المكان المجهول الذى تغرب فيه الآمال. حتى إذا ما غاب صداها، وغاصت البقية الباقية من قرص الشمس وراء الأفق، كان كل شىء من رشد زيناتَ قد ذَهب، ولم يبقَ منها غير هيكل مُسنَد الرس إلى حافة النافذة، هيكل عذراءَ ذبحتها سكِّينُ الفراق .

فى هذا الوقت كانت تجلس والدتها فى غرفة مجاورة، تقرأ كتاباً

جاءها من زوجها . كان قد أرسل ينبئها بأن مختاراً رحل عن الدار، ومن ثم لا بأس من أن تعود مع زينات، على أن تكتم عنها أمر هذه الدعوة، وإلا فطنت إلى أن سرها قد افتضح، فينثلم حياؤها. وهو بَعدُ يحرص على هذا الحياء، لأنه يعتقد أنه البرقع الذى تخفى وراءه النفسُ سواءتها، فإذا ما انهتك مرة أمام الناس، وأبَان من عورات صاحبه ما كان يجهد فى إخفائه، لم يجد بعدئذ شيئاً يُبقى عليه، فما يلبث أن يَخلع العذار .

وألقت شريفةُ هانم بالكتاب وهى تقول :

– رأىٌ سديد يا رمزى . فلأزعم لها أنى سئمت الريف، أو لأستدرجها حتى تبوح هى بذلك، ثم اقترح عليها العودة. ولكنْ شيئاً آخرَ ما ينبغى أن أخبرها به، وهو أن مختاراً ترك دارنا. فإن من الأنباء ما يؤخر الإبطاءُ فى إذاعته الشقاءَ المكتوب على الجبين. وكل يوم يتأخره الشقاء، يضيف يوماً إلى عمر هنائنا. فلتجهلْ إذَن زيناتُ ما يسوءها حتى تعرفه فى حينه، ولأتركْ لها ليلة تنامها فرِحة، ثم ليكنْ فرحها بعدئذ أكذوبة، فماذا يضير الأكاذيبَ ما دامت تُدخِل السرور على نفوسنا؟ حقا إن الأكاذيب مآلها أن تنكشف، ولكن الحقائق أيضاً يتقلص ظلها، ولا شىءَ على هذه الأرض يستطيع أن يمنحنا الهناءَ الدائم .

* * *

وقـامت فدخـلت علـى زينـات. وألفتـهـا علـى حـافـة الشـبـاك شبـه نائمـة. ولم يـخفَ عنهـا مـا تعـانى من تبـاريـح، فـربَّتت خـدهـا فـأفـاقت وهتفت مذعورةً :

– أماه !

وراحت الأم تسألها :

– ما ذا بك يا بنية ؟ أنومٌ ولمّا ينقض على الغروب نصف ساعة؟

وأجابت الحسناءُ المسربلة بهمومها :

– لا شـيء يا أماه . إنه الخمـول الذى تبعثـه فى روحـى الأيـامُ المملة. لا جـديدَ هنا يُذهِب الصـدأ عن النفـس. ففى الصبـاح صـيـاح الديَكة، وفى الغـروب ولْوَلَة مـزامـيـر الرعـاة، حـتى إذا مـا كـان الليل، فـثـمـة ذلك السكون المخيم الذى يشبـه سكون القبور . ووسط هذا الجو الذى لا تغيير فيه، تسير حياتى على نهج واحد . فإذا ما فرغتُ من التنزه فى الحديقة، خرجتُ للتجوال فى الحقول، وهكذا دواليْك كأننى نحلة ما يعنيها إلا الدوران حـول نفسـهـا . فـهل هذا مكان يستـجمُّ المرء فيه؟ تاللّه أإن هذا الريف مـا يُورِث إلا السـقَم. انظرى كـيف شـحب لونى وبرزت عظامى ، وأصـبـحتُ كمومياء .

واحتوتها الأم بين ذراعيها كأنما لتُنَحِّيَ عنها الشر. ثم قالت وهى تحدق فى وجهها الجميل :

– ماذا دهى الريف عندك يا زينات؟ أنسيتِ سابق كلفك به، وارتياحك إلى المُقام فى ربوعه ؟

– لا، ولكنى سئمته. لا شىءَ يأخذ بلب الإنسان إلى الأبد. إن النغمة الواحدة، تطربنا لمرة واحدة، ثم تَغرق جِدَّتُها فى نشوتنا، فنروح نلتمس نغمة جديدة لم تَفْنَ فى حواسِّنا بعْد. نغمةً لم نغنِّها من قبل. وهذه الأسرار التى تُذْهلنا عن أنفسنا حيناً، تبدو تافهةً بمجرد أن تُحَل . ولذا فنحن نحتاج كل يوم إلى سر مغلق نستمتع بفض غلافه . وإنّ يوماً لا يطْلع علينا بمفاجأة تهزنا من الأعماق وتُذهب عن أنفسنا الملل، لا كان ولا عشناه، ولقد ملَّت نفسى يا أماه من طول ما مرت علىّ الأيامُ متشابهة، فإذا لم تبادرى بالعودة بى إلى المدينة، فسأرغمك على أن تعودى بى إليها جثة هامدة. آه، إن الفناء لَيدبُّ إلىّ مسرعا وسْط هذا العالم الفانى .

وضحكت الأم لهذه الحدَّة الساذجة، ولم يَفُتْها أن الصبيَّة تكذب لتسوِّغ طلب عوْدتها. ولكنّ هذه المغالطة كانت عين ما تشتهيه السيدة. ألم تأتِ لاستدراجها كى تطلب هى العودة، وها هى ذى تطلبها متذرعة بسبب لبق؟ إذَن فلقد كان الظرف مهيأ كى تقول لها :

– ما دمتِ تلحِّين فى طلب السفر، وما دام المُقام هنا يؤثر على صحتك الغالية، فلا يسعنى إلا أن أنزل على إرادتك .

وانتفضت الفتاة بين ذراعىْ أمها، وهتفت وهى ترفع إليها عينيها الواسعتين :

– أحقاً يا أماه؟ ومتى يكون ذلك؟

– كما تريدين. ليكن غداً إذا شئتِ .

– حسناً. وليْكنْ صباحاً يا أماه. بل ليكن مع يقظة الطير، بل مع رَذِّ الندَى على زهر البكور. بل ونجمُ الصباح لمّا يختفِ وراء تباشير الضوء. شكراً يا أماه! تعالىْ أقبِّلْك يا أماه .

وراحت تغمر أمها بالقبلات. ثم تركتها واندفعت إلى النافذة. كانت تلقِى نظرة على الطريق الذى سيعود بها غداً إلى القاهرة، وتستحث الليل الرابض فى جوف السماء، أن يجرجر أذياله على عجل، ويفسح مكاناً لنور الصباح .

ثم طفقت تتنقَّل من حجرة إلى أخرى كطفلٍ مجنون بصباه، وهى تهتف فى قلبها :

– مختار ! إنى عائدة. كم ذا تكون فرحتك بى عندما ترانى أمامك فجأة ! سأهبط عليك كما يهبط النبأ السار. أو كما يهبط الندى على وادٍ ذى زرع. وتنفذ إلى قلبى بعينيك مرة أخرى، وتملؤه نوراً بسناهما. غداً يا مختار،

ستضمِّد جراحي وأضمد جراحك. وسُيورق في قلبي غصن الأمل من جديد، ويعود يُنْبِت في خدِّي الورد، فما تراني شاحبة هكذا . لن أحمل همًّا بعد اليوم، حتى همَّ التفكير في الزواج بك. حسْبي أن أراك من الزحام، كما لو كنتَ قمراً وأنا أحد الناس. وأصغي إليك مع غيري، كما لو كنتَ طائراً وأنا زهرةٌ غارقة وسط الحشْد. لقد علَّمني نأيُك قيمة النظرة المجردة التي لا تطفئ لاعجاً ، والأحاديث البريئة التي لا تشفي الأُوَام .

ولم تَنَمْ ليلتها، وظلت تناجي نفسها بهذه الأفكار. وبين حين وحين تنهض من فراشها لتلقي نظرة على الليل، وتستحثه أن يذهب .

* * *

وفي الصباح ، ارتدت زيناتُ ملابسها ووقفت في الشرفة تطل على الحقول وتترع عينيها بمنظرها الجميل. فأحست بأنها عادت تحِب الريف بعد أن كفَّ عن التفرقة بينها وبين حبيبها. وكأنما كَبُر عليها أن تنكرت له بالأمس فطفقتْ تناجيه في تَدَلُّهٍ وتقول :

- كلا ، إني أحبك أيها الريف. أحب منك هاتيك السهول الفسيحة، المصبوغة خضرةً على مدى البصر، تشقُّها جداولُ كأنها أسلاكٌ من الفضة، وتطلُّ عليها السماءُ بثوبها الأزرق المُوَشَّى بالسُحُب، والذي تلوِّنه كل يومٍ في

الفجر وفى الغروب بعصير الورود النابتة فى قمم الجبال ، وتبدِّله فى المساء بآخر للسهرة، وقد رصعتّه بنجومٍ كأنها الماسَات، لتستقبل به القمر حين يطلع من خلف الربا، ويُسَاقِطُ على خدها قبلاته، فإذا الغصون من الأرض تناغيهما والجنادبُ تزفهما، والنسيمُ يَسرق عطر الزهور لِيَنْضَحَهما به، ويَخْلُسُ البَلَبلَ من على صفحات الماء ليرطِّب به خلوتهما .

وتوقفت لحظة ثم عادت تقول :

– نعم لهذا أحبك. ولكل ساذجٍ فيك وخلاب. مِن سَوَاقٍ تقوم على الضفاف تجرُّها أبقارٌ معصوبة، كلما تدفَّق من عيونها الماءُ كشلالات، فأُتْلَفَ خريره الشاكى مع نُعارها الحزين، فثمةَ أغنيَةٌ خالدة. وقطعان من الغنم ما بين ذاهبةٍ فى الصباح إلى المراعى، وعائدةٍ إلى حظائرها فى الغروب، إمَّا عَدَتْ تَضَاحَكتْ على وَبَرِها أشعةُ الشمس، وَحَدَتْها مزاميرُ الرعاة الشادية. وصبايا يتبعثرن فى الحقول فى مواسم الجَنْى ، وما يفتأن وهنَّ يحصدن الثمار يتغنين بأناشيدهن الريفية المحبوبة. وأُخَرَ يتجمعن حول منابع الماء يَملأن الجِرَار، ثم يسرن بها بين صَخب خلاخيلهن وقد فار على حافاتها الزَّبَدُ كأنه قهقهة إنسانٍ سعيد .

ثم استدركت :

– كل هذا على شريطة أن لا تأخذنى من حبيبى . آه، مَن لي بشهر أقضيه فيك بصحبته مَن لِي !

وكـان موعد الرحيل قد حان وجعلتْ أمـها تناديها، فهرعت إليـها وهى تنزل الدرَج قـفزاً، ثم اسـتوت بجانبـها فـى المركبـة التى انطلقت بهمـا إلى القاهرة .

وفى هـذه المرة كـان كل شىء باسـمـاً فى الطريق ، خـلال عـينىْ زينات. فكانت الحقول الخضراء تبدو كوجوه مستبشرة. وكانت قطرات الندى التى تخضِّل النباتات النامية على الجنبين، تلُوح كنقطٍ عصَرها عليها الهناء. ولم يعدْ طنين السواقى ينساب نائحاً فى أذنيها كما كان يفعل وهى قادمة إلى الريف، وإنما كان هذه المرة أشبه شىء بغمغمة مرحة يهذى بها سكران. لقد تحوَّل كل شىء فى عينها بتحول إنسان هذه العين .

* * *

وأخيراً وقفت المركبة أمام باب القصر، فنزلتا منها، وما إنْ بلغتا الدهليز، حتى أقبلت جلفدانُ والخدم يحيونهما. وتلفتت زيناتُ فلم تجد مختاراً فيمن حـضـر . فـانسلّت من بين القـوم، وبعـد أن ألقت نظرة واجـفـة على نافـذة جارتها، وأطمأنت إلى أنه لا نجْمَ فيها يرنو إليه مختار، راحت تجوس خلال الحجر باحثة عنه وهى تهمس :

– مـخـتـار ! هـأنذا عـدت فـهلمَّ إلىّ! هلمَّ إلىَّ ولا تبطئ ! وتعـالَ انظرْ ضنـاىْ ! تعـالَ انظـرْ ذبـولى، واسـقنى مـن هذا الماء الـذى يعـيـد

إلـــيَّ نضرتى ، ماءِ طلعتك الوضيئة، الذى يتفجر من جبينك كما يتفجر الينبوع، ومن عينيك .

وإنها لَتُهِيبُ به بهذه الكلمات، إذ حانت منها نظرة إلى غرفته فوجدتها خالية من الأثاث. فتوقفتْ عن السير وشهقت شهقة كادت تزهق لها روحها، ثم راحت تقول وهى تجيل بصرها هنا وهناك :

– مختار ! مختار! أين أنت ؟ ما لحجرتك خاوية؟ أجبْ يا مختار، يا حبيبى ! أين أنت؟

وردَّدَ الصدى نداءها. وانسكب فى أذنيها يقول : «أين أنت»، ثم لا يجيب. كان يتكلم بلغة الفناء، الذى لا يملك حين يفوه إلا أن ينتكس راجعاً إلى معناه، فلم يزد على أن حَكى كلمة فانية .

فضربت صدرها وصرخت :

– ويلى !

ثم انطلقت تعدو وتتخبط كمذبوحة، وهى تردِّد بصوتها الملتاع :

– مختار ! يا حبيبى ! أين أنت ؟

واتفق أن مرَّ أحد الخدم فاستوقفتْه سائلة :

– أين مختار ؟

وأجاب الخادم :

– إنه لم يعد يقيم هنا ياسيدتي . منذ أن اتخذ له عيادة، آثر أن يجعل إقامته فيها ليكون عن كثب من مرضاه .

ومضى الخادم لسبيله. وظلت زيناتُ تحملق فيه وكأنها لاتصدق ما أخبرها به. ثم اندفعت تفتح الحجرات مرة أخرى، وتنظر فيها وهى تقول :

– مختار ! هل ذهبتَ حقا ؟ لمن جئتُ إذنَ؟ ولماذا لم أبقَ فى أوسيم؟ واحسرتاه ! إنها كانت فرْحة ليلة، ليلةٍ واحدة، ثم لمْ تتم. يا حبيبى يا مختار! عندما زَفَّت إلىّ أمى نبأ عودتى، خِلْتُ أن يوم اللقاء قريب ، وإذا بنا ننتقل من فراق إلى فراق. فيا رَبِّ حتام هذا الشقاء؟ وحتام التنائى بين الأحبة ؟

ثم أدركها الإعياء فارتمت على مقعد وأخذت تبكى وتقول :

أرْجَفَ الخادم يا مختار ، عندما زعم أنك ذهبت برغبتك. إذ كيف تذهبُ ونور عينيك هنا؟ يَصب من لحظى وثناياى وجبينيِ الوضاح؟ وهل يتخلى عن نور عينيه إنسان؟ فيا حبيبى خبِّرنى : أتخيرتَ الرحيل أم أرغموك؟ لهفى عليك ! هل أعادوك يتيما كما كنت، لاعين ترعاك ولا أهل يؤنسون وحدتك؟ وكل ذلك من أجلى أنا؟ آه، لا كانت زيناتُ إذَن ، إنْ كان لابد أن ينالك منها سوء ! ليتنى ! ليتنى أستطيع أن أنتقل إليك وأسهر على خدمتك ليتنى ! ولكن اطمئن، فسأوافيك بقلبى حيث أنت، وألازمك ليلَ نهار. فإذا ما جلستَ

وحدك فى المساء ياحبيبى، أو رحتَ تبرم بصمت بيتك الموحش، فاذكرْ أننى بجانبك، أؤنسك وأسرِّى عنك، ونادنى باسمى وبادلنى الحديث. أواه يامختار ! لقد قتلونا وأيم الله ! عندما ضن الزمان علينا بالأمل، بقى لنا أن أراك وتراني، وتحدثنى وأحدثك، ولكنّ تلك البقية قد أبوها علينا أيضا . فليت شعرى ماذا أقل من النظرة كان يبقى لنا؟ وهل كان حتما أن نفقد كل شىء كى يرضَى نوونا؟ أواهُ مختار ! يا من بعدتَ وما أطيق بعادك، وهجرتَ فاضرمتَ فى أضلعى النار - كيف احتمالى وخطبى فيك لا ينفع الصبر معه، وليالىَّ من بَعدك طوال ؟ ألا أدركْنِى ! أدركنى ياحبّيبى ! ففؤادى تضعضع وجسمى وهَى. والضنى كسانى فرْعاً لِقَدَم .

* * *

الفصل التاسع

أمضى مصطفى وعفافُ أوقاتاً ناعمة بعد أن تمت خطبتهما. وفى انتظار فوز الفتى بوظيفةٍ حكومية تؤهله لها أوّليته فى الامتحان، لم يحلما إلا بالسعادة والثراء، وكادا ينسيان أيام فقرهما الأولى، ولم يَدُرْ بخَلدهما أن الشقاء يتعقبهما من وراء ستار، كأنما قد عقد بينه وبينهما محالفة يأبى إلا التمسك بنصوصها .

ذلك أنه ظهرت نتيجة التعيين فى المنصب الوحيد الخالى بالمصلحة التى كان مصطفى قد قدم طلبه إليها، فإذا بالذى يظفر به شخص آخر، وعقلت الدهشة لسان المسكين ، عندما وجد أن هذا الشخص زميله «عاكف».

– إنه يذكر عاكفاً هذا، فهو ذلك الفتى الخائب الذى لم يستطع النجاح إلا فى الملحق، فبأى حق يقدم عليه وهو أول فرقته ؟

وأظلمت الدنيا فى عينيه وحار ماذا يفعل؟ أيسلك سبيل الأعمال الحرة؟ ولكنه مُعْدمٌ والبدْء يحتاج إلى مال. أم يلتمس عملا فى مؤسَّسة أهلية؟ ولكنّ فى البلد أزمة تَبَطُّل عمَّت كل الميادين .

إذَن لم يبقَ أمامه إلا إن يعمل خادماً فى قهوة، أو يجول بائعاً أوراق النصيب، ويدأ ينفض يده من مستقبله إلى الأبد، ومن عفاف أمنيَّة فؤاده،

ويكون قد بَذل بلا ثمنٍ تلك الساعات الطويلة التى أنفقها فى طلب العلم، وتلك الدماءَ الغالية التى استنزفها جدُّه المتواصل. حقيقة أن كل الأعمال شريفة، مادام تنوُّع المهن ضرورة حتمتها طبيعة الجماعة، ولكنْ يبقَى مع ذلك أنها تتفاوت فى نواحٍ أخرى، وإذَن فمن الغبن أن يقنع منها بالتافه، مع أن بيده الإجازة التى ترشحه للمجد، ألا ما أظلم الحياة ! لا بل ما أظلم القائمين بالأمر فيها !

تتابعت كل هذه الخواطر بذهن مصطفى، على أنه أمَّلَ أن لا تكون العدالة قد انقرضت بتاتاً من هذه الأرض، فبدا له أن يذهب إلى رئيس المصلحة ويرفع إليه شكواه لعله ينصفه. وراقت له الفكرة فلم يتردد، وبادر إلى تنفيذها من فوره .

* * *

وَمثَلَ مصطفى بين يدىْ الرئيس، ولم يكن إلا رمزى باشا، فلما فرغ من شرح مظلمته له، سأله الباشا فى تهكم :

- وهل جئتَ تحاسبنى ؟

فرد الفتى عليه وقد ساءه تهكمه :

- عفواً ، بل جئت أستجدى، أستجدى حقى !

وغلـى الـدم فى عـروق الرجل، إذ أدرك أن الفتـى يـوبخه، فقـال له فى حنق :

– أسـمعْ يابنـىْ، لماذا لا تلجـأ إلى الأعـمـال الحـرة بدلا من الوقـوف بأبواب الحكومـة ؟ أليـس من خَـوَر العـزيمة أن يفـر شـابٌ مـثلك من ميدان النضال؟

وهكذا كـان أسـهل على البـاشـا أن يصِمَـه بـالخـوَر من أن يصِمَ نفسـه بالظلم !

ووقـفت هذه الجـملة فى حلق مـصطفى، وكـاد يثـور لكرامتـه، ويلقِى على الباشـا درسـاً فى وجوب احترام الناس حتى لو لم يكونوا من حملة الألقاب، ولكنه مـا لبث أن أخـذته رهبـة المنصب فـتـراجع، ثم قـال وهو يزدرد الإهانة دون أن يقوى على القذف بها فى وجه خصمة :

– مـا كنتُ بالفـاتـر الهمـة أيـهـا البـاشـا، ولكننى لا أملك النواة، لا أملك القروش التى أبْذرها لتُنبِت جنيهات .

– آه ! هذا ذنب حظك .

– حظى لم يذنب، لقد سلمنى بَدَلَ الذهب وثيقةً به، وبذلك خرج الأمر من يده، وانتـقل إلى أيدى من وُكِلَ إليـهم إيتـاء الحقـوق، إن فى كل خليـة بذهنى الممتاز دائناً يدين الوطن .

فشعر الباشا بالخزى، ولم يجد ما يستر به حرجه إلا أن يبتسم ساخرا بمحدِّثه، ثم انكب على أوراقه يفحصها، لم يكن يُعْوِزُه المنطق الذى يُفْحِم به فتى حَدَثا، ولكنْ كان يعوزه الحق، وسلاح الباطل مفلولٌ أبدا، حتى لو كان فى يد فارس .

أما مصطفى فراح يقول كمن يلقى بآخر سهم فى جعبته :

– رحماك أيها الباشا! إننى فقير وأعول أمًّا مريضة، فاعملْ شيئا من أجلى .

ولكنه لم يجد جوابا فانصرف، غير أن لهجته كانت قد فعلت فى ضمير الباشا فعلها .

* * *

وصادفه فى أحد أرْوِقَة الديوان موظفٌ شَيْخٌ من موظفيه كان صديقا حميما لوالده، فحياه ولما لاحظ أنه مهموم سأله عما به فقص عليه قصته .

فلما فرغ منها قطب الشيخ جبينه وراح يتمتم فى استياء :

– قاتل الله المحاباة ! تخفض الرؤوس وترفع الأذناب!

– إذَن فعاكفٌ للباشا ذنَب؟

– أجل، إنه خاطبُ ابنته، إن لدى الباشا ابنة دميمة حار كيف يزوجها. ولما علم بذلك الخبيث «رجب» – وهو موظف معى بالقلم يتقن من الزُّلْفَى للرؤساء – لم يشأ أن تفلت من يده الفرصة، فجاءه بهذا الخاطب على أن تكون الوظيفة ثمنا لزواجه. لا حول ولا قوة إلا بالله ! إن بعض البنات أصبحن سلَعاً تباع، والزواج بهن صار رشوة .

– هذا فظيع ! وأفظع منه أولئك الذين يتزوجون منهن دون رغبة، ويبذلون رجولتهم لقاءَ وظيفة، ماذا أغلى من الرجولة، حتى نهدرها فى مخادع نساء لا نطيقهن ؟

واستطرد :

– حقيقة إن هذا الزواج يجبر خاطرِ الدميمات العوانس، إذ يأتى لهن بأزواج ممتازين ، ولكنه يكسر خاطر الحسان الفقيرات، لأنه يترك لهن الحثالة مع أن حسنهن يكسبهن الحق فى النُّخْبة. ليست الدمامة ذنبا، ولكنّ الطيور يجب أن تِقع على أشكالها. وقديماً رشَّحَت الصفاتُ ذويها لِمَا تستحق .

– دعنا من هذا، ما رأيك فى أن للباشا ابنة أخرى فى وسعك أن تتزوجها وتظفر بوظيفة؟

فهتف مصطفى :

– أنا؟

-أجل. ولن تُذِلَّ فى هذه الصفقة رجولتك كما أذلها عاكف، لأن الفتاة التى أعنيها آية فى الحسن .

وإذ كان مصطفى يعرف بيت الباشا، من طول ما مر به هو وعفاف، فقد طافت بذهنه الفتاةُ التى ما رأتهما منه إلا تبسمتْ، فأمَّن على أنها حسناء . ولكنه لم يتردد فى أن قال :

– لتكن «فينوسَ» أخرى يا عمى، فإنى خطبَت فتاة أحبها وتحبنى ولا أرضى بها بديلا .

– ذاك وْهمٌ يابنىّ من أوهام الشباب ما يلبث أن يزول .

– ليكن فإن الجمال فى هذه الأوهام، وهبْها تزول فماذا غيرها يبقى؟ إننا أنفسنا نعيش إلى أمد، وما كان للفانين أن يعيِّروا سواهم بالزوال، وفضلا عن ذلك فعارٌ علىّ أن اشترى رزقى بزواج، حتى لو برَّح بى الجوع .

– لست أرى المغالاة فى التعفف من حسن الرأى، عليك يابنىّ إذا أردت أن تعيش ، أن تتطبع بطباع العصر الذى تعيش فيه، وإلا رحت ضحية مثاليَّتك.

– ضحيةَ مثاليَّتى ! ألا بئس عصرٌ تصبح المُثُلُ فيه نكبة على الإنسان !

– على كل حال فكر فى الأمر .

– فيم أفكر ياعمى؟ أفى الاتجار برجولتى ؟ أم فى الغدر بمن منحتنى

قلبها فكانت كريمةً ووثقتْ بى؟

- قلت لك لن تتجر برجولتك، لأنك ستتقاضى مقابلها من زيناتَ أنوثة .

فقاطعه مصطفى ساخراً :

- وهل هذا اسمها ؟

- نعم .

- وما اسم الغادة الأخرى ؟

- مخطوبة عاكف ؟ جلفدان .

ثم عاد يتمم حديثه قال :

- وأمّا عن الحِنْث بعهد مخطوبتك، فلست أنكر أنه شىء بغيض، ولكنه ما زال أهون الضررين، إذ فى وسعها أن تنتظر إلى أن تجيئها الأيام بسواك، ولكن أمك لن يمهلها المرض حتى يبسم لك الدهر، ثم كيف تتزوج وأنت على فقرك هذا، إلا إذا كنت تريد أن تجيع زوجتك، وهو أمر إن ارتضيتَه ما إخالها ترضاه؟ فها أنت ذا ترى أن هذا الزواج محال أن يتم، ما لم يُوَاتِكَ الحظ وتوفق إلى عمل، وهو ما أراه معجزة فى هذا الزمان بالنسبة إلى فقير، إذ لن تعدم كلما تقدمتَ إلى وظيفة، مزاحماً من ذوى الحظوة يقْنصها منك، مِن وضيعٍ يَجعل المصاهرة سبباً لها، أو ثرىٍّ فى غنًى عنها ولكنه لا يَقْنَع .

وشعر الفتى باليأس. لقد تذكر حبه الذى أصبح فى كفة القدر، وأمَّه التى يبيع المرضُ فى جسدها ويشترى. فتنهد ملْءَ صدره وقال :

- تَبّا لهؤلاء ! إنهم يودون التهام كل شىء، كأنهم ورثوا الأرض وما عليها، وما هم بجياعٍ ولكنّ الجوع فى خلُقهم، إنهم غيلانٌ آدمية، تأخذ لِلَذة الأخذ لا لحاجتها إليه، حتى إذا ما اكتظت بطونها بما تَلتهم، لَفَظَت ما لم تستطع هضمه فى ذلك الترف الذى تنغمس فيه، حسبْهم اللّه ! مَن حولّوا أقوات الناس إلى دُمًى يلعبون بها، وتركوهم فريسة للجوع !

واتفق أن خرج الباشا من مكتبه ومر بهما، كان فى حالة يرثى لها من العذاب، بدل الخزى البادى فى عينيه، والغبْرة التى تعلو جبينه، على أنه يعانى أزمة تَمُتُّ إلى الضمير، فأطبق مصطفى فمه، وتراجع لشيخ يفسح لرئيسه .

وحيا الباشا مرءوسَه وهو مار، ولم تخفَ عليه شخصية من كان معه، فأدرك أن بينهما معرفة، ولأمر ما شعر بأنه قد يستغلها فى مهمة لم تتَّضح له خطوطها بعد، كأنما كان ضميره يحدِّثه فى الخفاء بأنه لن يدعه حتى ينصف من ظلمه، وعندئذ قد يحتاج إلى من يبعثه فى أثره ليأتيه به .

وكان منظر الباشا قد حرك فى نفس مصَطفى عوامل الحقد، فراح يستعدى عليه السماء . وبعد قليل شوهد يهيم على وجهه فى شوارع المدينة

لا يلوى على شىء .

* * *

ومنذ ذلك اليوم انقبضت نفسُ الفتى ومخطوبته عن زينات ، فكان يعانيان مشقة كبيرة فى رد التحية إليها ، كلما مرا بها فأومأت كعادتها لها .

وما ظلمتْهما زيناتُ وإن ظلمهما أبوها، ولكنْ من كره نفساً كره ما حولها.

* * *

الفصل العاشر

بلغ الجشع بمعظم الحكام الذين عاصروا رمزى باشا، أن خصوا ذويهم بوظائف الدولة، كأنها تركة آلت إليهم عن آبائهم لا عن الوطن أبى الجميع، فكنتَ إذا تعقبت طائفة الموظفين ألفيتها شَبكة متصلة الحلقات، تربطها جميعاً روابط القرابة أو النسب ، وقلَّ أن تجد بينها حلقة قائمة بذاتها لا ينتظمها هذا العقد الجهنمى .

إلا أن رمزىّ باشا لم يكن من هذا النفر، فقد كان يمقت المحاباة أشد المقت، ولا يبرم أمراً إلا إذا اعتقد بعدالتهّ، ولعلِ هذا كان يرجع إلى عمق شعوره الغريزى بالعدالة، عمقاً لم يستطع معه أن يؤثر وحىُ البيئة فيه .

فلما دخل عليه رجب أفندى يعرض عليه خاطباً لجلفدان، ويلمِّح له من طرف خفى بالثمن الذى يطلبه الخاطب، شعر أول الأمر بالاشمئزاز من هذه الصفقة، وكاد يرفض المضىَّ فيها، لولا أنه سرعان ما تذكر ابنته العانس ، ثم ما قد يترتب على عناسها من عناس الأخرى، فطغى عليه حنانه الأبوى، ووجد في هذا العرض فرصه ذهبية لإزالة نحسهما ، فلم يلبث أن قبله على مضض وعيَّن عاكفاً فى الوظيفة الخالية .

غير أنه لم يكد يخلص من إشكال ابنته حتى وقع فى إشكال آخر، هو

تأنيب الضمير من جراء المظلمة التى أقدم على ارتكابها، كان يشعر بأنه وإنْ أسدي إليها خدمة، فقد أسداها إليها على حساب إنسان آخر ، وتلك جريمة لا يكفى لتسويغها حب الآباء للأبناء .

على أن منظر الفريسة التى أرداها فى سبيل هذه الابنة، لم يلبث أن غرق فى موجة الفرح التى غمرته لتَخلصه من عناسها، وغرقَ معها مؤقتاً صوت الضمير، فلما قابله مصطفى وأعاد على عينيه مشاهدَ المأساة التى قام فيها الباشا بدور المجرم، انجابت الأمواج عن الغريق، وراح الباشا التعِس يتمثل فى جثته المسجَّاة شناعة الجرم الذى اقترفه .

ولم يكن بُدٌّ من أن يزود عن نفسه هذا العدو المخيف، ألا وهو الضحية التى راحت تستمطر عليه اللعنات من ضميره، فانبرى يحاول الإجهاز عليها بذلك المنطق المزيف الذى جادل به مصطفى عندما جاء يشْهر فى وجهه سلاح الحق .

وهكذا يتمثل الآثمُ فى ضحيته عدوه اللدود بعد أن تخر مضرجة بدمائها ، فيمعن فى القسوة عليها ظانًا بأن هذا يمحو كل أثر لها فى الوجود ، فلا يعود يتعقبه منظرها المخضب بالدم ويلِقى الرعبِ فى قلبه، وينْسَى أن الضحية وإن اختفَت، يبقَى ظلها إلى الأبد وقد احتل عينىْ قاتلها وأخذ يذكِّره باثمه على الدوام .

وإذَن فهل ظفرتْ نفسُ الباشا بالسلام بعد أن أجهز على فريسته؟

كلا، لقد كانت كل طعنة يطعنها بها تزيد كمية اللعنات التى يصبها عليه ضميره، ولذلك ما كاد مصطفى يخرج من لدنه مكسور الخاطر، حتى وجد نفسه محاطا بجيش من ألد أعداء المرء، ألا وهو صرخات الضمير حينما يسخط .

وإنه لَجالس يتلقى الطعنات من ضميره، إذ سمع نقراً خافتاً بالباب، دخل على أثره رجل منحنى القامة من طول ما اعتاد أن يطأطىء رأسه، وقد حرص على أن يزرَّ سترته ويغضَّ من بصره، ثم اتجه إليه يقدم رجْلاً ويؤخر أخرى، وقد ارتسمت على فمه تلك الابتسامة البغيضة التى لا تفارقه أبدا، حتى إذا ما دنا منه مال على يده فقبَّلها، ثم وقف معقود الذراعين على صدره كما يقف العبد أمام مولاه، كان هذا الرجل رجب أفندى الذى مثَّل دور الخاطبة بين عاكفٍ وابنة الباشا .

تُرَى فيم جاء؟ وشعر الباشا نحوه بالمقت والاحتقار، ولكنه كان مضطراً إلى أن يداريه، وإلا فضحه هنا وهناك، ثم إنه لم ينْسَ أنه أسدى إليه جميلا على كل حال، وإن كان السم يكمن فى أطوائه، ومن عادة العين أن تنكسر أمام من أوْلاها معروفا .

وتكلَّف الباشا الابتسام وسأله :

– ماذا يا رجب ؟

ومهد رجبٌ لحديثه ببضع ضَحِكاتٍ ذليلة متقطعة، اعتاد أن يطْلقها دائماً قبل أن يطلب أمراً أو يشى بأحد زملائه، ظنًّا منه بأنها تجعل حديثه مقبولا، ثم أسَرَّ إليه بحاجته .

كان يطلب ترقية لا يستحقها، ولكنْ الباشا المدين له بزواج ابنته اضطر إلى أن يطْبق فمه، وما كان منه إلا أن أمر له بما شاء .

٤٣٩ وخرج رجبٌ متهللا، بعد أن عرف كيف يربح القضية من زملائه، ولكنه لم يكد يغادر الغرفة حتى ازداد ضمير الباشا تعذيباً له، لقد تورط فى جريمة جديدة، بحرمان الموظف الذى تخطاه ليرقِّى رجباً .

وهكذا تلد الجريمةُ الجريمة، حتى تتكون من حلقاتها سلسلة يُشْنَق فيها المجرم أخيراً يوم يثوب إليه ضميره، فترُى ما هى الحلقات القادمة؟ وإلى أى مدى سيبْلغ طول هذه السلسلة اللعينة؟ وراحت تتمثل له الضحية الجديدة مضرجة بالدماء، وقفزت إلى جانبها ضحيته القديمة مصطفى ، والضحايا المستقبَلة التى راح يصورها له خياله ، ووقف هو بينها يمثل دور القاتل الذى أمسك بالخنجر وطعنها جميعا .

وهكذا انقلب الباشا آثماً فى نظر نفسه، وهو الذى عاش طول عمره سليم الوجدان، وأدرك أن راحة الضمير نعمة تَعْمُرُ قلوبَ الصالحين لا يراها إلا الأشقياء، وراح يتساءل : أكل ذلك من أجل ابنتيه؟ ألا ما أكثر ما يكلِّف

الأبناءُ الآباء .

ولم يطق يومئذ صبرا على البقاء فى مكتبه، فغادره إلى الخلوات ينفِّس فيها عن آلامه على نحو ما تقدم، وكان ما كان من رؤيته حسن أفندى يحدث مصطفى، وكان ما كان من ارتياحه المبهم إلى هذه العلاقة بينهما .

* * *

ومرت الأيام طِوالاً عليه، وكان من شأن الصدمات التى لاقاها، أن أحدثت هزة عنيفة بنفسه، زادت من رقة عواطفه ومبلغ رثائه للناس، فشعر بعطف شديد على مصطفى، وعزم على أن يعوضه خيراً عما فَقدَ فى أول فرصة تسنح له، بل إنه شعر بالعطف على كل البؤساء، ومن بينهم تلك الجيوش الجرارة من الشباب الجائع أمثاله، الذين يُلقَى بهم كل يوم إلى هاوية التبطل ليموترا هناك، فعاهد نفسه لا على الأخذ بيد مصطفى وحده، ولكن على العمل من أجل الجميع، ووثبت إلى ذهنه إصلاحاتٌ عدة، راح يطلب من اللّه أن يعينه على تحقيقها، ويتحين الفرص التى تمكنه من ذلك .

وما إن أضمر هذه النية حتى أحسَّ دبيب الراحة يسرى فى نفسه، كأن مجرد العزم على التكفير تكفيرٌ صغير، فلم يتمالك أن حنَى رأسه شكراً لمصطفى، فإلى مأساته يرجع الفضل فى إزالة الغشاوة عن بصره، وإيقاظ

قُوَى الخير الكامنة فى نفسه وتسخيرها للعمل الصالح، ولعل نبله الأصيل هو الذى مكَّن لهذه الدروس من أن تفيده، ففى كل يومٍ يمثل الكثيرون من أمثاله أنوار الآثمين فى مآسٍ منّ هذا النوع، ومع ذلك لا تتحرك ضمائرهم لرؤية الضحايا. ذلك أنه يُشترط لكى يتحرك الضمير، أن تكون فيه بقيةٌ من حياة .

* * *

الفصل الحادى عشر

لم يكن من شأن ما حدث بين مختارٍ وعمه، أن يعكر صفو العلاقة بينهما، فبرغبته تَرَك مختارُ الدار، وبرغبته راح يقيم وحده، حقيقة إن بقاءه بين القوم لم يكن مرغوباً فيه، ولكنّ أحداً لم يصارحه بهذا فيخجله، بل لو أنهم فعلوا لَمَا كان عليهم من جُناح، ما دام الغرض من ذلك أن يحتاطوا لقلب ابنتهم العذراء .

لذلك ظل مختارُ يتردد على منزل الأسرة، لا لِيَصلَ الود بينه وبين من ربُّوه فحسْب، ولكن ليلبى أيضاً نوازع القلب نحو زينات، زيناتَ المعبودة، التى لو اقتضى الأمر أن يقف ببابها كشحاذ لفعَل .

وكانت هذه الزيارات المتباعدة، هى كل ما بقى للعاشقين من آمالهما العريضة التى استكثرها عليهما الزمنَ، ولكنهما مع ذلك كانت بقية عزيزة، ظلاّ يحتفظان بها كما يحتفظ الإنسان ببقايا زهرة قطَفها فى عهدٍ قديم محبوب، بل إن هذه البقية كانت أعز عليهما من الأمل ذاته، ذلك أن للأمل حديثاً طويلا، فهو كوكبٍ يبهر العيونَ سناه، فلا نراه إلا حينما يكسف، حتى إذا ما رأيناه عرفنا قيمته، ورحنا نتعلق بخيوط أشعته الصفراء، كما يتعلق الكهلُ بفلول شبابه الذاهب، أو سلَيبُ الروح بالنفس الأخير.

ولذلك لم يكن عجيباً أن تبدو لهمـا اللحظاتُ التى كانت تجمعهما أثناء الزيارة، أنفَسَ من جميع الأعوام التى سلخاها معـاً فيما مضـى . وأن تفعل بقلبهما النظراتُ العَفَّة التى كانا يتبادلانها من بُعْد، مالا يفعله الغزَل.

كما كان طبيعيًا أن تَكتسى الحروقُ التى كواهما بها البعاد بطبقة من الرماد على أثر ما تآكلَ من أنسجتها، فكانت بَعْدَ أن مرت على الفراق شهور، لا تحزُّ إلا فى الأعماق، وأما السطح، وأما وجههما، فكان يسُوده شىء من السلام، سلامِ الجريح الذى التحمتْ أنسجته على سهمٍ تلقّاه، فحمِدَ اللّه على ما سكَن من ألمه، ورضى بهذا مغنما. وهكذا استسلم العاشقان للوضع الجديد، وحصرا فيه كل آمالهما.

وشىءٌ واحد هو الذى ظل بين وقت وآخر يحرك براكين القلق الهامدة فى نفس مختار، ذلك هو توجسه خيفةً من محرز، على أنه كان كلما ثارت وساوسه، لَمَح فى عينىْ زينبَ من دلائل الوجد ما يؤكد إخلاصها له ويعيد إلى قلبه طمأنينته، وكان مما يزيد فى هذه الطمأنينة حرْص الفتاة على تحقيق رغباته من حيث تجنبها زيارة درية، أو الظهور فى الأماكن التى قد يراها منها غريمه .

* * *

وذات يوم دَقَّ جرسُ التليفون فى عيادة مختار، وإذا بالمتكلم شريفةُ هانم، وإذا بها تدعوه لحضور الاحتفال بخِطبة جلفدان .

وذهل الشاب، وكاد يكذِّب أذنيه، بل كاد يظن أن زوجة عمه تمزح، لولا أن المجال لم يكن مجال مزاح، ووضع المِسْمَعة وجلس يفكر: إذن فلقد خُطبتْ جلفدان، وإذَن فما تزال هناك معجزات، على أنه لم يتعب نفسه بالتفكير فى كيفية حدوث المعجزة، لقد كان هناك ما هو أهم من ذلك، بل ما هو أهم من أى شىء فى الوجود، كان هناك أنه سيتزوج زينات، ألم تزُل العقبة من طريقهما؟ فيما مضى كان هذا الطريق يقوم فى وسطه سياجٌ من الشوك، فكانا كلما أرادا أن يلتقيا اعترضتهما الأشواك، فيقنعان بأن يتصافحا من خلالها، ثم يعودان وقد أدَمى كفيهما الحَسَك، أما الآن فالطريق الذى يَرَى فى نهايته زيناتَ ممهَّد، كأنه ممشًى مشقوقٌ فى حديقة، والزهرُ مغروسٌ على جانبيه، وها هو ذا يرى نفسه وقد أخذ يتقدم فيه بسهولة كما لو كان يمشى على حرير، ثم يتناول يدها ويذهب بها إلى وادٍ مقمر، تفرشه الأحلامُ وتغرد فيه جنادبُ الأمل، وها هو ذا يَرَى العش القائم فى وسطه، وقد حَبَس فيه عصفورته، عصفورةَ «الكَنَارْيَا» التى ستَملأ حجراته طيرانا .

لن يسكن عيادته بعد الآن، تلك العيادة التى تَغَصُّ بروائح العقاقير الكريهة، وتتجاوب فيها أصداءُ أنات المرضى، ولكنه سيقطن «ڤيلاّ» أنيقةً

بالمعـادى، تلك الضـاحيـة الخيـاليـة، المخطَّطة على نمـط الفـردوس، حـيث الحدائقُ تَنْبت فـى كل مكان، حتى على الأرصفـة يغـرسـون الزهر ويسـقونه. مـا أجمل أرصـفـتهـا هــذِى، وقد اخـتلطــتْ فوقـها ألوانُ الزهور فبدت كقوس قُزَح! ومـا أجـمل جــوهـا فى الأصبِحَة وفى الأمـاسى، حين يفـوح العطْر من كــل ركــن ثم يتجمع فى كتلة واحدة، تسـير كـأنها سـحـابةٌ غير منظــورة وتَنْضَح كلَّ مَن تحـتهـا ! ومـا أجمـل هدوءها الذى لا يُسَمع فـيه إلا تـغـريد الطيـور، أو أنغام قيثـارة تنبـعث خـافـتةً فى جوف الليل من نافـذة قـريبـة، ثم تتـســلل فى جنح الظــلام لتـغـازِل حسناءَ جـالسـةً فى شرُفْتها تحلم !

ولاحت له «الڤيلا» الموعودة، ورآها وقد عَرَّشَتْ على شُرُفاتهـا الأشـجار المتسلِّقة، وراحت ترصع وجْهاتها بالزهر، الأحمرِ تارةً والأزرقِ أخرى، ومنه المجوف على شكل كأس، والمنضَّد على شكل عنقود، ورأى دَرَجها الرخامى، ذلك الدرج الذى تصطفُ على جانبيه الأُصُص المزروعة «لَتَانْيَا» ، وينتهى إلى شرفةٍ يتدلى من سقفها فانوسٌ يَبعث نُورَه شاحباً كبصيص نجم، ورأى نفسه وهو يصعد هذا الدورج بعد عودته من عمله، وينقر الباب نقراتٍ خافتة، ما يلبث أن يَسمع على أثرها وقْع خطوات منغومة تخْطر فى البهو وتقترب منه، ثم إذا بأناملَ رقيقة تحرك المزلاج، كأنها منقار عصفور يداعب أسلاكَ قفصه، وإذا بهذا الباب ينفتح، ويطل منه وجهٌ جميل يتبسَّم له، فما إنْ يدخل ويوصده وراءه، حتى ينحنى على هذه الأنامل فيلْثمها ، ثم يمضى بصاحبتها

إلى حجرة البِيان، وقبل أن يسألها أن تعزف له أغنية، يعانِق القدَّ المشوق الواقف بجانبه ، ويعصر في روحه بعض الجمال الكامن فيه، ثم يهوِى على ثغر ربَّته – ذلك الثغر الصغير القرمزى الذى يشْبه كِرَازتين متلاصقتين – ويمتص جانباً من الرحيق الذى يندِّيه .

* * *

ثم انتقل بفكره إلى منزل عمه ، وراح يسائل نفسه عن وقْع البشرى على قلب زيناتَ ويقول :

– تُرَى ماذا فعلت الفرْحةُ بها ؟ لَكأنى بها الآن كعصفورٍ استخفه الطرب، فجعل يثب من غصنٍ لغصن، ويبعثر فرْحته هنا وهناك، ليخفف بعض حملْها عن كاهله .

ولو أتيح له أن يراها لَمَا ألْفاها إلا كذلك، لقد كانت وكأن عصافير الجوِّ طراً قد ركبتْ جسمها، كانت فى الحديقة، تقفز من ممشًى إلى ممشى، ومن مقعد إلى مقعد، وأحياناً تغوص فى حوضٍ للزهور، ثم تظهر بغتةً خارجة من سواه، أو تخلع حذاءها وتتسلق شجرة ما تلبث أن تغيب بين أغصانها، فكان يخيل للناظر إليها أنها تطارِد فراشةً تتنقل من زهرة إلى زهرة، وتأبى أن تقع فى هذا الفخ الجميل، أو أنها هى هذه الفراشة، وقد مضت تترنح من كأس عطْرٍ شربتْها .

وكانت أحياناً تقف فجأة، ثم ترنو إلى الأفق وتبتسم، كأنما ترقب فيه صورة محبوبة تَكَشَّفَ لها عنها، أو تحين منها التفاتة لإصبعها الجميلة، التى سُيلبسها فيها مختارٌ خاتم الخطبة، وهنا سرعان ما يُشعٌ هذا الخاتم ببريقه فى قلبها، فينعكس على وجهها فى شكل تألقات خاطفة، تلتمع على كل ذرة فيه، وتزيده نوراً على نور .

ثم تسْبلِ أجفانها الكحيلة على سعادتها وتحلم، وما تلبث أن ترى فى الحلم مثْلَ الصور التى كان ينمِّقها خيالُ مختارٍ له، فتَسمع النقَرات الخافتة بالباب، وتميِّزها بقلبها من ألْف نقرةٍ ونقرة، فتلقِى بالثوب الحرير الذى كانت تطرزه، ثم تسرع فتفتح للطارق، وتمضى وإياه إلى حجرة البِيان ، وبعد أن تستسلم لحظة لقبلاته العذبة، تُجرِى أناملها على الأصابع العاج، فتُسمعه نغماتٍ حالمة، رقيقة كالأفواف، أو كالنسيم فى ليلة من ليالى الصيف .

غير أن خاطراً سنَح له فهوَّش عليه هذه الأحلام، وهو أن الطرّيق الذى فُتِح أمامه إلى زينات، قد فُتِح أيضاً أمام كل راغب فيها، وقفز إلى ذهنه محرز، حقيقة أنه أخفق عندما طرق أبواب قلبها، ولكنه قد ينجح فى الوصول إليها من باب أبيها، فلم يملك إلا أن هتف :

- ينبغى إذَن أن أكون أول طارق لهذا الباب، أجَ ، يجب أن أعجِّل، وليكن ذلك الليلة .

وفى جوار دورات ذهنه السريعة، كانت الساعات تمرُّ عليه ببطء، فكان يخيل له فى كل دقيقة تمر، أن محرزاً ذهب يطرق باب رمزىّ باشا، ويسأله المفتاح الذى يَفتح به قفص عصفورته .

* * *

وفى الموعد المضروب ، وصل مختارٌ إلى بيت عمه . واستقبله الباشا وزوجته استقبالا حارا، وبالَغا فى الحفاوة به، كان يبدو أنهما عادا يحبانه حبهما القديم .

وكانا سعيدين، سعيدين إلى حدّ ٍ يخيل لك معه، أن هذه السعادة قد أخذت تردُّ عليهما بعض شبابهما الراحل ، حتى لَتكاد تْلمح هذا الشباب وهو يكافح ليصبغ شعرهما الأبيض بعصارته السوداء، ويملأ التجاعيد المنتشرة فى وجهيهما بالأنسجة الحية، ذلك أن الشباب عندما عجز عن أن يعود إليهما بنفسه، لم يَقنط، وراح يرسم حولهما من رفيفه هالةً فتيَّة، تخدعك عن حقيقة سنهما .

أما زيناتُ فلم تكد تَشدُّ على يد حبيبها، حتى نمَّ خجلها عن سعادتها، وعندما حَركت شفتيها تردُّ التحية، ارتجَّ طُوفانُ السعادة الذى كان يغمر روحها، وبدا أثر أمواجه فى عينيها اللتين لم تلبثا أن أغرورقتا بالدموع .

وهكذا كان كل شىء مبتهجاً فى بيت رمزىً باشا. حتى الخدم، كانوا طرِبين بعرس سيدتهم. حتى أثاثُ البيت، أوشكتْ أن تنبثق منه ثغورٌ وتتبسَّم، ما خلا صاحبة العرس، فقد بقيت وحدها على هذا الوجوم الذى لازمها منذ صباها .

يا للعجب ! أيحزن الإنسان فى ليلة عرسه؟ حتى إذا كان هذا الإنسان جلفدان؟ ألا يَخلق بها أن تفرح أكثر مما تفرح أى عروس؟ ألم تنل فوق ما كانت تحلم به، لأنها حلمت بكل شىء إلا الزواج؟

وراح مختارٌ يسائل نفسه عن السبب :

– تُرَى لمْ يعجبها الخاطب؟ ولكنّ أى خاطب يجب أن يعجب جلفدان، حتى لو كان هذا الخاطب «أحدبَ نُتْرِدَامَ» نفسه. إنّ لجلفدانَ كما لكل إنسان دميم، عيناً تستطيع أن تبصر أقل أقل درجات الجمال ، لأنها تنظر إليه بتلك العين المحرومة التي ترضَى منه بأقل شىء، إن مثَل هذا الدميم، كمثَل الشحاذ الذى يمكنه أن يظفر من القمامة بغذاء لا يستطيع أن يظفر به المترف منها، بل إنه لا يحفل من الجمال إلا بهذا القدر الضئيل، لأن عينيه لم تألفا التطلع إلى عَلٍ، وإنه لَيقْنع راضياً به، لأنه يشعر بالغريزة أن العدالة تُجرِى سنَّتها فيه، ذلك أن الله عندما قسَّم هباته على الناس، لم يجعل العدل فى أن يسوِّىَ بينهم، ولَكنْ فى أن يكون على قدر الموهبة النصيب.

وهكذا حار مختارٌ فى أمر المخطوبة، ولكنّ حيرته لم تَطُل، لأنه لم يلبث

أن حضر الخاطب، ورآه مختارٌ فإذا به وسيم يعجب كل حسناء، بل إنه من الممكن أن يعجب زيناتَ نفسها، لولا أنها وَهبت قلبها لصاحب النصيب، فهل تُرَى جلفدانَ أجمل من أختها؟ تالله إن هذا لَبَطَر، قال هذا وراح يلوم فى سره البَطِرة.

ولكنه عاد فتساءل :

- ألا يمكن أن لا تكون جلفدانُ حزينة، وأن يكون الذى يُخَال بها غُمَّة، ما هو إلا كآبتها الأزلية، قد انعقدتْ منها على سحنتها من طول ما لازمْتها سنين، غمامةٌ كثيفة لم تستطع شمس الفرح على سطوعها أن تبددها؟ لمَ لا يكون ذلك؟

وحسِب أنه أدرك السبب فاستراح، ولكنّ الذى أعياه إدراكه، هو تلك النظرات الغريبة التى كانت لا تفتأ توجهها إليه. تلك النظرات النفاذة ، التى كلما حاول تجاهُلها، تعقبتْه واقتحمتْ صدره وراحت تلقى فى قلبه الرعب، لم تكن جبارة، بل على العكس من ذلك يائسة، ذليلة، مستجدية، كان يخيل له وهى تتجه نحوه، أنها تجثو عند قدميه ثم تموت عليهما، ومع ذلك فقد كانت مفزعةً، كانت تُحْدث عنده ذلك الفزع الذى يشعر به الإنسان وهو يدوس حشرة فيقتلها، كان لها تلك القوة السلبية التى يتمتع بها الضعفاء، والتى تشْبه فراغاً ينشقُّ فيبتلعنا.

وعجب مختارٌ للفتاة، إنها أول مرة توجِّه إليه هذه النظرات. ربما سبَق

أن وجهت إليه مثلها، ولكنها لم تكن في كل مرة من المرات تحمل من قوة التعبير مثل ما تحمله الآن، ولكنْ عمَّ تعبِّر؟ هذا ما عجز عن الإجابة عنه، ولولا استحالة الفكرة، لظن أنها تحبه وتتوسل إليه وتستنجد به .

غير أنه لم يشأ أن يستسلم لهذا التفكير، وآثر أن يقفل راجعاً إلى برج أحلامه، فعاد يسبل لها جفونه، ويهيىء لها الظلام الذى تظهر فيه، كما لو كانت صوراً سينميَّة تفرُّ من النور ، ولكنه كان بين حين وحين، يرفع عينيه إلى زيناتَ الماثلة أمامه، ليَرَى شخص الممثلة التى اتخذت من هذه الأجفان ستاراً تعكس عليه صورها، فكانت اللحظات التى يْفتح فيها عينيه ليراها، هى فترات اليقظة الوحيدة التى كانت تبدو أعزَّ عليه من أحلامه ، فيرضى بإن يقطعها ليَرَى ما هو أجمل، ذلك أن هذا الذى كان يراه، لم يكن إلا تعبير هذه الأحلام .

* * *

وبعد انفضاض الحفل، استطاع مختارُ أن يخلو بزيناتَ دقائق، وعندما همَّ بأن يتكلم، رفعت إليه عينيها وتبسمت، ثم اطرقت إلى الأرض وولت هاربة، وشَعرها المرسَل يهتز فوق كتفيها، كانت تدرك ما سيقوله لها، وقرأتْه فى وجهه على الفور، فلم تستطع أن تقاوم خجلها وأجفلت .

وما تمالك الفتى أن تبسَّم. لمْ يَرها فى يوم من الأيام أفتن منها وقتذاك.

وكيف لا وقد كانت تلك الفتاةَ السعيدة، الخجلة من سعادتها؟ التى يسألها بعينيه أعز مطلب ، فيمنعها حياؤها من أن تجيب، ولكنّ هذا الحياء نفسه ، ما يلبث أن يتولى عنها إجابته إليه. فهل ثمة منظرٌ يأسر اللب كهذا؟ منظر الأرواح وهى تَخرج من مخابئها المسحورة ، وتتجسَّم وتنطق ؟ تارةً فى شَكل وردٍ على الخدود، وتارة فى شكل بريقٍ بالعيون يتألق؟ ألا حيًّا اللّهُ الأرواح ! برَّت بحسنها أجملَ جسد !

لم يكن من قَبْلُ يؤمن بالسحر، وإنْ كان من أشد المؤمنين بالجمال. أما الآن، فقد رأى السحر رأىَ العين، رأى نفسه أمام ساحرة تنْفُث له العُقَد، وتشكِّله بعصاها كما تريد، ألم يتغير فيه كل شىء مذ لمستْه تلك العصا؟ ألا يرتجف بدنه أمام تيارها السحرى؟ ألم ينقلب فؤاده طائراً أخذ يطير فى صدره ويعربد؟ ألم يكتسِ الكونُ فى عينيه بضباب رقيق، صار يرى الأشياء خلاله شاحبة؟ ثم ما لهذه الأشياء تتراقص ويختلط بعضُها ببعض، حتى ما يكاد يميِّز الزهرة من النحلة، ولا الممشَى من الغدير، فى هذه الحديقة التى يطل عليها من موقفه؟ لا شك إذن أنه سُحِر، ولاشك أنه طرِبَ لهذا السحر، لأنه لا يود أن يَلُوذ بُرقْيَةٍ تردُّه إلى أصله .

كان ذلك حال مختارٍ عندما تركته زينات، وكأنما قد أراد المزيد من السحر فذهب فى أثر الساحرة، أو لعل سحرها نفسه، هو الذى جذبه إلى حيث ذهب، فإن للسحر تياراً لا يفتأ المسحور مشدوداً إليه ، فما يملك إلا

أن يتْبع الساحر .

وهكذا تَبِعَها مقتفياً – بِهَدْيِ نورٍ مبهم – آثار قدميها الوهمية، فألفاها في إحدى الحجر جالسةً تعبث بأظفارها، وفوجئت حين رأته، ودَسَّت وجهها في وسادة، فلما نحَّاها راحت تستره باليدين، وأحسَّ جسدُه برجفة أخرى، وإذَن فلقد أتحفتْه المُشَعْوَذةُ بلعبةٍ جديدة! تُرَى كم من الألعاب تخفِى في جرابها؟ ألا ما أحلى هذا الجراب ! ليته لا يُفرغ أبد !

بهذا راح يحدث نفسه، ثم استدار إلى الساحرة يحدثها، وأخذ يتلعثم، ورقصت الدنيا في عينيه، كان ما يزال نورُ كفيها المبسوطتين على وجهه، يسْطع في قلبه ويبهر بصره .

وأخيراً استطاع فمه أن ينبس، فقال في صوتٍ مرتعش :

– زينات ! كل شيء قد تَذلل الآن فما أسعدنا ! الزهرُ الذي كان مُشَبَّكاً في الحَسَك ، قد انسلَّت الأشواكُ منه، وأصبح مهيأً للقطاف، سأذهب إلى أبيك الليلة وأطلبك منه، فإذا ما كان الغدُ وضعتُ في إصبعك هذه الجميلة، خاتمَ الخطبة وطبعتُ أول قبلة عليها .

وأمسكَ بإصبعها وراح يمرُّ عليها بأنملتيه ، كما لو كان يلْبِسها خاتما .

وارتجفتْ زيناتُ في يده، وقامت لجسدها الجميل قيامة. نعم ارتجفت، لأن هذه الساحرة نفسها لم تكن إلا مسحورة. وكان الواقف أمامها هو الذي

سحَرها .

وتبسمَتْ ، وتحركت شفتاها تتساءل :

- الليلة ؟

تُرَى لمَ تتصنع الدهشة ؟ ألم تُرِد هى ذلك ؟ ألم تُوحِ إليه أنِ اذهبْ إلى أبى واخطبنى، الليلة؟ إذَن فلماذا تسأل عن أمرٍ تعلمه؟ ذلك سرٌّ تعرفه العذارى وحدهن .

* * *

غير أن الأقدار أبت أن تطيل نشوة الحبيبين، وما لبثت أن عبثت بالمسحور والساحر. ذلك أنه بينما كان مختارٌ يداعب إصبع زينات ، إذ سُمِع صوتُ شىء يسقط على الأرض ، دوَّت على أثره صيحة تردَّد صداها فى جوانب الدار .

وفر لون مختار، وصرخت زينات :

- أماه !

لأن الصيحة كانت صيحة أمها .

ثم انطلق كلاهما يعدو نحو مصدر الصوت، وزيناتُ تصرخ وتقول :

- أماه ! ماذا أصابك أماه !

على حين كان الباشا يصيح من الجانب الآخر قائلا :

- مختار ! أدركنا !

وعندما بلغا الردهة شهدا كل شيء ، وما أغرب ما شهدا! جلفدانَ ممددّة على الأرض ترتعش، والقوم من حولها يُعْنَون بها . إذَن فلم تكن شريفةُ هانم هى التى سقطت، ولكن كانت جلفدان. جلفدان العروس! فماذا حدث ؟

وأسرع مختار يفحص الطريحة، على حين ارتمت عليها زيناتُ تقبِّلها وتقول :

- أختاه ! أختاه ! ما بك؟

وغمغم الطبيب وهو يحل أزرار قميصها :

- لا شيء يدعو إلى القلق، إنه إغماء بسيط، وما تلبث أن تفيق منه .

ثم انكب عليها ينعشها، وكانت زيناتُ فى هذا الوقت لا تفتأ تبكى وتقول :

- أختاه ! أختاه !

كان قلبها ينفطر على أختها .

* * *

وبعد هنيهة، فتّحت جلفدانُ عينيها وأجالت بصرها فى الحضور، فلما وقع نظرها على مختار ، تنهدت تنهيدةً رجّت كيانها، أتُراها كانت تشكره على عنايته بها ؟ إذَن فلم تكن مندوحة من أن يربِّت يديها ملاطفاً، ليكون ذلك بمثابة تقبُّل لشكرها . ولكنّ عينيهما لم تلبثا أن التقتا، فتذكّر شيئاً ارتعدَ منه. تذكَّر نظراتها إليه وهما فى حفلة الخطبة، المعنى نفسه، والغرابة نفسها .

ولكنه عاد فشُغِل عن ذلك بالعناية بها، لأنها كانت ما تزال خائرة القوة من أثر ما عانت، وكانت هذه العناية خير إنقاذ له من مواجهة هذا اللغز الغامض ، الذى كان يشعر كلما وقف أمامه، بذلك الشعور الذى يحسه الإنسان عندما يقف أمام جِنِّى لا يَعرف من أين يأتيه منه الخطر ، ليأخذ الحذر لنفسه .

أما زينات، زيناتُ التى كانت تحبها أكثر من نفسها، زيناتُ التى جزعت عليها أكثر من أمها وأبيها، فقد كانت واقفة تنظر إلى أختها بعد أن أبلَّت وتبتسم، وتحمد اللّه فى سرها على أن ردها إليها حية، وكانت كلما فاضت بها كأس الفرح، راحت تفْرغها على خدها بالقبلات، وهى تقول :

– أختى ! أختى !

* * *

وأمضى القوم هزيعاً من الليل إلى جانب سرير جلفدان ، حتى إذا ما أطمأنوا عليها، استأذن مختارُ وانصرف، وكان طبيعياً أن يرجىء طلب يد زيناتَ من عمه ، بعد ما طرأ على أختها وأخال الظرف غير مناسب . وهكذا نقدِّر فتضحك الأقدار، حتى إذا ما حان وقت التنفيذ كانت الكلمة ما قالت .

وقال لها وهى تشيعه إلى الباب :

– أرجو أن تسترد جلفدانُ نشاطها غداً وأفاتح والدك، غداً يا زينات، أرجو أن يتم كل شىء، إلى اللقاء .

غير أن زيناتَ كانت مشغولة عن أملها الحلو بالفرحة التى غمرتها على أثر إبلال أختها، ومع ذلك فقد أومأتْ إليه إيماءة عذبة، عاش فى سحْرها بقية الليل .

* * *

الفصل الثانى عشر

عندما فو تحت جلفدانُ فى أمر خطبتـها لعاكف، شدَّ ما كانت دهشة القوم حين ألْفَوْها تَرفض .

كانت أمها أولَ من فاتحها فى ذلك، حملتْ صورة الخاطب الوسيم وهى مَزْهُوَّة، ودخلت عليها تزف البشرى، ولكنّ جلفدانَ التى كان يبدو أنها كونت رأيها من قبل ، ألقت على الصورة نظرةً فاترة، ثم دفعت بها إلى أمها وهى تقول :

– ألم أقُلْ لك مراراً يا أماه، إننى لا أريد أن أتزوج؟

وشعرت الأم بخيبة مُرة، وظنت أول الأمر أن الخاطب لم يرقْها، ولكنها بعد أن فحصت صورته بعين المرأة – تلك العين التى لا تخطىء تمييز سحر الرجل – لم تلبث أن أجابت على شكوكها قائلة :

– ولكنْ أيمكن أن يكون هذا ؟ أيمكن أن توجد من ترفض مثل هذا الفتى الجذاب؟

وطال الجدل بينها وبين الفتاة، فلما يئست من إقناعها بالعدول عن رأيها، هرولت إلى زوجها تستنجد به .

* * *

ولم يكن الباشا بأقل شعوراً بالخيبة من زوجته، عندما أحاط علماً بالنبأ ، لقد كانت مفاجأة لم يتوقعها، وجعل يفكر، وخطر له مثل الخاطر الذى عنَّ لزوجته، ولكنه لم يلبث أن استبعده مثلها ، بعد أن عاد فألقى نظرة على صورة الشاب .

إذَن ماذا عساه يكون السبب ؟ بهذا راح يتساءل ثم استطرد يقول محدثاً نفسه :

- أتُرى فطنتْ إلى أنه لم يخطبها إلا لمأرب؟ أتُرى أنِفتْ عندئذ من هذا الوضع الذى يجرح الكبرياء؟ وأدركتْ أن مثل هذا الزواج الذى لا يقوم على حب ، لن يحقق أحلام قلبها ؟ بل لن يحقق أحلام الزوج نفسه، فتكون النتيجة أن يسىء معاملتها، وربما اتخذ له من دونها خليلة، تشعل فى صدرها نار الغيرة؟ أتُرى قدَّرت كل هذا فزهدت فى زواجٍ لن يكون الفردوسَ الموعود، وإنما الجحيم بعينه؟ إن كان هذا فما أدق الموقف !

وشعر باليأس يدب فى أوصاله كما يدب الموت البطىء، وأدرك عندئذ أنه عندما اشترى عاكفاً بالوظيفة، لم يَحلَّ عقدة ابنته كما توهم، وإذَن فلقد كانت صفقةَ غَبْن ، لم يربح فيها زوجاً لهذه الابنة، وإنما خسر راحة ضميره. وراح يتذكر جريمته من جديد، فانتكس إلى حالته الأولى من العذاب، على أنه لم يلبث أن تعلق بأهدابِ أملٍ لاحت له خيوطه، ومن دأب المرء أنه حين يَغرق فى يأسه، يصطنع لنفسه الآمال لتكون له بمثابة حبال

نجاة. فراح يتساءل :

ولكنْ لمَ تسيء الظن بالفتى، مع أن أحداً لم يطلعها على قصده؟ كلا، ما أحسب أن شيئاً من هذا دار بخلدها .

وأراد أن يستوثق من أن الذى راح يتعلق به هو حبالٌ حقا وليست خيوط عنكبوت، فهرع إلى ابنته ودخل عليها .

* * *

وأجفل حين رآها، لقد كانت صفراءَ كالأموات، كان اليأس الذى يَسْتَلُّ العصارة الحية، قد استلَّ العصارة من بدنها وخلَّفها ورقة ذابلة .

وراح يلاطفها، ويُفيض عليها من حنان الأبِ ماردَّ إليها بعض ما وهبتْه لليأس، ثم سألها :

– أىْ جلفدان ! لمَ باللّه رفضتِ الخاطب؟

وأجابت :

– رفضتُه يا أبتاه لأننى أرفض فكرة الزواج من أساسها .

– ترفضين فكرة الزواج من أساسها؟ هذا عجيب حقا ! لعك الأولى من بناتِ جنسك التى تَرى هذا الرأى .

– لستُ كبنات جنسى .

وخَيَّم صمت ، ذهب فيه فكر الرجل مذاهبَ شتى . وأنشأ يقول لنفسه :

– لعمرى ما تقصد من هذه الجملة؟ أتُراها وقد رأت أن الأقدار حَرَمَتْها مزايا بنات جنسها، راحت تحرِّم على نفسها ما أُحِلَّ لهن؟ أتَفهم دمامتَها إلى هذا الحد، وتعاقب نفسها عليها هذا العقاب المخيف؟ وهل يكون ذلك عدلا ؟ أن تقتصَّ من نفسها لجريمة لم تقترفها؟

ثم استدرك :

– ولكنْ هل العدل أن تَنسى قبحها وتروح تنشد ما لا تستحق؟ تالله لقد حرت فى أيهما العدل ! ما أشد عجزنا نحن البشر عن إدراك كنه الحقيقة ! ولكنْ كيفما كان الأمر فلابد من مقاومة هذه الفَكرة، هذه الفكرة البشعة، التى إن صح أنها تقوم بذهن الفتاة، فلن يكون أشقى منها على وجه الأرض، ولا أشقى منى بها .

فسألها :

– ماذا تقصدين من قولك إنك لست كبنات جنسك ؟

وانتظر الجواب وهو واجف، كان أخوف ما يخافه أن يصْدق حَدْسُه، وأن يكون قلب الفتاة قد تسرب إليه ذلك الشعور الذى يُشقِى صاحبَه أكثر من أى شيء فى الوجود، شعورُ الإنسان بنقص طبيعى فيه ليس فى مقدوره استكماله، ذلك الشعور الذى يؤدى بالمرء إلى أن يلعن نفسه، ويعاقبها بأن يضرب عليها ذلك النطاق المخيف من الحرمان، ذلك الشعورُ الذى يفر

بفريسته من وجه الدني، كما تفر الحشرات إلى الكهوف، حيث يعيش منطوياً على نفسه في وحدة اليمة، لا مُنقذَ له منها إلا الموت .

ومن اللهجة الوَجِلَة التى ألقَى بها الرجل السؤال، ومن علامات الألم التى ارتسمت على وجهه وهو يلقيه، أدركت الفتاة ما جال بذهنه، فأشفقت عليه أن يغدو فريسة للعذاب من أجلها، وعولت على أن تجيبه جوابا ينزع من فكره ما قام به ، فقالت :

- أقصد يا أبتاه أننى لا أحسُّ دبيب تلك الرغبة التى تدفع الإنسان إلي الزواج، لا أدرى، لعل نزوعى إلى ناحية الروح ، قد صرفنى عن النواحى الأخرى، إن كل سرورى أن أبقى هنا بينكم ، أستمتع بحنوكم علىّ، وأتفرغ لقراءتى وعباداتى، إننى أقدس حياة الفكر والروح يا أبتاه، ولا أجد فى الحياة لذة تعْدلهما، فلَساعةٌ أقْضيها فى مطالعة كتاب «لشوقى» أو «تاجور» تفْضل عندى حياة زوجية بأسرها .

وأطرقت برأسها خجلا، لأنها شعرت أنها تكذب، ولكن أكانت تطلعه على الحقيقة؟ إنها لَحقيقة رهيبة، عندما أدرك الآن بعضها أجفل ، فما باله لو أدرك بقيتها؟ ما باله لو أدرك أن تلك التى تشعر بنقصها لم تزهد فى الحياة كما تصور، ولكنها ما تزال تشتهيها، وتشتهيها فى شخصِ إنسانٍ بعينه ، إلا أنها تقطع الأمل منه ؟ وإذَن فما هى بالزاهدة التى أراحها زهدها ، ولكنها المحرومة التى تتوق ولا تتمكن، إنها لم تنس الحياة بعد، ولكنّ الحياة

هى التى تصر على نسيانها، وإنها لَتحاول بكل الطرق، بالدموع، وبالتنهدات، أن تُلفت نظر هذه الحياة إليها، ولكنْ بلا جدوى ، لأن الحياة لا تلتفت إلى من يَبكون، آه، لو علم أبوها بهذا ! إذَن لَمَات كمداً من فوره، ومن ثم فلا حرجَ عليها إن حرصت على أن لا يعلم وراحت بناء على ذلك تكذب .

أما الأب المسكين، فما كاد يسمع منها هذا الجواب حتى تنفس الصعداء، وأنشأ يحدث نفسه :

– إذَن هى ليست فريسة دمامتها كما ظننت، وإذَن فرفْضها يرجع إلى نُضْجٍ ذهنى وروحانى شاذ فى طبيعتها، طغى على غرائزها الأُخَر، تباركتَ ياألله ! إنك لا تَحْرِم إنساناً فى ناحية، إلا أغدقتَ عليه فى أخرى، لا أحدَ أقل من غيره فى هذه الحياة .

واستطرد فى حديثه :

– ولكنْ كيفما كانت فكرة جلفدانَ عن الزواج ، فيجب أن تعدل عنها . يجب أن تتزوج تأهباً ليوم قد تستيقظ فيه غرائزها على غرة، بعد أن يكون أوان زواجها قد فات، ويجب أن تتزوج ، لأنه ما ينبغى أن ترفض صفقة دفعتُ ثمنها، وإلا فعلام كانت محاباتى لعا كف، وارتكابى جريمةً فى سبيلة؟ وأخيراً يجب أن تتزوج من أجل زينات، إذ ما زلت وما زالت زينات، نأبى أن نقيم عرساً فى بيت به عانس .

وهنا قال لها :

تعشَّقتِ يا جلفدانُ حياة الفكر، فهلاً تعشَّقتِ حياة الزواج؟ هلا ذكرتِ حنان الأمومة، ذلك الحنان الذى يَنفح منه شىء مقدس ، والذى لا يقوى على اجتذابه منا إلا الأطفال؟ مَن لهذا الكنز الثمين المدفون فى أعماقنا، غيرهم يستطيع أن يستخرجه ويمتعنا به؟ مَن له مثل منظرهم الملائكى ، يحيطوننا به بتلك الهالة من الطهر التى تزيدنا قدسية فى نظر أعيننا؟ ثم ...

ولكنه أحجم، كان قدأراد أن يردِّد فى سمعها نغمة حلوة تشتهيها آذانُ العذارى، ولكنه ذكر أنها لن تظفر من زوجها بالحب الذى شاء أن ينوه لها به، فتراجع لئلا يؤلم إحساسها .

أما الفتاة فقد قابلَت بفتورٍ إغراء أبيها وراحت تقول له :

– ولكننى يا أبتاه لا أشعر بعاطفة الأمومة حتى أحفل بالأطفال .

– ستشعرين بها عندما يئين الأوان، إن الغرائز الخامدة تتحرك يوماً ما، وإذا تحركتْ تعذرت علينا مقاومتها، لأن مقاومتها ما هى إلا مقاومة لأنفسنا، إننا عندئذ نغدو مع أنفسنا فى حرب، ومثل هذا الصراع لابد أن نتحطم فيه، لأن خسائر الفريقين لن تكون إلا منا، ولأن اندحار أيهما هو اندحارٌ لنا فى شخص المهزوم .

– لو كان فى نية غرائزى أن تتحرك لَمَا أبطأتْ وقد جاوزتُ الثلاثين. كلا يا أبتاه ، أعفنى بربك، لا أريد أن أتزوج .

ولمْ يجدِ الرجل مندوحة من أن يُلقى بآخر ورقة فى يده فقال :

– ولكنْ زيناتُ يا جلفدان ! ألا تتزوجين من أجل زينات؟ ألا تعلمين أنها لن تتزوج حتى تتزوجي ، لأن زواجها دونك أمرٌ لا نرضاه ؟

وكأنما جرحتْها هذه الجملة فهتفت في استياء :

– ولماذا يا أبي ؟ إني أؤكد لك أنني أُسَرُّ لو أن زيناتَ تزوجَت الليلة، آه يا حبيبتي يا زينات ! هل تظن أنني أنْفِسُ عليها شيئاً يا أبي ؟

– معاذ الله يا ابنتي ! ولكنه الحب الأبويّ، سيجعلني أحقد على الزواج ما دمتِ عانسا، فهل تريدين أن تَلحق أختك بك؟ أو يظل زواجها قَذًى في أعيننا إلى الأبد؟ فكِّري جيداً يا جلفدان .

وأثرت هذه النغمة في الفتاة، لقد بدأت التضحية تتمثل أمامها، بكل ما فيها من جلال يُخضع أشد النفوس عنادا، وشعر أبوها بذلك فأخذ يضرب على الوتر نفسه ولكنْ بنغماتٍ جديدة. قال :

– واذكري أننا لن نعيش لك إلى الأبد، فإذا لم توفَّقي إلى القلب الذي يحنو عليك بَعدنا ، فستلْفين نفسك يومئذ في وحدة، وإذا ألَّمت بك ملمَّةٌ فلن تجدي من يواسيك في محنتك ، لأن الذين يحبونك سيكونون نياماً في القبور، وعندئذ ستندمين حيث لا ينفع الندم ، وسنحسُّ عذابك كحلمٍ يطوف بنا ونحن رقود، فنُحْرَم السلامَ حتى في موتنا، فاتقي الله فينا وفي نفسك يا ابنتي، واعلمي أنه لن تهدأ عظامي في جَدَثها، ما لم أشعر ويدِي عن الوصول إليك قصيرة، أن هناك من يتولاك من بَعدي .

واغرورقت عينا الرجل بالدموع. وشعرت الفتاة بأنه يتعذب، فتوسلت إليه بلهجةٍ هي إلى البكاء أقرب، وراحت تقول ويداها معقودتان على صدرها :

– بربك لا تقلْ هذا يا أبي ! لا تَقُله أبدا. إني لا أستطيع، لا أستطيع أن أتصور أني سأفقدك، ولئن فقدتُك فلن آسَى على شيء ، ولا يهمني إنْ شقيتُ أو تعذبْت، بل إني لأرفض أن أداوي اليتْم بَعدك، أو أرتضي للحدب عليّ قلباً سواك، ولكنْ ما دمتَ يا أبتاه تريدني على أن أتزوج ، وما دامت في هذا سعادتك ، فإني ...

ولم تكْمل جملتها، وترددت : أتقولها ؟ إنها إن قالتها فلن تستطيع أن تستردها بَعد، ولكنْ لمَ لا تقولها؟ لمَ لا تتزوج من أجلهم؟ إنها لن تخسر شيئاً بهذا الزواج، فالأمل الذي تنتظره ، ومن أجله اعتزمت أن تتبتل، وُلِدَ ميتا، بل إنها في الحقيقة لا تنتظر أملا ، وكل ما هنالك أنها تود أن تظل في حِدَادٍ على هذا الأمل الذي مات، لقد ودّتْ بَعده أن تذهب في أثره، وذهبتْ فعلاً بقلبها، ولكن هاهم أُولاءِ يقسرونها الآن على العودة إلى الحياة بدونه، فليكنْ أن تعود من أجلهم. ولن يضيرها شيء ما دام قلبها سيبقَى هناك، مع الأمل الذي دفنتْه وأهالت عليه التراب .

وقال أبوها الذي ظل ينتظر تتمة الجملة :

– فإنك ماذا يا جلفدان؟

– فإني ...

واحتبس صوتها ، ثم انبعث يقول :

– أقْبل الخاطب .

ولم تكد تتم جملتها حتى انفجرت تبكى، كانت قد شعرت بأنها غَيّبت سهماً فى حياتها، وانحنى عليها أبوها يكفكف دمعها الهتَّان ، وهو لا يفتأ يسألها عن سبب بكائها فلا تجيب، وأقبلت أمها على صوت نحيبها، وحسبت أن أباها أغلظ لها فى القول فنظرت إليه عاتبة. ولم تملك إلا أن احتضنت ابنتها وراحت تغمرها بالقبلات .

وسألها أبوها بعد أن جف دمعها :

– فيم كان بكاؤك يا جلفدان؟ أوَقَبِلتِ مكرهة؟

ولم تشأ الفتاة أن تمزج بالسم كأس الهناء التى ناولتْه من فورها إياها بتقبلها الخاطب ، فأجابت :

– كلا يا أبتاه، إنْ هى إلا دموعٌ حبيسة شاءت أن تنطلق .

وابتسمت، أو هى تكلفَت الابتسام لتسرِّىَ عن والديها .

وعزا الرجل سبب بكائها إلى أنه لمس من قلبها موضع الحنان عندما ذكر لها قصة الموت، على حين ظنت الأم أنها ما بكت إلا فرحاً بزواجها، وأرجعت سابقَ رفضها إلى أنه ضربٌ من الاحتجاج على الأمل الذى أبطأ عليها أكثر مما يجب، فطبعت قبلة على جبينها وهى تقول لها :

- مبارك يا ابنتى .

وراح أبوها يهنئها أيضا . ثم نادَى أنْ تعالىْ زيناتُ هنيئ أختك .

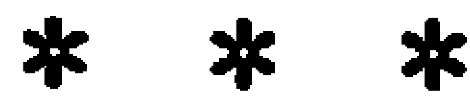
* * *

وهكذا قبِلت جلفدانُ يدَ عاكف، ولكنّ آلامها منذ ذلك اليوم تضاعفت، وأخذت صحتها على أثرها تعتل، لقد عاد يَشُقُّ عليها أن تُكره على خلع السواد، وهجْرِ القبر الذى دَفنتْ فيه أملها الحبيب، ثم تَزَيَّن لتُزفَّ فى حفلة عرس، حقيقة أن قلبها ما يزال هناك، فى وادى العدم، ثاوياً بجوار أملها المائت، وأنها لم تَعُدْ إلى الحياة إلا بالشيء الوحيد الذى بقى حيا فى وجودها وهو جسمها، ولكنْ حتى هذا كان يؤلمها، كانت تَرَى فيه خرقاً للحداد الذى أَخذت نفسَها به، ووهبته كل شيء حتى جسمها .

وشعرت بأنها عقّت حزنَها القديم، وأحست بالغربة فى الجو الذى هجرتْه إليه، بل إنها شعرتْ بأنها تتنكر لنفسها، لأنها لم تكن غير هذا الحزن، الذى شبَّ وإياها منذ وُلدت، حتى اختلط أحدهما بالآخر وكوَّنا مزيجاً واحداً، تعرفه بلونه الأسود .

* * *

وظل الألم يحز فى نفسها المكلومة ويأكل فى جسدها المضنَى حتى أوهنه، فلما كان يوم الاحتفال بخطبتها وأيقنتْ أن السهم نفذ، وكانت قد لمحتْ بين الحضور الكوكبَ الذى انبثق منه شعاعُ أملها القديم فهاج حنينها إليه، فقدتْ رشدها وسقطت مغشياً عليها كما سلف، ذلك أنها بَصُرت بهذا الكوكب، فى الوقت الذى كانت فيه تتخلى عنه لتستضىء بسواه .



أما زيناتُ التى كانت تجهل دخيلة نفس أختها، فقد كانت فرْحتها مزدوجة، فرحت لهذه الأخت، ولنفسها بعد أن زالت العقبة بينها وبين مختار، فعادت تَفْتح أبواب قلبها للأمل يُطْلق أطياره فيه، كما راحت بعد أن تَمَّ الصلح بين حاضرها وماضيها، تُخْلِى سبيل الذكريات التى كانت قد حبستْها فى كهوفه ، وترقبها وهى تطير مع طير الأمل جناحاً لجناح، فرأت من أسرابها الكثير، رأت مختاراً الحدَث وزيناتَ الطفلة. ورأت جِيدها وعقود الياسمين، كما رأت البحر فى ذات يومٍ محبوب، وفوقه سوسنُ تزفها الأمواجُ إلى الشاطئ، رأت ... وما أكثر وأحلَى ما رأت ! وكان من بين مارأته منظر العاشقيْن اللذين طالما مرَّا بها فى نزُهاتهما. وعجبت : لماذا انقطع مرورهما منذ أيام، وأحست بالحنين إليهما .

ولو علمتْ بالسبب لأسفت لهما، ولاستنكرت جناية أبيها عليهما، ذلك أن

مصطفى بعد أن أخفق فى نيل الوظيفة التى حَرمه إياها الباشا، راح يبحث عن غيرها فى مصالحَ أخرى، ولكنّ العدالة السائدة على هذه الأرض، ظلت تتعقبه وتوصد دونه باب كل عمل يطرقه، لتفْتحه فى وجه غيره من أبناء أولئك المترفين ومصاهريهم .

وكان المسكين قد رهن إبان الدراسة منزله لأحد المصارف، لقاء قرض يستعين به على نفقاته، فلما حل أجل الدين وعجز عن سده، باع القضاء منزله، وكاد يصبح وأمه العليلة بلا مأوى ، لولا أن أضافهما عنده صهره أحمد أفندى ريثما يتدبران أمرهما .

وكأنما عز على الفتى أن يلجأ وهو الرجل إلى عون مخطوبته، فذات يوم حزم متاعه وزعم لها أنه حصل على عمل فى الريف ، ثم صحب أمه وبارح البيت على أن يبعث إليها بعنوانه حالَما يستقر به المقام فى مقره الجديد، ولكنّ الأيام تعاقبت دون أن يصل إليها من أنبائه شىء حتى حسبت أنه مات أو هجرها، ومنذ ذلك اليوم غرقتْ فى الظلمة أحلامُ فتاةٍ ذهبية، وانتهى عهدٌ كان يخرج فيه حبيبان إلى حيث ينْعمان بالمنى بين الخلوات .

* * *

الفصل الثالث عشر

مرت الأيام ، وصحة جلفدانَ تزداد سوءا، هَزَل جسمها، وفقدت نشاطها وشهيتها للطعام، وكانت كثيراً ما تعتريها نوباتٌ عصبية عنيفة، تتشنج فيها أطرافها وتتقلص سحنتها، وتظل تئن أنيناً مرجعاً، حتى إذا ما انتهت النوبة، خارت قواها وراحت في نوم عميق، تقوم منه مضطربة كمن كان تحت تأثير حلم مزعج، ثم تأخذ تنظر للدنيا نظراتِ من فتّح عينيه فألفى نفسه في عالم غريبٍ لا يذكر شيئاً عنه، فكأنها ميِّتٌ بُعث بعد رقادٍ استغرق دهوراً، وبدأ ينْفض عن نفسه تراب القبر .

وكانت كلما عَرَتْها النوبة، التف القوم حول سريرها وهم أعجز ما يكونون عن إسداء أية مساعدة لها، فلا يملكون إلا أن يرقبوا في وجلٍ نتيجة هذا الصراع الهائل بين الموت والحياة، لأن جلفدانَ كانت في كل مرة تتشنج فيها تبدو كمن تُحْتَضَر .

ولم يترك أبوها طبيباً إلا استشاره في شأنها، فأجمعوا رأيهم على أنها تعاني مرضاً عصبيا نتج عن رغبات كبتْتها فزاغت في جسمها وتعقدت في خلاياه، وبين وقت وآخرَ تنْشط للانطلاق عن طريق التعبير عن نفسها بتلك الحركات الملتوية، بعد أن أعوزها التعبير السوِيّ.

ولقد كان طبيعيا أن تصبح جلفدانُ فريسةً للأمراض العصبية، وهى التى لم يُتَح لها تحقيق رغبة واحدة من رغباتها، فكانت النتيجة أن عاشت تحْمل فى جسدها رغباتِ العمر كله، وهو عبء تنوء بحمله الجبابرة .

أما شريفةُ هانم فقد ظنت أن الأرواح الشريرة قد سكنت جسم ابنتها فذهبت تستشير السحَرة، وكان رأيهم ما توقعَت، والواقع أنه لا فرق بين الرغبات المكبوتة والشياطين، لأن كليهما قوًى هائلة تربض فى الجسد كعدو مخيف، وما تفتأ تنتقم منه لعجزه عن تنفيذ مشيئتها حتى تنهكه، ومن ثم فإن الأطباء والسحَرة متفقون وإن اختلفوا فى التسمية، بل إن السحرة زادوا أن ابتكروا طريقة مُثْلَى لطرد هذه العفاريت أو الرغبات، وذلك بإثارتها فى حلقات «الزار» بالنقر على الدفِّ وإطلاق البخور، حيث لا تلبث أن تخفَّ لتُلبِّى نداء النغم، وتنتظم فى رَكْبِ الدُّخَان المعطَّر .

واضطرت شريفةُ هانم إزاء عجْز الأطباء أن تؤمن بالسحر. فما عتم أن اكتظ البيت بالساحرات الملثَّمات بالخُمُر البِيض كأنهن راهبات، وبين يومٍ ويومٍ تُوقَد الشموع وتقرع الدفوف، ثم تقف ساحرةٌ تَحرق البخور فوق رأس جلفدانَ لتستحضرَ الجنَّ المختبئة فى جسدها، وجلفدانُ يستخفُّها الطرب فتحْضُرها عفاريت الأرض طرًا، وتنطلقُ فى الحجرة تقفز كقرد هائج، حتى إذا ما رحلت عنها الجِنَّة استرخَت أعضاؤها وأخلدتْ إلى الهدوء .

وتوالت أمثال هذه الحفلات، وغصَّ البيتُ برائحة الشياطين وعَجَّ بأشباحهم، حتى لكأنما هو جُبٌّ أُعِدَّ تحت الأرض لسكناهم. ولكنّ كل هذه المحاولات كانت تذهب سدى، لأن ما كان يتصاعد من جلفدانَ مع النشاط الذى كان يفتعله فى جسدها السحَرة، لم يكن إلا ما توالد من دخَان الرغبات المكبوتة فيه، وأما الرغبَات ذاتها فظلت باقية، فى انتظار الطريقة الوحيدة لتصريفها، وهى أن تتحقق تحقيقاً تتلاشى فى تفاعلها معه، وهكذا لا الطب أجدَى ولا السحر مع جلفدان.

* * *

وقلِق القوم من أجل الفتاة، وكادت زيناتُ بنوع خاص تتلف جزعاً عليها. لم يكن حبها لها بالجديد، ولكنها لم تكن تدرى أنه يصل إلى هذا الحد، أما الآن وقد أخذ القلق يساورها من أجلها، أما الآن وقد أخذت تخشى أن تفارقها إلى الأبد، فقد أدركتْ ذلك.

وإنها لَتذكر يوم غُشِيَ عليها أولَ مرة فى الحفل، وكيف تملَّكها الهلع من أجلها فنسيت يومئذ كل شيء، حتى نشوةَ اللقاء الذى كان بينها وبين مختار، حتى نشوة الوعد الذى وعدها به، ولم تعد تفكر إلا فيه، وكيف أنها حين أفاقت وأيقنت أنها رُدَّت إليها، شعرت بأنها غدت أسعد منها فى أية لحظة مرت عليها فى الحياة، بما فى ذلك اللحظة التى كان فيها مختارُ

يسكب فى أذنيها أغاريد الحب، ذلك أن الذى غمرها لم يكن إلا تلك السعادة البريئة الهادئة، التى هى أقــرب إلى راحة الضمير منها إلى التلذذ بالحياة، ولكن الذين ذاقوا هذه الراحة، يؤمنون بأنها تفوق كل سعادة فى الوجود.

فما هو يا تُرَى سر هذا الحب العجيب، الذى يُنسِى الإنسان حتى كَلَفه بحبيبه؟ أهو الأخوَّة وحدها؟ أم هو شىء فوق ذلك، هو العطف على إنسان عزيز يتعذب؟ على عذراءَ محرومةٍ الأملَ الحلو الذى يداعب قلوب العذارى؟ وفوق ذلك يهددها الموت بين لحظة ولحظة؟

والآن وقد عاد مرض جلفدان سيرته الأولى، بل ازداد خطراً عما كان، إنها لَتذكر أحياناً حبها لمختار، وأملَها فيه الذى أُرجئ تحقْيقه إلى أجل لا يعلمه إلا اللّه، ولكنها لا تحفل بكل ذلك، وشىء واحد هو الذى أصبح يشغل بالها، ذلك هو صحة جلفدان.

وذات يوم كانت قد دخلتْ عليها وهى نائمة، سمعتْها تهذى بكلمات رابتْها وكادت تصعق لها، ثم لم تلبث أن أيدت شكوكَها براهينُ أخرى، فوقفت على الحقيقة وكانت رهيبــة مُرة، حطمتْ كل أمل لها فى الحياة، ومنذ ذلك اليوم وهى فريسة للتفكير فى مســألة لا تدرى لها حلا، فكانت كلما قعدت بها الحيرة عن البت فيهــا برأى، لم تجد وسيلة للترفيه عن نفسها إلا البكاء .

* * *

وكـان الدكـتـور مـخـتـارٌ يتـردد باسـتـمـرار على المريضـة، ليـرقب تطورات الداء، ويباشـر تنفـيـذ العـلاج الذى اسـتـقـر عليـه رأى الأطبـاء الذين عادوها .

وفى إحـدى المرات التى كـان فـيـهـا عندها ، اعتـرتْهـا نوبةٌ كـانت أطول النوبات وأقساها، كادت تُسْلم فيها أنفاسها .

وأثناء النوبة، انتحت زيناتُ بمختارٍ جانباً وسألته رأية، لا شك أن جلفدانَ فى نوبة كهذه يُخشى عليها هبوطُ القلب، وهذا ما حدا بزيناتَ إلى أن تتلهف على كلمة منه تبدد مخـاوفهـا، على أنه كـان ألبق من أن يصارحـهـا برأية فراوغ فى الإجابة، ولكنها قرأت كل شىء فى عينيه اللتين لم تستطيعا كتمان قلقه .

– وجزعت زيناتُ وقالت له :

– بربك إلا تكلمـتَ يا مـختار ؟ خبِّرنى بالحقيقـة ولكن مـخـتـاراً تركـهـا وخفَّ إلى المريضـةُ يعْنَـى بهـا . وازداد قلق زيناتَ من تملصـه منهـا، وإصراره على عدم التصريح لها بشىء. وفى غمرة هذا القلق، وتحت تأثير الخـوف على أختـهـا من الموت الذى خيِّل لها أنهـا تراه وقـد دخل الحـجـرة وأخذ يرفـرف فوقـهـا، وبَعد أن تذكرتْ الكلمات التى فـاهت بها منذ أيام وهى نائمة، نذرتْ فى نفسـهـا أمراً اعتـزمت أن تنفذه، لو أن أختـهـا نجت هذه المرة وردها اللّه إليها .

وشاء لطف الله أن تنتهى النوبةُ بسلام، وتعود جلفدانُ إلى الحياة، فلما اطمأنت زيناتُ عليها، كان أول ما فكرت فيه أن تفى بالنذر، فاختلت بمختار وراحت تقول له فى أسى :

– نبِّئْنى بالحقيقة يا مختار، إن جلفدانَ أصبحت فى خطر ، أليس كذلك؟ إنْ هى إلا دوراتٌ يدورها حولها ملَكُ الموت، كما يدور البازى حول فريسته ، وفى دورةٍ من هذه سيخطفها ويمضى، قلْ ذلك يامختار، لا تكْتُم علىّ أنباء أختى، أتكون مزمعةً القيام بآخر رحلاتها ولا أعلم؟ دعنى أعْلم، فأجْمعَ فى عينىّ كلّ ما أشعر به نحوها من حب، وألقاها به قبل أن تُغْمِض. دعنى أعلم، فأسكب فى صوتى كل ما أحمل لها من حنان، وأحدِّثها به قبل أن تُصَمّ، دعنى أعلم ، فأنسج من قلبى أثواب الحداد، وأُعِدَّها لليوم الذى سترحل فيه. وأحشد لوداع موكبها دموعى، وأُبقيها فى مآقىَّ تَنتظر، ما ينبغى أن نجهل ما سيحل برفاقنا، الذين سيفارِقون عما قليل. يجب أن نعلم، لنؤدى لهم فى ساعاتهم الأخيرة ، ما لا يمهلوننا لأدائه .

ولم ينبس مختارُ ببِنت شفة، كان حائراً ماذا يقول، فإن من أشق الأمور نَعْىَ إنسانٍ لم يمت بعد، عندما يموت المرء وينتهى ، لا يأتى ناعيه بجديد ، أما أن يوضع فى قائمة الأموات وهو لم يزل حيا، فمن أشق المواقف التى يواجهها الطبيب .

ولما طال سكوته قالت زينات :

– إذنَ فلقد نبأني صمتك يا مختارُ بكل شيء. إن أختى تجتاز الآن أواخر أيامها، وتلك التى كانت حية تروح وتجيء ، عما قليل ستغدو ذكرَى شيء عفا، ولن تعود تجيئنى إلا فى الأحلام أكذوبة، والهفى عليك ياجلفدان ! سأظل أذكر على الدوام، أيامَ الحرمان التى قضَيتِها فى هذه الدنيا، وفمَك الذى انطبق على ظمئه إلى الأبد، وأتحسر .

واعترتها نوبة عنيفة من البكاء، فأخذت تنْشج وعضلاتُ جسمها ترتجف، ومختارٌ أمامها يسرِّى عنها وقد اغرورقت عيناه بالدموع .

ولما هدأت ثورتها نظرت إليه فى توسل وهى تقول :

– ولكن اعلمْ يامختارُ أن جلفدانَ وإنْ كانت تموت فما يزال هناك خيطٌ للنجاة، وأن هذا الخيط فى يدك .

وهتف مختار :

– فى يدى ؟

– نعم فى يدك، إن شئتَ جذبتَها منه إلى الحياة، وإنْ شئت تخليتَ عنه وتركتَها تهوِى .

– ولكننى لم أدَعْ محاولة فى علم الطب إلا جربتُها معها .

– جربتَ طب الأجسام يا مختار، فهلاّ جربتَ طب القلوب؟

– ماذا تعنين ؟

–نعم ، إن جلفدانَ ليست مريضة، ولكنّ المريضَ قلبها، لقد كشفتُ بنفسى ذلك، دخلت عليها مرة وهى نائمة، فسمعتُها تهذى باسم من تحب. وفاجأتُها أخرى وبيدها صورة حبيبها، تناجيها بأرقِّ الكلمات وأشهدها يأساً، إن جلفدانَ يا مختارُ محبة يائسة .

– جلفدانُ محبة ؟

– نعم يا مختار .

– ولكنْ ما لى ولذلك؟ وماذا عسى فى وسعى أن أعمله من أجلها ؟

– فى وسعك أن تعمل الكثير ، إنْ كنتَ على استعداد للعمل .

– وكيف لا أكون؟ مُرى فإنى طوع أمرك، تالله لو استطعتُ أن آتيها بمن تحب ، لما توانيتُ ولو بذلتُ عمرى فى ذلك ثمناً .

– أتَعِدنى؟

– دون تردد . أليست جلفدانُ أختى ؟

– ولكنْ الأمر يكلفك عمرك كما قلت .

– عمرى فداؤها وفداؤك يا زينات، قُولى :

تحب من ؟

– تحبك .

وصعق مختارٌ وصرخ :

- تحبنى ؟

- نعم تحبك، وباسمك كانت تهتف، وإياك كانت تناجى وتتعذب .

- إياى أنا ؟

- نعم أنت، إنه سرٌّ رهيب بقى مكتوماً فى قلب المسكينة، ولكننى وقفت عليه، وقفت بمحض الصدفة. ومنذ اليوم الذى كسفتُه فيه، أيقنت أننى إما أن أضحى بحبى أو بأختى. ومع أن الصراع كان هائلا بين الاثنين، لأن كليهما علىّ عزيز ، فإنى لم أتردد فى الإبقاء على جلفدان، وساعدَنى على ذلك رؤيتى إياها الآن تموت، فكرتُ فوجدت أن تضحيتى بالحب لا تعنى تضحيتى بالحبيب، ولكنّ تضحيتى بأختى هى تضحيةٌ بإنسان، إذ حسْبى منك يا مختارُ وإنِ انقضى ما بيننا، أنفاسٌ تتردد وتُشعرنى بأن كل شىء لم يذهب، ولكنْ ماذا يبقَى لىَ من جلفدانَ إنْ هى ماتت وذهبت ريحها؟

وسكتت ريثما تلتقط أنفاسها ثم عادت تقول :

- اذهب إذَن يا مختار وضعْ قلبك بين يدىْ أختى، ثم قابلْ أباها واخطبها إليه، اذهبْ وعجِّل، فقد يفوت الأوان، اذهبْ، ألستَ طبيباً كرستَ نفسك لعلاج مرضاك؟ كيف إذَن يكون فى يدك الدواء وتضن به؟ اذهبْ لا من أجل مريضتك فقط، ولا من أجل أبويها اللذين ربياك صغيراً فقط ، ولكنْ من أجلى أنا أيضاً، من أجل زيناتَ حبيبتك، ألست تحبنى يا مختار؟ أليست

غاية المحب إسعاد الحبيب ؟

- بلى يا زينات .

- إذَن فاعلم أن سعادتي في زواجك من جلفدان، إن صح اعتبار أهون الشقاءين سعادة. لا تَقُلْ إني أنانيَّة، أفكر في نفسي وأنساك، فإن إسعادك وا أسفًا خرج من يدِي إلى الأبد، ذلك أن جلفدانَ إنْ ماتت متِ، وإن قُدِّر لي أن أعيش بعدها، فلن يتفتح قلبي للحياة حتى يتفتح لحبك، لسوف يجلِّله السواد فما يعود يتسرب إليه نورٌ على الإطلاق .

وهنا ركعت أمامه واستمرت تقول :

- أنقذْها تنقذْني يا مختار، انقذْها تضمنْ بقائي حيةً على الأقل، وتشعر بأن لي أنفاساً في الدنيا، انقذْها تضمن بقائي حية، وتستطيع أن تراني كلما هَفَا بك إليَّ شوق، بل تستطيع أن تحبني أيضاً يا مختار ، حبًّا مجرداً عن الهوى كما تحبِ قدِّيسة، وتعبدني ولكنْ كعبادة الوثنيِّ للصنم، عبادةً خالية من كل مأرب، أجل ، تستطيع أن تحب روحُك روحي .

وتنهدت، ورفعت وجهها إلى السماء كأنها تُشْهد اللّه على ما تقول ، واستطردت :

- وثِقْ يا مختار بأن هذا الجسد الذي سيغدو حراما عليك، سيغدو حراماً على كل إنسان، إلى أن يضمه الترابُ الذي نَفَضَه. نعم ، وحقِّ السماء لن أهَبَه أحداً ، وحقِّ السماء !

وخرت تبكى، ثم عادت تقـول وهى تمسـح دمعها،

– فكِّر جيداً يا مختار. إننا إن تركْناجلفدانَ تموت ، فسنخسر كل حبنا، لأننا سنزهد عندئذ فـى سـعادة نقيمها علـى أنقاض إنسـان مات. أجل، إن مثل هذه السعادة ستظل قذًى فى عينينا وشجًى فى حلقنا إلى الأبد. وسنخسـر فوق ذلك راحـة ضميرنا، لأن طيف جلفدانَ المائتة، لن يلبث أن يتعقبنا ويُفْسِد علينا نعمة االسـلام، بل يقينى أننا سنطْبق عليه أجفاننا عندما نموت، فيظل يزعج رفاتنا فى قبره، على حين أننا إن أنقذناها ، ففضلا عن أننا سنربح لذة التضحية من أجل إنسان ، لن تخسر حبنا كله .

وراحت تتفرس فى وجهه لترَى وقع كلماتها عليه، فراعها أن وجدته شديد الامتقـاع، ووجدت صاحبه وهو يكاد يهوى من فرعه، فصرخت فى جنون :

– آه، لقد طعنتُك يا حبيبى ، طعنتُك ! وإلا فأين هربتْ دماؤك؟ ولماذا خارت قواك ؟ طعنتُك، ولكننى من دمِك بريئة، سَلِ القدَر مَن ذا الذى ناولنى السِّكين؟ ومَن ذا الذى حرك ذراعِى بها؟ سلْه فلديه الجواب، ما لك لا تصدق؟ انظُرْهُ أمامك وخلْفك وفى كل مكان، تجده ممسكاً بالخنجر الذى ناوَلَنيه، وعليه آيةٌ من دمك، إنه خنجره، ولقد قتلنى به أيضاً من قبل أن يقتلك، وإذا كانت دمائى لا تقْطر منه ، فلأنها جفت عليه لقِدم العهد، إنى

سبقتُك يا مختارُ إلى الموت بأيام، مِتُّ منذ اللحظة التى سمعتُ فيها جلفذانَ تهتف باسمك .

وأصابها الإعياء فطوحت برأسها إلى الوراء وجعلت تَئِن. وانحنى عليها مختارٌ يهدِّئ روعها، فلما تملَّكت قواها نظرت إليه كمن تسأله رأيه، وإذ لم تخفَ عنها حيرته قالت له مشفقه :

– مختار ! لستُ أطلب منك أن ترتجل القرار فى مسألة تترتب عليها حياةٌ أو موت، فاخْلُ إلى نفسك وفكر ما شئتَ ثم ائتنى غداً بالجواب . والآن، عِمْ مساء .

* * *

ووقفت تشيعه وهوُ يذهب ، وقد انبثقت من عينيها لؤلؤتان، تألقتا فى الظلام لحظة، ثم انحدرتا على خديها ككوكبين تَهاوَيا .

* * *

الفصل الرابع عشر

فى ذلك المساء ، أوى مختار إلي مخدعه وبقلبه جرح عميق ، لا يدري كم من الدمـاء قطرت منه ، إلا الطريق الذي قطعـه من منزل عـمـه إلي منزله ، والفراش الذي ظل ليلته يتلوي عليه من الألم .

وبعد أن خفت حدة ألمه جعل يفكر : لقد قطع علي نفسه عهدا أن ينقذ جلفدان ، ولكنه ما كان يتصور أن يكلفه إنقاذها كل هذا، لو أن الأمر كلفه عمره كما وعد ، لهان الخطب ، ولكنه كان يكلفه أكثر من ذلك ، كان يكلفه أن يعيش بلا أمل ، والعيش بلاأمل موت متواصل، وبعد فالجود بالعمر تضيحة تنتهي في لحظة وينتهي معها ألمها ، أما أن يذوق الإنسان الموت علي مهل ، أما أن يموت في كل مرة تتمرد فيها روحه ، فهو أمر فوق الاحتمال .

وراح يتصور الأعوام التي سيعيشها وهو ميت .

في هذه الأعوام التعسة ، لن يحيا فقط بلوعة غرامه الضائع بل سيتجرع أيضـاً مرارة البقاء مع جلفدان في عش زوجية واحد منكود ، وهذا هو الشقاء بعينه. ألا ما أحب الموت إن كان لا بد من حياة كهذي ! وعزت عليه نفسه، وعول علي أن يرفض التضحيه بها علي هذاالنحو، وزاده استمساكا بهذه الفكره ، خوفه من أن يقنص غيره عصفورته ، إن هو تخلي عنها ولم

الشباك، خصوصاً وثمة صياد واقف لها بالمرصاد ، هو جارها محرز، وإنه ليموت ولا يمكن منها هذاالصائد بعينه ، لما بينهما من تنافس جعله يكرهه كما لم يكره أحداً من العالمين .

حقيقة إن زينات وعدته بأنها لن تهب نفسها لسواه ، ولكن من يدري مدي ثبات هذا الوعد أمام كر الزمن ؟ إن الوعود كثيرا ما تبرد حماستها مع الأيام ، ثم تتحلل من نفسها، وفوق ذلك فأن تبقي فتاة عمرها عذراء، أمر يجب لتصديقه شئ من الحذر .

ثم . . .

وبدت عليه علامات الاستنكار .

كيف يجرؤ علي طعن حبه ؟ إنه لأهون عليه أن يطعن نفسه ، بل يطعن زينات من أن يطعن هذا الحب .

لقد كان ينظر إليه كعنصر خلوده الذي سيحيا من بعده ، ويخلده ، كان يستبعد أن تسكن هذه النبضات التي تختلج بفؤاده بعد الموت ، ويخيل له أنها ستظل تدب في عظامه النخرة يوم يصبح من الهامدين . ألا إنها الوحيدة التي ستبقي منه عندما لايبقي منه شئ ، فكيف ، أجل كيف مع هذا، يسكتها ؟

فثبت علي ما انتهي إليه من رأي ، ولكنه عاد فتصور زينات ملثمة بالسواد حزنا علي جلفدان ، وقدمات في قلبها كل حب له ، وأصبحت تنظر إليه كقاتل أختها وتمقته . بل إنه تصورها تموت من هذا الحزن ، فيعيش بعدها في عالم كله غربة وفناء، تصور هذا ثم ذكر الجملة التي قالتها له وهي : «تستطيع أن تحب روحك روحي » ، وراح يتدبر معناها، إنه إذن لن يفقد كل شئ ، إذسيبقي بينهما ذلك الحب الروحاني، وأخذ يتخيل حبهما الأرضى الملتهب ، وقد جعل يشف ويتحول إلي نور سماوي هادئ ، فوجد أنه لايخلو من جمال، ثم زاد أن قال :

– ومن يدري ، فربما يبدو في نظري أجمل ، عندما أشف أنا الاخر معه، وتصبح لي عينا ملك ، تستطيعان أن تريا من الجمال ما هو رباني ؟ بل إنني لن أعود عندئذ أحفل بجمال الأرض ، بعد أن آلف التطلع إلي السماء، وعلي ذلك فسيأتي يوم أنسي فيه أن لزينات وجها فاتنا وقواما لد نا، ولن أعود أحب إلا روحها ، تلك الأشعة التي كلها نقاء ، والتي لايبلي حسنها أبدا.

ولكن . . .

وصعد زفرة واستطرد :

–هل يمكن أن يصير الإنسان ملكا ؟ أجل ، هذه هي المسألة، وأغلب الظن أنه لن يكون، فإن لكل كوكب ساكنيه ، وما كانت الأرض لتضم ملائكه

. ثم تحسس الدفء الذي يسري في عروقه وهتف :

–أجل ، كيف يتسني لي أن أتخلص من هذه النار إلا إذا تخلصت من نفسي ؟

وغامت الدنيا في عينيه، وبقي طول الليل وهذا الخليط المتصارب من الأفكار يحتل ذهنه كأنه أضغاث أحلام، لايعرف ماذا يأخذ منها وماذا يدع.

أما زينات فكانت بين حبها وأختها ، تحترق كما دأبت علي أن تحترق مذ كشفت سر هذه الأخت، حتي إذا ماطلع الصباح بدت وكأنما تتعذر رؤيتها إلافي تلك الأدخنة التي تصاعدت منها في جو الغرفة .

وفي اليوم التالي ، التقي هيكلان في الظلام تحت ضوء النجوم، وكانت أصوات الجنادب المنبثة في الحديقة ، ترتفع متغنية في سكون الليل بأناشيد المجهول، ونقيق الضفادع ينبعث غافيا من الجدول الذي وقفا إليه ، كأنه يتحدث عن عصور سلفت . فكان من ينظر إليهما وقد إحتواهما هذا المكان الذي يحمل طابع الماضي ويهجس بوحيه ، يخيل له أنهما طيفان لإنسانين ماتا، وقد أخذا يلوحان من خلال التاريخ.

وهمس أحد الطيفين:

ـــ علام عولت يا مختار؟

وأجاب الآخر:

ـ هل فكرتِ فى الأمر؟

ـ إنى أسألك.

فاعتدل فى موقفه قبل أن يجيب قال :

ـ اسمعى يا زينات، عندما أضحِّى بنفى فى سبيلك، ماذا يشفع لى عند هذه النفس؟ أليس الحب؟

ـ استَمر.

ـ حسناً، بعد أن أطعن هذا الحب فيموت، ماذا يشفع لى حينئذ عند نفسى؟

وصمت قليلا ثم أستطرد:

ـ فها أنت ذى تَرين أن الوضع الذى تقترحينه يوقعنا فى دائرةٍ مفْرغة، إذ إن الحب الذى هو علة التضحية، لن يستمر ليظل يسوِّغها بَعدَه، ومن ثم فسأظل أستشهد كل يوم دون أن أدرى فى سبيل من أموت.

ـ مهلا، ولكنّ حبنا لن ينقضى، إذ سيبقَى بيننا ذلك الحب الروحانى.

ـ أىُّ حب روحانى؟ لقد حاولتُ أن أتصوره فما استطعتُ أن أرسم له إلا صورة مبهمة كتلك التى نرسمها للجنة والنار.

ـ وما قولك فى أننى استطعت أن أتبيَّن خطوطه كأوضح ما تكون؟

ـ وهل يمْكن هذا ؟ هل يمكن العين أن تتصور شيئاً لم تسبق لهارؤيته؟

ـ كلا، ما بعينى ولكنْ بروحى رأيته.

ـ بروحك؟

أجَل، عندما شفَّ جسمى على نار الألم كما يشفُّ البخور، ألفيتَنى أتحول إلى دُخَانٍ يتسامَى، فطفقتُ أصْعد فى السماء وأرتفع، حتى رأيتُ والسهدُ ضيفى ذات ليلة، مواكبَ ذلك الحب الذى أتحدث عنه، إنه ليس قُبَلاً ولاعناقاً يا مختار، ولكنه مزيجٌ من أنوارٍ إلهية لاعهدَ لنا بها، فيها هدوء تلك الخضرة التى تصبغ الجنة، وليس فيها مِن لَهَب الجحيم، وإمَّا دارت فى فَلَكها تُنشِد، ولأنغامها سَكْرَةٌ كسكْرة الرحيق.

وهتف وقد ذهل:

ـ هذا عجَب! وماذا كان شعورك؟

ـ لا أقْدر أن أصف، غير أنى أحسستُ كما لو كنتُ فى عالمٍ من أثير، أسْبح فيه بغير جناح، إنه شىء خَفَّ بىِ عندئذ، كأنما نَفَخ فى جسمى هواء،

وابتسمَتْ، كأنما تستعيد أمام عينيها ما رأت، ثم استطردت:

ـ وجعلتُ أتساءلُ: «ما هذا الشىء؟». وكأنى بهاتفٍ يجيبنى ويقول : «إنه الألم، إنه الجحيم الذى احترقت على مَطْره، فحولَّك إلى دُخَان». أواه! يا لها من حقيقة!

ـ أية حقيقية؟

ـ سِرٌّ الخلود. ليس يوصِّل إلى الخُلْد إلا الجحيم، إنه كمرحلةٌ يجب أن نمر بها ونُكَفِّر، قبل أن نصبح قِدِّيسِين.

وسَهَمَ مختار، وألفَى زيناتَ تضعه فى عالم غريب لا يفقه شيئاً عن كنهه ولا يستطيع أن يؤمن به. فَزَمَّ شفتيه وقال لها:

ـ إنى أخشى أن يكون الذى رأيتِ تهاويلَ الألم، فإن للآلام سكَرات تفْعم الرءوسَ بالأكاذيب، إذا كيف يبصر عالمَ الأرواح بَشَر؟

ـ ما أنا وقد طهَّرنى الألمُ ببشَر.

فكابرَ، فانثنت إليه قائلة فى يأس:

ـ آه ! لكأنى بك ترفض يا مختار، مختار! ألا فكِّر مَلِيّاً.

ـ بل فكِّرت أنت..

ـ رحماك يا مختار!

ـ أخاف أن تندمى.

ـ وعلام لَعَمرك؟ أعلَى إنقاذى أختى؟

وبكت.

ولم يرحم دمَعها.

وعادت تجادله فلم يفهم لغتها. لم يكن قد شفَّه الألم بَعْدُ كما شفَّها، حتى

يستطيع أن يَرى فى أثير صوفيَّته ما تَرَى، لم يكن قد تحرر من لغة الجسد، حتى يَفهم لغة الأرواح، لقد كان حديثَ عهدٍ بالنكبة، فلم تَسحق الآلامُ جسده حتى النهاية، لتَسْتخلص أنوارَه، أما هى فكانت قد سبقتْه إلى ذلك بزمن.

وأخيراً قال لها:

ـ الأناةَ يا زينات! ولا تتخذى قرارك إلا بعد أن تسكن العاصفة، وتكفَّ عن إثارة الغبار الذى ترين فى تَلافيفه هذه التهاويل.

ولم تجبه، وراحت تقول وكأنها تناجى نفسها:

ـ أواه، أرى شبح فاجعة! فغداً تموت جلفدان، وأنا مِن بَعدها، ولا تعود تراك عيناى يا مختار. أجل، لسوف تغيب من وجودى مع نور عينىَّ فوا أسفى عليك وعلى عهدِ كنتَ تطْلع علىَّ فيه!

واستطردت:

ـ سامحك الله! ما كنتُ أتوقع أن يكون انهيارى على يديك.

فهتف يؤنبها:

ـ زينات!

ـ صة! لَكأنى بحبك لىِ كان أكذوبة.

وأشاحت بوجهها عنه.

ووقعت عليه كلمتها وقع الصاعقة. وحاول أن يدنو منها ويسترضيها،

ولكنها دفعتْه عنها فى عنفٍ وهى تقول:

ــ دعنى، مالك وتلك التى تريد أن تُغْرقك، اذهب وانْشُدِ السلامة مع غيرى،

وتركته ومضت، وهى تحمل له فى نفسها أمرً عتاب.

الفصل الخامس عشر

أمـام نفـرٍ من الجلوس على أحـد المشـارب، وقف شـابٌّ يرتدى الأسـمـال يعرض بيع أوراق النصيب.

ولمْ يَشْرِ منه أحدٌ أو يسرِّحْه بإحسـان، لأن القوم الذين وقف بهم، كانوا فى شـغلٍ عنه بتصويب النظرات الوقحة إلى حسنـاءَ من النَّوَر كانت ترقص وتصفق بصُنُج.

كانت سمراءَ البشرة سوداء العينين، لها خدان فى حمرة خشب الورد، وشعرٌ فاحمٌ أشعث، يستقر على كَتِفين مُدْمَجَتين.

وكانت تغنِّى وتقول:

مَن رأى لونىِ المحروق، ولمْ يسْكر بنبيذه؟

أو رأى شَعْرى الحالك، ولمْ تَضلَّ نُهَاه؟

أنا فتاة الغاب.

بلَيْل أجفانى كم أغفتْ قلوب!

ولِظلِّ أهدابىِ كم لجأتْ مُهج!

أنا! أنا فتاة الغاب.

***

ثم تثب وتأخذ ترقص وتَدُقُّ بساقيها، وصوت صنَجاتها يُصلْصِل.

ثم تعود تغنى:

بين الدِّغال نشأَ.

ومع الوحش شَبَبْتْ.

أنا فتاة الغاب.

***

ثم تثب راقصة، ثم تَختتم أغنيَتها قائلة:

همجىٌّ رقصى.

كوثب الوحوش.

أنا فتاة الغابة.

***

برىٌّ صوتى.

كسجع الطيور.

أنا ! أنا فتاة الغاب.

***

وعندما انتهت الرقصة، تناولت دُفًّا من صاحبها وأخذت تَطُوف على روّاد المشرب تجْمع فيه قروش الإحسان، حتى إذا ما بلغت النفر الذى كان يقف إليه بائع النصيب، انبرى لها منهم شابٌّ صفيق الوجه كان يبدو أنه زعيمهم ، وهتف بها:

ـ لن أنفحك بشىء حتى تعطينى قبلة.

فأدارت عابثة خدها نحوه، فأرسلها إليه فى الهواء قبلة ذاتَ رنينٍ يَنْدَى له الجبين، ثم قَهْقَه قهقهةً خنزيرية تردَّد صداها فى أرجاء الشارع، وقهقه على أثره صَحْبُه.

وابتسمت البوهيمِّية كمن تتلقى القبلة، فأخرج من جيبه قرشاً مَنحها إياه وهو يقول:

ـ إن جدتِ بأخرى جدتُ بآخر.

وعادت تدير نحوه خدها، ومرة أخرى رنَّ صوتُ قبلة فى الهواء، واستقرَّ قرشٌ فى كف الراقصة.

ووسط عواصف الضحك، والنظراتِ الفاجرة التى كانت تسدَّد إلى الفتاة، لوَّح لها بثالث وهو يقول:

ـ وهذا ثمن القادمة، امنحينى امنحْك ، ولو ظللنا هكذا إلى الصباح.

وظل يأخذ القبل منها فى الهواء ويغدق الثمن عليها بسخاء، حتى ربحت

من هذه المداعبة السمجة عشرة قروش.

ثم مضت لسبيلها تشيِّعها النظرات الجائعة، وعبارات الغزل الوضيع، بعد أن همس فى أذنها بضع كلمات لم تلبث أن أمَّنت عليها.

وما إن اختفت حتى التفت إليه أحد زملائه وقال له وهو يغمز بطرف عينه:

ــ ماذا كنت تُسِرُّ إليها يا شقى؟ إنى أفهم ألاعيبك.

فأجابه من فوره:

ــ صه بحق الشيطان، أتظن أن فى وسعى أن أنقطع للتسبيح لتلك البومة التى خطبها لِى رجب؟ قَبَّحهما اللّه!

ثم رفع إلى فمه قدح الخمر الذى كان أمامه وهو يقول:

ــ اشربوا يا رفاق، نخْب البوهيمية الحسناء، أرجو أن لا أحتاج غداً إلى عصافيرَ أحمِّلها إليها قبلاتى.

أجل ، لن يكون بين فمى وخدها إلا ما بين شفتىْ وهذه الكأس.

ورفع الجميع أقداحهم، وشربوا نخب هذه الخِسَّة.

وكان بائع النصيب يرقب كل ذلك ولا يفتأ يكتم اشمئزازه، وبلعن أولئك البَطِرين المستهترين، الذين لا هَمَّ لهم إلا الإغراق فى الضحك والانهماك فى الملذات. فلما سمع من بطل هذه المخازى حديثه عن مخطوبته، هتف فَى

قلبه:

ـ يالك من نذل ! ولماذا خطبتَها؟

وبعد أن قلَّب شفتيه فى احتقار، تقدم منه يعرض عليه من جديد شراء ورقة. ولكنه تجاهله وراح ينظر إلى قَرَّاد كان قد أقبل يجرُّ وراءَ قرداً وعنزة، وفجأة انفجر الوجيه ضاحكا استلقى على قفاه، ثم انثنى ينادى القراد فلما دنا منه قال له:

ـ هيهِ أيها الأستاذ المبجَّل، هلاَ جعلتَ السيد والسيدة يرقصان لنا «قالْسا»؟

وأومأ القراد برأسه، ثم جعل ينْقر على الدفِّ نقَرات خاصة، لم تلبث العنزة على أثرها أن وقفت على رجْلِيها الخلفيتين ، وللحال وثب فوقها القرد، وبعد أن أتى ببضع حركات ما جنَة، رفع يده للحضور بالسلام.

وضجَّ الجميع بالضحك، وأخرج الذى هو أسفههم قرشاً وأعطاه للقرد الذى كان قد تقدم نحوه فاتحاً كفه.

وبدا لبائع النصيب أن يعاود الكرَّة، وكأنما ظن أن دوره قد جاء لينال نصيبه من هذا البذخ، فدنا من السيد وراح يردد قوله:

ـ النصيب يا بك ألا تشترى ورقة؟

ولكنّ السيد الذى ما كان لِينفق إلا على ملاذِّه، لم يلبث أن صاح فيه:

ـ تبًّا لكم أيها الشحانون! أما تَكفُّون عن مضايقتنا بأشكالكم القذرة وأنينكم البغيض؟ إليك عنى.

ثم التفت إلى رفاقه وراح يقول:

ـ لست أدرى لماذا لا تجمعهم السلْطة كما تجمع الكلاب، وتسمِّمهم أو تقتلهم رمياً بالرصاص؟

وهنا استدرك أحدهم:

ـ أصبتَ يا صديقى، ولكن أليس الأبدع أن تكوّن إبادتهم «بالفلِيت» أسوة بالحشرات؟

وكان صبر الشحاذ قد نفد، فرفع عقيرته وأخذ يقول لهم فى اهتياج:

ـ يا لَلبْغى! أتَبْرَمون بفقرنا وقد احتملْنا ثراءكم؟ أما كفاكم أن كتبتم علينا هذا المصير بيدكم الآثمة، حتى رحتم تعاقبوننا عليه؟ أعيدوا إلينا حقوقنا ونحن لا نستجديها منكم، أنصفونا نَرُقْ فى أعينكم.

إنكم أنتم الذين خَلقتم لأنفسكم هذا القذَى فى شخصنا.

إنكم أنتم جعلتم الإنسانية تَغرق فى هذا العار.

إنكم أغبياء، مجرمون.

وهال زعيم الجماعة ــ وكان أسرعهم استجابةً لدواعى الشر ــ أن يجترئْ عليهم هذا الصعلوك الوقح، فما كان منه إلا أن رفع يده وهَمَّ بلطمهٌ.

ولكنّ الشحاذ لم يلبث أن صاح فيه بصوت كالرعد قائلا:

ــ مكانَك يا عاكف، وإلا حطمتُ رأسك!

وتراجع الباغى أمام هذه الصيحة المخيفة، على حين استطرد الشحاذ:

ــ أمَا تعرفنى؟ إننى مصطفى، زميلك فى الدراسة وأول فرقتك، ولو كانت هناك عدالةٌ لِلبستَ أسمالى وجلستُ أنا مكانك، ولكنّ الذى لاشك فيه أننى ما كنت أسلك مسلكك، فأبعثر نقودى على البغايا وأنهر السَّألة والمحرومين، وإنما كنت أعطيك من فضلى إذا سألتَنى، أو أقول لك قوْلاً كريما، باركَ اللّه فى الأصهار ! الذين جعلوا منك ومن أمثالك وجهاءَ يجلسون على المشارب، ويستحلُّون لأنفسهم لطم الناس. بُؤْء بالخزْى! فلقد برهنتَ على أنك أفقر إلى الخلُق، منى أنا الشحاذ إلى المال، ولكنْ متى اتُّخذ الحلُق قاعدة لَملْء الطبقات ، حتى كنت تعرف مكانك بالضبط؟

وتركه يتعثر فى خجله وانصرف ، وهو يلعن فى سره رمزى باشا، الذى كان السبب فى كل ما حل به.

***

وإنه لَماض فى تجواله، سَيْلُ اللعَنات ينصب من فمه على ذلك الباشا الظالم، إذ بَصُر به جالساً فى أحد المقاهى بين رهط من رفاقه من ذوى الأوداج المنتفخة، والكروش المدلاّة، والسِّحَن التى طمَسَها فرطُ الشبع.

وأثار منظره كوامنَ الحقد فى نفس مصطفى، وود لو انقض عليه وأطبق على عنقه بكلتى يديه فلم يتركه، إلا جثة هامدة. ولكنه ما همّ أن نكّص على عَقبيه وسار فى اتجاه آخر، لُيسكت نزعات الشر التى كانت توسوس له.

وظل ينتقل من شارع إلى شارع ومن حى إلى حى، إلى أن نَهَكَهُ التعب فألقى بنفسه على حافَة الطريق وجلس يستريح، وإنْ هو إلا قليل حتى كان قد أحاط به لفيف من أبناء حرفته، ومَن على شاكلتهم من جامعى أعقاب اللفائف وماسحى الأحذية وموزعى الإعلانات.

وبينما كانت هذه المجموعة الفذة منهمكة فى لعب «الجديد» وإمساك بعضهم بخَناق بعض، كان طبيعيا أن ينحو زميلهم خرِّيج الجامعة فى سلوكه منحَى آخر، فالتزم الصمت، وراح يستسلم لخياله الذى سرعان ما جنح به إلى أمه التى خلَّفها فى البيت مريضة، وإلى عفاف التى اضطر إلى أن يختفى عن وجهها ليستر خجله.

وبعد أن أمضى وقتاً سابحاً فى هذه الأجواء السود، تَحامل على نفسه ونهض يواصل تجواله، حتى إذا ما انقَضت الليلة وأغلقت الحاناتُ أبوابها بعد أن أدت ما عليها للسكارى والمعربدين، وقف يحصى ربحه فإذا به أربعة قروش، كان عليه أن يدخر منها قرشاً لكراء الغرفة، ويكْمل ثمن الدواء لأمه بقرشين ، ثم يأكل هو وهى بالباقى. فابتسم بسمةً صفراء وغمغم يتهكم بنفسه:

ـ لا بأس . نتيجة حسنة.

وقصد إلى غرفته ليأوى إليها.

***

وكأنما شاءت أمه أن لا تشاطره هذا الربح الضئيل، فتركته إلى حيث يصبح المرء ولا مطلب له، إذ لم يكد يلج عليها الباب، حتى وجدها ميتة وأطرافها في برودة الثلج، أجل، لفظت أنفاسها وحدها، لا أحد يطمئن خوفها في ساعاتها الرهيبة، أو يزودها بكلمة تعينها على سفرها الطويل.

وهزها مصطفى، لا ليوقظها وإنما ليراها لا تتحرك، فيزداد إحساسا بالفجيعة، فلما ألفاها هامدة، صرخ صرخة ثاقبة ثم انكفأ عليها وراح يعصر فوقها دموعه، حتى إذا ما بلل بها جثمانها الطاهر، نهض واقفا وأخذ ينظر إليها وإلى الحصير البالى الذى تمددت فوقه، ثم إلى كسرة الخبز الملقاة بجوارها وزجاجة الدواء الفارغة، ويهز رأسه أسفا والدموع تتقاطر من عينيه، ثم تحول إلى السماء وراح يقول وقد رفع إليها يديه:

– حسبنا الله ونعم الوكيل! كم من قتلة بين ظهرانينا وهم فى عرف القانون أبرياء!

***

وعاد مصطفى من دفن أمه مع مغرب الشمس، فارتمى على حصيرة

وراح فى نوم عميق من أثر الإعياء الذى لاقاه فى يومه المشئوم. وكان بين وقت وآخر يحلم بأمه وقد أتته كما كانت تأتيه حية، حتي إذا ما فتح عينيه وتذكر الحقيقة، انتفخ صدره بالحسرات التى لم تكن لتجدى فى تصريفها تنهداته، ثم غلبه التعب فعاد فنام.

وعندما استيقظ فى الصباح، حمل حزمة الأوراق التي يتكسب منها قوته، وخرج كعادته يسعى على رزقه ويقول:

– النصيب! من يشترى أوراق النصيب؟

وماراعه وهو يسير، إلا أن رأى الباشا جالسا على المقهى نفسه، وبين الرفاق أنفسهم، فوقف لحظة يصوب نحوه النظرات الشزراء، ويلوح له بقبضة يده فى الهواد مهددا، والباشا مشغول عنه بحديثه مع صحبه، وقد أخذوا يصغون إليه فى ذلك الوقار المتكلف الذى يحسبونه من مستلزمات الوجاهة، حتى تحولت حياتهم إلي نفاق كبير، راحوا يعيشون فيه حتى بينهم وبين أنفسهم.

وخشى مصطفى أن يتورط فيما لا تحمد عقباه، فقفل راجعا بعد أن أيقن أن هذا المقهى هو محل الباشا المختار، وعزم لذلك على أن لا يعود إلى ارتياده.

ولكنه ما كاد يخرج فى اليوم التالى، حتى وجد نفسه مسوقا بقوة خفية إلى حيث يجلس الرجل، وإذا به يقف لحظة يصوب إليه النظر الشزر من

بعيد ثم يعود أدراجه.

وتتابعت الأيام والحقد يغلي مرجله في نفس الفتى ، وكلما أراد أن يتجنب المقهي الذى يتردد عليه الباشا، ألفى قدميه تتجهان إليه مدفوعتين بتلك القوة الغامضة، لينتقم منه انتقامه الصامت ثم يعود لا يلوى على شيء وكأنما كان يجد فى عمله هذا من حيث لا يشعر، مجالا للتنفيس عن حقده بعد أن لم يتكفل القصاص بذلك عنه.

***

وذات مساء كان الباشا جالسا فى مقهاه بين زمرته، حين أقبل عليه رجل مُسِنٌّ بادره صاحبنا بقوله:

– آه ! حسن أفندى! مرحبا بك ! كيف حالك فى تقاعدك؟

وراح يضحك ملاطفا ثم استطرد:

– ألم توفق إلى عمل؟

– كلا أيها الباشا، إننى قانع بمعاشى، ولست أطمع إلا فى أن أقضى البقية الباقية من أيامى فى هدوء.

— الحق أن المصلحة خسرت فيك رجلا طيبا محبوبا حسنا، هيا ننتقل إلى النضد المجاور لأحدثك فيما بعثت إليك بشأنه.

وخلا به وجعلا يتحدثان.

وقال حسن أفندى وهو يرشف قدح القهوة، يرد على سؤال وجهه إليه رئيسه القديم:

ــ نعم أعرفه، لقد كان أبوه رحمه اللّه صديقاً لى.

ــ وهل تعرف منزله؟

ــ فى وسعى أن أبحث عنه.

ــ حسناً، قُمْ بذلك، وائتنى به على عجل، لأنى أريد أن أُسند إليه عملا أرى أنه أحق به من سواه.

ــ لن أتوانى فى ذلك.

وبدا سعيداً بأداء هذه الخدمة إلى ابن صديقه ورفيق صباه.

واستطرد الباشا:

ــ لكنِ اكتمْ أمر هذا عن الناس، لئلا يتكالب علىّ الوسطاء من الطامعين فى المنصب لنويهم إذا علموا به.

ــ لك ذلك أيها الباشا.

ثم راح يتعجب من نقمة الرجل من غيره أمرٍ أتاه هو ذات يوم، على أن عجبه كان أكثر لهذه الروح الجديدة التى لمسها فيه نحو مصطفى الذى نكبه من قبل.

وكان قد لاحظ انتهاء الحديث فغمغم:

ـــ أية خدمة أخرى يا سيدى؟

ـــ شكراً.

ومد له يده فصافحها وانصرف.

وعاد الباشا ينضم إلى صحبه، ولكنه لم يكد يستقر على مقعده بينهم، حتى لمح شابا يرتدى الأسمال والشرر يقدح من عينيه، وقد أخذ يشقُّ طريقه إليه وسط الصفوف كأنه سهمٌ مارِق، حتى إذا صار منه على قيد خطوات، رفع يده بمدْيَةٍ كان ممسكا بها حاول ان يغْمدها فيصدره.

وذعر الرجل وتراجع إلى الوراء، وفى هذه اللحظة كان قد سارع بعض الحضور وأمسك بالشاب وانتزع المدية منه، وبذلك نجت فريسته من موت محقق.

وتكاثر الجمهور على الجانى واعتقلوه. على حين خفَّ آخرون إلى الشرطىٍّ يستدعونه، أما الباشا فلم يكد يفيق من ذهوله حتى أخذ يتفرس فى وجه قاتله ويعصر ذهنه، كأنه يحاول أن يذكر متى رآه.

وفجأة هتف:

ـــ أهو أنت؟

ثم انثنى قائلا فى سره:

ـــ لماذا يا مصطفى؟ لقد كنتُ بسبيل أن أنصفك.

ولبث لحظة يحدق فى وجهه، ثم التفت إلى من حوله وصاح بهم:

ـ دعُوه! دعوه! لقد سامحتّه.

ولكنّ الشرطيّ كان قد أقبل وتشبث باقتياد المذنب، واضطر الباشا إلى الأذعان بعد أن خرج الأمر من يده وانتقل إلى أيدى العدالة.

ولما كان الجندىُّ يعرف شخصية الشهود وجُلُّهم من علْيه القوم، فقد اكتفى بأن سألهم أن يوافوه إلى المخفر، على أن يسبقهم إليه بالمتهم..

ثم قبض على مصطفى من قفاه، وسار به وسط موكب من الصِّبْية والرعاع، كانوا لا يفتأون يتصايحون به :

ـ يا قاتل ! يا قاتل!

ثم يرجمونه بالحجارة.

وكان الجندى وهو يقود المتهم لايكفُّ عن لطمه وركله دون سبب ، والمتهم يصيح به بين وقت وآخر:

ـ أما تكفُّ عن ضربى؟

فيكون جواب جلاّده لطمةً يهوِى بها على وجهه، أو ركلةً من حذائه الضخم تصيب أحشاءه.

وعندئذ لايتمالك الفتى أن يقول له:

ـ لماذا تضربنى وفى البلاد قضاة هم الذين يقضون فى أمر الناس، وشريعةٌ هى التى تحدد نوع ما ينزل بهم من عقاب؟ هل جعلوا منك قاضيا

يفصل فى أمرى؟ وهل أباح القانونُ الضربَ عقوبة؟ تبًّا لكم! مابَرِحْتُم تذلُّون الناس حتى جعلتم منهم أمةً من عبيد،

وأخيراً ضاق الجنديُّ ذرعاً بوقاحته، فلكمه لكمة فى فكه جعلته يترنح ثم يسقط إلى الأرض فاقد الوعْى.

وطرِب الدَّهْماءُ لهذا المنظر، وتعالَى ضجيجهم وصياحهم، وكأنهم حيواناتٌ استسلمت لغرائزها الأولى.

***

وكان الباشا قد استقلَّ سيارته هو والشهود قاصدين إلى دار الشرطة، وفى الطريق، راح يرثى لمصير هذا الشاب، مسكين، كم من مصائبَ لحقتْه بسببه! فمن تشريدٍ جعل منه أفَّاقاً، إلى تورُّطٍ فى الإجرام يوشك أن يزج به فى غياهب السجن.

وعندما بدأ التحقيق، شرع المتهم يقصُّ الفضيحة من أولها، الفضيحةَ التى ارتكبها الباشا وأسْهَم فيها عاكفُ ثم توَّجها الجندى.

وسُقِط فى يد الباشا، وكاديبارح المخفر، حتى راح يبذل مساعيه ليمنع تسرب هذه الفضائح إلى الصحف، أو إلى مروِّجى الأخبار الذين لاتقلُّ ألسنتهم انتشاراً عن الجرائد.

الفصل السادس عشر

عانى مختارٌ من صدِّ زينات، أكثر مما عانى من المأزق الذى وضعتْه فيه، وتركته يبحث عبثاً عن مخرج.

وأخذت الآلام تهدُّ فى جسده حتى أَوْهَنَتْه، فبدأ يَرَى الجوهرة المتألقة فيه.

وزادتها الأيام تألقاً حتى نَسِيَ هيكله، ولم يَعُدْ يبصر غير تلك الأشعة التى كانت تتلألأ بين جنبيه، وتنبعث من عينيه وخلال مسامِّه.

وهكذا استطاع بعد أن شفَّ جسمُه أن يرى روحه. فما رآها فَهِم لغتها. وفهم اللغة التى حدثتْه بها زيناتُ من قبل، يوم التقيا لتعرف رأيه فى زواجه من جلفدان.

وذات ليلةٍ والسهادُ حليف، أحسَّ كأنما قد تفتحت له طاقةٌ فى السماء، وأخذ ينسكب منها ضياءٌ باهر غَمَر عينيه، حتى إذا ما انتشى منه راح يبصر أشياءَ فوق ما يتصور.

وانتظر حتى أقْبل الصباح، فهرول إلى منزل زينات. وأكبرتْ شأنه لمَّا رأته وقد طوقتْه هالةٌ من نورٍ قُدْسى. ثم دَقَّ قلبها فرَحاً إذ قرأت بروحها ضميره.

وقال لها وقد خلا بها:

ـ زينات! إنى سأخطب جلفدان، ولن أندم على ذلك. لقد رأيتُ حبنا

الروحاني.

وهتفت في جذل:

ـ حقاً؟ وافرحتاه! وكيف رأيته؟

ـ كما وصفتِه لي، أنوارٌ وأنغام. ولاشيءَ إلا النور والنغم.

ـ ألمْ أقُلْ لك؟ ومتى تخطبها إذَ؟

ـ الآن إن شئتِ.

ـ ذلك ما أريد، فجلفدانٌ على شَفا هاوية.

ـ ولكن...

ـ تكلم.

ـ ثمةَ عقبة.

ـ وما هي ؟

ـ أن أقنعها بحبي.

ـ لا عليك فلقد فكرتُ في ذلك، قُل لها إنك تحب روحها، وستصدِّقك بسهولة، لأن أولئك الذين حُرموا جمالَ الجسد، يدفعهم حب الذات إلى إقناع أنفسهم بأن الجسد ليس كل شيء. وهم سرعان ما يؤمنون بالنغمة التي تغرد وَفْقَ هواهم.

فاعترض قائلا:

ـ وإذا كانت مطلعة على حبنا؟

ـ ما أحسبها مطلعة عليه، على أن تقدمك إليها كفيل بأن يزيل من نفسها كل شك. إذ ماذا يحملك على خطبتها إذا كنت بسواها مشغوفا.

ـ هذا إلا إذا فطنتْ إلى الدور الذى نلعبه، ومن الممكن أن تفطن إليه، خصوصاً بعد أن علمتْ بأنك وقفتِ على سرها، وأحسب أنها من النبل بحيث ترفض منك تضحية كهذِى.

ـ لكنها لم تعلم، فعندما كانت تهتف باسمك، كانت نائمة ولا تدرى أننى أسمعها وعندما كانت تناجى الصورة، تجاهلت أنى رأيتها وجازت عليها الحيلة.

ـ حسنا، بقى أبوك، كيف أقنعة وهو يعلم ما بينى وبينك؟

ـ ليس علم اليقين، إنْ هو إلا مجرد ظن سيبدده طلبك إياها، اذهبْ إذَن رعاك الله وأنقذها. ومثِل دورك بمهارة، فإن أقلَّ هفوة قد تفسد كل شىء.

وهَمَّ بأن يذهب، ولكن فمها استوقفه وهو يلقِى نظرةً على محياها الجميل. كان قد سكر بخمر جمالها، وفى ساعات النشوة، تجذبنا أمُّنا الأرض، حتى لو كنا فى السماء، إنما نحن صوفيُّونَ فى مَحَاريبنا فقط.

وأدركتْ ماتوسوس له به نفسه فهتفت به:

ـ مالك تتوقف؟ امضِ فى سبيلك.

ونظر إليها فى ضراعة وهو يقول:

ـ رحماك يا زينات! قبل أن نتيه فى بيداءالسماء، ذلك العالم المفرغ الذى سنفقدِ فى برودته لهبَنا، هذا اللهب الذى هو سر الحياة، ألا نودع وجودنا الأرضى؟

أنترك هذه الأرض دون أن ننشق جانبا من عبير غبارها الممتع؟ آه، ما أجمل عبير هذا الغبار! لكأنى به يفوح وقد نفضته أنداء الصباح ، فيبلغ أنفى ويشكره! ! زينات! بالله دعينى أقبل فمك الجميل، قبل أن أقول له الوداع، وإأعانق قدك المشوق قبل أن أحرمه إلى الأبد، كيف نظمأ إلى القبلة كل هذه الأعوام ثم نروح بظمئنا؟ كيف نغرس كل هاتيك الزهور، ولا نرشق منها فى صدرنا زهرة؟ أيكون لدينا كل تلك الغراس. ولا نتزود فى غربتنا منها؟ قدرى سنين الغربة المقبلة، قدرى الحرمان المؤبد، ثم اعذرى بالله يا زينات، ولا تكونى على شوقنا قاسية!

وأشاحت بوجهها عنه وهى تقول:

ـ كلا كلا يا مختار دعنا طاهرين، مايجمل بنا وقد حلَّقنا فى السماء، أن نعود نتردًى فى التراب.

ـ لا يا زينات . ما دمنا أتينا إلى الأرض، فيجب أن نأخذ نصيبنا من ترابها. فإنَّ فيه لَمِن حَرِّ الشمس. وإنْ فيه لِمنْ سرِ الدَّورَة. فيه هذه الشحنة

من جهنم ، التى يحنُّ إليها دَمَنا كأنما سبق أن عاش فى شياطين. وتصورتْ جهنم. وأحستْ بلدغ نارها الجميل يمشى فى عروقها، فتأوهتْ وهتفت لتخفى ما بها:

ـ كلا، لا أحب سقَر، لا أحب الزبانية.

ولكنه تقدَّم نحوها وأمسك بيدها، فكأنما لمست كفَّها جمرة، فصرخت:

ـ أواه ! دعنى!

ولكنها لم تلبث أن تخاذلت و أسلمَتْه فاها، ذلك أن تلك التى ظنت نفسها فى السماء، سرعان ما استجاب دمُها الذى كانت ما تزال تجرى فيه حرارة جهنم.

وهتفت وهو ينهال على ثغرها بالقبلات:

ـ رُوَيدك! من أين يهبُّ هذا العطر؟ إنى أكاد أنوب فيه فارحمنى.

وأجاب وهو يرفع فمه عنها:

ـ إنه عطْر أجسامنا وهى تحترق، عطْرُ هذا البخور الذى تكمن لذائذنا فيه، إلى أن تطلقها نارٌ تشعله، لاشيءَ يْعدل أن يحترق الإنسان، ويتحول إلى دُخَانٍ معطَّر، بل يقينى أننا ما خُلقْنا إلا لنحترق، ونسكر بهذا الحريق، وإلا فعلاَم قُدَّتْ أجسامنامن نَدّ؟ وعلام يجرى فى عروقنا «الغاز»؟ كل شىء فينا لإشعالها مهيأً، وليس ينقصنا إلا الشرارة. والشرارةُ الشرارة فى

تلامُس ثغرينا.

وأطرقت زيناتُ وراحت تحدث نفسها وتقول :

ــ آه يا سحْر جهنم ! كيف السبيل إلى الخلاص منك؟

ثم نظرت إلى جسمها وهتفت:

ــ وأنتَ يا صلْصالاً من سمير، ليت شِعرى كيف أخمدك؟

واتَّقد جسدها، غير أنها استنجدت بروحها، فما لبثت أن أغرقت نارَهُ فى فَيّضٍ من نورها السحرى، وراحت تمطر سلاماً وبردا، فالتفتت لصاحبها وقالت له:

ــ حسبنا يا مختارُ ما ذقنا من حريق، لشَدَّ ما هو فاتن، ولكننى أرى فى الظل أمنًا ودَعَة. فهيا نعُدْ إلىُ السلام الذى جئنا من توّنا منه، ولْنحلِّقْ كما كنا فى السماوات العُلا، إذا ما ينبغى أن نستبدل بالجنة النار، هيا يا مختارُ وانشر جناحيك.

وعاد يسُود لهجتها الجد، وترتسم على وجهها مِسحة القديسات، كان صراعا عنيفاً بين الروح والجسد، تَقارَعَ فيه سيْفا الزهد والرغبة، وتبادلا الهزيمة والانتصار.

وقال مختارُ وهو يجاهد ليطير:

ــ آه، ولكننى أخشى الهبوط أشعر بثقل فى جناحىّ. ما تزال بنا من

الأرض بقايا كدِرَة، وأشكُّ فى أن الخلاص منها ميسور.

ـ بالتقوى سنتخلص منها، قم واقصد إلى مخدع جلفدان ، وتحقَّق أنه لا أحدَ هنالك.

وقال وهو يجرجر قدميه ويبتعد:

ـ بل أمامى الكثير قبل أن أنسى هذا الجمال بل أمامى الكثير. آه، وارحمتاه لحبنا!

ثم غاب عن نظرها.

الفصل السابع عشر

وســـار مختــارٌ يتحامل على نفسه . لم يكن هذه المرة يقصد إلى زينات ، ولكن إلى جلفدان، أما زينات فتلك حلمٌ ومَضَى .

ولاح له باب الحجرة التى ترقد فيها زوجته المنتظَرة هنا ، عند هذا الباب، يتخلى عن كـل آماله ، كما لو لم تكن غير ماءٍ وتسرَّب من بين أصابعه ، ثم يعـود خالى الوفـاض . هنـا ، عنـد هـذا البـاب ، سيوارى الترابَ شبابين مـايزالان يزخـران بالحيـاة ، حيث يبقَى اللهبُ الكامن فيهما يصرخ ويشكو إلى الله قسوة القدر .

فتوقَّف فى سيره ، كان يريد أن يتريث قبل أن يحفر قبره بيده ، وقبر من يهوَى .

ولكنـه لـم يلبـث أن تملكتـه تلـك العزيمــة الصــارمة التى تتملك المنتحر، تلك العزيمة التى لا تمهل فريستها حتى يتسرب إليهـا الخور، فحرك المزلاج فى عصبية ودلَف إلى الحجرة .

ووقـف لحظة يلتقط أنفاسه قبل أن يتفوه بكلمة واحدة ، كأنما قد أراد أن يجمِّـع ما تبـدَّد مـن قـواه التـى سيمثل بها أبغض الأدوار إليه ، كما يفعل الإنســان عندمــا يقيم إلى فمــه كأسًــا من الـدواء، ألم يكن عليه أن يتكلف دور العــاشــق ؟ ألــم تكــن كـل خطــوة يتقدمها فى هــذا الســبيل تُبعد الشُّقة بينـه وبين حبه الحقيقى ؟

فلما استعاد جأشه دنا من جلفدانَ وربَّتَ خدها ملاطفًا وسألها :

كيف حالك الآن يا جلفدان ؟

كانت في صوته نغمةٌ لم تعهدها من قبل، ولا عجبَ فقد كان المسكين يتصور زيناتَ ويتكلم، أما جلفدانُ فلم تكد تسمع هذه النغمة حتى اضطربت، ثم أجابته وهي تلهث :

– شكرًا، لقد سببتُ لكم متاعبَ جمة، كم أنا خجلة من نفسى !

– كلنا فداؤك يا جلفدان .

– فدائى ؟ فدائى هذه الأرواح الغالية ؟ لا تَقُلْ هذا يا مختار، آه ، ليتنى أموت وأدفن عارى معى ! عارَ إنسانةٍ عالةٍ على الحياة .

– تموتينْ ؟ وتتركيننى يا جلفدان ؟

وضغط يدها ضغطةً ذات مغزى واستطرد :

– آه ، لو تعلمين! إذنْ لأبللتِ من أجلى ! جلفدان ! ألاَ أبلِّى بربك !

وارتعشت جلفدان، ما هذه الكلمات الغامضة التى تُشْبِهُ حديث الحب؟ فنظرت إليه مرتابةً وهتفت :

– من أجلك ؟ وماذا يجديك بقائى ؟

– كل ما يجدى المحب من بقاء الحبيب، جلفدان ! وخيم صمتٌ قال بعده:

– إنى أحبك !

فشهقت ، وقالت وهى لا تصدق أذنيها :

- تحبنى ؟

- نعـم، أحبـكِ من عهـدٍ طويـل، ومـا كتمتُ إلا رعاية لمن فتح لي بيته وائتمننى علـى عرضـه، فلما أصبحتُ وفى وسعى أن أنالك بالطريق الحلال، وأحبـك تحت سـمع من بيـده أمرك وبصـره، لم أجـد حرجًـا فـى أن أكاشفك، إننى ما جئتُ إلا لأستأذنك قبل أن أطلبك إلى أبيك، لا لأغرر بك.

فسألته وما تزال على ذهولها :

- وماذا تحب فىّ ؟

- روحَك يـا جلفـدان، إنهـا نقيـةٌ كأشـعة الأنجم، حلوةٌ كافترار الندى الندَى، عَبِقَةٌ كأنفاس الزهور .

- ولكننى لست بزهرة .

- حسْبكِ أن لك عبير الأزهار .

- ولكـنْ كيـف تحبنـى وفى البيت زهرةٌ أخرى، جَمعتْ إلى طِيب الرائحة حسْنَ المنظر؟ كيف تحبنى وفى البيت زينات ؟

- زينـاتُ كانـت طفلـةً لما تفتَّح قلبـى، فشـبَّ ومـا علَّـق أحـدًا فـى الحياة سواك.

- ولكن ..

- ماذا ؟

- لطالما بدوتما كحبيبين ، فى الوقت الذى كنتَ فيه تتجنبنى .

- ذلك لأنـه لم يكـن هناك مـا يوجـب الاحتشـام مع طفلة، أما أنت فقد

كان لشـبابك حُرْمتـه التـى كانـت تُلزمنـى بـأن أغـضَّ الطرف، صدِّقينى يـا جلفـدانُ إنـى أحبـك، وإلا مـا جئت أضع قلبى بين يديك، فهل تحبيننى يـا جلفدان؟ قُوليهـا كلمة، أصبـح أسـعد إنسـان فـى الوجـود، وأذهبْ من فورى لأخطبك .

وعجبـتْ لفعل الزمن، أمختارٌ الذى ظلت عمرها تحبه بلا أمل ، وتخشى أن تفاتحـه لئلا يردَّها خائبة، يأتيها اليوم متوسلاً وعلى كفِّه قلبـه، ويسألها إنْ كانت تقْبله؟ تالله إن تلـك لسـعادة فـوق ما تتصـور! فعـادت الحياة تسـرى فى أوصالها، وخيل لها أنها تسمع دبيبها وهى تصارع فى جسدها جيوش الموت .

وهتفت وقد ابتسمت من قلبها لأول مرة ، مذ أَحَبَّت حبها اليائس :

- أمختـار ! أتسـألنى هـل أُحبك، وأنا التـى أتلَفهـا هـواك مِن قدَم؟ أتسـألنى هل أحبك، وأنا التى عشقتك من قبل أن يعرف قلْبك الهـوى؟ سَلْ جسمي العليل يا مختار ، سلِ الموت الذى ينْقل خُطاه فيه - ينْبئك .

- وا كبِـدالنا! إذن كانـت الأنشـودة واحدة، ومع ذلك غنيناها منفردين، ولكنْ لِنفرحْ، فلن نغرد منذ اليوم إلا معا .

وفجأة بدا عليها السهوم، ثم قالت تستدرك وقد عاودتها همومها :

- ولكنْ عاكفُ يا مختار، أما فكرتَ فى عاكف ؟

- اتركى لىِ أمر عاكف .

وصمت قليلا ثم استطرد :

– وبهذه المناسبة لمَ قبلتِ خطبته ؟

– قبلتُهـا مـرغمـة، أبـى توسـل إلىّ، ليتـك تقدمـت قبلـه، ووفـرت علىّ كل هذا الشقاء .

– على كل حال لم يفُت الأوان .

– أواثقٌ أنت ؟

– كل الثقة .

– قُلْ لي كيف ؟ زدْنى اطمئنانا .

– دعيك من هذا ، ولتكنْ مفاجأة أُعدُّها لك .

– رباه ؟ إنى خائفة .

– لاتخافى شيئا .

– يا حبيبى !

وراحت تنظر إليه فى صبْوة، أما هو فقد أرهف أذنيه وقتًا ثم قال :

– وهـذا والـدك أقْبـل، إنى أسمع صـوته فى الدهليز، إذنَ حان الوقت لأفاتحه، يا لها من لحظة حاسمة فى حياتنا !

وخرج .

وقالت وهى تتبعه بنظرها إلى الباب :

– وفقك الله !

ثم دسَّت وجهها فى الوسـادة وجعلت تبكى، وكانت هذه الدموع بمثابة تصفية لما بقى من آلامها .

وما إنْ غسلت بالبكاء أكدار الماضي، حتى استردت عافيتها، فاستطاعت أن تنهض من السرير بعد أن لازمته أسابيع. وكان أول ما اتجهت إليه المرآة، فلما نظرت إليها خيل لها أنها غدت جميلة، وأحبت نفسها لأول مرة في حياتها، لله ما أعجب فعْل الحب! يردُّ الروح المسلوبة ! ويبدِّل العينَ غير العين !

* * *

وألفى مختارٌ زيناتَ بالباب وهو خارج، وكانت قد قدمت لتطمئن على نجاحه في مهمته، لمْ تلتقِ نظراتهما على ضنًى كما التقت وقتئذ، ذلك أن لقاءهما هذه المرة كان ولعلُّهما في النزع .

ولم تزد الفتاة على أن هزت رأسها مستفسرة، فأجابها الفتى في اقتضاب :

– كل شيء تمَّ كما ينبغي، وهأنذا ذاهبٌ للقاء أبيها .

وتركها ومضى إلى عمه والعبرات تخنقه، يا لسخرية القدر! منذ أعوام وهو يتوق إلى هذا اللقاء الذي يطلب فيه إلى عمه يدَ ابنته، وها هو ذا يذهب إليه الآن لهذا الشأن ، ولكنْ أية الابنتين ذهب ليطلب ؟

* * *

وقابل مختارٌ الباشا، وكانت عنده شريفة هانم، ولا تَسَل عن دهشتهما عندما ألفياه جاء يخطب جلفدان، فإن مختاراً عندما فاتح عمه قائلاً : " إني

جئتــك خاطبًــا ... " ، لم يشــكَّ الرجلُ وزوجته فى أن العروس زينات ، ونطقا فى ســـرهما بالاســم، أمـــا الآن وقد اتضح أن أن العروس أختها ، فإنهما لَيكذِّبــان أذنيهمــا ويــراجعانه فيما قال لعله أخطأ، فلما تثبتا من حقيقة من يقصدها الفتى ، سقط فكاهما من الدهشة .

وكــان أولَ ما نتابهما شعورٌ بالندم، لكم ظنَّا الظنون بمختارٍ وزينات، وها هما ذا يتضح أنهما بريئان، وإذَن فلقد ظلماهما، وإذَن فإن بعض الظن إثم.

ومضيــا يســخران من نفسهمــا ، فـــإن ذلك الإشكال الذى بَلْبَل فكرهما حينا من الزمن ، وحـاد بالباشا عن الصواب فى تصريف شئون منصبه ، لم يكن إلا محض وهم .

ثم انتقل بهما الفكر إلى عاكف ، فقال الباشا مخاطبا ابن أخيه :

– ولكنْ جلفدانُ خطبت يا مختار، خُطبت لعاكف . وأنت تعلم ذلك .

– نعم، ولكنها لا تحبه، ومن أجل هذا مرضت وأضحت حياتها فى خطر.

وسنَح للباشاخاطرٌ قطَّب له جبينه فقال :

– وهل تقدمتَ لتنقذها ؟

– بل لأنى أحبها .

وهنــا سُرِّىَ عن الرجــل. إذَن فمختــارٌ يحبها حقًا، وليست فى الأمر تلك التضحية المخيفة، إلا أنه عاد يسأله :

– ولماذا لم تتقدم إليها من قبل ؟

– كان ذلك في نيتي، ولكنني فوجئت بسواي .

– ولمَ سكتَّ حتى الآن ، ولم تطلب تغيير الموقف عقب الخطبة ؟

– كان عليّ أن أتردد كثيراً قبل أن أقدم على ذلك، لأن فسخ الخطبة ليس بالأمر الهين .

– وما رأى جلفدان ؟ هل استطلعتَ رأيها ؟

– اغفرْ لي أنني أستأذنتُها قبل أن أجيئك، لأثبت لك بقبولها أحقيتي بها من عاكف، ولكنني أقسم لك يا عماه أن كلينا لم يكاشف صاحبه بحبٍ قبل الآن .

ولم يلقى الباشا بالاً هذه المرة لاجتراء مختارٍ على خرق التقاليد المحافظة التي درجت عليها الأسرة، لقد كانت ابنته تموت، فهل يلوم امرءًا جاء ينقذها كيفما كانت الوسيلة التي سلكها لذلك ؟

وسألت شريفةُ هانم مختارا :

– وهل قبلتْ جلفدان ؟

– أجل ، وكان سرورها عظيما، بل فوق الوصف، إنها وإنْ لم يسبق أن أبدت لي حبها، لم يخفَ عني ميلها لي .

وابتسمت السيدة، الآن فقط، أدركتْ سر رفض جلفدانَ لعاكفٍ أول الأمر، أما الباشا فقد كان بادي التفكير، ثم لم يلبث أن نظر لمختارٍ وقال:

– ولكنْ ما العمل وقد ارتبطتُ أمع عاكف ؟

– أوَ ليست سعادة جلفدان فوق كل اعتبار .

وأطرق الباشا وراح يحدث نفسه :

– لقد أصاب الفتى كبد الحقيقة، وفوق ذلك فمهما يسر عاكفا أن أتحلل من وعدى معه، ألم يخطب جلفدانَ لغرض فى نفسه؟ فما حاجته إليها إذَن بعد أن نال مأربه؟ يبدو أنه لا ضرورة حتى لا ستئذانه فى فسخ الخطبة.

على أن فى وسعه أن يتزوج زيناتَ فيربح فوق الوظيفة زوجةً من أجمل بنات حواء، كما يتاح لى أنا تزويج الابنتين، وأكون قد صدْتُ عصفورين بحجر واحد، كل شىء يسير على ما يرام، ولا عُقَدَ ألبتَّةَ فى الموضوع.

ولكنّ المهم هو أن تبلَّ جلفدانُ من مرضها لتنعم بهذا الزواج، وأقرَّ عينا بها، فهل تبلُّ منه؟ ألاَ لَيْتها!

فرفع وجهه إلى مختارٍ وقال :

– ولكن ما رأيك فى صحة جلفدان؟ هل هناك أمل فى إبلالها؟ يبدو أن التحقق من هذا واجب قبل الإقدام على أى شىء .

– الأمل كبير يا عماه، إن مرضها نفسانى، وسيزول بزوال العقدة التى سببته، والتى هى فيما أعتقد زواجها ممن لا ترغب فيه، وحرمانها مَن تُحِب، بل إن أغلبه قد زال مذ صارحتُها بما يكفل تحقيق أمنيتها، والقليل الباقى سيزول عندما تتم الخطبة إن شاء الله .

وهنا هتفت شريفةُ هانم :

– حقا ؟ إن هذه لَبشرى عظيمة .

ثم نظرت إلى زوجها وكأنما تقول لهُ : اقْبلْ . أما الباشا فراح يقول :

– حسنا يا بنيّ، ولكنْ الكياسة مازالت تقضى عليّ أن أستشير الفتاة قبل أن أقبل طلبك، إذ المفروض أننى لا أعلم أنك جئتنى بموافقتها .

وعضَّ مختارٌ على شفته، كانت هذه الملاحظة بمثابة توبيخ خفيٍ موجه له من عمه، على أنه تهجم سرًا على قلب ابنته، لكنما رفَّه عنه أنه كان مجرد عتاب رقيق لا أثر للسخط فيه .

فأجاب :

– بالطبع يا عماه .

– إذَن ابقَ هنا حتى أعود .

والتفت إلى زوجته وأومأ إليها أن تصحبه. ثم قصدا معًا إلى مخدع جلفدان .

يا لَتدابير القدر! من كان يظن، أن الهناء الذى هيأت الطبيعةُ سببه للمحبيْن بما وهبتْهما من جمال، سيكون فى النهاية من نصيب شخص آخرَ خُلِق محروما ؟

فهل من لطْف القدر بالمحرومين، أنه عندما يضنُّ عليهم بالسعادة، يغدق النبلَ على بعض من خصَّهم بها، ثم يسخِّرهم ليتخلوا لهم عنها راضين؟

ولكنْ ماذا يفعل هذا القدَر بعدئذ من أجل أولئك الأسخياء؟ وهل من الممكن أن تكون لذة البذل وما تبعثه فى الضمير من راحة، هى الجزاء

الحسن الذى يعوضهم خيراً عما بَذلوا ؟

وكمـا خلّـف حـادثُ هذه الخطبة فى منزل رمـزى باشا سعداءَ وشَقِيَّيْن، خلّف فـى بيت جارهمـا أيضًـا سـعيداً وشـقية، ذلك أن نَبأها لم يكد يبلْغ محـرزاً وشقيقته، حتى تجـدد للأول أمله فى زينات، ونفَضت دريةُ يدها من مختارٍ وراحت تبكى .

الفصل الثامن عشر

لـم تكـد تتـم خطبـة جلفـدان، حتـى هـرعت زينـاتُ إليهـا تغمـرها بالقبـل وتقول:

– تهنئتى لك يا جلفدان! كم أود، لو يوم المنى نسجتُ من أهدابى ثوبك! وجعلتُ من إنسـان عينيٍ خاتمك! ثـم أُوقـدُ قلبـى بَـدَل الشـموع، وأزفك على نـوره! وأطْلق عصافير خواطرى لتزغرد لك !

وأجابتها جلفدان :

– شـكرًا يا أختى؟ وأنا كم أود لو ليلةَ عرسـك، حُكْتُ ثوبك من أجنحـة الفَراش! وقَبَسْتُ من خفْق النجوم جواهرك! ثم أحشـد من الطواويس صفَّين لتكون وصيفات لك؟ ومنِ البلابل قَيْنَاتٍ تزفك!

وكأنمـا هاجـت هـذه الجملـة شـجنَ زينـات، فلم تكد تَسمعها حتى أحست ببحـارٍ من الدمع تتجمع فى مآقيها وتوشك أن تفيض، فانسلَّت من بين القوم وذهبت تذرفها وحدها فى صمت وهى تقول :

– لَعَمـركِ قد نشـدتِ المستحيل يا جلفـدانُ، قد نشدتِ المستحيل، إذ كيف أتـزوج وقد وهبتُك زوجى، أو أهنأ وقد نزلتُ عن هنائى لك؟ لك الله يا زينات! لقد بذلتِ فوق الذى ينبغى، وجُدتِ بما ليس يسمح به الجواد!

واتفق أن دخل مختـارُ الحجـرة التى خلت فيها بنفسها، فما إن رآته حتى تلقَّتْه ملتاعةً وهى تهتف :

- مختار! هل انقضى كل شىء؟ وأصبحتَ حرامًا على زينةَ وزينةُ حرامًا عليك؟ ولكن لمَ أقول زينةُ حرامًا عليك؟ ولكن لمَ أقول زينة؟ إنك لن تدللنى بَعْد، ولا عدتُ أناديكَ حبيبى! واحسرتاه! كان يجب أن نغرس هذا الزهر فى حياتنا، ونُوقد لزفافنا هذه الشموع، أليس كذلك يا مختار؟ تكلَّم.. من كان يظن، أن الهوى يعطفنا فتأبى التضحية؟ ويشترينا فنبيعه بيع السماح؟ وأنك لا عن سلُوّ تهجرنى، وأننى لا عن ملالٍ أهجرك؟ وتتخلى عنى وقد أحببتنى، وأبْذُلك يا حبيبى باليمين؟ مختار! ياأعزَّ مَنْ فى الوجود! ويا حُلْمًا مضَى فما يعود!

- تكلَّم .

وأخذ مختارٌ يرفه عنها، ولكنه اضطر إلى أن يخرج عندما سمع وقع أقدام تقترب، تاركًا إياها مستسلمة للبكاء .

لم يكن من السهل أن تتخلى عن أمل العمر فى لحظة، ولا أن تصبَّ الماء البارد على شبابها فتطفئه، وهى التى ذاقت من توها حلاوة الاحتراق على ناره، عندما أذكتها قُبَلُ مختار ساعةَ ودَّعها ليخطب أختها .

وإنها إذ تذْكر الآن هذه القبل، لَتذكر الشرارة المقدسة التى التمعت على فمها عندما لمسته شفتاه، وذلك البخوَر المسْكر الذى راح يفوح منه وهو يحترق تحتها، فتنوب هى فى عطره ذلك النوبان اللذيذ .

لقد كانت تتعلل بذلك الحب الروحانى، وحسبت أنها تستطيع أن تظفر به وتَلقَى السلام فى نوره الهادىء، حيث لالهبَ يلح ويبدى رغَبات، وفاتها

ن الإنســان قطعــةٌ من جهنـم، وهــذا دمـُــه يجرى بنارهـــا فيه، ويُثْبت أننـا كنا أبالسةً هناك. فلما أدركت ذلك كفَرت بالـروح، وآمنت بجهنمٍ وبالزبانية، وودت لو تشعلها حاميةً فى دمائها وتجلس تحترق على لهبها وتتأوه .

فلم تتمالك أن هتفت فى جنون :

– مختــار! تعال وأشـعـلْها جهنميــةً فى دمائـى، ودَعْ فؤادى يحترق على لهبهـا، ويصعِّـد ذلك البخـور الذى أنوب فى عطـره! تعـالَ تعـالَ يا مختار! كيف نؤمن بالسماء وفى أعماقنا هذا الجحيـم؟ تعالَ نتطهر على ناره أولا ثم نرقَى إليها فى دُخَان ، مخلِّفين الرماد تحتنا .

ولكـنّ مختـاراً لم يحضـر، وهو لن يحضـر أبدًا ليقبِّلها، لقد أضحَى فمه الجميـل حرامًا (عليها إلى الأبد، بل إن كل فم قد أضحى حراما) مذ وَهبتْ نفسها لحبه، وما هـى ممن ينقضـون العهـد، ولا هــى بالتى فــى وســعها أن تنقضــه، وهـذا هــواه يســد عليها السبل، ويجعلها تزهد فى كل زوج سواه، ومن ثم فستعيش هــذه الــزهـرة منزويــة، لا يدَ تمتد لقطفها، ولا أنفَ يَنْشَقُ عطرها الجميل، وتظل هكذا إلى أن تذبل وحدها.

وضاقت بهـــا الدنيـــا فـلاذت بذكريـــات الهنـــاء، أيـــامَ كانت تجلس مع مختـارٍ طفلة، يضعان أحجـار الأســاس فى قـصـور الأمـل وأيـام عـــاد من أوروبا فعكفا على بناء طبقاتها الشاهقة. وأيامَ خطب عاكفُ جلفدانَ فتمَّ صرحها وأوشـكا أن يلَجا حجـراتها ويقيما فيها، وإذا بها فجأة تنهار، فلا يبقَى منها إلا هذا الغبار الخانق .

فكأنما آخرةُ تشييد الأمل أن ينهدم على رأس بانيه! وخاتمــةُ أيام الرجاء أن نُشْنَق فى حبال ذكراها .

ذكرت هذا فأدركتْ أن هذه السعادة شىءٌ ضنين، فهى أبداً فرْحةٌ لا تتم. وعلــى من يطلبها أن يقنع بالقليل الذى يتحقق منها فقط، وحتى هذا القليل، يظل وهـو بين أيدينا منظور، فلا نستطيع أن نراه لتكحل أعيننا به، حتى إذا ما حان وقـت ذهابه، صاغ له أجنحةً من نورٍ وطار بها إلى أصقاعٍ مجهولة، وعندئذ نبصـره وهـو يبتعد، ونشيِّع قلوبنا فى أثـره من كَلَـف بـه، حيث لا عودةَ لها بَعده تُرْجَى .

ذلك أن زينات أيام كانت تَنعم بالهـوى، شـاء الهناءُ أن لا يُريهـا نفســه كعادته، فعاشت وهى ترتاب فى وجـوده، وفـوَّت الشـكُّ عليها لَذَاذَته، وإنها إذ تدرك الآن بعد انتهاء كل شىء، لَتتمنى أن يعود بها الزمان إلى الوراء أياما، لتحيا ساعةً فى هذا الماضى الجميل وهى مؤمنــة به، وتحقِّق منه بالإيمان ما فـوَّتـه عليها الشـك من قبل. ولكنْ أنَّى لها ذلك والزمان لا يرجع إلى الخلف، ويأبـى أن يردَّنــا إلـى العهـود التى أسـعدتْنا ولو لنقيـم فى ربوعـهـا لحظــة، فهل تلك شيمة السـعادة؟ تعمينـا عنهـا وهى بين أيدينا، حتى إذا ما فارقتْ فتَّحـت أعيننـا فــى أثـرها لتملأنــا حسـرة؟ ثم جدَّت فى الســير وهــى لا تفتأ تُزْجِى لنا تلويح الوداع، وفى كل خطوةٍ تنقلها تَخطف جانبًا من قلوبنا؟

وبـدا لهــا أن تتفلسـف، وخيِّل لها أنها تستطيع بهذه الفلسفة أن تصرِّف آلامها. وهكذا لا يخلِّص المُوجَعَ من همومه كتصعيدها فى فِكَرٍ عظيمة فكأن

من فضل الهموم على الإنسان أنها تتسامى به إذا أراد، فراحت تناجى السعادة التى ذاقت طعمها ذات يوم وتقول :

- أيتها السعادةُ بماذا أشبِّهك؟ أبإصبعٍ ذهبيةٍ تنتقل على أوتار قلوبنا وتجتذب نغمها الحبيس؟ أم بنسيمٍ رقيق يَهُزُّ أوراقها ويَنْفُضُ ما حَوَتْ من عَبَق؟ إنْ كنتِ هذا فنحن لولاك أغنيةٌ ميِّتة، وأكمامٌ مغلقةٌ على سِرها بدونك. وهيهات مِن غيرك أن نَلمس نواتنا، أو نستدلَّ على أرواحنا التائهة في مغاور القلب!

أم بفجرٍ يشرق على أحلامنا فيشتِّت ضبابَها فى قطْرٍ نَحْتسيهِ؟ أو حريقٍ مسْكرٍ يشبُّ فى قصور أمانِينا فيحولها إلى بخورٍ يضمِّخنا؟ إن كنتِ هذا فلأنتِ عطر المنى وعصير زهر الأحلام، وفصلُ الخطاب إذا طال الحديث، ولحظةُ الاستقرار لشوقٍ معذَّب، ولولاك لعشنا فى أكاذيب الأمل إلى أن نموت بظمئنا .

أم بالفراديس الموعودة تراءت لنا عَبْرَ نظراتنا الوامضة ببريق النشوة؟ أو طافيةً على بحور النور التى تنفجر عنها بسمَاتُنا؟ أو راقصةً فى نوْب دمعةِ فرحٍ رَجْراجةٍ نذرفها؟ إن كنتِ هذا فلابد أنك شيءٌ مقدَّس، يهبط علينا من الخلْد ولا يمتُّ لدنيانا بسبب، فيرينا من مَآب أرواحنا لَمحاتٍ، أو من مهود طفولتها الغالية.

أم بسربٍ من الطير المجنَّح يطير من عشه القائم على فَنَن الفؤاد، وقد زَفَّ فى موكبه الفخم أرواحنا، مُرْكِبًا إياها مَرْكباتٍ من أجنحته المنشورة،

عـازفًا لهـا مـن زقزقتـه الألحـان؟ إنْ كنـتِ هذا فلمـاذا تمضين كالعصافير مسـرعة، وقد اختزلتِ فى رِكابك الساعات إلى دقائق؟ فإذا أقمتِ نخال عامَك يوماً، وإذا رحلتِ نخال يومكِ عاما ؟

أم زورقٌ أنتِ أَقَلَّ المنى ثم أَغرقَ نفسـه فـى أعماقنـا المجهولة، ومضَى يسْبح فى القاع بعيداً عن عيوننـا فمـا نحسُّ منـه إلا دبيبه، حتـى إذا ما أَتَمَّ رحلته طفَا على لُجَج الذكريات، فنراه ولكنْ فى البحـار النائيـة التـى تفصـل بيننا وبينها عوالم الزمـن؟ إن كنـتِ هذا فلمَ لا تزورين إلا ملثَّمة، فنخال كذباً ما نحن فيه، وتُسْفرين إذا رحـلتِ فمـا نشـكُّ فى رحيلك؟ فـإذا رشـفْنا كـأس الهناء ففى أفواهنا مرضٌ، فإن كانت شجًى صحَّت فذاقت علْقَمه؟

أيتهـا السـعادة! وددتُ وإن فـات الأوان، لو بَـدَلَ التخفِّـى نمَّ عنك سفورك! إذَن لا تنبهنا لِمَزَارٍ لن يطول، ولا يكون فى العمر إلا مرة، واهًا لنا! كلنا كنا سـعداءَ يوماً، ولكننـا لم نفطـن لهذا إلا فـى أيـام الشـقاء، فيـا ليتنا كنا فَطنًا له فى حينهِ، يا ليتنا!

* * *

وأفاقت من هذه الهواجس على صوت أبيها يدخل حجرتها ويناديها، وبعد أن طبع قبلة على جبينها البلَّورى، دعاها للجلوس إلى جواره وبدأ يتكلم قال:

- أهنئك بأختك يا زينات، العقْبَى لك إن شاء الله .

– شكرًا يا أبى

– لم يكن بدٌّ بعد أن علمتُ بما بينهما من حب، من أن أفسخ خطبتها لعاكفٍ وأعطيها لمختار، لأجمع الحبيب على الحبيب، ولئلا أكون قد عملت على جرح قلبين بريئين .

–خيرًا فعلتَ يا أبى

وسكت قليلا ثم استطرد :

– والآن يدور بخلدى وقد أصبح عاكف فى حلٍّ من جلفدان، أن أهديه أثمن هدية فى الوجود، وهى زينات أو زينةُ بنات جنسها، ولكنْ كان علىّ أن أستشيرك قبل أن ألمّح له بهذا العرض، حتى لا أكون قد حنثتُ معه فى كلمتى مرتين إذا بدا لك أن ترفضى، فما قولك فى هذا يا ابنتى ؟

ودارت الدنيا بزنيات، ما للأقدار ومالها؟ أَبْعدَ أن ضحت فى حبها بكل شىء، تراودها على التنكُّر له، والغدر بمختارٍ الذى قدَّم نفسه قربانًا لأختها؟ أبعدَ أن نَذَرَت نفسها للزهد، تريد أن تنتزعها من سمائها العالية ، لتلقِى بها فى جحيم الحياة مرة أخرى؟ حقيقة أن هذا الجحيم جميل، وبردُ ناره وسلام، ولكنه لا يطاق فى أحضانٍ غير أحضان مختار، لقد كان جحيمًا واحدًا ذلك الذى أحبته، وما ترضَى أن تكتوى بسواه وإن عزَّت عليها الآن ناره، وكان وهْمًا واحدًا ذلك الذى تفتَّح له قلبها طفلة ، وإنها لَتفضِّل أن تغْمضه عليه بدلاً من أن تفتحه لغيره فيهرب، مادام قد كان فيه حلاوة الخيط الأول من الشعاع، الذى شعرتْ تحته بجمال الصحوة الأولى، تلك الصحوة

التى تطْـرب لهــا البــراعم عندمــا تتمزق عنها الأكمام فى البكور، وتستقبل أوراقُها الضوء لأول مــرة، فتأخذ ترتعش وتتبســـم، فلــم تملـ٥٢٧ك إلا أن رفعت وجهها إلى أبيها وهتفت :

– كلا يا أبتِ ، إنى أرفض .

– ولماذا يا ابنتى ؟ ألا يروقك عاكف ؟

– لا أشعر نحوه بأقل ميْل يا أبى .

– ولكنه جذاب ، وستميلين إليه حتما بمجرد أن يشتغل فكرك به .

– الحب يأتى أولاً ثم يشتغل الفكر ، وليس العكس وأرادت أن تقطع عليه خط الرجعة فاستطردت :

– ومع هذا فـثـمـة سـبب أقـوى يمنعنى من قـبـوله ، ذلك أنه كـان خـاطب أختى .

– ولكن علاقتهما قد انتهت .

– انتهت ولكنّ عـبيرها سيظل فى ثيابه، إنى لأشـعر بـأن أخـتى سـتكون معنا كلما جمعتْنا خلوة .

– لعمرى ذاك وهم .

– ليكن ، فبعض الأوهـام لا سبيل إلـى التـحرر منهـا، كلا يا أبى، أعفنى من هذه الخطبة، أعفنى أتوسل إليك .

ولم يُجْدِ معها إقناع أبيها، فلما أصرت على الرفض تركها ومضى، ولكنه لم يأس كثيرا على ضياع هذه الفرصة، فإن زيناتَ شابة وجميلة ، ومـايزال

الأمـل فسـيحًا أمامهـا، خصـوصًا بعد أن زالت من طريقها جلفدان، وفوق ذلـك فـإن عـاكفًـا الـذى داسَ قلبَه ليطعـم فمـه، ليـس بالـزوج الـذى يؤسـف على ضياعه .

لكن مـاذا يقـول لـه؟ ذلك ما بقى يحيره، غيـر أن نجـدةً هبطت عليه من السماء. إذ أتته أبناء بأن الفتى قد تَعَشَّق راقصة من النَّوَر، وصـار يشـاهَد معها علنًـا فى شـوارع المدينـة وحاناتها، فوجـد فى ذلك سببًا يتذرع به للتخلص منـه، وحمـدالله على أنّ هـذه المصاهرة لم تتم، ولم يفته أن أدرك أن زواج المنفعة وخيم العاقبة.

وعندما قابـل عاكفًـا فى اليوم التالى، واجهه بما بلغه عنـه، ثم شفع ذلك بإعلانه بفسخ الخطبة، وطار الفتى فرحًا فى قلبه بهذه البشـرى التى لم تكن له على بال ، وإن راح يتصنع الأسف .

الفصل التاسع عشر

لم يكد مختارٌ يدخل بجلفدان، حتى شعر كأنما قد أُلْقِيَ به فى جُبّْ. ظلامٌ مُدْ لَهِمٌ وجوٌ خانق، ومياهٌ آسنةٌ هى السمُّ البطىء، وبَعْدُ ألمْ تَقبض سحنتُها قلبه، وتحنقه أنفاسُها؟ ألم تكن كل قبلة يضطر إلى أخذها منها، بمثابة جرعةٍ من جوهرٍ سامّ؟

فلا عجبَ إذَن إذا بدا المسكين أتعس أهل الأرض، ولا عجبَ إذا تقدمتْ به الأيام إلى الشيخوخة مسرعةَ الخُطَا. ألم يكن تلك الزهرة التى نُقلتْ من أرضها الخصبة إلى أرضٍ مجْدبة، وبُدِّلَتْ عن نسمات الصبًا رياحَ السموم؟ فلمَ إذَن لا تذبل؟ ولمَ لا تصفَرّْ؟

ومع ذلك فقد كان كريماً معها، فلمْ يشعرها مرة واحدة بتلك المرارة التى كانت تُمِضُّ فمه عقب كل ملعقة يتعاطاها من شرابها الكريه، ولكنه كان كلما تعاطى منه جرعة، خلا بنفسه وبَخَّهاَ فى تلك الزفرات العنيفة التى كانت تكاد تزهق روحه، ثم راح يغسل فمه بكأس من نور ذلك الحب الروحانى الذى كان مايزال يسْبح فى فيْضه مع زينات، فكانت هذه الكأس ومثيلاتها هى العزاء الوحيد الذى بقى له فى محنته، بالرغم مما كانت تحمل إلى قلبه من تبريح، لأنها تَهيج الشوق ولا تروى الظمأ.

* * *

أما زيناتُ فقد نشب الصراع عنيفا بينها وبين الحياة، هى تود أن

تتحصن منها خلف أسوار الزهد، لتفرغ إلى نشاطها الروحيِّ الذى حبَسَتْ نفسها عليه وعللتْها بأنها ستلقى السلام فى كنفه، وتأبى الحياةُ بما لها من بطش إلا أن تحطم هذه الأسوار، ثم تَمْثُل أمامها وتذكّرها بنفسها. فكانت كلما جَمَعتْ بالنسيان طبقةً من الرماد على قلبها المشبوب، هبّت نسْمةٌ من نسمات الحياة فاجتاحتها، وتركتْ ناره تندلع بين ضلوعها.

فشعرت بأن الحياة عدوٌّ لدود لها، وودت لو لاذت منها بالفرار واعتصمت بغارٍ قَصِيّ، منقوبٍ فى صخرة منقطعة وسط الصحارى، بعيداً عن ضجيج الحياة ووسوستها، وراقتها الفكرة، فتصورت نفسها تخلع حليها وملابسها الحرير، وترتدى مسوح الزاهدات، ثم تضرب فى الفيافى متجهةً صَوْبَ هذا الغار، وقد أخذتْ تستمع لوقع قدميها وهما تتنقلان فوق الحصا، وتصغى لضربات عصاها وهى تصطدم بالأحجار.

ولكنها لم تلبث أن هزت رأسها أسا، إذ أنَّى لها أن تفوز بذلك، وهذا أبوها لابد واقفٌ فى وجهها يذود عن حبه لها الذى لاشك سيصْدعه مثل هذا الفراق، وعن تقاليد أسرته العريقة التى لا تسمح لبناتها بالإقامة بعيداً عن حياضها، كما أنها لن تجد سبباً تعلل به مسلكها أمام القوم، إلا إذا صارحتهم بالحقيقة، وفى هذا ما فيه من إيلامٍ لهم، وإفساد للحياة على جلفدان .

فلما أعيتها الحيل، لم تجدْ بدُاً من أن حَولتْ مخدعها إلى معبدٍ صغير،

وأقامت من نفسها ناسكةً تصلِّى فيه، وفى هذا المعبد الذى كان يَعْبَق بشذى البخور، ويعجُّ بأطياف الملائكة الأبرار، اعتزلتْ زيناتُ الدنيا، وانقطعتْ لعبادة الله ومناجاة مختار.

ولكنْ هل كانت الحياة تترك قلبها دون مناوشة؟ كلا، فكثيراً ما كانت هذه الحياة تنسلُّ إلى معبدها فتشتِّت البخور السابح فيه، وتطرد الملائكة القائمين للصلاة فى محرابه، ثم تحوِّله إلى مسرحٍ للشياطين يصخب بالنار. النار التى أحبتها يوماً ما، ولاذت بمعبدها لتنجوَ من سحرها.

فكانت كلما وافى ربيعٌ جديدٌ فعطَّر الجوَّ بشذَى الأزهار، أو تناهتْ إليها من النافذة نغماتُ قيثارة تَعزف فى سكون الليل، ذكرَتْ الماضى الذى حرصتْ على نسيانه، فتقوم قيامةُ شبابها عليها، وتَهيج فى معبدها الصغير كمجنونة، وهى تهتف فى سرها :

– مختار! تعالَ أَحرِقْ بخورى! يا ما أحَيْلى النار! تمتِّعنا بالدفء الجميل، وتنْفض عبيرنا فى دخَان! ولولاها لعشنا هامدين، ولَمَا نشقْنا عطرنا!

فإذ لا يوافيها تستطرد:

– مختار أى حبيبى! لمَ لا تردُّ علىَّ؟ ما كان هذا عهدى بك، أىُّ أمرٍ لَعَمْرُكَ باعَدَ بيننا، والنوَى ليس فى شرع الغرام؟ كنا وكان الهوى، كغَردَيْن حواهما غصن، فأىُّ ريحٍ هبَّت فقَصَفتْ عُوده، وألقت بكلٍّ فى مكان؟ وإذ لا يجيبها تستمر:

أمختار! لمَ ذبلتْ فى كفنا الأزهار التى جَمعناها، ولمَّا تغربْ عليها الشمس؟ لمَ ماتت على ثقوب نايِنا الأنغام، ولمّا نأتِ على آخر الأغنيَة؟ لمَ جفّ بنا الغدير ولمْ نعْبره بَعْدُ إلى الضفة الأخرى؟ وهوىَ علينا قَصْر الأمل، وما احتوتْنا حُجُراته ليلة؟ لمَ فَنِىَ كل شىء فى أيدينا وحوْلنا؟ لمَ أينما سرنا نجدْ ما كان عامراً فناء؟

ثم تقول كمن تشكو إلى الله :

- رباه! هل نموت، ويخمد اللهب الذى أذكيناه، قبل أن ننْعم بالاحتراق عليه؟ هل نموت، وعطْرنا فينا دفين، لا أنفَ ينْشقه ولا جسدَ يضمَّخ به؟

يا ليت أنا إذَن لم نُذْكِ اللهب، ولم ندْرِ ما لذة التأوه فوقه! يا ليت أنّا خُلقنا بَدَلَ النَّدِّ من رماد! أى ثأرٍ كان بيننا وبين الاقدار، حتى راحت منا تنتقم؟ لمَ بتنا وكأننا نكفِّر، ولاذنبَ لِي إلا أنه سَحَرنى، ولا له إلا أننى تَيَّمْتُه؟

وتظل تندب حظها العاثر، وتنادى مختاراً ومختارٌ لا يجيب، إلى أن يُبح صوتها فتذعن للأمر الواقع، وتلوذ بالبكاء الذى هو آخر أسلحة الضعيف. فما إن تذيب فى الدمع السخين آلامها، حتى تغمرها الطمأنينة من جديد، فترْحل الشياطينُ عن معبدها وتُفسح مكانًا للملائكة، ويعود جوُّه يَعْبَق بالبخور، وتعود هى قائمةً تصلى فيه، وهكذا كانت كلما أبى عليها القدر أن تتطهر فى مِبْخرة اللذة، راحت تتطهر فى بوتقة الألم. وشتّان بين احتراقٍ واحتراق، وإن لم يختلف المصير.

ولما كان من المستحيل أن تشفَّ فى احتراقٍ واحد، وهذا شبابها يغذيها بالوقود على الدوام، فقد كانت كلما التهمت النيرانُ جانبًا منه، قفز مكانه غيرُه، فى انتظار الشرارة التى تبعثها إليه الحياة مع نغمةٍ حلوة أو عطْرٍ ذكى، فتشعل فيه اللهب وتكويها من جديد، وهكذا طال تعذيبها، وخلَّدها شبابها فى النار.

* * *

وكان مختارٌ يتردد فى الفتَرات على منزل عمه مصطحبا زوجته، فكان ما يكاد يجمتع بزينات، حتى يضطرمَ فى قلبيهما جوى حبهما القديم، ويتشوَّقا إلى خلوة يؤديان فيها للشوق ما وجب، ولكنهما ما يكادان يذكران جلفدان، وأنّ لها حرمَّة ما ينبغى أن تستباح، حتى تنسلّ هذه النار هاربة وكأنها خجلتْ من نفسها، ثم يحلّ محلها شعورٌ من الورَع هادىء القرار، يَرى كلٌّ منهما الآخر خلاله كما لو كان تمثالَ قدِّيسٍ من القديسين، يود لو يفنَى بروحه فيه ويغوص فى بركاته، دون أن يشعر نحوه بذلك الجوى الذى يشعر به العاشق .

ولكنّ هذا التعفف الظاهرىَّ لم يكن ليطفىء الجنوة المتقدة فى الأعماق، والتى تفعل فعلها فى الخفاء كما يفعل السم، ومن وقتٍ لآخر يتألَّب لهبها الكظيم ويشتعل حاميًا فى ضلوعهما، فإذا بتمثال القديس يَخلع مُسوحه ويبدِّل شَبهه، فيبدو مختار فى جمال "فينوس"، وفى عين زينات فى سحر "يوسف"، وإذا بكليهما يتمنى لو ذاب صبابةً فى صاحبه.

ولقد حدث مرة أن ألفى العاشقان نفسَهما فى خلوة، فغلى الدمُ المكبوت فى عروق مختارٍ فجأة، وراح ينظر إلى زينات نظرة كلها ظمأ ويقول:

- كيف يغدو جمالك حرامًا علىّ وقد حلَّله لىَ الحب؟

وانقضً عليها يود لثمها، وإذا بقوَى المسكينة تخور وتوشك أن تستجيب للغزَل، لولا أنهما ما لبثا أن ذكَرا جلفدان، فتردد العاشقُ وأجفلت العاشقة، وتركته يلوم نفسه على تلك الحماقة التى أوشكت أن توقعهما فى معصية،

وهكذا أيقنَت الضحيتان أنه من المستحيل أن يطفئا فى جسديهما الجنوة وإن غيَّباها فى كهوفه، ولكنْ ماذا كانا يفعلان وقد انقضى كل شىء وخرج الأمر من يديهما، إلا أن يستسلما لقضاء الله ويجْرعا العذاب المقدَّر؟

فهل علمتْ زيناتُ وعلم مختار، يوم نزلا عن غرامهما لجلفدان، وظنَّا أن فى وسعهما أن يحوِّلا لهب القلب إلى نورٍ سماوىٍ ليس له إلحاح اللهب ولا مآربه، أنهما ما انخدعا بذلك إلا لأن حبهما يحسبانه مات أو كاد، حتى إذا ما انجابت الموجة عنه غِبَّ إنقاذهما إياها، ظهَر الغريق وماتزال الروح فيه، ثم انتعش فانقضً عليهما يريد أن يثأر لنفسه؟

هل علِمَا ذلك؟ وأن ما لاح لهما يومئذ من تهاويلَ حَسِباها حبًّا روحانيا، لم يكن إلا هذيانَ نفْسٍ شفَّها الألم، حلمتْ بالمستحيل فى ذاتِ ليلةٍ كُشِفَ فيها عنها الحجاب، فلما طلع الصباح استيقظتْ على منظر نارٍ وموْقد، ومهجةٍ تصهَر فيهما؟

لا شك أنهما لمْ يعلما.. وإلا لَمَا بدا إيمانهما عميقًا بالخرافة التى رأياها

وقتئذ، فإذا بزينات تتحدث عنها كأنها دِينٌ وتبشِّر مختاراً به، ثم إذا بالعدوى تسرى إلى الفتى فيتنزَّل عليه الوحى بدوْره، ويطير إليها يقصُّ عليها كراماته.

ولكنْ أيَّ موقف كانا يقفانه من جلفدان، لو أدركا يومئذ سر الخدعة؟ أكانت ما تزال تنتصر فيهما الرحمة فيمضيا فى تقديم نفسهما قرباناً للمحِبة اليائسة، وهما يعلمان مبلغ ما يكلفهما ذلك من ثمن؟ أم يصيخان لنداء الحب تاركيْن إياها تروح شهيدة؟

سؤالٌ لم يكن يواتيهما عنه الجواب، وكل الذى كانا يظفران بالإجابة عنه، هو أن الأقدار وضعتهما أمام أمرين كلاهما مُرٌّ وقالت لهما: "اختارا"، دون أن يكونا قد جنيا ما يستوجب العقاب! ولكنهما بعد أن تفتَّحت لهما بالتفكير آفاق المعرفة، كانا سرعان ما يجيبان على حيرتهما قائلين: ولكنْ متى كانت الأقدار تتخير ضحاياها من الآثمين؟ وهل يكون لها فى ذلك حكمة؟ هل تتعمد البطش بالأخيار، لتمحُو بالألم بقايا أوضارٍ أزلية مازالت عالقة بهم؟ وهل مِن ثم يكون حتما على المرء أن يدفع دنياه ثمناً لهذا النقاء السَّرمَدِى؟ إنْ كان هذا فما أربَحها صفقة! وعندئذ تسُود الطمأنينة نفسهما، إلا مِن صرخاتٍ لابد منها كانت تنبعث منهما وهما تحت مبضَع الأقدار، كتلك التى يرسلها مريضٌ أسلَمَ نفسه للجرَّاح برضاه.

* * *

كان ذلك حالَ العاشقيْن وهما يجتازان محنتهما، على أن تلك اللحظات

التى كانا يلتقيان فيها، مهما قيل إنها كانت تثير حولهما الغبار بنبش صبوتهما الدفينة، طالما سرَّبتْ إلى روحهما شيئًا من البهجة، لأنها كانت الخيط الوحيد من الشعاع الذى يَصِلهما بماضيها ويذكرهما به.

وشاء لطف الله أن يضيف إلى هذا العزاء عزاء آخر أشد جدوى، راحا ينْفثان فيه هواهما المكتوم، إذ رُزق مختارٌ بطفل حوّل إليه جانبًا من حبه، كما علَّقَتْه زيناتُ لأنها نشقت فيه عبير حبيبها، وعبيرَ حبه لها وقد تسرب إلى الطفل مع دمٍ أبيه، فكانت الأوقات التى تجلس فيها لمداعبته وتدليله، تُعَد أسعد الأوقات فى أيامها الحزينة .

أجل، كان هذا الطفل بمثابة نجمٍ سبَح فى ليل حياتهما فبعث فيه بصيص نور، إنْ لم يجَنِّبهما عثْرةَ السير فقد أعانهما عليه إلى حين.

الفصل العشرون

باء محرزٌ بالخيبة، في. محاولته غزو قلب زينات. كان طَرَق إلى قلبها بابًا أوصدتْه في وجهه، فكأيٍّ من مرةٍ حاول أن يصيد نظراتها في نظراته فكانت تُغَضِي، وكأيٍ من مرة بَعث لها بأخته زائرةً فما كانت تردّ لها الزيارة، ولقد اجترأ ذات يومٍ وأرسل لها معها وردة، ولكنها امتنعت عن قبولها وعادت إليه الوردة بحديث قلبه الذي لم تُفْضِ به. فلما أعيته الحيل، عول على أن ينال منها عن طريق الزواج ما لم يستطعه عن طريق الغزَل. فأوفد أمه إلى أهلها خاطبة.

ودخلت شريفةُ هانم على العذراء في معبدها تستطلعها رأيها، ووسْط سحُب البخور التي كانت تنعقد في جو الغرفة طاويةً في تلافيفها صور الحياة، انبعث صوتُ من فمِ الناسكة الصغيرة يقول في إصرار:

- كلا.

وكان هذا رد الزهد، التي لا تفتأ تقتحم عليه حَرَمه وتناوشه، ليقول: "لا"، بعد أن تكون قداستيقظت أشجانه.

وإذا لم تظفر السيدة من إقناع ابنتها بطائل، ثم تجد بدًا من أن استمهلت الخاطبة أيامًا وخلت إلى نفسها تفكر قبل أن تبتّ في الأمر الجليل الخطَر .

وأنشأت تتساءل قائلة :

- كيف ترفض زيناتُ من كان في شباب محرزٍ وجماله ؟

ورجّحت أن في الأمر سرا، ووجدت نفسها أمام أحَاجٍ، إذ ما لزِينات إلى جانب رفضها الخاطب تتنسَّكُ وهي صبية؟ مـا لها عـافَت نفسُها الزينةَ فخلعت حليها وسارت لا تلبس إلا خشن الثياب ولا تُبدِي من محاسنتها ما كانت تُبدي؟ ما لها تغلق على نفسها الأبواب الساعات الطوال فما تجالس الناس إلا لَمَامًا ولا تخاطبهم إلا بمقدار؟ ما لها زهدت في صويْحباتها فما عادت تـزورهـن ولا تطير بهن إذ قَدِمْن؟ وما لورد خديها قد غاض ولجسمها نَحُل ذلك النحول الذي كشَف عن عظمها؟ ولوجِهِها اكتـأب والعهدُ فيـه بسَّامُ، ونشـاطهـا فَتُـرَ وقـد كـان مـوفـورا؟ أجل، مالها سئمت كل شيء، وبرمت بكل شيء، وبدا عليها أنها مغتربةٌ في هـذه الحياة وكأنها ليسـت من أهلهـا؟ ثـم ما لكل هـذه الأعراض تظهر فجـأة غِبَّ خِطبة أختها لمختـار؟

وتطـرَّق بهـا الفكـر إلى موضـوع هـذه الخطبـة، فاسـتطردت فـي حديثها لنفسها :

- لأدَعْ أنهـا مريبة لِمَا بين الزوجين من فارق، ولأتساءلْ عما هو أعجب: كيف أدار مختارٌ ظهـره لزينـاتَ مِن بَعد إقبالٍ واتجه لأختها؟ ولمَ لم يحدث هذا إلا بعد أن ساءت حال هذه الأخت؟ ثم ما لمختار يغدو باديَ الكآبة بعد الـزواج وكأنمـا لـم يتـزوج غيـر الهمـوم؟ حقًّـا إننـي لأمـام ألغـاز، غيـر أنهـا ألغـازٌ إذا أُخـذت فُـرَادَى، فـإذا مـا وُضعـتْ بعضُهـا بجـوار بعضٍ فما أسرَع أن تحلّ نفسها.

وأدركت المعنـى الوحيـد الـذى يرمز إليه أو هى حَدَسَتْ، وفزعت من فرط ما ينطـوى عليـه من هـول، وتمنت لو أنهـا ماتت من قبل أن تدركُه أو طلع عليها الصباح فلم تجدْ نفسَها.

وإذا أرادت أن تستوثق من ظنهـا علَّهـا تصل إلى أنه أخطأ، أو إنْ يَكُن صحَّ تُفكر فى مخرَج، بعثت فى طلب مختار.

وعمدت إلى الحيلة معه فى الحديث، لتحصل منه خلسة على ما يتحرَّز من التصريح به، فقالت له :

- إنها بشْرَى أزفها إليك، زينات رَبَّةُ الحسن خُطِبت.

ورفعت عينيها إلى وجهه تتفرس فيه. ووجدته ممتقعًا فرجحت أن ظنها لم يخطىء، وراحت تهمس فى سرها :

- صـدَق من قال: يكـاد المريب يقول خذونى، أما هو فقد هتف بعد أن عقَدت الدهشة لسانه لحظة :

- مبروك ! خُطبت لمن؟

- لجارنا محرز.

فصرّ بأسنانه وقال :

- حسنًا.

ثم أردف :

- وكيف قابلَت الخبر؟

فأجابت وقد ابتسمت فى خبث :

بما كان يُنتظر، جميع ما فيها ضحِك.

وعادت تتفرس فيه.

لم يكـن ذلك الموترَ، الذى أخذت تنهش الغيرة قلبه فحسْب، ولكن كان إلى هـذا ذلك الوحش الذى اغتِيل غدرا، كان مظهره كمنْ طُعِن من الخلف فأساء الظن بكل الخليقة، وود لو فتك بها.

وبـدا لها أن تفاجـئه مفاجـأة أخـرى تكـون الحـاسـمـة، فتمتمـت وهـى تتصنع الأسف :

– ولكنْ أتدرى لمَ كان ضحكها؟

– لـمَ؟

– كانـت تسخر منـ، لقد راحت تتعجب كيف أعرض عليها زوجا كمحرز، فهل رأيتَ كهذا تعنتا؟ أليس محرزٌ شابًا ووسيما، وفوق هذا من بيتِ مجد ومهندسًا ناجحا؟

وغمغـم وهـو يتنفس الصعـداء بمـا لـم يدَعْ مجـالا للشك عند السيدة بأنه يحب ابنتها:

– وفيم البشرى إذَن؟

– مـا كـانـت بشـرى ولكننـى كنت أتهكم، أتهكم على خيبتى، على ابتلائى بهذه الابنة المغـرورة التى ستنحس نفسها، ومن هنا لجأتُ إليك لاستعين بك على رأسها العنيد عساك تستطيع أن تلينه، فما رأيك؟

وشعر بالحرج، غير أنه لم يسعه إلا أن قال :

- سأبذل جهدى.

- بل أريد أن تقول إنك ستنجح.

- ولكنكِ تعرفين رأس زيناتَ وكم هو صلْب، وفهمت مداورته فقالت له وقد اصطبغت لهجتها بصبغة الجدِ:

- رفقًا بالفتاة يا مختار!

ثم نظرت إليه نظرة ذات معان.

وصعق لنظرتها فهتف:

- ماذا تقصدين يا عمتاه؟

وعادت تقول فى لهجة أشد صرامة:

- ماذا بينك وبينها؟

وأجاب وهو يُسيغِ ريقه:

- ماذا بيننا؟ أيكون إلا ما بين الأخِ وأخته؟

- ولمَ غرتَ عليها كما لو كانت زوجتك؟

- عمتى!

- صه يا مختار، ولا حاجة بك إلى أن أقول أكثر من هذا، ولا بيِ إلى أن تفضى بما عندك، فلتبقَ الأسرارُ مصونة فى حرمها دون أن يخدشها البوح، وكفانا أن فهم أحدنا الآخر.

- ولكنك ...

فقاطعته قائلة :

– لا فائدة من الكلام، إن كنت على استعداد لأن تعمل شيئًا – وما إخالك إلا كذلك – فاذهبْ وأنقذ الفتاة كما أنقذت الفتاة أختها، وكنْ ذلك النبيل الذى كُنْتَه من قبل.

– رحماك يا عمتي! ومن ذا نبَّأكِ بهذا؟

– نبَّأنى به منطقُ الحوادث، ومنطقُ وجهك وهو يعقِّب على كلماتى. وألفُ لسانٍ ولسانٍ غير هذا وذاك، لقد كان كل ما حولى ألسنةً تفشى سركما.

وهتف وهو لا يعلم أنه يكاد بذلك ينمُّ عن نفسه :

– وهل علمتْ جلفدان؟

ثم لم يلبث أن فطن إلى خطئه، فجعل يصغى وهو مطرقٌ خجلاً إلى جواب زوجة عمه التى راحت تقول :

– كلا لمْ يعلم إلا أنا فاطمئن، فجلفدانُ فى شغلٍ عن أختها بنفسها، وأبوها لم يَعُدْ يهتم إلا بالقضاء على مشكلة الجوع، أما أنا وما لى شاغلٌ غير زينات، فقد كان كلِّى عيونًا منتبهة وآذانًا صاغية لما يجرى حولها، فاذهب لتنقذها ولا تتردد، فإنها تسير إلى الهاوية. تسير إلى الجنون، وليت شعرى ماذا يجديك حبها إنْ هى نسيتْه يومًا مع عقلها؟

فتهتف وقد أحس كأن سكِّينًا تغوص فى أحشائه، أو حجرًا يهوى عليه:

– ماذا؟ زيناتُ تسير إلى الجنون؟

– أجَل، فلقد قلَّ كلامها وكثرت صلواتها، وذاك لَعمرى نذيرُ سوء، أن تتنسك فتاةٌ فى صباها، فالنجدةَ يا مختار! يا من أنقذتَ جلفدان! ولم تَكُ

تحبها! ها هى ذى زيناتُ حبيبتك، تقع فى المكروه نفسه وتطلب إليك العون، مسكين! إنى أعلم أن عبئك عظيم، وأنه يتطلب من البذل مثل ما بذلتَ لجلفدانَ وأكثر، إذ عليك اليوم أن تتنكر لمن أحببتَ لتنساك، عليك أن تظهر أمامها بمظهر الخائن، الذى يقول لها: لقد نسيتُك فانسيْنى، فيما مضى قد ضحيتَ من أجلها بأملك، ولكن عزاءك كان أن نقشتَ صنيعك فى قلبها، أما الآن فستمسك المِمْحَاة بيدك وتمحو سطوراً فيه كتبتَها بدمِك، وعندئذ لن تبقَى منها سوى أخلاط، كلٌّ منها يحمل لك فى نفسها صورة مشوهة.

وأطرقت قليلا ثم عادت تقول بصوت هادىء :

هأنذا يا بنيّ قد أوضحتُ لك الموقف، وتركتُك لتختار بين رأى زيناتَ فيك وزينات نفسها، فستدوِّن لنفسك فى قلبك صفحات، أجَل، لن يكون على وجه الأرض أعظم منك فى نظر نفسك.

وقال مختارٌ بعد أن أمضى وقتًا غارقًا فى التفكير :

– ولكنْ أواثقةٌ أنتِ من أن تنكُّرى لها سينسيها هواى؟

– نعم، فالحب طائرٌ يموت إذا احتبس فى قفصه، لابد للحب من جوٍ يطير فيه ويتنفس، وهذا الجو هو فكر المحبوب، فإذا ما أُقصِىَ عنه، رفرفَ مرة أو مرتين ثم اختنق فمات، ولسوف يرفرف الحب فى قلب زيناتَ وكما لم يرفرف من قبل، عندما تطرده من سمائك، فلا تيأسْ وتحسبِ الروح فيه، فتلك رفرفة الذبيح قبل أن يُسْلم الأنفاس.

وأمام جزع مختارٍ على زيناتَ ورغبته فى إنقاذها، وبالرغم من هول

الموقف الذى كان بسبيل أن يضع نفسه ويضعها فيه، لم يتردد فى أن هتف:

– حسنًا يا عمتى، إنى سأختار زيناتَ دون رأيها فىّ، ولذلك سأمحو نفسى من قلبها.

وهكذا ألقَى سلاحه وانسحب من المعركتين: معركة الجدل الذى نشب بينه وبين عمته، ومعركة الهوى.

أما شريفةُ هانم فقد هتفت والدموع تترقرق فى عينيها.

– يا أنبلَ من رأيت!

فاستدرَك :

– لا تحسبى، فزيناتُ قد علمتنى النبل من قبل.

– كيف؟ أتُراها هى التى دفعتك إلى الزواج من جلفدان؟

– أجَل هى بعينها، نزلتْ لها عن الكأس التى لا تظفر بها الشفاهُ فى العمر إلا مَرة.

– لله درها! غير أنكَ مازلتَ أنبل، هى كانت وراءَها أختُها.

– وأنا كانت حبيبتى ورائى، هى منِّى أعظم، وسادت لحظة صمت، وكأنما طافت بالمكان سحابةٌ من جلالٍ أخذت تخْطر فى موكبها الفخم، وتطوى فى عظمتها كل شىء حتى الحب، فشعر مختارٌ لثانى مرة فى حياته بأن هناك ما هو أسمى من الهناء، ذلك أن يَكْبُر الإنسانُ بنفسه حتى يملأ بوجودها الأرض والسماء، ولكنه وأسفاه لن يَكْبُر بها حتى يُذِلَّها أولاً للخطوب.

وفى الوقت الذى كانت فيه شريفةُ هانم ترتب وهى مأخوذةٌ سحابةَ الجلال

السابحة، والبطلَ الكبير الواقف تحتها وقد توجتْ هامتَه، قطَع الصمتَ السائدَ صوتُه يقول :

- والآن يا عمتى، اتركى لىِ الليلة أفكر فيما سأقوله لها، وغداً إن شاء الله، أرجو أن آتيك بنتيجة طيبة.

- كما تريد، لكنْ لا تَبُح بما دار بيننا لأحد حتى لعمك، فما أظن أن أعصابه باتت تحتمل صدمة جديدة، كان الله فى عونه! إنه منذ اضطلع برسالته، لا يفتأ يذوب كالشمعة التى تحترق لتضىء للناس.

- لا بأس، إلى اللقاء.

وقبَّل يدها وانصرف، وهو مصعوقٌ بتلك المفاجأة التى توقَّع كل شىء إلاها، له الله! لا شىءَ يريد أن يبقى له، حتى حبه الأثيرى، أبتَّه عليه الأقدار.

* * *

وفى حجرته جلس يفكر: غداً تَنْقِمُ عليه زينات، وما أراد بها إلا إحسانا، غداً لن تَنقش اسمه فى قلبها، بعد أن بَقِىَ منقوشاً فيه سنين. غداً تنساه ويظل يذْكرها وحده، وإذا طائرُ الحب شدا وحيداً ناح. ولكنْ كيفما كان الأمر فلابد من إنقاذها، مَن كان ضحَّى من أجلها بالروح، أيضنُّ عليها بالدِّمَاء؟ فلتأخذه كذلك، وليكتفِ بالتاج الذى تضعه البطولةُ على رأسه، ذلك التاج الكائن فى السحاب، والذى لن يظفر به المرء حتى يتطاول بهامته إليه، متسلقاً فى سبيل ذلك جبالَ الصعاب، فلما طلع الغدُ إلى منزل حبيبه ودخل عليها، وبادرته حالَمَا رأته قائلةً وكأنما تشكو إليه :

- لقد جاءونى بخاطبٍ يا مختار.

فقال وهو يرثى فى نفسه لبراءتها :

- وفى هذا جئتك.

- لكنِ اطمئنً فلقد رفضتُه

- ما لِهذا قصدْت.

- وفيمَ جئتَ إذَن؟

فقال يسقيها السُمُّ فى شراب :

- لأنصحكِ بأن تقبيله، أجَل، يكفيك شقاء، فهتفتْ وقد اكفهر وجهها :

- ما هذا الذى تقول؟ أأخذتْك بيِ شفقة؟

- ولمَ لا تأخذنى؟

- ولكنك تهيننى، تستصغر حبى وتستكثر التضحية علىّ.

- أىُّ حب وأية تضحية؟

- مختار!

واستطردت:

- إنك تتكلم كمنْ يتجاهل ما بيننا

- وماذا بيننا؟

فشهقت وقالت :

- حبنا، أنَسيتَه؟

- حبنا؟ ما هذا الحديث القديم؟ قُولى السلام على ذكراه.

– ويحك، ماذا تعنى؟ أماتَ هو حتى يصبح ذكرى؟

– هبيه مات، أفلم يكفَّ عن سَقْيه الأمل؟ فلم تزد على أن صرخت:

– واهًا لِي !

ثم خرت تبكى، فقال لها :

– أمَا كففْتِ؟ ما جدوى التسبيح بذكرى أشياءَ فاتت ؟

ولم تُلْقِ بالاً إليه، وعادت تقول وصوتها يتهدج

– ماذا قلت بربك؟ أمات هو وأصبح فى قلبك ذكرَى؟

– نعم، والعُقَبى له عندك، ماذا وقد نَفِد الصبرُ إلا النسيان.

واستطردت وكأنما لم تسمعه :

– أمات إذَن؟ أوَمَا يمكن بعْثه ثانية؟

– ها! وهل يُبعث الموتى ؟

ومضت فى تساؤلها :

– ألم تَعُدْ تسحرك عيناى؟ وفمى، ألم يَعُدْ يسبيك؟

– كلا، وحبَّذا أن بَطَلَ سحرهما فى قلبى.

– ولمَ؟ أأَحْفَظَكَ عليهما أنْ ساءاك؟ أمازلتَ تذكر جنايتهما عليك؟

– أجل، وحسبى ما ذقتُ منهما.

ولكنْ روحى، هذه الأشعة النقية التى لا تؤذِى، ألا تبقيها فى جوارك؟

ـ ولا هذا، ما ينبغى أن يكون بينى وبين زوجتى دخيل.

فلم تتمالك أن صرخت بمرارة :

أنا؟ أنا دخيلة؟

وأنشأت تَئِنَ

وندم مختار، لقد فاته أنه بتنكره لها لا ينقذها بقدر ما يفجعها فى أقدس ما عندها، ولكنْ هى الشفقة، تأتى أحيانًا بعكس المقصود، وكاد أن يكاشفها بالحقيقة، لولا أنه أملَ فى أن تنَسى حينما يزول أثر الصدمة.

أما هى فقد استمرت تقول وقد أبَحَّت صوتَها ذبحةُ الألم :

أنا دخيلة؟

وتتلفت حولها كأنما تستشهد بكل شيء.

ثم هتفت :

أنا فَسَحْتُ لها فى بيتى، أنا كنت ربَّة الدار التى شاركتْنى سيادتها، فهل أُسمَّى دخيلة؟ شكرًا يا مختار! إنك حطمتَ لك صنما فى قلبى، كم كنت أفزع إليه إذا افتقدتُك وأنا وحدى فى الليالى فلا أجدك، فأبثك فى شخصه شكواى، وأناجيك فيه وأعبدك.

ثم استطردت كمن تناجي نفسها :

– فلماذا يا ربىِّ؟ حتى الصنم؟ حتى الظلال التى بقيت من الحقيقة لىِ؟ حتى أصداء أغنيَتى المائتة – تؤخذ منى؟ يا لىَ من مسكينة! لن يَعْمُرَ قلبى شيءٌ بعد الآن، ولن تعيش فيه إلا أنقاضٌ أرزح تحتها.

وخاويةً ستصبح حياتى فى ظل قلبى الخاوى، وخرابًا سأراها من خلال هذا الخراب، فيا بئْسَ ما صرتُ إليه وصارتْ حياتى! ويا نِعْمَ ما تفعلُ يا

موتُ إنْ أنت أرحتَني !

وراحت تبكي وتنتحب، ومختارٌ واقف أمامها يتجلد، وفي كل لحظة يكاد لسانه يفلت بالحقيقة.

وكانت وهي تبكي تحس لأول مرة في حياتها بأن كبرياءها قد جُرحت، وبأن الذي جرحها مختار، مختارٌ الذي عبدها ذات يوم، ألا بئس الذنبُ الكفرُ بعد الإيمان!

وللحال وثب إلى ذهنها محرز، كمنقذها الوحيد من هذه المحنة، الذي سيضع المرهم على جرحها، فرفعتْ وجهها إلى مختارٍ وقالت له :

- حسْبك الله، يا مَن سرقتَ تمثالي وخرَّبتَ معبدي! ولكن اذهبْ به إلى غير رجعة، فما عادت بي حاجة إليه، غداً سأقيم بصدري تمثالاً لا ينسلُّ صاحبُه هارباً به كما انسللتَ أنت، تمثالا لا ينوء آلهُهُ بعبء اضطلعتْ به امرأةٌ مثلي، للهِ أنت يا محرز! على الرغم من صدِّي لك لمْ تَنسني! ولا ثَنَتْك عن حبي العقبات! غداً سيهبط معبدي تمثالُ لك، في حفلٍ باهرٍ وسْط التراتيل والطُقوس، وسأجعل منه صنمي المعبود .

ثم رمته بنظرة ازدراء، وغادرت الحجرة وتركته وهو يكاد يموت قهراً، كان يمثِّل أنطق صورة لمظلوم، وكان إلى هذا ذلك الحبيبَ الذي لسعته الغيرة بنارها، فأصبح وكل عضو فيه يستغيث.

وإذ كان ما يزال عليه أن يؤدي حساباً عن مدى نجاحه في سحق نفسه، فقد راح يزف بشرى محنته إلى شريفةَ هانم، فلما لقيها هتف:

– مثَّلت دورى يا عمتى بنجاح، وآتَى ثمره، لن ترفض محرزًا زينات.

ثم أخذ يروى لها ما حدث، وهى تنصت إليه معجبَة ومشفقة.

فلما انتهى من حديثه قال لها :

– ولكنْ لا تفاتحيها الآن، واتركى لها بعض يومٍ تستجمٌ فيه.

وشد على يدها وانصرف.

وبعد أيام لبست السيدة ثوب الفرْحة، وهرولت تستقبل به رأى ابنتها الجديد، ولكنّ البنيَّة رفضت وأصرت على الرفض، وإذا بالأم ترجع وقد انقلبت أذيالُ فرْحتها أغلالا تتعثر فيها.

ذلك أن زينات كانت عندما خلتْ إلى نفسها وتذكرت محرزاً، لم تلبث أن نفرت منه وطردته من ذهنها، على حين أخذ يتعالى صدرُها بوجيبٍ مُدوٍ عجبتّ له، فلما تحسستْ موضعه شهقت وانثنت تهتف فى ضنى

– ويلاه! ماذا لمسَتْ يدى؟ مختاراً؟ نَعم، هذا تمثالهُ، ياالله لم يتحطم! وإن كان قد تدثَّر برداء أسودَ حجب عنى قسَماته! ولكنه باقٍ! باقٍ لا يريد أن يتزحزح لغيره! لقد حسبتُه ذهب بأحزانه! ليته فعَل، فما عدت أطيقه من خلال هذا السواد!

ولكنها لم تلبث أن استدركت :

– رباه، ماذا قُلت؟ لقد كَفَرْتُ بصنمى، وما ينبغى، نسيتُ عباداتى الماضيات له، ونسيتُ نِعَمَهُ علىّ، أيها الصنم لأنت معبودى رضيتُ أو غضبتُ

وأنا كاهنتك، اغفرْ لي! ودعْني أُطَوِّفْ بك، وأُنشِدِ التراتيل. وأتحسسْك بيدى وألمسْ بيدى وألمس بركاتك. ثم ... ثم أجثو عند قدميك وأعبدْك.

وهكذا أيقنتَ أنه من المستحيل أن تَنسى حبها الأول، لتتفتح لحبٍ جديد، لقد كان حبًا واحداً ذلك نَبَتَ فى قلبها، وإنها لَتؤثر أن تحتفظ بزهره الذابل الذى يحْمل عطر الماضى، على أن تستبدل به ألْف زهرةٍ ناضرةٍ وزهرة، لا تنفحها بهذا العطر، وكان نجمًا واحداً ذلك الذى طلع فى سماء حياتها، إنه لَمَا يزال على رغم الغيوم يبعث إليها ببصيصه من وراء السحب، كأغلى ـ بما يحتمل من طيف السنين ـ من شعاع أسطع كوكب، فعادت ترفع الغطاء عن زهرها القديم وتشم عبيره الواهن. وترنو لكوكبها الخابى من خلال الغيوم الملبدة، وكلما اشتد بها الوجد بكت على قسْمتها.

* * *

وكان إصرارها على رفض محرزٍ مفاجأة لوالدتها جعلتها تسىء الظن بمختار. فلما أقسم لها على صدق روايته، ودلَّلَ على ذلك بازورار الفتاة عنه، اطمأن بالها وقالت له :

– إذَن ما ينبغى أن نقنط، فما كان حبٌّ أعوامٍ لِيُنْسَى بين يومٍ وليلة، فابقَ على موقفك منها، ولئن رفضَت اليوم محرزًا فقد تقْبل غداً سواه.

ومنذ ذلك اليوم قلَّت زيارات مختارٍ لمنزل عمه، واتسمت نظراته وكلماته لزيناتَ بطابع الجفاء، فكان لهذا المسلك الجديد من جانب نحوها، صداه

النائح فى قلبهـا المشـبوب، ممـا ضـاعف شجنها وجعلهـا بالشـفقة أحرى.

* * *

أما محـرزٌ فمـا أن يئس منهـا حتـى نقل سكنه من جوارها لعله يلقَى فى البعـد عنهـا السـلوان، وكانـت دريـةُ لا تفتـأ تمنِّيـه بنسيانٍ وشيك، مادام أن حبل الأمل الذى يربط الحب قد انقطع، وتضرب لذلك مثَـلاً نفسَـها إذ نَسيت مختاراً بعد أن تزوج.

الفصل الحادى والعشرون

مـرت السـنون وزيناتُ ملتزمةً عزلتها، باقيةً عند رأيها فى أن لا تتزوج، حتى فاتّها سن الزواج وأصبحت عانسا .

ومـا إن صحَت من غفلتهـا علـى هـذه الحقيقـة، ورأت شـبابها ينحـدر إلى المغيب وجمالَها يذبل، حتـى ساورها القلـق علـى نفسـها، وبدأت تنـدم علـى ذنـبٍ اقترفته فى حق هذا الشـباب، ولم تكن مخيرة فى اقتـرافه، ولا عجَبَ إن حنَّت لجمالهـا زاهـدة، فما كان الزاهـدون لِيَنْسَـوا الدنيـا وإن بادلَوهـا قطيعـةً بقطيعـة، لهذا كانت كثيرا ما تنظر فى المرآة وتناجى نفسها وتقول :

- أيتـها الزهرة التى وَهبـتْ عطرها للـرياح! ها قـد انقضَت أيامك ، فمن ذا حَمَلَ من عطـرك الجميـل غيرُ ريـحِ النسـيان؟ هل قدَّمْتِـه لعابرِ سـبيلٍ جاء يقطفك فى الصباح؟ هل مَـزَجْتِ أنفاسـك بأنفاسـه وذبتمـا معاً فى هذا المزيج؟ وارحمتاهُ للزهور العَوَانِس ! اللـواتى قضَـينَ شبابهنَّ وحيـدات، وعندمـا ذبُلْـنَ نُسـينْ! حـدِّثـى القـومَ عنـا غـداً يـا ريـاح، وأخبريهم أنه كـان لنا عطـرٌ وذهـب، وسَـناً على أوراقنـا مـات. طُوبَـى لأزهـار البُكـور! اللواتـى لـم يُنْسَـينَ بَعْـد! اللـواتـى يَرقـبْنَ القاطفين وكلُّهنَّ أمل !

ثم تخنقها العبرات فتبكى .

* * *

وكـان ممـا يـزيد فى شـقائها بقاؤها على حب مـختار، فلكم حـاولت أن تسلوه متذرعة بينها وبين نفسها بما بدرَ منه فمـا كانـت تفلـح، ولعل ذلك كـان يرجـع إلى اعتقـادها بأنـه ما نَسِيَها غـدراً منه، وإنما لأنها أماتت قلبه، فنَسى فى سُباته كل شئ ، ونسِيَها فيمـا نَسِى، فكانت لا تكاد تصل إلى هذه النتيجة حتى تأخذها الشفقة عليه، وتعاتب نفسها على أنها تسببت فى هدم حياته عتاباً تخرج منه مثقلة الضمير .

وإذ كانت برغم مـا شـاب علاقـتهـما من جـفـاء، ترقب تطوراته من بعـيد مـدفـوعـة بحبـهـا لـه، لم يكـن لِيغيب عنهـا كلمـا رأت وجهـه الـذى بـدأ يتغضّن وشعره الذى راح يتخلله الشيب ، أنه قد أدركـه مثْلُ المصيـر الذى أدركها، وأنهما يسيران إلى النهاية جنباً إلى جنب ، كورقتىْ غصنٍ جرفهما تيـارٌ واحـد، لِيلقِى بهما إلى شـاطـئ الفنـاء، وعنـدئذ ما تلبث أن تـذوب حسرة عليه كما ذابت على نفسها من قبل .

وهكـذا كـان كـل شـئ فى الحياة ضد زينات، حتى مـختارٌ نفسه، كانت رؤيته تثير شـجنها، وتذكّرها بصباه الذاهب الذى فتنها ذات يـوم، حتـى وجهُها الذى كان يلازمها نوْما، كانت ترى فيه حُطَام جمالها القديم. فوجدت

أن كل مـا كانــت تعتــز بـه، قد تحول إلى ذكريـاتٍ نائيـة، تفصلـها عنها هـوةٌ سـحيقة مـن الزمـن، كلمـا حاولـت أن تعْبــرها إليهـا سقطت فيها وتحطمت روحها .

ومـن ثـم ازدادت إيمـانـاً بالفكـرة التى انتهت إليها من قبل، وهى أن خير وسـيلة للتخلص مـن آلام الحيـاة، هـى نسـيانُ هــذه الحياة وإغراق كـل شـىء معها، وهـو مـا لا يكـون إلا بالتحصـن منها فــى كهـف بعيـد، أو التطـوع للعمـل فى ملجـأ أو مستشفًى تتركها عند بابه وتغلق الأبواب، ولكن كيـف السـبيل إلى تنفيـذ هـذه الفكرة؟ ذلك ما كانت تُعْوِزها الإجابـة عنــه، فترتد يائسة. مسكينةٌ زينـات! حتى النسيان الذى يُلحِق الإنسـان بالأمـوات، بات عزيزاً عليها .

* * *

وكأنما لم تَقنع الأقدار بما أحدثتْه فى قلبها من جراح، فسددت إليه طعنة جـديـدة بـأن خطفـت منها أبـاهــا المحبــوب، كـان هــذا الأبُ مـذ جَنـى على مصطفى يعيش سـقيم الوجـدان، وكـان إلـى جانب ذلـك فريسـة للهمِّ من جرَّاء ما طرأ على زينـاتَ مــن تحوُّلٍ هَـدم حياتها وحار فى تعليلة، ومما زاد من كربه أنه كان يعدُّ نفسه مسئولا عن نكبتها، كان يظن أن ما أصابها ما هو إلا انتقامُ صبَّه اللّه عليه فى شخص ابنته ليثـأر لمصطفـى، جرياً وراء

تلك العقيدة التى تقول بأن الإنسان يعيش مرة أخرى فى أولاده، ومن ثَمَّ فأعماله تَبقَى لهم فى حياته ومنَ بعده .

ولم يكن يعْقد الهدنة بينه وبين ضميره، إلا عمله مخلصاً لخير الشباب البائس، وشعوره بلذاذة التكفير وهو يضطلع بهذا العبء الشاق، ذلك أنه كان قد وصل إلى مركز فى الحكومة من شأنه أن يضع مقاليد الأمور فى يديه، فوجد الفرصة سانحة لتحقيق الإصلاحات التى طافت بذهنه عقب أن غَبَن مصطفى فشعر بالعطف على الجائعين.

وبدأ العمل بأن جمَع حوله طائفة من الأنصار، من بينهم الكثيرون من ذوى الألسنة الذَّربَة من الخطباء، والأقلام الجهيرة من الكتاب، فكانوا يمهدون بالدعاية لكل خطوة يزمع أن يخطوها، ثم ينبرون للدفاع عنها بعد أن تتم، ليقضوا على تخرُّصات المغْرضين الذين كانوا لا يكفُّون عن السعى بالوقيعة بينه وبين الشعب.

ولكم عانى من عنَتِ أولئك الجشعين الذين يهمهم أن يَبقَى الماء عكراً ليصيدوا فيه، ولكنه كان دائماً يتغلب عليهم بدعائه ولباقته، على أن عَضُده الأكبر كان عدالةَ الفكرة التى أخذ نفسه بالعمل على نصرتها، وتأييد الرأى العام الذى جاءت رسالة الباشا معبرة عن أمانيه.

ولما كان هدفه الأول هو أن يفسح فى مجال العمل لكل راغب فيه، فقد كانت باكورة إصلاحاته أن زاد عدد وظائف الحكومة، بعد أن دبر المال

الـــلازم لذلــك ممــا اقتصـــده من المرتبــات الكبيـــرة، كمــا حَظَرَ الجمـــع بيـن أكثــر مــن طــريــق واحــد للكســب، لئلا يكـــون تكـدُّس الأرزاق فى أيــدى البعض سبباً فى حرمان الآخرين.

وكــان ســنده فــى ذلك أن العمـل وهـو وليدُ تضامــن الجميــع، يجــب أن يقسَّم على الجميع، فإن وَفَّـى بحاجاتهم فبها، وإلا فمن مقتضى التضامن أن يستوى الكلُّ فى تحمل التبعة.

ومن هنا جاء قوله:

– كمـا أن على الفرد واجباً هو أن يتقدم للعمل، فإن على الجماعة واجباً هـو أن تتقبل منه ذلك، مادام الربح لا يوزَّع إلا على من يعمل، وما دام الفرد بحاجة إليه ليعيش.

وقوله :

– لـو أن الفـرد تُـرك وشـأنه ولـم ينضـم إلى جماعة، لأصاب الكَفَاف على الأقل بمحض جهده، ومن ثم لا يمكن أن يكون قد تضامن معها لتجيعه.

ثم كلمته المأثورة:

– إن الناس ما تضـــامنوا إلا ليعيشوا ، فيجب أن نكفل لهم العيش ليظلوا متضامنين.

وكلمته التى كانت فصلْ الخطاب:

- إن من حق الجميع أن يعملوا تمهيداً لأن يأكلوا.

ولقد تساءل ذات مرة قائلا:

- لست أدرى لمَ تَحْمِى الجماعاتُ المالَ وتغْفل طرائقَ كسْبه؟ ألا يجدر بها بدلاً من أن تَقنع بالظهور فى منتصف الطريق، أن تَبدأ تدخُّلها حيث يَبدأ الحق، فتنظِّم توزيع فرص العمل قبل أن تتحول إلى نقود؟ أفلا تُعتبر اغتصاب هذه الفرص اغتصاباً للأرباح التى تتمخض عنها، ومن ثم تصبح حمايةُ الثانية لَغْواً مالم تسبقهاحماية الأولى؟

وكان يضيف :

- ومن مزايا العمل تخفيض ساعات العمل، وبذا يتاح للفرد أن ينْعم بفراغ أوسع، والفراغ هو الغاية من العمل، لأن الإنسان بعد أن يَكفل حياته من ثمرات ما يُنْتج، يحتاج إلى استجمامٍ يشعر فيه بها، وبدون هذا الشعور لا يكون قد عاش فى نفسه، ومن لم يعشْ فى نفسه خرج وجودُه من يدِه، إن الذى يستغرق الجهدُ يومَهم يعْبرون الحياة كما يعبرون حلماً مهَوَّشاً لا يصْحون منه إلا على دقات ناقوس عزرائيل، فهُم فى سبيل الجشع يجمعون ما لن يهنئوا به.

وعندما أخذ عليه خصومه أنه فى سبيل أن يطعم الجياع يضرب الفقر على الجميع، أجابهم :

- ليكنْ، فَلأنْ يأكل الجميعُ خبزاً فقط، خيرٌ من أن يَأكل بعضُهم حلوى

ويبيت الآخرون على الطوى.

فلما واجهوه بأن المصلحة العامة تقتضى إيجاد طبقة ممتازة تأخذ بيد الجماعة وتصعد بها معها، قال لهم :

- ليست الجماعة كائناً قائماً بذاته، بل هى أولئك الأفراد الذين تعيش فيهم، فكل خير لا يعمُّهم ليس معناه أنه أصاب الجماعة، بل أن طائفة منها كانت بمثابة مخلب القط، وأن الأخرى سحبت به أبا فروةَ من النار، وتلك هى الخديعة الكبرى التى تدخلها الطائفة الغالبة على الطائفة المغلوبة باسم الجماعة.

على أنه راح يحقق الرخاء لا من طريق تكديس أقوات الشعب فى يدفئة منه، ولكن من طريق إنعاش الإنتاج بزيادة وسائلة وتذرَّع إلى ذلك بإثقال الموسرين بالضرائب، ففرضها عليهم تصاعديةً تزداد نسْبتها كلما زاد الدخل .

وكان يسوِّغ عمله بأنه ليس من العدل أن تَقنع الدولة من المُتْخَم بما تقنع به من الجائع، وفى ذلك قال :

- إنما الحرمة للرغيف الأول، وكلما بعُدتْ الأداة عن دائرة القوت ضعفت حرْمتها بضَعف الحاجة إليها، يجب أن يدفع الأغنياءُ ما بَرِحَ الدفع لا يؤدى بهم إلى الجوع، وبدون هذا لا نكون قد أَخذنا منهم بل أعطيناهم. أعطيناهم ما كان يجب أن نأخذه، على حين نكون قد أخذنا

من الفقير، وما ينبغي أن نعطيَ مَن عنده، ومَن ليس عنده تَأخذ منه فذلك الكفَاف حقٌّ يجب احترامه، قبل السماع للنهمين بملء بطونهم، حقٌّ يولَد للمرء مع المرء، ما دام أنّا نولَد لنواصل البقاء، لا لنموت في مهدنا.

فما إنْ أيقن الطغاةُ أنْ لا مَفَر، حتى توسلوا إليه قائلين :

- لا تفعلْ ونحن نتبرعُ من فضلنا للفقراء، لن نرقد على أموالنا منذ اليوم كأنها بيْضٌ بضناه، ولن نوصد آذاننا دون سماع صرخات الجياع .

غير أنه صاح فيهم :

- حاشا أن آخذ حق أمّتي صدقات، وأجعل من بنيها شحاذين، بل ستدفعون ما حَقٌّ عليكم لها ضرائب.

ونفَّذ فيهم قانونه، فدفعوا ودفع معهم وقد كان منهم، وبذا كان أحد أولئك القليلين الذين عملوا ضد مصلحتهم ليحقوا الحق .

وكانت زيناتُ التي أحبت الفقر ذات يوم في شخص العاشقَين اللذين اعتادا المرور بها في السنين الخالية، عندما رأته وهو يطل من ثيابهما الوديعة كملَك رحمة، لاتفتأ تشجع أباها كلما هبَّ ليأخذ بيده ويخفف عنه بعض أثقاله، ضنًّا به أن يَزهق مع حامليه فتَفقد الدنيا وجها من أجمل وجوهها، وكذلك طالما شجعته على عمله شريفةُ هانم ذاتُ الضمير الحي والطبع الأصيل. فكانت كل خطوة جديدة يخطوها المصلح للترفيه عنه، تكون

لديهما بمثابة يوم عيد .

وهكذا مضى الباشا فى رسالته يدفعه شبحُ مصطفى وتشجعه زوجته زينات، حتى آتت ثمرها وشبِعَ قومٌ عندما خلقهم الله خلق معهم رزقهم، وحينئذ هتفت له الجماهير طويلا ونَقش التاريخ اسمه فى لوحة بحروف من ذهب، وما كان الفضل إلا لذلك الجندىِّ المجهول مصطفى، الذى شاءت الأقدار أن تضحى به لتنقذ ضمير قاتله .

فلما تم للمصلح ما أراد وكلت مساعيه بالنجاح ، ركع لحظةً أمام قبر الجندىِّ المجهول، ثم نام ساعةَ حضرتْه الوفاة مطمئن النفس، إلا من جرحٍ عزَّ على الشفاء، هو ألمه على زيناتَ الشقية، فكان هذا الجرح بقية الانتقام الذى يتعقب الإنسان إلى القبر، ليستوفيه ما بقِىَ فى ذمته من تكفير .

* * *

وحزنت زيناتُ على أبيها حزناً جَمّاً، وكانت من فرط حزنها تقصد إلى قبره وحدها كل صباح، حيث تضع عليه طاقات الزهر، وتجدُ فى أحجاره المَبْكَى العذب الذى تجود فوقه بعصارة روحها، ولعل هذا الحزن البالغ، كان نتيجة لرقة حسها الذى طالما أرهفته الآلام .

ولكنه كانت ما تكاد تعود أدراجها وتستقبلها الحياة ببسمتها

المرحة، حتى تزداد مقتاً لها، إن هذه الحياة التى لا تعترف بالحزن ولا ترعى المحزونين، تأبـىِ أن تفـارق ثغَـرها بسْمتُـه الأبديـة، فكلما أرادت أن تَفرغ لحزنها خلف أثواب الحـداد السـود، نفـذَت خلالها بهذه البسمة البغيضة، وراحــت تنتهك حـرمة الحـزن الثـاوى تحتها، وعندئذ لا تملك المحزونة إلا أن تهتف فى حنق :

- تبا لـك أيتها الحيـاة! لا بد أن أفر من وجهك إلى صوْمعةٍ نائية تحجبك عن عينِى، ولم يبقَ ما يمنعنى من ذلك، فجلفدانُ التى كنت أخشى أن تكشف السر، قد قَدُم على زواجها العهـد، فلـن تجـد صلـة بينه وبين فرارى، وأبى الذى كنت أحسـب حسـابـه، لم يَعُدْ له واأسفَا ظلٌّ أخشاه، لقد تخلَّى عن كل شىء، وأصبح فى ذمة العجـز الأبـدى الذى لا يستطيع معه أن يملى إرادته على أحـد، ليته عـاش، وظل يقضِى فى أمرى ويُبْرم! أما أمى، أمى المسكينة، فمذيئستْ منى تركتْ لىِ الحبل على الغارب، وانثنت إلى نفسها تندت حظها فىّ، فما أحسـب أن بُعدى عنها سيضيف إليها كارثة جديدة، إذ ما الضرر من طعن الميِّت مَثْنَى وثُلاثَ وأكثر؟

وهكـذا اعـتزمت زينـاتُ هجـران الحـيـاة، ولـم يبـقَ إلا أن تبحـث عن منفَى، ووفِّقت بقليل من الجهـد إلى مشغـلٍ لليتـامى وجــدت فيه ضالتهـا المنشــودة، فدخلتْه بعد أن عانـت بعض الصعوبة فى إقناع ذويهـا، وكثيراً من التجلد لتركها البقاع التى تحتضن مختارا، وبذا تم لها أن تحقق الأمل

الذى بقيت تصبو إليه زهاء عشرة أعوام، الأملَ الذى لا يفكر فيه الإنسان إلا بعد أن ينْفض يده من كل أمل، ففى أصيل أحد الأيام ودَّعت أهلها وألقت على مواطن ذكرياتها نظرة عابرة، ثم حملَت الحقيبة التى تحتوى ملابس الزهد، واتجهت صوب المكان الذى اعتزمت أن تقضى بقية عمرها فيه، وعندما بلغته، قرعتْ بابه الخشبىَّ الكبير، الذى أغلقتْه بعدئذ فى وجه الحياة .

* * *

كان هذا المشغل لا يكاد يختلف عن الدير فى شئ، فقد كان بقيةً لَمبْنًى قديمٍ عَدَا عليه الزمن، يقوم على سفحِ تلْ ناءٍ فى نهاية طريقٍ مهجور، ولا تحيط به إلا صخورٌ صمَّاءُ وأتربةٌ لا تنبس ببنت شَفَة، طغَت على جانبٍ منه فدفنتْه مع أيامه، وكان الماضى الصريع لا يفتأ يطل واهناً من كل ثقب من جدرانه، كما تتناوح الحادثاتُ التى جرت فيه فى العهود الخوالى، مع صفير الرياح التى تعْبره من نافذة لنافذة، وكان لفرط ما يسُرده من وحشة، يبدو خاوياً وهو آهلٌ وخراباً وهو معمور، إلا من أشباح سكانه البائدين، التى كان يخيل لمن دخله، أنها تمرح فى دهاليزه كأنها عفاريت، وكأنما أبت الجوارحُ إلا أن تعتبره خَرِبَة. فراحت تعشش فى حوائطه الغربانُ والبوم، وبين وقت ووقتٍ تنعاه من جديد بنعيقها ونعيبها.

كذلك كــان كل من أويــن إليه يشبــهن الراهبــات، إذ كنَّ ممن نُكبن فى الحيـاة، فآثـرن تركهـا إلـى حـيث يعشـن فـى عزلـة، بعيداتٍ عن كل ما ينبش الجـــراح. فمـن زوجــةٍ فَقدت بعْلها وما يفتأ ما حولها يذكرها به، إلى عذراءَ خابت فى حبها فأضحى يثير شجنَها الطرب، إلى عانسٍ تؤلمها رؤية شمسها وهى تغيب، أو دميمـــةٍ لـم تكـن لهـا شمسٌ فكرهت الضوء، وهكذا كن كلهن جريحــات، أردن أن يضعـن على جراحهـن بلسـم النسـيان فـأويـن إلى ذلك العالم المنسى.

ولما كـان الشـقاء يؤلف بين نويـه، فقـد وَجـدن السـلوة الكبـرى فى خدمــة اليتـــامى والحَـدْب عليهــن، كمـــا نشـــأ بينهن عطـفٌ متبـادل، كـان يُلحــظ فـى نظراتهِـن عنـدمـا تلتقى، وفـى تلـك النبـرة الحنـــون التى كانــت تغشـى أصواتهن كلما نادى بعضُهن بعضاً قائلات: أختى!

وكــانت جميـع الأسباب فى هذا المشغل مهيئة للنسيان الذى ينشدنه، فقد كـان معدًا لمبيتهن وإطعامهـن، بحيـث لا يحتجـن إلى مبارحتـه والعــودة إلى لقاء الحيـاة، فكـن إذا مـا صحــون مــن النـوم، اجتمعـن فـى ثيابهـن البيِض الطويلـة التى تشبه الأكفـــان، وتلك الأقنعـــة التى تلثِّم معظـــم وجوهــن، وجلســـن يغْزلـن ويطرِّزن وهـــنَّ صامتـــات، لا يتحدثن إلا ليَســألن عن أمـر هـــام، أو يجبْن فى اقتضـــاب عن سـؤال وجِّـه إليهن، حتى إذا ما حان وقت الطعام، تناولن غذاء خشناً غالبـاً مـا يكون مـن البَقْل أو الخُضَـر المسـلوقة،

فــإذا فرغـن مـن عملهــن مـع انحـــدار النهــار، عمـدت كـل منهن إلـــى كتــاب تقرأ فيه، أو قامت تصلى وتسبِّح لله .

وكـان الناظر أليهن لا يلبث أن تتملكه الرهبة، فقد كن جامداتٍ صاماتن لا تعبِّر ملامحهن عن شىء، إلا عن ألـم دفين بـردت حرقتـه فترك آثاره فى تلك الكآبة التى تسوِّد وجوههن، كما يترك الجمرُ الرمادَ الذى ينمُّ عليه. وكان فى نظراتهن نسيانٌ وغربة. كأنما أُسدل بينهن وبين الماضى ستار، فانقطعت صلتهن بـاريخهن ومـا جـــرى فيه مـــن أحـداثٍ وعـــاش من وجـــوه. أو كأنهم مخلوقاتٌ هبطت إلى الأرض من كوكبٍ آخرَ فاستموحشت.

وبهذا المكان الذى يرحى كل ما فيه بالموت والنسيان، لاذتِ زيناتُ لِتَنْسَى.

الفصل الثانى والعشرون

انقضت ثلاثة أعوام وزينات ملازمةُ المشغل ، لا تبرحه إلا فى فترات متباعدة ، لتزور ذويها زيارة قصيرة ، ثم تقفل راجعة إليه . وبدا عليها أنها بدأت تَنسى، فكنت إذا نظرت إلى عينيها ، لمحتَ فيهما بوادر تلك الغربة ، التى ارتسمت على أعين رفيقاتها اللاتى سبقنها إلى هناك، ذلك أن بُعدها عن الحياة ، مكَّن للنسيان من أن ينسج على ماضيها خيوطه، فصارت لا تراه من خلال هذه الخيوط ، إلا كما ترى حلمًا غابرًا نَصَلَتْ أشباحه ، أو رَبْعًا عَفَا فلم تبقَ منه غير أطلال .. وحتى مختارٌ الذى تبدل شكله ، لم تعد تنبش رؤيته هذا الماضى ، فقد كانت تحتاج إلى سفرٍ طويل على أجنحة تأملاتها ، خلال الأعوام التى تراكمتْ فوقه ، فحجبت شعره الفاحم وعينيه اللمعتين ببريق الشباب ، قبل أن تصل إلى ذلك العهد الذى كان فيه مختارًا الحبيب .

وهو ما كانت تتجنبه بإغراقِ نفسها فى عمل المشغل ، وفى جو النسيان السائد فيه، فكانت كلما رأت هذا الحبيب القديم ، وقفت رؤيتها عند حد مختارِ الكهل زوج جلفدان ، ولم تحاول النفوذ إلى أعماقه لتَرى الصورة الأخرى الثاوية فيها، بل إنها كادت تنسى أنه جَرح قلبها مرة عندما جفاها ، وما لبثت أن عفت عما سلف منه .

* * *

وكانت تثير اهتمامها بنوع خاص وتستدر عطفها، فتاةٌ وفدت حديثًا على المشـغل، تنـمُّ ملامحهـا عن جمالٍ غـابر، وعيناها على أنهما تطويان ماضيًا أليمـا، وكـان مما يزيد من تعلقها بها، شعورها بأنها ليست غريبة عنها، وإنْ كانت لم تدرِ شيئًا عن كنه هذه الألفة المبهمة.

فـذات يـوم خلَت بهـا وسـألتهـا عن الريـح التـى قَذفتْ بها إلى هذا البَلْقَع، وهى الحمامة التى مكانها الخمائل وشرعت الفتاة تقص قصتها قالت:

- منـذ ثلاثـة عشـر عاما، أيامَ بسمتْ لي الدنيا، أحببتُ جارًا لي وأحبنى.

وهتفت زيناتُ تعلق على الحديث :

- سبحانك يـا ربـى! إنـه الحـب دائمًـا، هـو الـذى يأتـى بنـا إلـى هـنـا.

- أى والله الحب، وماذا غيرُه يشرِّد الآمنين ؟

ومضـت تسـترسل فى حديثهـا وزيناتُ تنصت إليها فى اهتمام، وبين وقت وآخرَ تستحثها على الكلام قائلة :

- هيهِ يا عفاف

إلى أن قالت هذه :

- وبـارَحَ دارى على أنـه سـيلحق بعمل فى الريف، ولكنه اختفى وانقطعت عنى أنباؤه.

وهنا هتفت صاحبتها :

- اختفَى ؟

- نعـم، وظـل مختفيًـا حتـى صادفتُـه ذات يوم فى الطريق فلم أكد أصدِّق

عينيّ، أتعرفين ماذا كان يفعل أيتها الأخت؟ كان يبيع أوراق النصيب. ولهذا اختفى، لقد خَجِل واكبداهُ مني.

وصرخت زينات :

– أوراق النصيب ؟

– أجل، أول فرقته يبيع النصيب لأنه فقير، على حين يتربع من يليه من أبناء ذوى الجاه على المناصب وتُعْقَد لهم السيادة فوقها.

ومرت لحظة كانت زيناتُ فيها لا تفتأ تردِّد :

– يا عدالةَ السماء! يا عدالة السماء!

كانت بالرغم من أنها من طبقة الموسرين، تمقت الظلم الذى يتّصف به السواد من أبناء طبقتها.

ثم عادت تسأل :

– وبَعْدُ أيتها الأخت ؟

وتأوهت عفافُ وقالت :

– ليتك تعفينني من ذكر البقية يا أختاه! لقد سوّل الحقدُ للتعس أن يقتل ظالمه.

– أوه! وقتله؟

– كلا، شاء لطف الله أن تطيش الطعنة، وإلا لكان الآن فى عداد الآثمين، ولَفَقَدَ آخرته كما فقد دنياه.

– وماذا فعلوا به؟

– زج القضاء به في غياهب السجن.

– مسكين!

– ولم يطق وهو الأبيُّ عار السجن، ولا رطوبة حجراته وفظاظة سجانيه، وكانت الأحداث إلى جانب ذلك قد أضعفتْ من مقاومته، فمرض بالسل.

– يا إلهى! كل هذا؟

واستطردت عفاف :

– ونقل إلى المصحة، وهناك كنت أتردد عليه في مواعيد الزيارة، وأرقب الداء وهو ينهش في شبابه الغض، فأرثى لمصيره ومصيرى، ثم أخرج من لدنه باكية.

وأردفت :

– وذات يوم وأنا هناك، دخل علينا رجلٌ مهيب الطلعة قدَّم لِي نفسه باسم رمزى باشا، ولم يكن إلا ذلك الرجل الذى ظلم حبيبى.

وغمغمت زيناتُ في ريبة :

– رمزى باشا !

– نعم " عُمَرُ رمزى " على ما أذكر.

– ماذا ؟ وتقولين إن هذه الحادثة قد وقعت منذ ثلاث عشرة سنة ؟

– تقريباً.

وغاص قلب زينات، أيكون الرجل أباها؟ هو ذلك، فالاسم اسمه. والخاطب الذى كان قد تقدم لجلفدانَ كان حديث عهد بالتعيين في المصلحة التى

يرأسهــا، وكـــان ذلك منذ ثلاث عشـرة سنة، إذَن فهو أبوها بعينه. وازدادت اهتماماً بمعرفة الخاتمة، فسألت عفافَ التى كانت قد توقفتْ ترقب دهشتها فى بلاهة :

– وفيمَ كان مجىء هذا الباشا ؟

– كان ذا ضمير فشاء أن يكفِّر عن ذنبه، سعى حتى ظفر بالعفو الملكىّ عنه، فجاء يزف إليه بشراه، ويَعِدُه بوظيفةٍ إن أَبَلْ.

وبكت عفاف، ثم عادت تتكلم وقد تهدَّج صوتها فقالت :

– ولكنْ، فى الوقت الذى جاء فيه هذا الرجل النبيل الذى يأخذ بيد مصطفى، كان مصطفى قد مات منذ ساعة ونُقل إلى حجرة الموتى بالمصحة.

وصرخت زينات :

– مات ؟

– مات أيتها الأخت، وانحدر إلى الفناء كما تنحدر الشمس، وتركنى أذبل فى شعاع مَغِيبه الأصفر، أواه يا مصطفى؟ لـمَ غافلْتَنى وذهبت ؟ لمَ لمْ تأخذنى معك ؟

واستسلمت الفتاتان للبكاء لحظة، ثم عادت عفافُ تواصل حديثها قالت:

– ومُذ مالَ ميْلةَ الشمس، فخضَّب أفقَ حياتى بجراح ذكراه، ثم غيْبَتَها فدثَّر كَونيِ بالظلام، أقسمتُ لا يطلعُ فى سمائيِ بَعده كوكب، فكلُّ نجمٍ سواه واللهِ كابيِ الضياء، وكل قمرٍ غيره لا ينوِّر، فكنتُ إذا ضقتُ ذرعًا بالدجى، نَقَبْتُ فى ليل زمانيِ طاقةً وجلستُ أُشْرِفُ منها على نهاريِ الراحل، وبين

حينٍ وحين أندّى بدمعي فَجْرَه، أو أطْلق روحيِ حمامةً على أيْكهِ تَنُوح .

وزفَرت زفرةً حَرَّى واستطردت :

– وهكذا أخذتْ أيامي تمرّ، وأنا أرقب شبابي وهو ينسلُّ من بين يدي، والدنيا تنسلُّ من أمام عينيّ معه وتبتعد، كما تبتعد سفينةٌ أقلعتْ إلى شاطيء غير معلوم، إلى أن ذبلَتْ آخرُ ورقة في شبابي وأصبحتُ عانسًا في العانسات، نعم، من كانت له حيًا لمَ لا تكون له وهو ميِّت ؟ ألأنه أصبح مغْمَضًا لا يَرى، وأخرس لا يتكلم، أخون غمْضه وأقسو على عجزه ؟

– أختاه ! لا تلمسي جُرحي، أنت أيضًا قضَّيت عمرك عانسًا ؟

– نعم أيتها الأخت، كلانا زهرةٌ عاشت مهجورة، ضاع هباءً عمرها، أسفًا لنا! مات شذانا، وما عطَّر أيامنا، وذبلنا، وما تحلَّى صدرٌ بِنا، ليتنا! ليتَنا رفَّ بالقطف حسنُنا ! ليتنا بالهَصْر تَضَوَّع عطرنا !

فقالت زيناتُ وهي كاسفة :

– وهل أتيتِ إلى هنا لتَنْسَيْ ؟

– ليس جرحِي يُنسَى، إنما جئتُ لأصون وجهي عن أن يُبتذل في طلب الرزق، فإن أمي قد قضَت نحْبها منذ عام، ولحِق بها منذ أيام أبي، فأصبحتُ ولا عائل لي، ولا إنسانَ يؤنس وحدتي.

وسادت بين الفتاتين فترة صمت، قالت بعدها زينات :

– إذَن فقد كان هذا الباشا سبب نكبتك ؟

– ألم يَضع أول مسمارٍ في نعش خاطبي ؟

- ومع ذلك تصفينه بأنه نبيل !

- أجل لأنه نَدِم وجـاء يصلح خطأه، وقليلٌ من الناس من يندمــون، إن منهم من يجرح الفريسة، ثم يجهز عليها ليتخلص من لعناتها، ليت كل سراتنا كانوا كرمزى باشا ! إذ ليس العيب أن يخطىء الإنسان، وإنما أن لا تأخذه من ربه خشية، من نَدِمَ تاب ولكنْ من استهان تمادىَ، لله ما أنبله ! وما أروع طلعته الجليلة، التى عليها سِمَات الأبرار !

- أأفهم من هذا أنك صفحت عنه ؟

- وعلام اهتمامك بشأنه ؟ أتعرفينه ؟

- إنه أبى.

- أبوك ؟

واستطردت وهى مأخوذة :

- ولكنك لن تكونى تلك التى خُطبت لعاكف، إنك رائعة الحسن، بعكس ما يشيعون عن الأخرى.

- كلا، لم تكن إياى.

- إذَن فأنت صغْرَى بنتيه، نعم أنت بعينك، ياالله ! لطالما حدثتْنى نفسى بأنى رأيتك من قبل، فلما قلتِ لى الآن إن الباشا أبوك لم يبقَ عندى شك.

- رأيتنى ؟

- نعم، وتبادلْنا السلام.

أين ؟

فى حديقة منزلك، حين كنا نمر بها أنا وخاطبى.

وراحت زيناتُ تشحذ ذهنها، على حين استطردت عفاف :

– ألا تذكرين ؟ ذَيْنِك الفتى والفتاةَ اللذين كنت تومئين لهما وتبْسمين ؟

وضربت زيناتُ صدرها وهتفت :

– وهل كنتما هذين ؟ يا حرام ! ما كان أجملكما !

– نعم نحن بعيننا.

– هو ذلك، لَكثيرًا ما ساءلتُ نفسى أين رأيتك ؟

– وهل يتضح أن بيننا تعارفًا قديمًا.

– أجَل، وها نحن نلتقى بعد ثلاثة عشر عاما، وأطرقت فى أسىً ثم عادت تقول :

– ولكنْ هل نلتقى كما التقينا إذ ذاك ؟

– إذ ذاك ؟ آه، تلك أيامٌ مضت أيتها الأخت.

– سلامُ الله عليها !

شرد لبها، ثم هزت رأسها وقالت تتوجع :

– وا أسفاه لك يا أبى ! ما كنت أعلم أنك كَبَوْتَ هذه الكبوة، ولكنْ يشفعُ لكَ السببُ الذى ورَّطك، فى سبيل الحنان ما جنيتَ يا أبى.

– اطمئنى أيتها الأخت فلقد سامحتُه، نحن اللواتى طهَّرهن الألَم، لم يَعُدْ للحقد فى نفوسنا مكان.

واستطردت زينات :

– أمن أجل هذا حاربتَ الجوع يا أبى ؟ أشعرتَ بذنبك حينئذ ورحتَ تكفِّر ؟

– ماذا تقولين ؟ أحاربَ هو الجوع ؟

– وقَضى عليه، وما كان ذلك إلا بفضلك وفضل خاطبك المرحوم.

وأخذت تقص عليها جهوده فى ذلك، فلما فرغتْ من كلامها هتفت عفاف:

– لله دره ! لا تؤاخذينى، فمنذ جنحتُ إلى عزلتى وأنا أجهل ما يحدث فى هذا الوطن .. يميناً بالله لقد شوقتنِى إلى أن أراه لأحيٍّ فيه هذه البطولة.

وقلَّبت زيناتُ كفيها وقالت :

– تَرينه ؟ أواه أيتها الأخت، لم يَعُدْ ذلك فى الإمكان ! إنه أصبح فى ذمة الموت، إى والله فى ذمة الموت.

وغمغمت عفافُ بحزن :

– يا رَحمةُ الله ! رفهى عن نفسك يا أختى.

– أجل اسألى الغفران له يا عفاف، فقد كان رحيمًا طيب القلب، وما كان من شيمه الظلم ولكنْ لكل شىء سبب، ولو قدَّرتِ وعورة الصخرة التى ارتطم بها قبل أن تَزِلَّ به القدم، لعذرته وأشفقت عليه.

– لقد أدركتُ ذلك يوم جاءنى نادما، وأنّ القدَر الذى ما ينفكُّ ينْصِبُ فخَاخَه للأبرياء، قد وَضَع تحت قدميه شرَكًا فَزَلّ.

وراحت تستمطر الرحَمات على روحه، ثم قالت لزينات :

– وأنتِ ما قصتك أيتها الأخت ؟ ما هذا الشجن الراقد فى زوايا جفونك.

وماذا رماك زهرةً فى هذا الفقر ؟

- رمانى الذى يرمى الجوهرة أحيانا فى التراب، واللؤلؤة فى مستنقع. رمانى القَدر الذى طالمًا يرمى.

- وكيف ذلك ؟ هلّا حدثتِنى ؟

- لا بأس فإن الحديث ذو شجون، وليس أحَبَّ إلىّ من أن أثير أشجانى بعدما طال بىَ العهدُ على نسيانها، وأعودَ بروحى إلى أعزِّ مواطنها، وإنْ كنتُ سأجتاز ظُلماتٍ عدَّة، وأعْبُر بحوراً من دموع، قبل أن أهبط هذا الوادى المقمر، وادى أحلامى الماضية.

وراحت تقص قصتها قالت :

- كان ذلك منذ سبعة عشر عامًا، حين كنتُ صبيةً فى الثالثة عشرة من عمرى، وكان القلب لم يزل خَلِيًا والأمل يملأ جوانب النفس، فيعصر بسَماته على أيامى.

توقفتْ ريثما تتنهد، ثم واصلت حديثها قائلة :

- وكان يقطن معنا ابن عمى الشاب، وكنا قد احتضناه رضيعاً بعد أن مات أبواه، وبالرغم من أننى لم أكن يومئذ أدرى ما الهوى حتى أحبه، فقد كنت أشعر بعبير هذا الحب كشىء مبهم يَطُوف بروحى فيسكرها، دون أن أعرف كنْه هذه السكْرة، ولا من أيه زهرة يهب العطر الذى أشرب كأسه، ومن ثم فقد كانت الأيام التى قضيناها معًا فى عهد الطفولة، على ما لَثَّمَ قلبى فيها من غمْض، أحلى أيام مرت بى.

وبدت كمن أخذت تحلم، وترقب صور هذا الحلم وهى تتابع فى الغيب، وقد رَكِبَتْ مَتْن السحُب التى كانت تلُوح لهما فى النافذة وهى تسبر سيرها الوئيد.

ثم عادت تقول :

– وهَا هى ذى تلك الأيام التى ثوت فى ضمير الزمن، تطلُّ علىّ من نافذة الماضى، فيصلِ إلىّ ضوؤها الباسم عَبْرَ السنين، ولكنه لا يصل إلىّ ساطعاً كعهدى به، لأن سبعة عشر عامًا يجتازها تُوهِنُه، فلا يبْلغنى إلا وقد خامره ذلك الأسى الذى يخامر كل شىء لفَّه البعدُ فى ضبابه.

واستطردت وقد بدأ صوتها يتهدَّج :

– وها أنذا أقرأ فى هذا الضوء الشاحب سطوراً كانت فى حينها لامعة، فاذكر كيف كنت أجول مع حبيبى الحديقة، ثم نعود وقد ملأنا سلالنا بالزهر، فنجلس نصففه على العشب الأخضر، وكيف كنا نقف بجدرانها الملتوية، حيث الزنابقُ تسبْح غافيَة على السطح، والحشائشُ على الضفاف ترتعش، أو نعْبر قناطرها التى تتشابك فوقها الأفنان، وقد تدلَّت منها عناقيدُ كالثريّا، تضىء إما سقطت عليها أشعة الشمس، أو نخوض حافيْين ماءَ بِرْكتها، ومن حولنا أسرابُ الإوزّ تروح وتجىء، وهى تلتقط بمناقيرها أوراق النباتات النامية فيه، وبين وقت وآخر تصفِّق فوق حمامة، أو يغطس عصفور ويروح ينتفض.

– استمرى أيتها الأخت.

وأذكر كيف كنا نَسْتَبِقُ على الظل ضُحىً وفي الأصيل، وتتبارى فى تسلق الأشجار الباسقة، أو صيْد الفَرَاش المذهَّب الجناح، فمن كسب الرهان راح يأمر فى المغلوب وينهى.

- يا حبَّكما !

- وأذكر يومَ سافر مغترباً فى طلب العلم فشعرتُ بالوحشة دون أن أدرى السبب، لأن قلبى كان كالبرعم مغلقًا على سره، ثم كيف غمرنى الفرح حين زفوا إلىّ نبأ عودته بعد غيبة أربعة أعوامٍ فلم أذق النوم ليلتى، حتى إذا ما طلع الصباح ألفيتُنى وقد فقدتُ نصف ذاكرتى فى أيدى الساعات التى سهرتُها، وفى نشوة الفرْحة التى أغرقتْ لبِّى عندئذ، فكنتُ إذا لقيتُ القومَ لقيتُهم ساهمة، أو حاولتُ أن أذْكر أَمْسِى لم أفلح.

وتَغَرْغَرَت عيناها بالدموع ثم عادت تقول :

- وأذكر كيف أخذ قلبى بعدئذ يتفتح ويَحكى لىِ أسراره، فلم يَبقَ عندى شك فى أننى أهواه، حتى إذا ما عاد والتقت عينانا على جوىً، أدركتُ أن ما عنده مثْل ما عندى وأكثر، وأذكر كيف خلا بى فى الشرفة ليلةَ رقصْنا وكاشفنى بالحب فأسمعنى أحلى كلمة فى الوجود، ثم وعدنى فوضع بين يدىَّ دنيا هَبَيها الأحلامَ أُوِّلَت أو هبيها الفراديس.

واستطردت وقد أخذ جسمها يرتجف :

- وأذكر كيف أنه حينما قالها لىِ : " أحبك "، فكأنما سقطتْ قطرةٌ على زهرة، فارتعشتُ وقتئذ رعشةَ الزهرة بُلِّلَتْ، واشْرَأَبَبْتُ بعنقى أطلب المزيد.

واستطردت وقد زادت رجفتها :

- آه وأذكر، نعم أذكر، كيف زالت من طريق زواجنا الأشواك فأضَحى وردا، وأوشكنا أن نقبض على طائر الأمل ونحبسه فى قفص من ذهب، لولا أنه اتضح فى آخر لحظة أن هناك من تحبه وتوشك أن تهلك من أجله، وعندئذ صفق الطائر تصفيقةً ارتفع على إثرها إلى أجواز الفضاء وغاب بين السُّحب.

ولم تكْمل زيناتُ قصتها لأنها سقطت مغشيا عليها.

الفصل الثالث والعشرون

عندما أُغمى على زينات، استدعت إدارةُ المشغل طبيبا أسعفها حتى أفاقت، ثم نصح بنقلها إلى بيتها ريثما تبلَّ من أثر الصدمة، فتم ذلك على الفور ورافقتها إلى هناك عفاف.

وحالَما وصلا إلى المنزل، وجَدا به جلفدان ومختارا، وكانا قد قَدِما فى زيارة لشريفةَ هانم، وجزع القوم عندما علموا بما حل بابنتهم، ورأوها تتهافت على السرير بادية الإعياء.

وبينما كان مختار منكبا عليها يفحصها، مالت جلفدانُ على عفافَ تستوضحها الأمر، ولما كانت أحاديث الحب لا تُذكر فى حضرة الأمهات، فقد أومأت إليها هذه أن تتْبعها إلى حجرة أخرى

* * *

وعندما تهيأت لهما الخلوة، شرعتْ فتاة المشغل تروى ما حدث، مبتدئة بقصتها مع مصطفى، جاهلةً أنها إنما تحدِّث جلفدان، مُذْ رأت فيها زوجةً للطبيب لا لعاكفٍ كما كانت تعلم من قبل.

وما إن تبين لجلفدان من الحديث سر خطبة عاكفٍ لها فى أول الأمر، حتى شعرت بأن الأقدار كانت تهينها.

كما أحست برعدة تسرى فى جسدها، عندما ألفت نفسها فجأة أمام إنسانةٍ نُكبتْ بسببها يوماً ما، وأنشأت تتساءل :

– تُرَى ماذا يصبح موقفها منى إن عرفتْ من أنا ؟ وبأى وجه ألقاها حينئذ ؟ ألاَ يا أرضُ انشقيٍّ وابلعينى !

وكانت عفافُ قد انقلتْ إلى سرد فاجعة زينات، وهى لا تدرى أن مختاراً هو حبيبها المقصود، وأن للماثلة أمامها دوراً فى القصة التى أغمى على البطلة قبل أن تتمَّ سردها، وتبْلغ الحلقة التى تَظهر فيها أختها على المسرح.

فأخذت جلفدانُ تصغى إليها وهى متوجسة، حتى إذا ما طالعتْها الفتاة كان من حب زيناتَ لابن عمها، كانت مفاجأة غاص لها قلبها.

وتابعت عفافُ حديثها قالت :

– وراحت زيناتُ تَصِفُ لى حبهما الطفل وهما غَريران، وكيف نَبَتَ له ريشٌ بعدئذ وكَبُر، حتى إذا ما شرع يغنِّى فيُسمعهما من نغم الخلو، الذى له فى السمع وقْع نقَرات الندَى، وفى الأوصال رعشةُ الزهر رَفَّ تحته، علمتْ فى آخر لحظة بأن هناك من تحب حبيبها وتوشك أن تهلك من أجله.

واستطردت :

– إلى أنْ وصلتْ عافاها الله إلى الجملة التى قالت فيها ما معناه : وعندئذ ذُعِرَ الطائر وفَّر إلى حيث قَبَعَ وحيداً على غصنٍ ذابل وجعل ينُوح فلم تكْمل كلامها وهوت من فرعها.

وهنا صعقت جلفدانُ إذ فهمت كل شىء. وراحت تحدِّث نفسها وتقول :

– إذَن فما زيناتُ ومختارُ إلا حبيبان، وما كان بينهما وبين المنى إلا مثْل ما بين الشفَة والكأس، لولا أنهما كشَفَا حبى وأنه يوشك أن يُودى بى.

ولكنْ كيف توصَّلا لمعرفة هذا السر، وقد حرصتُ على أن أغلق صدرى عليه وأحْكِم الرِّتَاج ؟ وأىُّ أعْيُنٍ تلك التى استطاعت أن تخترق حُجبُ قلبى وتَرىَ االكوكب الخافق فى حبَّته ؟

وراحت تفكر ثم ما لبثت أن لطمت جبينها وأنشأت تقول :

– آه، الآن تذكرت، ألم تفاجئنى يومًا ممسكة بصورته أناجيها وألْثمها، فسارعتُ إلى إخفائها وظننتُ عندئذ أنها لم ترنى ؟ هو ذلك، ولكن ها قد خاب ظنى ورأتنى، ألا ما أغبانى ! كان يجب أن أفطن لهذا أو أتوقعه على الأقل، وكان يجب أن لا أصدَّق مختاراً عندما جاء يضع قلبه بين يدىّ، إذ كيف يُعقل أن يحبنى إنسانٌ فضلا عن مختارٍ الجميل ؟ ثم بم أفسر خلواتهما حدَثين، خلواتٍ وإن جَهلا مغزاها ليست فوق التهم ؟ آه، أضلَّنى الحبُّ، وقد يورث الحب الخَبَل ! ولكن ها هى ذى الكوارث تَدقُّ فى أذنىّ كالنواقيس وتعيد صوابى إلىّ، رباه ! كانت كأسًا وأفقتُ منها، كان حُلمًا وسَطَا عليه الصباح، وكأنى بصوتٍ يدوِّى الآن من اليقظة ويقول : كان زواجك بتدبيرهما لينقذاك، كانت حياتك أكاذيب فواخجَلاَه !

وأنَّتْ أنينًا موجعا ثم عادت تحدث نفسها :

– وياليت الأمر اقتصر على ذلك، ولم يجعل منى بومَّة نَعَبتْ على خراب عشٍّ غَرِدَيْن ! فهذه زيناتُ مَضْرب الأمثال فى الحسن، يذوق جمالُها اليُتْم بسببى، ثم يكون مآلها الدفن حيةً فى مَشغل. وهذا فتاها النضير كزهرة، تهصره الأشواك التى قُضِىَ عليه أن يحتضنها فى شخصى، أواه ! كيف يا

ربى يطيب لىَ العيش بعد أن كستْنى الأكاذيبُ هذا العار ؟ وبعد أن كشفتُ أننى لم أكن غير كوكبِ نحْس ؟

وما أن قادها التفكير إلى هاتين الحقيقتين المُرتين، اللتين تكفى إحداهما لقتل إنسان، حتى تقلص وجهها واصفرّ، وبدت كمن تقدًّم بها العمر سنين، حتى إن عفافَ عندما رأتها تتطور هذا التطور السريع، وذهبت بها الظنون كل مذهب، إذ راحت تسائل نفسها وتقول :

– لمَ رُوِّعت هذه السيدة عندما أخبرتُها بقصة حب الفتاة لابن عمها، كما لو كانت هى ذلك الغريم الذى شاركها هواها له ؟

على أن الذى لم يخطر لعفافَ على بال – لأن زيناتَ لم تكن قد أفضت بها إليها بعد – هو أن الأمر انتهى بالحبيبين إلى تقديم حبهما قربانًا لهذا الدخيل، الذى أصبح فيما بعد زوجًا لإحداهما.

وفجأة التفتت جلفدانُ لعفافَ وقالت لها فى أسى :

– اسمعى أيتها الأخت، الآن فقط، وقفتُ على حقيقة هائلة، ظللتُ طول عمرى أجهلها، حقيقة تخالينها من عَجبها خرافة، كتلك الخرافات التى تُحكَى فى الأساطير، ولكنها مع ذلك وقعت.

وفزعت عفاف، إذ طالعتْها من صوت محدِّثها رهبة.

وراحت جلفدانُ تستطرد :

وهأنذا سأكْمل لك القصة التى لم تتمها زينات.

وستعلمين منها أننى أنا التى شاركتُها حبها لحبيبها وأنا أجهل ما

بينهما، وأنهما عندماعَلِما بأننى هالكةٌ صبابة، باعا نفسيهما واشتريانى بأن تزوجنى بتدبيرهما الحبيب، ثم ظلا يكتمان عنى نبأ هذه التضحية، إلى أن أتانى بالخبر مَن لم أزوِّده وعلمتُ به الآن منك.

وارتعشت عفافُ أمام هذا الفداء المخيف، وأكبرتْ زينات، وودت لو جثت عند قدميها وراحت تمجد فيها نبلها، وفى الوقت نفسه وجفتْ عندما رأت أن الاقدار غافلتها وسخَّرت لسانها ليميط اللثام عن سرّ بقى فى طى الخفاء سنين.

وأخذت جلفدانُ تقص القصة من أولها : مذ خطبت لعاكفٍ إلى أن تزوجت مختارا. وامتقعت عفاف، إذ عرفت لأول مرة أن الواقفةَ أمامها لم تكن إلا ابنة الباشا الكبرى، التى حفرت قبر مصطفى منذ ثلاثة عشر عاما، فراحت تخاطب نفسها وتقول :

– رباه ! أتجمعنى الأقدار أخيراً بمن جلبتْ نحْسى ؟ وهل أكون قد انتقمتُ منها وأنا لا أدرى، حين وقفتُها على سر أختها ؟ ولكنْ، ما ذنب المسكينة ؟

وأدركتْ خَطَر ما تورطتْ فيه، وبدأ يلوح لها شبح فاجعة توشك أن تنفضً على البيت وتدكَّه على من فيه.

وإنها لَغارقة فى هذا التفكير، إذ استطردت جلفدانُ قائلة فى ذلَّة :

– والآن، لعلك أدركتِ أننى أنا السبب فى نكبتك، ونكبة أختى ومختارٍ الذى أحببْت.

واغرورقت عيناها بالدموع.

ووقفت عفافُ تنظر إليها في رثاء، وهي لا تدرى ماذا تقول، ثم راعها إلا أنها رأتها وقد أخذ فمُها يرتجف، وفجأة يميل رأسها وتغْمض.

واستغاثت الفتاة، فخفَّ إليها مختارُ وشريفةُ هانم على الأثر، وتبعتْها زيناتُ تتحامل على نفسها، وما كادت ترى أختها على هذه الحال حتى صرخت :

- أختى !

وارتمت عليها تهزها وتناديها.

وسمعت المحتضرة من الغيب صوت أختها وعرفته.

وكأنما أرادت أن تعود لتشكر صاحبته، إذ ما لبثتْ أن فتَّحت عينيها وهمستْ :

- شكرًا لك يا زينات !

ووقع نظرها على مختارٍ فردَّدتْ :

- ولك يا مختار.

واستطردت والعاشقان يتبادلان نظرات الدهشة :

- لكما الله ! أية تضحية ! والآن، عُودا حبيبًا لحبيب.

وصرخت زيناتُ وقد أدركت أنها ألَمَّت بالسر :

- كلا كلا لن نعود، مختارٌ لك وإن شطَّ المَزَار.

وعادت من كانت نصف ميِّتة تقول :

– عُودا بعضُكما لبعض، واعْمُرَا عُشًّا صفّرتْ فيه الريحُ بسببى ونَسَجَ العنكبوت، وأما جلفدانُ فدخيلة، وهى راحلةٌ وشيكًا ولكنما لكما البقاء، ومِنْ بَعْدُ تمثالٌ على كفِّ الزمان بنبلكما يشيد، وانطبق فمها، وكاد القوم يسقطون صرعى حولها.

وبعد لحظة تمتمت بصوت كأنه ينحدر من بعيد :

– عُودَا لأملكما

فهتفت زينات :

– تباركتَ يالله ! ما تزال بها أنفاس.

غير أن هذه الأنفاس لم تلبث أن خمدت إلى الأبد.

* * *

وتناوحتْ فى الدار أصواتُ الباكين، وكانت زيناتُ لا تفتأ تنْشُج وترثى الميِّتة بكلماتٍ تفتت الأكباد، فلما هدَأَتْ ثائرتها التفتت إلى عفافَ وسألتها.

– كيف وقفت المرحومةُ على السر ؟ أأنبأتْك بشىء فى خلوتكما ؟

وأجابت عفافُ التى كانت قد انثنت إلى نفسها تلعنها :

– بل أنا التى أنبأتُها، بل أنا التى أنبأتُها.

وذهلت زيناتُ وهتفت :

– وكيف لَعَمْرُك ؟

– رحماك أختاهُ وعفوك ! ما كان تدبيرى ولكن تدبير القدر، عندما سألتْنى عن سبب إغمائك، أعدتُ عليها ما دار بيننا من حديث وأنا أجهل

صلتها به، فأحاطت بما قيل واستنتجت ما بقى، ثم راحت تقص علىّ القصة كاملة، حتى إذا ما بلغت نهايتها وقع لها ما وقع.

وضربت زيناتُ صدرها وقالت :

– تبًا لي ! لماذا بحْتُ لك ؟ لماذا بحت ؟

وبدا الحرج على صديقتها، فقالت وهى توارى وجهها خجلا :

– قدِّرى موقفى، فإن جهلى لبقية القصة، فوّت علىّ أن أفطن إلى أن بداءتها ليس مما ينبغى أن يُحكَى لأختك، آه، ما أتعسنى !

وانكبت تبكى وتمزق ثوبها.

واستطردت زيناتُ فى لوعة :

– قَتَلَ إبى فتاكِ وثأرتِ منه فى شخص أختى، وما قتلتماهما ولكنْ قَتَلَهما القدَر، يَأثم الدهرُ ثم يُجرِى عدالته فينا، لا تُرَوَّعى أختاه فكل شىء مكتوب، وأنت بريئةٌ من دَمِ جلفدان.

ثم عادت ترثى الميِّتة.

الفصل الرابع والعشرون

بعد أن ماتت جلفدان ، خلعت زيناتُ مسوح الزهد فجأة، فلم تعد إلى المشغل تَدفن فيه أحزانها كما كان يُنتظر ، ولا سيما حزنها الجديد على أختها المحبوبة ، ولكنها آثرت الإقامة فى بيت أبيها .

وراحت تُلقى بنفسها فى خِضَمِّ الحياة مرة أخرى، فصارت تلبس أفخر الثياب وتتحلى بأنفس الجواهر ، وتطيل الوقوف إلى المرآة تصفف شعرها وتطلى وجهها بالمساحيق، كما عادت بعد عزلةٍ دامت سنين ، تزور صديقاتها وتستقبلهن ، وترتاد الملاهى والحفلات .

وإذ كانت قد شعرت بميل شديد إلى عفاف ، وبأن فى عنقها لها ديناً خلَّفه لها أبوها وتود أن تؤديه اقترحتْ عليها أن تترك المشغل وتقيم معها بقية العمر، ولم تمانع الفتاة فأفردتْ لمقامها فى القصر حجرة خاصة، وفسحت لها فيه كما لو كانت واحدة من أهله، ومنذ ذلك الوقت صارت عفاف لها بمثابة الأخت، وكثيراً ما كانت تحْضر مجالسها وتصحبها فى تنقلاتها.

وهكذا انقضت حقبةٌ من حياة زينات قضَتها فى المشغل، وأصبحت من كانت من عهدٍ قريب ناسكة، فتاةً متأنقة مرحة ، يظن من يراها أنها وثنيةٌ فى نظرتها إلى الحياة، لا تقيم وزنًا إلا لمسراتها، ولا تحيد إلا للساعة التى هى فيها.

فماذا دهى الفتاة ؟ وكيف تبدلت فى غمضة عين ؟ هل انصدقلبها لكثرة

ما دهمها من خطوبٍ فتبلَّد ؟ ولكنَّ القلب عندما يموت يموت أيضاً عن المَرح . أم أنها عادت تتفتح للأمل بعد أن خلا لها بعد أن هجرها .

فهل كانت تطمع فى أن يستقيظ فى قلبه الحب ، بعد أن زالت من سمائه الغيوم التى كانت جاثمة فوقه ؟ ولكنْ كيف تَرضى أن تقيم هناءها على أشلاء أختها وهى التى طالما عافت ذلك ؟

أسئلةٌ حار فى الإجابة عنها من حولها

ولكنّ مختاراً الذى كان أول من اهتم لتطور حبيبته ، لم يعْنِه من الأمر إلا أن زيناتَ عادت تعقد الصلح بينها وبين الحياة ، وإن كان قد راح يتساءل عن جدوى ذلك ، وهذا الصلح لم يعدْ معقوداً بين الفتاة وبينه ، ثم يقلِّب كفيه فى حسرة ويقول :

– ليتنى لم أصغِ لشريفةَ هانم ، عندما أوعزت إلىّ أن أُبدى لزيناتَ الجفاء ! إذَن لعادت الأسباب اليوم مهيأة لطلب يدها ، وبعْثت الأمل الذى مات من رقْدته .

ولكنه ما عتم أن قال :

– ولكنْ لمَ أيأس ؟ إن حجتى معى، لماذا لا أفضى لها بالحقيقة ، وهى كفيلةٌ بأن تشفع لى عندها ، بل تجعلها تُكبِر موقفى ؟

واستطرد فى قوله :

– ولكنْ ، أما تزال فى عروق المَحَبة فى قلبها بقيةٌ من حياة ، فى وسع كلماتى أن تعيد إليها نضرتها، وتجعلها تُورِقُ من جديد ؟ سأرى على أى

حال. ثم عقد ما بين حاجبيه، لقد تذكر أنها قطعت على نفسها عهداً لجلفدانَ في النزع ، أن لا تتزوجه بَعدها ، إلا أنه غمغم :

– ما يزال الأمر لا يدعو إلى اليأس، فزيناتُ عندما أقسمَتْ لا تتزوجُ بِي كانت متأثرة بالحزن . ومن عادة المرء إذا تأثر أن يسرف ، وفضلا عن ذلك فقَسَمٌ كهذا لم تطلبه جلفدان ، بل إنه لن يعنيها أمر ، مادام أن الموتى في شُغْل بموتهم عن شئون الأحياء، بَرَّتْ بقَسمها زيناتُ أم حنثتْ ، فلن تعيد جلفدانَ إلى الحياة أو تزيدها موتا .

وجعل وجْهته منزل زينات، وخلا بها لأول مرة مذ تجافيا، فقال لها بعد أن لبث بعض وقت لا يدري ماذا يقول :

– زينات ! إني جئت أسألك الصفح .

ونظرت إليه في تأثر وقالت :

– وفيم الصفح ولم يَعُدْ بيننا ما يوجب العتاب ؟

وعاد يقول :

– رحماك يا زيناتُ وتمهَّلي ! لو علمتِ الحقيقة لشكرتِني .

فهتفت في مرارة :

– وعَلامَ ؟ أعَلَى أنك سلوتني ؟

– ما سلوْتك علِمَ الله .

– وصَدُّك عني عشرة أعوام ؟ ونَعْيُك لي حبَّك ، يومَ جئتَ تسألني الزواجَ من محرز ؟

- ما نعيتُ إلا هنائى .

- ولكنك نعيتنى فى قلبك .

- بل أرجفتُ يومئذ لأنقذ من كانت فى خطر .

- ومَن كانت فى خطر ؟

- أنتِ ، أسرفتِ فى لبس مسوح الزاهدات ، وتحتها شبابٌ يتطلع للحرير، فلما وجدتُ أنك تالفة ، زعمت أنى سلوت لتنسينى ، وقدمّتُ إليك غريمى بيدىِ ، وذهلتْ لهذه المفاجأة ، غير أنها بدت كمن ترتاب، فهتف :

- ما لك تتشككين ؟ لمْ يكن عجيبًا أن أفعل .

إنه درسٌ علَّمْتنيهِ من قَبْل، مَن كان ضحًّى بالأكثر لسواك ، أفَلا يضحًّى لك بالأقلّ ؟ سَلِى عينىَ إنْ كذَّبتنى، وقلبِى ، هذه الحمامة الرفْرافة، وسلِى فِراشالضنى ، سلى الأشواك، بل سلى عقلك كيف من سَلا يعتذر ؟ وأخيرًا سلى أمك تنْبئْك .

- وما دَخلُ أمى ؟

- أقنعتْنى بأن أجْفُوَك فجفوت .

فقالت وما تزال بها بقية شك :

- ولمَ لمْ تقلع وقد رأيتَ إصرارى ؟

- حسبتُ أن الزمن كفيلٌ بأن يحولك عن رأيك، فراحت تحدِّق فى عينيه. كانت تريد أن تقرأ الحقيقة فيهما، ولمْ تلبث أن قرأتها واضحة ، تسْبح فى بحور الضنى .

فأكبرتْ شأنه، وانكبت على يديه تقبلّهما وتبكى ، ودمعها يتساقط فوقهما، حاملاً فى قطراته الدافئة آثار تباريح عَفَتْ وبعثْتها الذكرى من جديد .

وسألها مختار :

– والآن ، لمَ لا نتزوج ؟ إننا إنْ فعلْنا فلن نتسبب فى شقاء أحد ، ولن نثْقل ضميرنا بتبعةٍ ما .

وشعرت بأنه بهذه الجملة ، عاد يداعب أوتار أملها القديم، ولكنها انتظرت علَّها تَسمعها تنغّم ، فلم تسمع شيئاً، فوقفت على الحقيقة المرة، وبدأت تفهم نفسها ، وتنظر لمرحها الطارىء كأنه أكنوبة، فلم تزد على أن ابتسمت بسْمة صفراء .

وعاد مختارٌ يسألها :

– ماذا يمنعك يا زينات ؟ لعله الوعد الذى أعطيتِه للمرحومة وهى تموت ؟ ولكن ...

وتوقَّف، لقد لاحظ أنها اكتأبت لسيرة أختها فندم على أنه نبش حزنها الثاوى.

أما هى فراحت تقول وقد عاودتْها بسمتها الكسيفة

– كلا كلا، وهل يغار الأموات ؟ ليتهم يهتمون لشئوننا ! إذَن لَمَا ضننَّا عليهم بالروح . إنما العيب منا يا مختار، لقد وهنت حيلتنا وولّى زماننا . لم يَعُدْ فى وسعنا أن نبتهج .

وتنهدت ثم استطردت قائلة :

– بنفسى لو نستطيع ، ولكنّ الوقت فات، فلا الحياةُ عادت الحياة ، ولا نحن عدنا كما كنا، لقد تبدَّل ثوبُ الزمن ، فسقطت أوراقٌ ونَبَتت الحياةُ على سُنَّتها فنسيتْ ما عَفَا لتَفْرغَ لضيوفها الجُدُد، إن طير السماء لا يغرد للَّيل الراحل ، ولكنه يغنِّى للأشعة المبكرة، والفَرَاشَ لا يهجر الربيع المُونق ، ليذهب فى أثر الخريف الذى أَدْبَر، انظرْ ! أين الزنابق التى كانت هنا، طافيةً على البرْكة ، فى العهود الخوالى من ضنانا ؟ أين شجرة الياسَمين التى كانت تكلل الخميلة ، والتى شهدتْ قديمًا حبَّنا ؟ وأين منها زهورٌ بيض، كأنجمٍ ترنو فى دُجُنَّة ؟ إنها ذبلتْ. والقيامةُ التى كان يُقيمها جمالُها ، تقوم الآن فى رياضٍ جديدة ، من زهورٍ جديدة، ثم أين أبى الذى كان يملأ وجودُه البيتَ بركَة ؟ وجلفدانُ أختى وبهجةُ روحى ؟ أين كل ما كان يحيط بنا منذ ثلاثة عشر عاما ؟ لا شيءَ منه باقٍ الآن .

ونحن أيضًا كل ما فينا تبدَّل، ففقدنا القلبَ الذى يتفتح للدنيا ، والعينَ التى تبصرها حلوة، فهذا أنتَ قد وَخطَ شعرَك الشيب ، وهذا جمالى قد دالت دولته .

أين من عينىَّ سحْرُهما الماضى ، ومن أجفانى حافَاتُها المخْمليَّة ؟ أين من أهدابىِ ظلُّها الممدود ، الذى كان يكحِّلنى بلا مرْود ؟ ومن شعرىِ ليلُه الحالك ، يُطِلُّ وجهى من دُجَاه ؟ أين من شفتىَّ فصًّا العقيق ، ومن ثناياى حبَّات اللؤلؤ ؟ أين من وجنتىَّ ورْدُهما ، ومن جبينى يا سَمينه ؟ أين كلُّ ما جَعَل قلبَك افتَتَن ؟ لا شىءَ إلا أن الياسمينَ اصفرَّ والورد ذبُل، وأنَّ الردَى

لَحِقَ الفتَن الأُخر، لقد ذهبتْ أيامنا يا مختار ، والإنسان أيامه فإن ذهبت ذهب .

وغدونا في زماننا مغتربين ، ولَيْت شعرى كيف تطيب الحياة للغريب ؟ لا تقل لي نتزوج يا مختار ، ولكنْ قُل لي شدَّى رحالك ، وهيّا نذهب فى أثر أيامنا ، هناك فى البقاع القصيَّة ، حيث ذهبت واختفت .

ووجم مختار ، عندما أزاحت زيناتُ الغطاء عن حقيقة حياتهما ، فإذا بها مَيْتٌ مسَجَّى ، وإذا بآمالهما تموت عليه كما تموت الأنفاس، على حين استطردت صاحبته :

- أواه ! إن رغبة الموت لَتدبُّ فىَّ وتستحثنى أن أذهب فى أثر ما فقدتْ . وإنى لملبيةٌ النداء أردتُ أو لم أرِد، إذ لا شىءَ يشدُّنا للحياة غير أملٍ نعيش من أجله، فإذا انقطع هذا الحبل ، فتوقَّع انطلاق أرواحنا كما ينطلق طائرٌ فُكَّ وثاقه، ولقد تقطَّع بنا الأمل يا مختار ، بتقطُّع أسبابه منا، لم يَعُد فى وسع قلبنا المنهوك أن ينهض به. فماذا أمامنا سوى أن نرحل ؟ كل شىء لنوانا تهيأ، ولن يكون ذلك بطنعة خنجر ، ولكنْ بإيعازٍ من أنفسنا بسمٍ تنفثه الأعماقُ فيُرْدينا .

ذلك أن الغريزة لابد أن تنشط للعمل ، فإذا لم تجدْ ما تعمله ، استدارت على نفسها فأزهقتها، وهذا هو الإيحاء بالموت، وكل الناس يوحون لأنفسهم بالموت وهُمْ لايدرون ، عندما لا يبقَى أمامهم إلا أن يموتوا .

وكانت رهبة الفكرة قد تملكتها فتابعت كلامها بصوتٍ منبعث من القرار .

قالت :

– أنا يا مختارُ من تسير إلى الموت ولم يبقَ أمامها طويلٌ فى الطريق ، فكيف تطلب منى وأنا الراحلة عما قليل ، أن أرتبط بعلاقةٍ تفترض التريُّث إلى أَمَد ؟ أنا ضيفةٌ عرَّجَتْ عليكم لتقيم بعض يوم ، وهى فى طريقها من مَشْغل اليتامى إلى القبر ، فما لِمثْلِي وإنْ عزَّ عليك ، أن يطمع إلا فى المُتَع الخاطفة ، التى لا تستبقيه طويلا ولا تترك بعدها أثرًا فى ذهنه، حسْبنا إذَن أن نتحدث حديثا ما يلبث أن يتبدد فى الهواء، أو نُنشد أغنيَة يذهب صداها فى أعقابها، أو إنْ شئْتَ فخذْ كفى فى يديك ، ولْنحلمْ حلمًا قصيرًا سرعان ما تسرقه اليقظةُ منا، وما أحسب أن هذا الغزل البرىء مازال حراما علينا، بعد ما ذقنا من حرمانٍ وسننوق .

ومدت له يدها وهى تقول :

– هاكها، ولكنْ لا يلْمسها فمك ، لأننى لن أبتذل نفسى فى كهولتى بعد أن صنتها شابة، فَلَبِئس المرء يتعفف وهو جميل ، فإذا ولَّى حسنه خلَع العذار .

وأما الزواج فلا تفكر فيه ، لأنى قطعتُ على نفسى عهدًا أن أذهب عذراءَ إلى القبر ، كما ذهبتْ عذارَى إليه آمالى، وهناك سأُشهِد أحجاره ، على أننى عشتُ حياتى رمزًا للتضحية والحرمان .

قال وهو يتناول كفها :

– ولكنْ حسنها لم يذهب يا زينات، مازال بلَّوْرها يُشعُّ بالضياء، وما برِح

حريرها الناعم الملمس .

فتحسرت وقالت :

– ولكنه ضياءٌ واهن ، تَركَ ألقَه مع الأيام ، وحريرٌ منهوك ، يَرْسُفُ فى أكداس السنين، إنها بقايا حسْنٍ غابرٍ .

ومع ذلك راح يضغط يدها ويحس فى قلبه دبيبَ حنانٍ خافت، كانت تُطالعه منها بقيةٌ من حسْن ، راح يتملاها ببصرٍ كَلِيل، كانت محاولاتٍ يائسة ، لحُطامٍ لا حيلةَ له .

فانحدرت الدموع من عينيه ، حاملةً فى لألائها الكابى فلولَ آمالٍ تتعثر، ولمسَت الفتاةُ فى قطرها العليل بقيةَ دفْء راحت تنساب على كفها ، فهتفت :

– علامَ تبكى يا مختار ؟ أعلَى هذا الحلم الجديد الذى وُلد ميِّتا ؟ إنه لا يستحق البكاء ، أفَبَعْدَ ما بَكينا أحلامنا الماضية ، وبعد ما بكينا شبابنا وأهلنا ، نجد ما نبكِى عليه ؟ ألا اضحكْ يا مختار، اضحكْ تلك الضحكة الصفراء الساخرة ، مادامت قد فرغتْ منا أسبابُ البكاء، اضحكْ ضحكة المفجوع أذْهلَه الخطْب ، أو ضحكة الموتى حَسَرَ البِلَى شفاهَم عن أسنانهم،

وأخذت تضحك ، ولكنها ما لبثت أن صرخت مذعورة، كانت قد روعتها ضحكات منها كقهقهاتِ شيطان .

وأحست بالإعياء فاستأذنتْ من صاحبها وأوت إلى مخدعها .

وراح مختار يقول وقد خلا إلى نفسه :

– أتلك حالنا يا زينات ؟ نعيش لنشيِّع جنازة أيامنا ؟ فيم مرحك إذن ؟

وما ذلك الخداع الكبير ؟

أجَل ، ما هذا مَرحَ ، فماذا يكون ؟ أهو التأهب للموت إذا ما أحستْ الغريزةُ بدنو الأجل ، فراحت تتزود من متَع الحياة لدهور الحرمان المقبلة ؟ إن بعض الناس يشاهدون وقد أقبلوا فجأة على الحياة واندفعوا يستمتعون بها فى جنونٍ ويأس ، وبعد قليل يموتون، فهل ذلك الذى بك يا حبيبتى هو صحوة الموت ، ونذير الغمض الأبدى ؟

واستطرد يتوجع :

– أجَل ، ما هو ببعْث صحْوك ، ولكن نذيُر سُبات، يقظةُ النفس صَحتْ وقد أُوذِنَتْ برحيل ، تحاول أن تَشبع من الدنيا وهيهات، حتى إذا ما عاجَلها النذير ، ثَوَتْ والمنى بين رُفاتها حية، فوافجيعتى فيك يا زينات !

ثم عَمَدَ رأسه بيديه وأطرق يفكر، وقد أخذتْ تلطم أذنيه ريحٌ موحشة، حاملةً فى صفيرها همَسات عالمِهما الراهن كما تمثّلاه كأنها أصداء، فازداد يقينًا بأن هذا العالم ليس إلا بقايا عالَمٍ فَنِى.

الفصل الخامس والعشرون

وانسلخت أيامٌ وزيناتُ عاكفةٌ على مرحها الزائف ، كان مَن يرى عينيها يلْمح فيهما نسيانًا وزَيْغا، نسيانَ من ينظر إلى الشيء الذى سينفض يديه منه ، فلا يحاول أن يستبقيه فى ذهنه، فكانت تسمح للأشياء بأن تمر أمام عينيها ثم تموت عليها ، دون أن تمكّنها من قلبها، كانت لا تقبض يَدها على ما تستمتع به ، ولكن ترخيها ليفلت منها كما تفلت العصافير ، قانعةً بأن تشيِّعه ببصرها لحظة ، ثم تستدير إلى غيره . وكانت لا تأسَى على فرصة فاتتها، لأنها تعلم أنها متخليةٌ عنها عما قليل، ولا ترجىء أمرًا إلى الغد، لعلْمها أنه ليس له غد . كانت كالمسافر طافَ مودِّعًا، فهو يلقِى نظرةً على كل ركن ، ولا يقف عند ركنٍ بعينه، كانت تنسى كل شىء، لأنها لن تبَقى لشىء، ولن تأخذ شيئاً معها، فكان مرحها مريراً، وبسْمتها صفراء، وسرورها بلا بهجة ، وكان بعْثها إلى الحياة فوق ذلك أكذوبة .

حتى كئوس الخلوة التى كانت ترشفها مع مختار ، كانت تُقَطِّر فيها من مرارة نفسها ، فلا تحْسوها إلا ممزوجة بالعلقم ، وكانت كلما رفعت إلى فمها كأسًا منها ، أفرغتْها فى جوفها دفعةً واحدة ، ثم ألقت بها إلى الأرض محطمة ، شأنَ من لا يتنوق طعمها أولا يُبْقِى عليها، فكانت كلما دعاها مختارٌ إلى لقاء، لبت الدعوة غير ممتنعة ، ثم ذهبت فى لهوها معه كل مذهب، على أنها وإن كانت قد دأبت على أن تشرب كئوسها حتى القرارة ،

فقد حرصت على أن لا تملأها إلا بالخمر الحلال ، إذ بقيت على ما عاهدت نفسه عليه من تَبَتُّل .

* * *

تلك كانت زيناتُ بعد أن أحست بدنو الأجل ، ففتحت نافذة معبدها لتلقى نظرة أخيرة على الحياة ، خلال سحابة النسيان التى كانت ماتزال تغشَى بصرها ، فلا تُريها من الأشياء إلا أشباحًا ماحلة ، ولا تُسمعها من الأصوات إلا أصداء .

يقظةٌ لابد منها قبل الرقاد ، لنفْث رغباتٍ نَمَت بالنفس خلال حِقَبٍ وأجيال ، منذ عاشت ومنذ كانت فى ضمير الغيب ، فى نفْثها راحةٌ كبرى ، وضجْعةُ الموت بها تشقِى العظام .

* * *

ولكن صحوة الموت لا تطُول . فهى ومضةٌ خاطفة لا أكثر ، تَحشد فيها الروحُ كل أضوائها ثم تجود بها دفعة واحدة، ذلك أن زينات لم تلبث أن عافَت اللهو ، وقفلت راجعة إلى عالم زهْدها الذى كانت قد هجرته إلى أمدٍ لتقوم بسياحة فى الحياة، فعادت تعيش فى معبدها مع أرواح آمالها التى قَضت نحْبها من زمن ، وأرواح الأُلى باتوا من رفاقها فى ذمة الموت، وجددتْ صلتها بروح أبيها ، واتصلت لأول مرة بروح جلفدان ، وأرواحِ اللواتى قضَين من لِذَاتها بالمشغل، وكانت كثيراً ما تغلق على نفسها الأبواب ، وتحلِّق بأجنحة الضنى فى أثير السنين التى مضت ، حيث تبصر تحتها

ظلال ربوعٍ أدركَها العفاء ، وأطيافَ هاتيك الوجوه التي طواها الزمان لمّا انطوى، وعندئذ لا تملك إلا أن تقلِّب يدَ الحسرة ، وتروح تناجي مَوْتاها وتقول ودموعها تسيل لكل كلمة تنطقها :

- في ذمة الله رفاقٌ ذهبَ الموتُ بريحهم ! وفي ذمة الله زمانٌ غاب بصورهم ! كانوا وكنا ، وللرَّدَى سبقونا ! أناسٌ مثْلنا غدَوا أرواحا ! أين راحوا ، كيف صاروا ، يُبَحُّ صوتي ولا مجيب !

ثم تخر منهوكة القوى .

وهكذا آثرتْ زيناتُ أخيراً أن تحيا مع الموتى فهل كان هذا لأنها موشكة أن تتخذ مكانها بينهم ؟

وإنها لعلى هذه الحال ، إذ ظهرت عليها دلائل انحلال الأعصاب، فكساها الهزال بين عشيةٍ وضحاها ودبَّ في هيكلها الوهَن، وأصبحت تلهث لأقل مجهود وتبْرم بأخفت صوت، وكان يبدو من أطوارها أنها تتوجس خيفة من المستقبل ، وتفزع من أشياءَ لا وجودَ لها، كأنما كانت تشعر بأن الاقدار تتربص بها ، أو كأنها كانت ترى هذه الاقدار وقد أخذت تتمثل لها في صورة أسدٍ أقْعَى ليتحفز للوثبة الكبرى .

وكان الأرق لا يفتأ ينتابها فتقضي ليلها في فراشها تتقلب، فإذا أغفتْ فنومٌ متقطع مضطرب ، تكتنفه الأحلام المزعجة التي تهبُّ على أثرها مفزَّعة، من رؤًى تَرىَ فيها نفسَها مغبَّرةً بالتراب ، وأخرى تراها فيها تسقط في حفرة وكثيراً ما كان يحْضرها طيفُ أبيها أو جلفدان ، فيأخذها من بين

الحضور ويسير بها فى بقاع مجهولة، فكانت إذا أفاقت وأوَّلت ما رأت ، أيقنتْ أن وقت الرحيل قد أزف ، وأن قبْرها بات يطالعها من الغيب ، والله يدعوها ويبعث إليها برسُله من الأموات الذين سبقوها إليه، كانت رغبةُ الموت قد فعلتْ فعلها فيها ووصلت إلى آخر مراحلها، وكانت من جانبها قد أتمت جولتها التى طافت فيها بالحياة مودِّعة، وإذَن فلقد تَهيأ كل شىء ، ولم يبقَ إلا أن تموت .

الفصل السادس والعشرون

وطال المرض بزينات، ولم تزدها الأيام إلا دنوًا من القبر، فلما أصبحتْ وكأنها ميّتٌ يسير على قدميه ، ألقت بنفسها فى فراشها قليلة الحيلة ، ولازمته ليلَ نهار .

وفى هذه البقعة المحدودة، التى ينتهى إليها عادةً مَطَافُ المرء بالحياة قبل أن يتركها ، تمددت العليلة تَرقب حَيْنَها خلال الساعاتِ التى كانت تمر فوقها بطيئةً مملةً .

واشتد القلق بمختار، وذهبت عبثًا جهوده فى إنقاذها فنعاها – إلا حبًّها – إلى نفسه ، وكان كلما يخرج من لَدُنْها يائسا ، أَغلق على نفسه باب إحدى الحُجَر ، وجعل يبكيها ويرثيها حية .

وتعاقبت أيام ، وعَوَتْ بالحىِّ ذئابٌ ونَعَبَتْ بوم . فكان ذلك بمثابة الأجراس التى تنذر بدنو الأجل .

ثم بدأ يطوف بها ساقِى المنون ، ويذيقها من الموت سكَرات، إذ أخذت تهذى فى يقظتها، أو تغيب فى غفَوات طِوَال .

عندئذ وَجَمَ القوم ينتظرون الفاجعة، وجَثَمَ على البيت صمتٌ مخيف ، لم يكن يقْطعه إلا نحيبهم المكتوم ، كلما خانهم الجلَد فانتحَوْا جانبًا يبكون.

وفى ذات ليلةٍ ممطرةٍ عاصفةِ الرياح ، كأن الطبيعة كانت تبكى فيها

وتنُوح ، على زهرةٍ من زهوره الحِسَان أخذ يحلِّق فوقها طائرُ الموت ، اعترت زينات غيبوبةٌ طويلة ، لثَّمها فيها الغمضُ ساعات .

وبالرغم من ذلك الهدوء الذى كان يسُود ملامحها ليس يدرى غير من مات، أيةُ معركة كانت تنشب فى الأعماق بين الحياة والموت ، جعلت أنفاسَها تسرع وعرقها يتصبب ؟

وكأنما تلقَّت أثناء غشْيَتها رسالة من الغيب بأنها مزمعةٌ الرحيل ، إذ لم تكد تفيق حتى نادت عفاف ، فلما دنت منها تناولت يدها وراحت تخاطبها قائلة :

– أى عفاف ! اغفرى لى ولأبى، جنى أبى ، وجنيتُ عاقبةَ بَغيه، وقديمًا أُخذَتْ بذنوب الأهل الأبناء، لقد شاء البغى أن يزوجنا ، فما تزوجتْ أختى بمن جلبه لها ، وبقيتُ عمرى عانسا، لا شىء حرامَ يُرْبى على غاصبِه، فاللقمة التى انتزعَها من فمك ، وقفتْ شجى فى حلقه وحلق جلفدان وحلقى، مسكينٌ كُتِبَ عليه الإثم فأَثِم ! ولقد يُطْغينا الدهر لنشقَى ، أو يبتلينا بمن ينكِّل بنا، تنوعَت الأسبابُ وشقاؤنا الغاية، فكأنى بأبى قبْل أن يظلمك كان يعاقَب عن ذنوبٍ لم يجْنها، وإلا فعلام نُكِبَ بجلفدان وبىِ ؟ ولمَ ذاب علينا من قَبل أن يَأثم حسرة ؟ فلا ينْقمْ عليه فؤادك فما كان إلا مسخَّرا، هبيه لم يظلمك أفَكنتِ تنجيْن من جَوْر القدَر ؟ كلنا جئنا لنعذَّب هنا، المذنب منا والبرىء، إذ ماذا جنيتُ أو جنَى مختار ، أو جلفدان التى ولدَ معها نحسها ؟ بل ماذا جنيتِ أنت أو جنى مصطفى ؟ علِمَ الله لم نكن باغِينَ ولا تنكَّبنا

الصواب ، فهل تُرَى نكفِّر عن ذنوبٍ نجهلها ، اقترفناها فى عوالِم سابقة ، وعاشت فينا خلال حَيَوَاتٍ ومَوْتاتٍ عدَّة ، حتى إذا ما آن أن نتطهر منها ، انتهى بنا المَطَاف إلى هذا المبْكَى لنغتسل عليه ؟ وهل تُرى تذهب بالتفكير بُرَحاؤُنا ويكون الرمْس بَدْءَ عهد سلام ؟ فإذا ما المُوجَع ألْقى بجنبه فيه ونام، كفَّت عن وخْزه آلامه ، وأَحَسَّ فى الغمْض لَذاذَة النسيان ؟

وكان لسانها قد ثقل فعجزت عن الكلام، ثم انطبقت جفونها وأخذت تحشرج حشرجة راح لها صدرها يتزلزل كأنما تهبُّ فيه أعاصير، وإن هى إلا لحظةٌ حتى بدأ لونها يفرُّ مع روحها التى كانت تنسلُّ من جسدها وتنساب فى السماء .

وتجمَّع القومُ حول سرير المحتضرة وقد حبسوا أنفاسهم وخنقوا عبراتهم، ليروْها لآخرمرة وهى حية ، قبل أن يَهْرب وجودُها ذلك الهرب المبهم الذى حيَّر الخليقة ، فلا يعودوا يرونها إلا أطيافًا شاخصةً فى الخيال، أو زائرةً فى الرؤى بين حين وحين .

وفتَّحت زيناتُ عينيها مرة أخرى، وكانتا هذه المرة تتألقان أكثر من ذى قبل، ذلك أنها كانت قد جمَّعت فيهما الدمَاء لتسكبه دفعةً واحدة فى نهر العدم ، كما يجمِّع الصباحُ فَرغَ زيتَه فلُولَ لهبه ليلفظها فى الظلام .

ودنا منها مختارٌ وأخذ يحدِّق فيها قبل أن يعاودها الغمض، ولكنَّ عينيها تجاهلتاه، فناداها، ولكنَّ مسْمعها أنكره، وهل كان ما طالَعها منه إلا أضغاثَ أحلام ، أو كان إلا أصداء ما سمعتْ من صوته ، حتى تعرفه أو

تجيبه ؟

وعاد يناديها ويكرر النداء، فاختلج جفنها وبدا أنها بدأت تعي، ولكنها نظرت إليه ولم تجب ، وكأنها تقول : كم أحاول ولا أقْدر !

فهتف بها في طوعة اليائس :

– زينات ! ألا أفيقى ! زينات ، أيتها الحبيبة ! هل تعرفينني ؟ من أنا ؟

وبعد جهدٍ استطاع لسانها أن يفوه ، فراحت تجيبه في لهجة متقطعة :

– أنت .. أنت مختارٌ الحبيب .

واستطردت :

– لمْ أَنْسَكَ بَعْد، ولكنني سأنساك وشيكا، عندما أنسى كل شيء، هات يدك ، وضعْها على صدري، وتحسس قلبي الذي أَحَبك ، وباركْه قبل أن يَسكت خفقه .

وانحدرت من عينيها دمعتان ، سالتا على خديها الغائرين ، ثم اختفتا وراء أذنيها .

ووضع مختارُ يدَه على صدرها ، فطافت بفمِها رسمةٌ هادئة ، خُيِّل معها للقوم أنها شعرت بالراحة ، وأن السلام أخذ يمْطر قلبَها يُغرقه .

ثم أجالت بصرها في الحجرة ، فلما لمحت أمها همست :

– أماه ! لهفي عليك ! كلنا ذهبْنا ، وتركناكِ هنا وحدك ! مَن لي بمن يخْبرني بأنك ستحتملين بجلدٍ أيام الفراق ؟ وبأن التأسيِّ سيكفكف دمعَك ؟

– حتى أغمض جفنيِ راضية .

ولم تدرِ الأم ماذا تقول، ومازادت على أن مالت على جبين ابنتها وعبراتها تنهمر ، فقبَّلته قبلة أودعتها كل رمقها ، ثم نهضت بعدها وهى تكاد تكون بلا حياة .

وتنهدت زيناتُ ملْءَ صدرها ، ثم راحت تقول وقد بدا أنها تنظر إلى شىء بعيد :

– آه ! الآن أتركك يا دنيا ؟ وأشهد أنى لست آسى على ما فاتنى منك ، ولا أنا على ما ذقتُ فيكِ من مِحَنٍ آسفة، فكأنى بربى وقد شاء أن لا ألقاه إلا نقية ، سلَّط على قلبى النارَ لتحرق أوضاره ، وعلى روحيِ الدموع لتغسل أكدارها، فظللتُ أكتوى آونةً وآونةً أغتسل ، إلى أن زال رَيْبى وشفَّ منى الجسدُ وخَف ، حتى لكأنما أصبحَ من نورٍ أو نَبَتتْ له أجنحة ، وإذا بى أغدو فى الأناسى قدِّيسة ، وفى الموتى من المقربين، فشكرًا لك يا الله على ما أعدْت إلىّ من نقاء ، وما أنتَ بسبيل ردِّه علىّ من غربة .

وشهقت شهقة من الأعماق ، عادت تتكلم بعدها بهمسٍ شأنَ مسلوب الروح ، فقالت :

– طوبَى لك يا نفس ! فهذه ليالى التكفير المظلمة قد مضت ، ولاح للعين فجْرُ أيام الدَّعَة، ويا زيناتُ نامى مطمئنَّة ، فلقد آن لجسدك المضنَى أن يستريح .

الوداع !

وما إن أتمت جملتها ، حتى أخذ نورُ حَدَقَتَيها يَغيض الماء فى مَناقعه ،

وفجأة تقلَّص وجهها وبدا أنها تعانى ألمًا مُوجِعا ، كمن تَسُلُّ من جسدها شوكا .

وبعد لحظة ساد فيها الصمت ، كأنما حطَّت على رأس البَرِيَّة طير ، فتحتْ فمَها ولفظت بمرارةٍ ذلك القَبَسَ غيرَ المنظور ، الذى تنطبق بَعده الأفواه إلى الأبد .

* * *

وصاح القوم :

- ماتت ؟ يرحمها الله !

ثم انثنوا على الجثمان المسَّجى يبكونه وينادونه بأحَب الأسماء ، والجثمان المسَّجى صامتٌ لا يجيب .

على حين كانت تجُوز الفضاءَ فراشةٌ منَوَّرة ، فى طريقها إلى عرش الخلود .

* * *

وانكبَّ مختارٌ على حبيبته وراح يرمقها ، فلما رآها لا تتحرك صرخ كمن أصابه مَسٌّ :

- زينات !

وكانت أولَ مرة ينطق فيها باسمها وهى ميتة فأحس بتبدُّل كبير طرأ على الحياة، بل أحس بأن وجه التاريخ كله قد تغير ، وبأن اللحظة الحاسمة التى مرت به من فورها قد فَصلَتْ بين عهدين متباينين ، بل بين عالمين بينهما هوَّةٌ

سحيقة ، العالمِ الذى كانت فيه زيناتُ حية ، والعالم الحاضر الخالى منها .

* * *

وظلت الميتة طول الليل ممدةً فى فراشها ونووها من حولها يندبونها ، ويكادون من حرقة الحزن أن يشقُّوا الثياب ويمزقوا الوجوه .

وكان من ينظر إليها وهى مسجَّاة يخالها حيةً ولكنما أدركتْها سِنَة، ذلك أن سكينة الموت كانت قد رَدَّت عليها جمالها ، كلما زادها بهاءً ذلك اللألاء الذى غمر وجهها ، لألاء من شملهم الله برضوانه .

* * *

وفى الصباح ، سار موكبها الذى زُفَّت فيه إلى القبر ، بعد أن لم يُتَحْ لها أن تُزف إلى حبيب .

ثم دُفنت إلى جوار أختها تلبيةً لرغبةٍ أبدتها قبل أن تموت، وهكذا جاورتْ فى الموت من أحبتها فى الحياة ، وضحَّت من أجلها بأثمن ما يضحِّى به حى .

فلما تمَّ لها أن تضع جنبها ، كانت قد انتهت آلامُ إنسانةٌ عَبَرَت بالحياة ذات يوم كما عَبَر بها غيرها ، لتكفِّر عن ذنوبٍ تجهلها ولا تدرى متى ارتكبتها ولا أين ، ولكنها تلمس آيتَها كما نلمسها أجمعين ، فى ذلك الضَّرم الذى لا يفتأ يجرى مع دمائنا حاملاً فى موكبه النارى عصبةً من الشياطين ، نحسبُ أنها صحبتْه من عوالمَ مبهمة قد سَبقتْ لنا فيها حياة ، وليس

يخلِّصنا منها إلا هذه الآلام التى يضعها القدَر فى طريقنا على غير اتفاق ، فما تلبث أن تلتهم حرقتُها نيرانَ تلك المَرَدَة ، حتى إذا ما أتت عليها أحسسنا وكأنما قد انزاح عن صدورنا كابوسٌ ثقيل ، هو كابوس تلك الشهوات التى تحمل الذنوب فى أطوائها ، وإذا بنا نبدو فى صفاء أشعة النجم ، وفى مثل خفة الأثير وأكثر .

وكذلك رقدتْ زيناتُ رقْدتها الأخيرة ، بعد أن انتهت أيامُ تكفيرها وتطهرتْ مما علِق بها من أوشاب، ولكنْ على مقربةٍ منها - وبَعْد اجتياز مدينة الأموات - حياةٌ صاخبة بها أناسٌ مازالوا يكفِّرون .

الفصل السابع والعشرون

وعاد مختار إلى الحياة ، بعد أن وارى التراب حبيبته، ولكنها كانت حياة أخرى ، وأرضًا أخرى غير التى ألفها، كان أينما تلفَّت لا يبصر إلا صحارى مقفرة ، لا طير يجتازها ولا زرع ينبت فيها ، ولا قطر يندبها ولا عين ماء، ولكن رمالا فى رمال ، وكهوفًا فاغرة أفواهها وتلالاً رابضة كالضوارى، وفضاءً فسيحاً لا تدرك العين منتهاه ، وتأخذ القلب من سعته رهبة، صمتٌ متواصلٌ وخرابٌ ليس يشبهه خراب، فهل ترى قذفت به الأقدار إلى كوكب غير مأهول أو باد سكانه ؟ أم أنه أسدل بينه وبين الدنيا ستاراً ، فما أصبح يرى سوى العالم الفانى الذى يعيش فى نفسه ؟

ولكنه كان لا يفتأ يلمح فى الفيافى شيئاً يلوح كأنه معلق فى الفضاء من فرط ما طوح به البعد، وقد نسجت عليه المسافات أكداسها، فكان يحسبه واحة وسرعان ما يقصد إليه ويسرع الخطا، ولكنه يسير وأخيراً يوقن أنه سراب، كان هذا الشىء زينات، وإنها مذ قضت لسراب، أفتكون إلا الفراغ الذى تركته، ظل ينضح بطيفها؟ والصمت الذى خلفته، وبقى يردد صداها؟

وعندئذ لا يملك إلا أن ينكمش فى عالمه الخرب ، ويظل يبكى ، وهو لا يدرى ماذا جنى ولمَّ يكفر إلا أن يكون العجز ذنبًا وكان يكفِّر عن عجزه عن ردها.

وذات يوم زاره أستاذ زينات القديم، وكان قد قدم من الريف بعد غيبة

أعوام .

وسأله عنها وحمَّله إليها السلام ، وأهاج السؤال شجن الحبيب، وذكَّره مرأى المر فى العهود الحالية أيام كان وزينات فى روضة عمه بُرعمين، يسيقيها الطلُّ فيرتعشان ، ويحميها الضوء فيضحكان . أيام هَشَّت لهما الأنداء ، وبَشَّ لهما الشعاعُ الباكر، أيامَ كانت حياتهما فى فجرها، والعمرُ منهما وليد، وكانت نديةَ الأصْبَاحِ أيامُها مقْمرةَ الأمَاسى، فما يبصران من الدنيا غير جانبها الحلو ، ولا يعرفان من الهموم إلا اسمها .

فأجاب وأدمعه تفيض :

- أعَنْ زينات تسألنى ؟ زيناتُ ذهبت ولن تعود، زيناتُ لن تَشهدها الروضاتُ بَعْد ، ولن تردِّد صوتَها النَسمات، زيناتُ لا أنفاسَ لها اليومَ ولا ظِل، زيناتُ ماتت والموتُ نسيان .

وهكذا كان يثور شجنه ، كلما هبت نسمةٌ تحْمل عطر زيناتَ القديم، وما أكثر الأنسام التى كانت تحمل عطرها المائت ! حتى إذا ما رقدتْ مؤقتًا هذه الأنسام ، انطوت نفسُه على ألمها الكَظِيم ، فبدا هادئًا والثورةُ فيه .

* * *

وفى بقعةٍ أخرى ومنزلٍ آخر ، كانت هناك شريفةُ هانم تكفِّر التكفير نفسه، ولسبب تجهله هى الأخرى .

فقد كانت مذ عادت من دفن ابنتها وصرختْ فى وجه الجدران التى استقبلتها خاوية : " أيتها الجدرانُ لمْ يَعُدْ فيك إلا أنا " ، وهى فريسة لمرض

الشلل ، فلم تكن لتبرح حجرتها إلا محمولة ، لتزور قبور موتاها فى المواسم أو حين إلحاح الشوق .

* * *

أما عفافُ فمع أن زيناتَ كانت قد أوصت لها بجميع ثروتها ، فقد آثرت أن تهَبهَا لجهات البِر ، إذ لم تعدْ بها للمال حاجة مذ لم تعدْ لها فى الحياة رغبة، ثم صحبت عكازها وتلثمت بالخِمار الأبيض ، وقفلت راجعة إلى المشغل، أجَل ، عادت إليه لتكفِّر أيضًا من قبْلُ وكفَّرت زيناتُ وأبوها وأختها، وكما كفَّر وسيكفِّر كل من هبط على الأرض أو سيهبطها ، عن ذنوبٍ يحسبونهم ، حمَلوها من عالَمٍ آخر ، ثم جاءوا ليذيبوها فى الدمع على هذا المَبْكَى .

وكان بين يومٍ ويومٍ يشاهدَ رجلٌ يرتدى السواد ويضرب فى القفار ، وقد أمسك بيدِه طاقة من الزهر ، حتى إذا ما بلغ السفح الذى تقوم عليه مدينة الأموات ، وَضَعَهَا على نُصْبٍ جديدٍ فيه ، ثم انحنى فوقه ينتصب ، كما ينتصب العابد فوق هيكله .

كان هذا الرجل مختارا ، يزور فى الفَتَرات قبر حبيبته ، ليبكِى ويكفِّر ... عن ذنوبٍ لمْ يَجْنِها .

(تمت)

أزمة الحقوق

١٩٢٩

أزمة الحقوق

حسين عفيف

مقـــدمـــة

ليس هذا الذى عملته كتاباً أو رسالة بقدر ما هو دفاعٌ عن الطائفة التى أحمل شرف الانتساب إليها دفاعٌ أساسه العدل والصالح العام جمٌّ الاعتدال لايشوبه تحيّز ولا مغالاة، رائدى فيه الإقناع على أساس المنطق لا متعسفٌ فى الأحكام ولا مقيدٌ بالعتيق من الآراء، يدفعنى إليه شدة الحرص على أن تعيش هذه الطائفة ما شاء لها العدل المخلَّد أن تحيا، محتفظةً بمجدها العريق كاملا مُتَسَنِّمَةً بين طوائف البلاد أسمى موضع.

أغلبكم تعلمون بل ليس منكم إلا من يعلم أن هناك أزمة شديدة فى الحقوق، هذه الأمة يا سادة ، ليتها تقتصر عند أنها تضحى ببعضنا فى ميدان العمل، بل هى أكثر من ذلك تنذرنا بأزمة فى كرامتنا، وهنا حضراتكم تلتقون بأوقع الأسباب التى وطَّنت فى نفسى العزم على كتابه دفاعى هذا، أجل، إن للطوائف كرامة هى وإن استقلت عن كرامة الأفراد تتأثر بها فإنَّ ما أصاب بعض المنتمين إليها عارٌ أو هوان تعدَّاهم إليها ثم تعداها بعد ذلك إلى كل منتسب لها، وبعبارة أخرى أنَّ ما يصيب طائفة من الطوائف عن طريق البعض ممن ينتمون إليها يلحق فى النهاية البعض الآخر الذى يكملها.

أما عن الأغراض التى عالجتها، فأولها الاعتراف لرجال القانون بمركز أدبى ممتاز فى الدولة، فإذْ أنا أثبت ضرورة ذلك أجلَتْ نظرى فى الظروف الحاضرة فألفيتها لن تكفل هذا المركز فى شىء بل من شأنها على العكس من ذلك أن تهدمه، وهنا أرانى أمام مركز يضطرنى إلى عتزام التفكير فى إصلاحها ضناً بكرامة المشتغلين بالقانون أن تهوى ، وهذا الاعتزام الذى تفسره الضرورة كان الغرض الثانى فى كتابى؛ أما ثالث الأغراض فيرمى إلى تحليل هذه الظروف للوقوف على أسباب الداء فيها، توطئة لاختيار الدواء الملائم لطبيعة المرض، والذى يسير وإياه فى نفس الاتجاه وينفذ منه إلى الصميم والأعماق؛ أما غرضى الرابع والأخير فإنى بعد أن انتهيت من عملية التشخيص هذه وصفت العلاج المناسب، وهو ينحصر فى محاربة العلة بضدها، ثم شفعته بعد ذلك ببعض علاجات تكميلية أخرى من شأنها بعد تمتع المريض بالشفاء أن تعززه بالقوة والعافية وهذه الأغراض الأربعة أجملتها فى المباحث الأربعة عشر التى كوًّنت فيما بعد كتابى.

أما الروح التى ألبستها بحثى فهى مزيج من الروح النظرية والعلمية فى آن واحد، ذلك لأن النظريات فى رأيى إنما تقوم على أساس استقراء الواقع، كما أنها فى الوقت نفسه وسيلة لتفسيره وتفهُّمه؛ لذلك اتخذت من الحوادث القائمة قاعدة لنظرياتى بغيةَ أن تكون الآراء التى تضمنتها عمليةً تحمل معها إمكان تنفيذها ، ثم أخذت بعد ذلك تلك النظريات وطبقتها على

هذه الحوادث كي تفسرها وتكشفها بغية أن تحمل هذه النظريات عنصر الإقناع وتبرر الحلول التي أشارت بها.

وسلوكٌ كهذا ظاهر منه أن مجرد البحث النظرى لم يكن فى نيتى غرضاً فى ذاته ساعة أن وضعت كتابى، بل كان أكثر منه وسيلة تكسب الحلول التى أشرت بها قابلية الإقناع والتنفيذ، وتخرجها من حيز الكلام إلى حيز العمل؛ لا يُفهم من ذلك أنى أريد تعسفاً أن ألزمكم بالاقتناع بوجهات نظرى، إنما كل ما أريد أن أقوله لكم يا سادة، أن اقرءوا ما كتبت فإن وجدتموه خطأ فمزقوه فى وجهى، أمَّا إذا وجدتموه صواباً فهنا أناشدكم الله والمصلحة أن لاتكتفوا بإقراره وتأييده، بل أكثر من ذلك أن تتعاونوا على تنفيذه بكل ما شاءت لكم جهودكم وقواكم العظيمة أن تعمل ، أناشدكم الله تعاوناً لا بالبحث والمناقشة فقط وإنما بالتنفيذ العملى المقرون بروح العزم والتصميم أيضاً ، تعاونٌ من كل منتمٍ إلى أسرة القانون كلٌ فى دائرة اختصاصه ويقدر ما أوتى من قدرة على العمل وجاهٍ وسلطان.

سترونني صريحا فى بعض المواضع، فليعذرنى السادة وكلاء المحامين مثلا، ولكن ذلك لا لأنى أجهل واجبات المجاملة، وإنما فقط لأن الحقيقة لا تنكشف إلا فى ضوء الصراحة الكاملة، وإذن فقد كان علىّ إما أن أتغافل عن هذه الواجبات وإما أن أفلت من الحقيقة وأدعها تفلت منى، وأمام هذا المركز الحرج الذى أضعه الآن بين أيديكم، لا أشك أنكم تلتمسون لى ما

شاء لكم تسامحكم الأعذار.

إلى هنا يا سادتى القراء انتهى، وأختم باب المقدمة لأبدأ باب الموضوع، مذكراً مازلت إياكم بالغرض الذى سألتكم أن تحققوه، وهو أن تغلب روح التنفيذ على روح المناقشة ويحل العزم الصادق من نفوسنا محل الأمنيات.

-١-

أهمية مهمة الحكم

إذا كانت الدولة فى عرف القانون تتكون من عناصر ثلاثة:

قطع أرض، وجماعة من الناس، وحكومة، كانت مهمة الحكم - باعتبارها ركناً متمما للدولة - لا تقف أهميتها عند حد أنها أمر ضرورى لها، بل تتعدى ذلك إلى كونها عنصراً من عناصر حياتها وجزءا لا يتجزأ من روحها، ومعنى هذا أن الدولة لن تخلق من غير الحاكم، ولكنها من غير سواه من أرباب سائر المهن كالمهندس والطبيب وغيرهم من الممكن بل من المحقق أن تخلق، حقيقة أنها من غير هؤلاء لن ترتقى ولكنها أيضا من غير الحاكم لن تحيا، وبديهىٌ أن الحياة خطوة أولى والرقى خطوة ثانية، وأن الرفاهية إلى جانب الحياة كالكمالى إلى جانب الضرورى ، لئن تصورنا الخمول يخيم على جماعة من الناس ليس عندهم كبار أو مصانع، فإننا لن نتصور غير الفناء يخيم على جماعة من الناس تعيش من غير حاكم ، يستنتج من هذا أن مهنة الحكم بين سائر المهن أولها لزوما أو أخطرها شأنا، ولذلك حق أن تكون أرفعها مكانة وأوفرها كرامة.

ـ ٢ ـ

من يعتبرون حكاما

والذى نعتبره من الأعمال داخلا فى مهنة الحكم لايتعدى ما هو اجتماعىٌ فى ماهيته منها، ذلك لأن الحكم وهو فرع من علم الاجتماع لايدخل فيه إلا كل ذى صلة مباشرة بعلم الاجتماع، ولأنه وهو جزء متمم لحياة الدولة كما قدمنا، لايتسع معناه إلا لكل ما يمكن أن يؤثر فى صميم هذه الحياة من الدولة، وعلى ذلك تنحصر أعمال الحكم بالمعنى الدقيق فى ثلاث : السياسة والإدارة والقضاء.

وكل عمل يتدخل فى الحكم عدا الثلاثة التى ذكرنا هو فى الواقع عرضىّ الوجود لا تلبث الطبيعة أن تقصيه متى زالت الاعتبارات الوقتية التى أتت به، فالمستشفيات والبريد ووسائل النقل مثلا هى فى الأصل من أعمال الشركات والأفراد، غير أن الحكومات فى بعض الدول التي يَقْصر الاستعداد فى رعاياها عن القيام بها، تحمل عنها مؤقتا وبقدر العجز الذى تبديه الرعية فيها عبء هذه الأعمال على أن تتخلى ـ كلما حان من الرعية نشاط ـ عن مباشرتها شيئاً فشيئاً، ولكنه مهما يكن من تخلى الدولة عن بعض الأعمال فلابد وأن تحتفظ لنفسها فى النهاية بأعمال السياسة والإدارة والقضاء.

والأكثر من ذلك أن هذه الأعمال حتى في وجودها العرضي ليست في ذاتها أسلوبا من أساليب الحكم بالمعنى الدقيق، ففي الدولة كما تقول الدساتير سلطات ثلاث : تشريعية ، وتنفيذية، وقضائية. وأعمال الصناعة والزراعة والطب والهندسة إذا قامت بها الدولة فإنها تدخل تحت أعمال السلطة التنفيذية، وهذه يرأسها مجلس الوزراء وهو هيئة سياسية إدارية، وإذن فليس لهذه الأعمال بذاتها نصيب مستقلّ من الحكم، والواقع أنها لا تخرج عن كونها محض مساعدة فنية يؤديها الطبيب أو المهندس أو غيرهما للحاكم السياسي أو الإداري الذي من اختصاصه وحده في النهاية أن يتصرف فيها إلى حد تعديلها أو محوها أو إنشائها؛ مثل ذلك، إذا عهد إلى مهندس بإنشاء قنطرة، فليس على هذا المهندس إلا أن يبحث المشروع من وجهته الفنية كطريقة العمل ونفقاته ومدته، أما يبحث المشروع من الوجهة العامة بعبارة أخرى من الجانب الاجتماعي، أعني تقدير ماله من الفائدة للجمهور، وما عسى أن يكون له من المزايا أو المضار السياسية ، والموازنة بين مقدار تكاليفه والحاجة إليه وما إلى غير ذلك، كل ذلك من وظيفة الحاكم الإداري أو السياسي كالمدير والوزير ومجلس الوزراء، ولا يفوتنا أن الوزير وإن اتفق أن كان فنيا فالمفروض فيه أنه موظف سياسي إداري قبل كل شيء، وفي اختياره لا يراعي فيه سوى الجانبين الأخيرين فقط، على أن يستعين في عمله الفني بمن شاء من الموظفين واللجان والهيئات الفنية، وكثيرا ما يحدث في مصر وفي سائر الدول أن تسند الوزارات إلى وزراء

غير مختصين فى الفن الذى تختص فيه الوزارات التى يقلدوها.

وحتى إذا كان ولابد من أن نتوسع فى مدلول كلمة «حاكم» وندخل تحتها المهندس والطبيب وغيرهما، فما وجود هؤلاء بهذه الصفة إلا ثانوى بحت، وليس من أفرع الحكم ما هو جوهرى فى الواقع سوى الثلاثة التى ذكرنا.

-٣-

تأثير مهنة الحكم على سائر المهن

ومهما يكن من أمر سائر المهن فهى مدينة جميعها للحاكم بالتبعية والوجود، فهو باعتباره ركناً من أركان الدولة، يتمم وجود الجماعة التى تنبت هذه المهن فيها وباعتباره المهيمن على مرفقى الأمن والنظام، يهىء الجو الهادىء الذى تستطيع أن تحتفظ لنفسها بالبقاء فى ظله، ثم باعتباره المشرف الأعلى عليها، يتولى بحثا لا من حيث هى بل من حيث اتصالها بالجماعة وتأثيرها فيها، ثم يجرى بها من التعديل ما يجعلها تتلاءم ومصلحة الجماعة بصرف النظر عن مصلحتها الخاصة بها، فإذا ثبت للحاكم السياسى مثلا أن الهندسة الحربية ضارة بالمجتمع فهو لا يتردد فى إلغائها، وبعملٍ كهذا يتضح ما له عليها من رقابة وسلطان، وأخيراً باعتباره نقطة الاتصال بين سائر فروع الدولة، تلتقى عنده من جميع الأنحاء مختلف المهن، فينظم علاقتها ببعضها ويرسم طرق اتجاهاتها ويضع حدود نشاطها ويحل ما قد ينشأ من التعارض بينها، كأن يمنع وارد القطن ليشجع زراعة القطن فيقيد مهنة التجارة لمصلحة مهنة الزراعة مثلاً، والخلاصة أن الحاكم من الدولة بمنزلة القلب، تلتقى عنده الشرايين من سائر أنحاء الجسد فيربط علاقتها وينظم عملها ويمون نشاطها، أو هو منها بمنزلة العقل تنتهى إليه

حاجات النفس ونزعاتها المختلفة فيبقى عليها أو يقضى عليها وبالجملة يصرّفها كما تمليه مصلحة النفس التى يتبوأ عرشها ويهيمن عليها، وهذا يؤيد ما نسبناه لمهنة الحكم من أهمية وخطر فى المبحث الأول من هذا المقال.

- ٤ -

حاجة الحاكم إلى عقل كبير

وفن الحكم أصعب الفنون وأعصاها على الفكر وذلك لسببين:

السبب الأول :

لأنه - وهو فرع من علم الاجتماع - يجب أن يبحث بالطريقة التى يبحث بها علم الاجتماع، والباحث فى هذا العلم يجب أن يفكر فى دائرة واسعة حدودها حدود العالم بأسره، متشعبة المواضيع، مشتملاتها ما يشمله العالم بأجمعه، ذلك لأن البحث فى أمر يقتضى الإلمام بكل ما يتصل به بطريق مباشر، والجماعة تتصل مباشرة وبالذات بكل شىء فى العالم أيا كان، وعلى ذلك فالبحث الصحيح لموضوع اجتماعى لن يكون ببحثه مستقلا ومن ناحية واحدة. بل ببحثه من جميع النواحي وباعتباره متصلا بكل شىء فى الوجود متأثراً به.

ولنضرب لذلك مثلا شخص يبحث مسألة الزواج ليضع تشريعاً بشأنه أو ليقرر سياسة دولته بإزائه، هو يرى إبان بحثه أنه لازم لبقاء الأسرة وحفظ النسل والأخلاق والدين، ثم يرى من جهة أخرى أنه مكثر للنسل ملوِّحٌ إذا ما ازدحمت الأرض بشبح المجاعة المخيف ، ولكنه يعود فيتساءل ما إذا كان من الممكن أن يتوصل العلم إلى مضاعفة قوة الإنتاج فلا يكون ثمة محل

لهذا الخوف!... ومن جهة أخرى يرى أن فى الزواج تقييد للعواطف وهى نزاعة بطبيعتها إلى التنقل تتطلع إلى العيون الزرق إن هى حظيت بالعيون السود وتتلهف على الشعر الذهبى إن هى حظيت بالشعر الأسود، ولكنه يعود فيتساءل عما إذا كان من الصواب مجاراة هذه العواطف فى هواها، أم أن فى ذلك عبث بالوقار والفضيلة والأمن والنظام!.. ثم يرى أيضاً أن الزواج مدعاة إلى التعصب وحصرٌ للمحبة فى دائرة الأسرة بدلا من إطلاقها فى العالم أجمع وللعالم أجمع، ويعود فيتساءل هل من الصواب أن نقضى على هذه الظاهرة أم أن لها رغم عيبها ميزتها من حيث الإنتاج والعمل!.. وهكذا لايزال هذا الشخص ـ وقد أراد بادىء الأمر أن يبحث مسألة الزواج بمفردها ـ ويتطرق به البحث إلى الدين والأخلاق والفلسفة والصحة والأمن والسياسة والثورة والحرب والعواطف إلى غير ذلك مما لايمكن أن نضع له حداً.

وليس الذى نريد أن ننبه إليه هنا هو أن هذا الشخص قد عرض له أثناء البحث جملة مسائل، فهذا ما قد يلتقى به كل باحث اجتماعى كان أو رياضى، ولكن الذى نلفت إليه النظر هو أن الذى عرض له أثناء البحث لم يكن مجرد مسائل، بل كان موادا كل منها فى ذاته علم أو فن مستقل يتفرع بدوره إلى مسائل عديدة من واجب الباحث الاجتماعى أن يتناولها بالبحث أيضاً. وهذا هو موضع الفرق بين العلوم الاجتماعية والعلوم الطبيعية التى هى على النقيض من الأولى البحث فيها لن يكون إلا فى دائرة ضيقة

حدودها لا تتجاوز حدود العلم موضع النظر، فالمهندس الذى يبحث إنشاء خط حديدى مثلا ليس ثمة ما يخرجه قط فى تفكيره عن علم الهندسة وهو غير مطالب أن يتطرق فى بحثه إلى السياقس أو الدين أو العواصف أو غيرها.

السبب الثانى

لأن فن الحكم ـ وهو فرع من علم الاجتماع أيضا ـ لا يرتكن على قواعد ثابتة الكيان جائزة التطبيق فى جميع الظروف والأحوال كما ترتكز العلوم الرياضية، فقد اتفق العلماء مثلا على تعريف نظرية الخط والنقطة ولكنهم لم يتفقوا ولن يتفقوا على تعريف نظرية فصل السلطات أو على النظام الانتخابى الذى يحقق سيادة الشعب تحقيقاً كاملا، فبينما يجد المشتغلون بالعلوم الطبيعية أثناء عملهم قواعد ثابتة يتوسلون بالتسلق عليها إلى بلوغ غاياتهم دون كبير تعب، يقف المشتغلون بالعلوم الاجتماعية حائرين كلما همّوا يتسلقون قاعدة انهارت من تحتهم، وأخيرا يضطرون إلى أن يجعلوا الاعتماد أغلب الاعتماد على ذكائهم، ويروحون فى أبحاثهم يخلقون القواعد كما يخلقون النتائج، ويبذلون من المجهود والذكاء مجهودا وذكاء مضاعفا وكثيرا ما يعتقد العامة عن خطأ أن مجهود المخترع وذكاءه يفوقان مجهود العالم الاجتماعى وذكاءه.

ولعل السبب فى ذلك أن مجهود المخترع يتولد عنه فى النهاية شيءٌ

محسوس مجسّم بادٍ في شكل مادى تدركه العين أو تسمعه الآذن فيثير الدهشة في نفس ناظره ويبدو أمامه كأنه لغز مستعصى الحل غامض الأسرار؛ أما مجهود العالم الاجتماعى فمعنوى فى إجرائه ونتائجه، خفى فى أشكاله وظاهره، عسيرٌ على الحواس التى تعوزها المعرفة والذكاء أن تفهم من ماهيته شيئا أو تدرك لقيمته معنى، ولقد حدث مرة أن أجرت إحدى المجلات المصرية مسابقة لمعرفة من هو أعظم الأحياء فى العالم فاختير «إديسون» المخترع العظيم بأغلبية تقرب من الإجماع، أما «ولسن» و «كلمنصور» و «لويد چورچ» فقد تجاهلهم المتسابقون تجاهلا يكاد يكون كليا، لا لأنهم يقلون عن «إديسون» العظيم عظمة، بل أن عقول العامة وهى محدودة التفكير طبعا، استطاعت أن تدرك موضع العظمة فى «إديسون» ولكنها عجزت عن أن تدركها فى الآخرين، لأنها فيهم معنوية خفية وفى الأول مجسمة جلية، وفى رأيى على العموم أن الموازنة وإن كانت ممكنة بين مهنة وأخرى أو بين أفراد المهنة الواحدة فهى بين المشتغلين فى مهن مختلفة مستحيلة عقلا، وإبداء الرأى فيها لابد ينطوى على نزق فى التفكير وإجحاف فى الحكم، ولا تندهش أيها القارىء إذا قلت لك بملْءِ الثقة إن الاختراع الذى يبدو إلى الذهن كأنه لغز أو سحر ، هو ـ بالرغم من جدارته بكل إجلال ـ ربما لم يبذل فيه من الجهد والذكاء بقدر ما بذل فى حل مشكلة اجتماعية أو سياسية لا يحسبها العوام شيئا.

نتيجة للسببين

ولما كان البحث الاجتماعى يقتضى كما بينا فى السبب الأول من هذا المبحث أن يتبسط العقل فى تفكيره، ويحلق أثناء البحق فوق العالم كله مستعرضا فى أن واحد كل ما فيه، وأن يستطيع وهو أمام هذه الأشياء المتعددة وفى وسط ذلك الميدان المتسع، أن يواصل بحثه دون أن يضل أو يرتبك، وأن يظل دائب القبض على زمام منطقه تحت شتّى مظاهر الحياة المتشعبة، فلا يدع سبيلا يتطرق منه الزلل إلى استنتاجه وتفكيره، دائمَ الاستفادة من علاقة مختلف المواضيع ببعضها، وتأثر كل منها بالاخر وتأثيره على الأخر، كان الباحث الاجتماعى ولاشك فى حاجة إلى عقلية عميقة التفكير بعيدة المدى سليمة المنطلق مضبوطة القيادة قوية الخيال.

ولما كان هذا المبحث أيضا يقتضى كما بينا فى السبب الثانى خلق القواعد أسوة بالنتائج والاعتماد فى حل المسائل المختلفة على الظروف الخاصة لها دون إمكان الالتجاء إلى قواعد ثابتة، كان الباحث فيه فى حاجة إلى عقلية مرنة ضليعة بالتصرف قديرة على الابتكار فلسفية فى النزعة، والخلاصة من كل هذا أن الحاكم يحتاج إلى عقلية من نوع خاص حتى يستطيع أن يضطلع بالمهمة الكبيرة الملقاة على عاتقه.

-٥-

حاجة الحكم إلى نفسية نبيلة

ولما كان الحكم سلطةً واسعة تقصر القوانين مهما تعددت عن أن تحدها، وإذ ذاك يوكل الأمر فى كثير من التصرفات إلى محض الذمة والضمير، وهناك يتسع مجال العبث واستغلال السلطة فيما هو شخصى من المنافع أو مضر بالجمهور، كان الحاكم ولاشك فى حاجة إلى قلب يفيض بالإحساس والعواطف ونفس تفيض بالنبل والإباء، وقديما قالوا إن القانون الردىء فى يد الرجل الطيب خير من القانون الطيب فى يد الرجل الردىء.

-٦-

حاجة الحاكم إلى شخصية قوية

وإلى أن يكون محترما

ولما كان الحكم أيضا عبارةً عن الأمر من جانب الحكومة تقابله الطاعة من جانب الأفراد، وسيف الحق فى يد العدالة يقابله شعور الرهبة فى نفس المتحفزين للإجرام ، كان الحاكم فى حاجة إلى :

(١) شخصية قوية تحمل المحكوم على الإذعان.

(٢) وشخصية تمثيلية تتصنع اللين والشدة والنزق الرزانة والتواضع والتعاظم، وتصيب بهذا من النجاح فى الإدارة بقدرما أصابه «نابليون» العظيم الذى كان فى كل أدوارهم ممثلا حاذقا كما كان قائدا ماهرا.

(٣) وأخيراً إلى احترام تسديه الهيئة المحكومة إليه حتى تظل مكانته محفوظة فى نفسها ومهابته رادعة لشرورها، هذا الاحترام لايقصد به شخصه وإنما المركز الذى يتمثل فيه.

-٧-

احترام الحاكم ضرورى

يستفاد من المباحث التى تقدمت ما يأتى : (١) أن الحاكم يؤدى أهم عمل للمجتمع (٢) أنه يحتاج إلى عقل كبير (٣) وإلى نفس نبيلة (٤) وإلى شخصية قوية (٥) وإلى مهابة واحترام.

والاحترام مقرر صراحة فى النتيجة الأخيرة، ومستفاد ضمنا من النتائج الأربع الأخرى ، ذلك لأن الشخص الذى يقوم فى المجتمع بأخطر خدمة ويضم بين جسده عقلا كبيراً وقلباً نبيلاً وشخصية قوية لابد عدلا وأن ينال من الاحترام أوفر قسط.

وإذن فالاحترام واجب للحاكم على المحكوم ، توجبه إما فكرة العدل أو باعث المصلحة، ويؤيده الواقع الذى جرى عليه العالم منذ القدم.

فمهمة السياسة كانت ولا تزال تزاولها أكبر الهيئات فى الدول، فرئيس الدولة ومجلس وزرائها كلاهما شخص سياسى وكلاهما أكبر الأشخاص فى الدولة، ولم نسمع فى تاريخ العالم كله أن رئيس دولة من الدول اتخذ لعمله الرسمى مهنة الزراعة أو الكيمياء مثلا، هذا كما أن مهنة القضاء مجمع على أنها أشرف المهن، وأن المحاماة ثانيتها، وهكذا يجمع الرأى فى كل زمان ومكان على أن مهنة الحكم أجدر المهن بالاحترام وأولاها بالعناية.

-٨-

احترام الحاكم

معناه احترام رجل القانون

أما وقد بينا فيما تقدم من الاعتبارات أن الاحترام فرض للحاكم على المحكوم، وقد سبق أن بيّنا أن الحاكم فى المعنى الصحيح هو رجل السياسة أوالإدارة أو القضاء، فثمة رجعةٌ إلى علم القانون نعرف منها أنه العلم المختص ببحث هذه المهن ، ورجعة إلى رجال السياسة والإدارة والقضاء نعرف منها أن جلهم من رجال القانون لأنهم المختصون أصلا بها ، بل وليس لهم من عمل سواها ، حتى ننتهى إلى أن الاحترام الذى أوجبناه لرجال الحكم مَعْنِىٌّ به فى الواقع رجال القانون، وإذا سرنا مع المنطق الصحيح إليهم لا نقول إنه قاصر عليهم، ولكنّا نقول إنه لازم لهم، وإن هذا اللزوم غير مقصود به محض أشخاصهم فقط بل وأكثر من ذلك الأسرة القانونية التى تضمهم، وسنبين فى مبحث تال كيف تتأثر الطوائف بالأفراد الذين ينتسبون إليها وكيف يتأثر البعض أيضا من أفراد هذا الطوائف بما يصيب هذه الطوائف نفسها من طريق البعض الآخر منهم.

-٩-

ضمان توفر الصفات الخاصة

فى الحاكم والاحترام الواجب له

أمّا عن الصفات الممتازة التى اشترطنا وجودها فى رجال القانون فضمانها ميسور بوضع نظام دقيق لاختيارهم، والذى نراه واجب المراعاة فى هذا النظام أمرين: (١) أن يجرى هذا الاختيار عند دخول الطالب كلية الحقوق، لأن فى إجرائه بعد إتمام دراسة القانون تضحيةً للذين يقصيهم الاختيار، والذين لو أنهم أُعلنوا بعدم صلاحيتهم لمزاولة القانون قبل بدئهم فى دراسته لوجدوا الفرصة سانحة للتعريج على فن آخر يتعلمونه.
(٢) أن لا يجعل ترتيب الطالب فى امتحان البكالوريا وحده مقياسا لكفايته لمزاولة مهنة القانون، لأن هذا الترتيب إن دل فهو لا يدل إلا على مهارة فى استيعاب الدروس، أما العقلية الممتازة والنفسية النبيلة فلا شأن لهذا الترتيب بهما.

وأمًّا عن الاحترام الذى أوجبناه لهم فضمانه يكون بالتفكير المستمر فى الظروف التى تحيط بهم والمبادرة إلى استبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر على هذا الاحترام سواءً بالذات أم بالواسطة.

-١٠-

تأثير الظروف الحاضرة

فى الاحترام الواجب لرجال القانون

أمَا وقد نوهنا بضرورة البحث المستمر فيما يحيط برجال القانون من ظروف للمبادرة إلى استبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر على مركزهم الأدبى الممتاز، فقد حق علينا والحالة هذه أن نستعرض هذه الظروف فى الوقت الحاضر، لنرى ما إذا كانت تكفل لهم هذا المركز الممتاز حقاً أم أن من شأنها على النقيض من ذلك أن تهدمه إن لم يكن عاجلا فآجلا، لهذا أراه واجبًا علىّ أن أحلل هذه الظروف تحليلا صريحاً بالنسبة لمختلف الطوائف التى هى وإن تنوعت فى الشكل تندمج فى النهاية فى أسرة واحدة هى أسرة القانون، وعلى ذلك فسأعالج هذا التحليل بالنسبة للمحامين ثم للكتبة ثم لذوى المناصب الرفيعة من الحقوقيين أيضاً.

أولا : بالنسبة للمحامين

إذا نحن فكرنا فى المسألة التى أصبحت حديث الخاص والعام من الناس، وهى اكتظاظ مهنة المحاماة بالمحامين، لوجدناها خطراً يهدد المحامين فى صميم الكرامة منهم، فكثرة المحامين من شأنها أن تؤدى إلى نزول الفقر بهم ولهذا من النتائج السيئة ما نورد منه ما يلى:-

(١) ظهور المحامى بمظهر رث لا يتناسب مع كرامة مهنته التى يجب أن تحاط بمظهر من العظمة والجلال.

(٢) إذلال روح الأنفة والكبرياء التى يشترط توفرها فيه، والتى هى فضلا عن ذلك حق طبيعى لكل رجل من وسط ممتاز.

(٣) اضطرار المحامى إلى اعتياد التوسل والإذعان لأرباب القضايا حرصاً على إرضائهم، الأمر الذى ينحط بالمهنة إلى مستوى وضيع، لا شك أن المحاماه بعظمتها منزهة عنه.

(٤) القضاء على حيوية المحامى وعلى روح الأمل والتشجيع فى نفسه، والنفس هى العامل الأكبر فى كل عمل يأتيه الإنسان فإمّا ذوت حيويتها وتهدم النشاط فيها، ظهر الضعف بادياً فى كل شىء تأتيه وانعكس الخمول الذى يخيّم عليها على كل عمل صدر منها، والنتيجة فى الصدد الذى نتكلم فيه هى انحطاط المستوى العلمى والعملى لمهنة المحاماه والقضاء على ظواهر النبوغ فيها.

(٥) تدرج أتعاب المحاماة نحو القلة إلى أن تصل درجة يستحيل معها أن يجد المحامى قوته أو تستطيع المحاماة أن تحتفظ ببقائها.

(٦) الخوف من أن الحاجة إلى المال قد تدفع المحامى فى المستقبل إلى أن يرتكب أموراً ماسة بالشرف طلباً للرزق، ومهما سمت ثقافة المحامى فهو لا يخرج عن كونه مخلوقا بشريا يتعرض للزلل فى بعض الأحيان إذا

أحرجته ظروف الحياة القاسية؛ والإصلاح الحق هو فى استبعاد أسباب الجريمة أكثر منه فى العقاب عليها بعد وقوعها، وكيف يتأتى أن نزج بالإنسان وسط المغريات بارتكاب الأخطاء ثم نطلب منه بعد ذلك أن يكون طاهر الذيل منزه الأفعال !

(٧) فرار كثيرين من الحقوقيين من ميدان المنافسة فى عالم المحاماة، واضطرارهم إلى الاشتغال فى أعمال غير قانونية وضعيفة المستوى، ولا يجدر بنا أن نسىء الظن بهؤلاء أو ننسب إليهم وهناً فى العزيمة أو ضعفا فى الكفاية، فالمنافسة فى هذا الميدان المائج بالمتنافسين مهما كانت قوة الخائض فى غمارها غير مجدية، ذلك أننا إذا فرضنا أن فى مصر مثلا ثلاثة آلاف محام، منهم ألفان من الأكفاء، غير أن البلاد لاتحتاج منهم إلا إلى ألف فقط، فستكون النتيجة أن هناك ألفا من الأكفاء فائضين عن الحاجة، وهؤلاء إما أن يُضحوا فى الميدان ظلما رغم كفاءتهم، وأما أن يقاسموا الألف الآخرين أرزاقهم قسمة مناصفة، تجعل المهنة فى النهاية غير مجدية للطرفين، وفى كلا الفرضين على السواء نلتقى بنتيجة عارية عن العدل بعيدة عن المصلحة .

فى ميدان المنافسة تتخلى السلع عن قيمها شيئاً فشيئاً ويعم الهبوط فى الأسعار، والذى يؤلمنى أنه فى ذاك الوقت الذى تهبط فيه أجرة المحامى وبنفس النسبة التى تهبط بها هذه الاجرة، تهبط أيضا أنفته وعزته وقيمته؛

أجل، فـهـلاً يتنازع المحـامـى وهو يسـاوم فى هذا الميدان عـامـلان: عـامل الحرص على إبائه، وعامل الحرص على مساومه، وأنه لهذا الاعتبار الأخير قد يرضى أن يبيع عمله بأجر دون الأجر الذى يستحق، وإذا كان الأمر كذلك فهلاّ يعتبر هذا الهبوط المتطرف فى أجر المحامى تحقيرا لعمله، وبالتالى تنزيلا لاعتباره الشخصى! نحن لاننسى أن المحاماة منهة تبرع قبل كل شيء ولكن التبرع شيء وقبول الأجر الوضيع عنوةً شيء آخر، واذ كنا نسلّم بأن كثرة الشيء تبخس قيمته كما هو مقرر فى قانون العرض والطلب فهل نرضى هذه النتيجة أيضا لرجال المحاماه!

وكيف نرضاها وهم عنصر من عناصر القضاء يلعبون دوراً عظيما فى ميدان العدل، ولولاهم لتعطل القضاء أو ظَلَم ! وإذا لم نرضها فبماذا نتقيها، ومادامت أركان هذا القانون متوفرةً فنتائجه حتمية الوقوع لامراء فيها ولاجدال، سؤال ليس له جواب إلا أن نعطل مفعول هذا القانون بتقليل عدد المحامين، وعند ذلك ، وعند ذلك فقط، نستطيع أن نتقى تلك النتيجة التى تهدد العدالة بالخطر .

ماكانت المنافسة دائما وفى كل الظروف تنطوى على خير بحت ومزايا مطلقة، فكثيراً ماتتطرف وتتالى مكتسحةً فى طريقها العدل وينتهى الأمر بأن يقتل المتنافسون بعضهم بعضا، ويؤول الغنم فى النهايه إلى المشترين؛ وفى رأينا أن المنافسة جميلة وأن الحرية أجمل، وأن حقهما يجب أن يكون

محترما ونشاطهما مكفولا، إلا أن يتعارضا مع العدل والمصلحة، فهنا وهنا فقط يجب أن تَغلَّ الحريةَ فكرةٌ أسمى من الحرية، تلك هى العدل المقدس منتهى ما أتت به البشرية منذ الأزل.

ثانيا: بالنسبة لطائفة الكتبة ومن فى درجتهم

نظرا لما كان من أمر صعوبة المنافسة فى ميدان المحاماة، فقد اضطر البعض - كما قررنا فى النتيجة الأخيرة عند الكلام عن المحامين - إلى الاشتغال فى أعمال ضعيفة المستوى كالأعمال الكتابية، ومن نتائج ذلك مانذكره فيما يلى:-

(١) وجود طائفة كبيرة من رجال القانون فى مستوى ضعيف من الوجهتين المادية والأدبية .

(٢) وجود طائفة كبيرة من رجال القانون مرءوسة بأشخاص ينتمون إلى مهن أخرى، ولما كانت هذه الرئاسة غير مؤقتة ولاعارضة، بل لقد أصبحت سنّةً طبيعية حتمية تتحدد بها منزلة الأغلبية من خريجى الحقوق فى دوائر الحكومة، فمن شأنها أن تخلق روح سيادة للمهن الأخرى على مهنة القانون، الأمر الذى أثبتنا أن المصلحة والمنطق يقتضيان عكسه .

(٣) ضياع ما أنفق من الوقت والمال فى تعلم القانون على من تعلموه حتى أنهم لم يتمكنوا من جنى ثمار ما أنفقوه فى سبيله، وفضلا عن ذلك ضياع فرصة تعلم مهنة أخرى عليهم .

(٤) ضياع أما نفق من الوقت والمال في تعلم القانون على نفس الدولة.

وبيان ذلك أن التلميذ عاطل من حيث الإنتاج، وإنما يبرر بقاءه عاطلا بهذا المعنى ما ينتظر أن يأتي به علمه من الفائدة إذا ما حان الوقت الذى يستغل فيه ما تعلمه، فإذا تعذر هذا الاستغلال لأمر ما كان فيه دون ريب إضاعته لجزء من القوة الإنتاجية للدولة.

(٥) تنحى الكفايات في المستقبل عن تعلم القانون باعتباره غير مجدٍ مادياً ولا أدبياً، مما يؤدى إلى الانحطاط بالمستوى العلمى للطائفة

والذى يستفاد من هذه النتائج أيضاً أن إشغال طائفة كبيرة من رجال القانون بالأعمال التافهة – علاوة على ما فيه من المضار الاقتصادية والعلمية – من شأنه أن يخفض من مركزها الأدبى الممتاز الذى قررناه لها.

ثالثاً: بالنسبة لأرباب المناصب العالية من رجال القانون

متى تأثر المركز الأدبى بالنسبة للمحامين وطائفة الكتبة ونحوهم من رجال القانون بالشكل الذى أشرنا إليه آنفاً لدى الكلام عليهم، فإن هذا المركز لابد وأن يتأثر أيضاً بالنسبة لذوى المناصب العالية من رجال القانون مهما سمت مناصبهم، ودليلنا على ذلك ما يأتى:-

(١) يعتبر رجال القانون من القاضى أو السياسى العظيم إلى المحامى أو الكاتب الصغير أسرة واحدة، تجمعهم ثقافة واحدة، ورابطة الثقافة بين الوطنيين أوثق عرىً من رابطة الوطن، لأنها أضيق منها دائرة وأشمل

تشابهاً، وما وجود نادٍ للحقوق يضم كل مشتغل بالقانون إلاّ اعتراف من الرأى العام بوجود الأسرة أو الطائفة التى نقول بها.

وتعترف التقاليد الجارية بأن لبعض الطوائف كرامة خاصة بها مستقلة عن كرامة الأشخاص الذين تضمهم ولكنها تتأثر بها، ولهذا السبب تُضرب على هؤلاء الأشخاص قيود واجبات خاصة من شأنها أن ترفع من مستواهم الشخصى، توصلا بذلك إلى رفع مستوى الطوائف التى ينتسبون إليها، ومثل ذلك القيود المفروضة على المحامى لصيانة شرف المحاماه، كتحذيره من أن يعلن عن نفسه أو يسلك سلوكا شائناً أو غير ذلك.

يستفاد من هذا أنه إذا تأثرت الكرامة بالنسبة لعدد - خصوصا إذا كان كبيرا - من رجال القانون، فإن هذا التأثر يصيب نفس الطائفة ثم يتعدى منها إلى كل منتسب لها، وبالتالى إلى كل رجل من رجال القانون أيا كان.

(٢) كل قانونى مآله إلى المحاماه إذا ما ترك منصبه لأمر ما، وهنا يراعى فى تقديره إلى جانب مركزه الحالى مقدار ما لهذا المركز من الثبات، وما يؤول إليه حاله إذا ما فُرِّق بينه وبين المنصب، فإمّا كانت المحاماة ضعيفة المستوى فقابليته للاندماج فى سلكها يوما من الأيام ينقل إليه لا محالة جزءا من عارها، والفرار من مهنة المحاماة - إذا ما ترك الشخص منصبه - غير ميسور للجميع، خصوصا لمن زالت بهم رغبة فى العمل أو حاجة إلى المال.

(٣) تدهور القيمة بالنسبة لأغلبية من رجال القانون يؤدى إلى الحط من قيمة شهادة الحقوق، والحكم على شهادة الحقوق بالانحطاط هو حكم على كل حامل لها على الأقل من الجانب العلمى فيه، وبعبارة أخرى من حيث ما عنده من المؤهلات والعلم والمادة، هو حكم عليه بأنه من ذلك الكثير التافه المنتشر فى مشارق البلاد ومغاربها!

(٤) كل سخرية برجال القانون كالذى سمعته بأذنى مراراً من أن «المحامين كل عشرة منهم بقرش» وبأنه «ليس فيهم من يلبس ياقته نظيفة» وبأن « سعر الليسانس أصبح قرش تعريفة» .... إلى غير ذلك من لاذع الألفاظ والجمل، إنما تقال بوجه عام، وإذ ذاك تنصبّ على رجال القانون عامة لا فرق فيهم بين كبير أو صغير.

(٥) قاعدةٌ اقتصادية: هى أن كثرة الشىء بدون حاجة إليه تنزل بقيمته، وأن هذا النزول لا يصيب القدر الفائض عن الحاجة فقط بل يصيب كل مفردات هذا الشىء.

نتيجة

يستنتج من كل ما تقدم فى هذا المبحث أن الظروف الحاضرة من شأنها أن تؤثر على الاحترام اللائق بالنسبة لكل رجال القانون من الكاتب إلى المحامى إلى غيرهم من ذوى المناصب العالية، البعض منهم بالذات والبعض الآخر بالواسطة.

- ١١ -

ضرورة الإصلاح

ومن رأيى أنه إذا رضينا بذلك المصير التعس لرجال القانون فليس ثمة موضع للمغالطة والإبقاء على أى قيد أو نص مقصود به الحرص على كرامتهم أو سمعتهم، فإذا كان القصد من تحريم المحامى أن يعلن عن نفسه مثلا، رغبة الحرص على سمعته ومستواه، فكفى إساءةً إلى هذه السمعة ما يصل إليه حاله من فقر ومهانة وتعرض للسخرية وعدم الاكتراث.

ومن بواعث الأسف الشديد أن الفئة التى يقتضى المنطق والمصلحة أن تنال من الاحترام أوفر قسط، قد بات حصولها من هذا الاحترام - حتى على القدر الذى لغيرها - من الفئات موضع شك كبير وارتياب.

وكبيرٌ على فكرة العدل التى تخفق فى كل قلب بشرى أن ينزل الظلم بمن يطاردون الظلم، وتنتهى حثالة الحياة إلى من لهم أكبر الفضل على الحياة، وما ذلك لتفاهةٍ فى أهميتهم، أو غثاثةٍ فى مؤهلاتهم، ولكنه القانون، قانون العرض والطلب، أبى إلا أن يتدخل فى مسألة كان يجب أن تكون أرفع من أن يتدخل فيها، وكان يجب علينا أن نحول بينه وبين المساس بها.

لا تسير الظروف دائما وفق المصلحة، وكثيراً ما تميل عن طريق الصواب إلى طريق الخطأ، وما أوتى الإنسان قوة الفكر والحيلة إلا ليحوّلها أينما

شاعت به الحاجة والمصلحة لا أن يستسلم لها ويبنى سياسته على أساس خطئها فتأتى صورة خاطئة منها .

أجل، حرىٌّ بالإنسان أن يعدّل ما استطاع من خطأ الظروف وطيشها، ويحولها على قدر الإمكان إلى ناحية العدل والصالح العام بدلاً من أن يتركها فى طريقها، تملى ما تراه هى أن يكون، لا ما يجب فى شرع العدل والمصلحة أن يكون، فإمّا نحن سمحنا للظروف الطائشة أن تتمادى فى عبثها فقد أعنا الفساد على المصلحة، ونصرنا الصدف الحمقاء على العدل والواجب، يا رجال القانون أما آن لنا أن نصير قوة إيجابية فعّالة ننفذ ماتراه حقاً بدلا من أن نظل عنصراً سلبيا، نتلقى من الدهر جائر الأحكام فنذعن ! إنما العدل والقانون خير ما أتت به الإنسانية فهل نسمح للعدل والقانون أن يهانا فى أشخاصنا ! أو ليست كل طعنة إلى رجل القانون هى طعنة أيضا إلى ذات العدل والقانون !!!

-١٢-

كيفية الإصلاح

وإذا نحن نزعنا إلى الإصلاح الذى يناشدنا وشرعنا نتلمس موضع الداء من الجسم المريض كى ما نداويه، لم نجد فى ذات علم القانون عيب يتسرب إليه منه المرض، وعثرنا على موضع العلة الحقيقية، فإذا بها أمر أجنبى عن القانون، أتت به الظروف العرضية أو قانون العرض والطلب كما قدمنا، وهنا ينجلى البحث عن أن العلاج الوحيد للأمر هو، تقليل رجال القانون بتحديد عدد داخلى كلية الحقوق، وبعبارة أخرى إزالة السبب الذى تولدت عنه العلة التى نداويها.

وهذا العلاج قد يبدو بادئ الرأى أنه تعسفىٌّ هادمٌ لركن من أركان الحرية التى نجلها ونقدسها، ولكننا نأمل فيما سنورده من الأسباب أن نزيل موضع الاستنكار، منا ونثبت أن هذا الحل وإن بدا منافيا للحرية ينطوى فى الواقع على أكبر ضمان للحرية، أما هذه الأسباب فنجملها فيما يأتى : -

(١) الحرية مقيدة فى كثير من مظاهرها، والحريات المطلقة كما قال البعض يهدم بعضها بعضا، وتتمخض فى النهاية عن ظلم وفوضى، فإذا كان تقييد الحرية للمصلحة العامة جائز فى شرع القانون، فأى مصلحة عامة أولى بالمراعاة من المصلحة التى تتصل رأسا بحياة الدولة وتهم فئة هى أكبر فئاتها.

(٢) الأغلبية من خريجي الحقوق كما قدمنا يشتغلون في أعمال كتابية، وإذن فهم لا يظفرون بما طمعوا فيه من تعلم القانون وظنوا أنهم يشغلون به المناصب القانونية، وأكثر من ذلك فهم لايظفرن بما كان من الإمكان أن ينالوه لو أنهم في أول الأمر استبدلوا دراسة القانون بدراسة علم آخر.

والنتيجة من هذا أن مجاراة الطالب على شغفه النزق لا يضمن له حريته في شيء، بل هو بالعكس يسيء إلى هذه الحرية، فحرية الاشتغال بالقانون وإن كفلت له قبل دخوله كلية الحقوق، فهي لن تكفل له حتما بعد تخرجه منها، هذا إذا نظرنا إلى المسألة من وجهها العملي، والاعتبار العملي أولى بالمراعاة من أي اعتبار، فحريٌّ بالإنسان أن يتلمس الحقيقة المجردة بدلا من أن يضل في مجاهل النظريات الخادعة، والغالب المشاهد في هذه الأيام أن طالب الحقوق لا يلبث أن يتم دراسته حتى تتقلص في نفسه الآمال الخالبة، وإذا به ينحدر في غير ما هوادة عن كرسي الاستشارة أو منصة المحاماة إلى حيث يعمل ككاتب صغير في أحد الدواوين، وهناك يودع القانون المدني والجنائي وغيرهما، ويبدأ في التمرن على الآلة الكاتبة وتقييد الخطابات في دفاتر الوارد والصادر، وعلى مر السنين ـ والسنون لا ترحم ـ يفنى ما وعاه في صدره من القانون ويفنى معه ما أنفقه في تعلمه من وقت ومال، وإذ ذاك ونار الأسى تلتهم فؤاده، يتمنى لو أنه استبدل إبّان الدراسة علم القانون بعلم آخر، ولكن هيهات يجديه الندم بعد فوات الفرصة ، وهيهات يعود الوقت الذي أضاعه فيما مضى عن رعونة ونزق في الاختبار.

(٣) إذا كانت حماية التجارة وهى ضرب من تقييد الحرية ـ مشروعة فى القانون، فمن باب أولى تكون حماية تعلم القانون ـ وهو ليس بتجارة ـ أمراً مشروعا.

(٤) لم يكن القانون أداة للإتجار أو الارتزاق حتى نسمح لكل كائن من كان أن يندمج فى سلكه. وما عنصر الارتزاق فى القانون إلا وسيلة لسد حاجات المتولين أمر الحكم لا غرضا له، نعم إنه وسيلة واجبة الضمان تسييرا للأمور فى مجاريها، إذ إن تهديد القائم بالحكم فى معاشه تثبيط لنشاطه وتهديد لذات النظام العام، ولكنه بالرغم من ذلك يظل محتفظا بصفته كوسيلة ولا يأخذ شكل الغرض مطلقا، أما عن المهن التى يكون عنصر الارتزاق غرضا لها فتلك هى التى تقبل إباحة الاندماج فيها إباحة مطلقة وسنفرد فيما يأتى من كتابنا كلمة موجزة بشأنها.

فالحكم بطبيعته إذن محدود النطاق، لايقبل الزيادة، ولا يتسع لضم كل من نازعته فى نفسه شهوه إليه، والواجب على المدارس التى تعد رجاله أن لا تزيد فى قبول طلبتها عن حدود الحاجة إليهم، وما تقييد عدد الطلبة فى مدرستى الحربية والبوليس إلا إقرارا للرأى الذى نقول به، وحرى بكلية الحقوق وهى لاتعد إلا رجال الحكم أن تسير على هذا النهج لاسيما وأنها كانت تسير عليه قديما.

أما إن مهمة رجل القانون تتحدد بالأعمال الداخلة فى دائرة الحكم

فمسألة قد تحتاج إلى إيضاح، ففى رأينا أن خريج الحقوق إذا لم يعين فى الوظائف القضائية أو السياسية أو الإدارية أو المالية فى الحكومة، فطبيعة تعليمه تقضى بأن يعمل كصحفى أو نائب فى البرلمان أو محام (وعدا ذلك من الاستثناءات الشاذة لا نكلف نفسنا عناء البحث فيها)، وجميع هذه المهن تدخل فى دائرة الحكم إما بالذات وإما بالواسطة، فالصحافة والنيابة يلبسان ثوب السياسة، والمحاماة ركن من أركان القضاء لاتستطيع المحاكم أن تعمل فى عزلة عنها، كما أنها عنصر من عناصر السياسة والإدارة، وفى مناسبات عديدة تتدخل فيهما، وأكثر من ذلك فإن لها شكلياتٍ وقيودا تتشابه وتلك التى لوظائف الحكومة، مما يدل على أن الواقع يميل إلى اعتبارها فرعا من القضاء وبالتالى من الحكم، وإنما ثمة اعتبارات عملية لا أكثر تجعله لا يصرح باعتبارها هكذا.

أما إن رجل القانون الذى لا يعمل فى الحكومة ليس أمامه عملا غير المحاماة والصحافة والنيابة فهذا راجع إلى طبيعة معلوماته وإلى نظرية التخصص التى لاتخفى مزاياها، فكما أن الوضع الطبيعى للطبيب أو المهندس لايكون إلا فى الأعمال الطبية بالنسبة للأول، والهندسية بالنسبة للثانى، فكذلك الوضع الطبيعى للحقوقى لايكون إلا فى الأعمال القضائية أو السياسية أو الإدارية.

ومع ذلك فينصح الكثيرون إلى خريجى الحقوق بالمغامرة فى ميدان

الحياة العملية ويرمونهم بالتقصير والخمول !........ كلمة تقليدية تتناقلها الأسماع فتحكيها دون تدبرٍ لمغزاها أو تفهّمٍ لموضعها، بيد أنها كلمة حكيمة لو أن قائليها لم يسيئوا فهمها ويشطوا فى تطبيقها حتى أصبحت أداة للإرهاق ومظهراً للتعنت فى القول والرعونة فى توجيه الكلام، ولكنها عقولٌ تعوزها سليقة الاتِّزان، تقنع من اللفظ بالسطحى من معناه دون التغلغل فى عميق مغزاه، حتى إذا أدَّى بها منطقها القاصر السقيم إلى نتيجة ناقصة، أو لَفَتتْهَا فى سياق الأحاديث جملة شائقة، راحت تقولها فَتَرْجم الأسماع بها وترددها فتؤذى الشعور بسخفها.

أشخاصٌ إذا جلسوا إليك تحدثوا عن العزم الصادق والإرادة الحديدية وركوب المطايا واقتحام الأخطار، وتروح تتلمس فى أقوالهم البرهان فى المناسبات التى يحدثونك فيها، فلا تُلْفِى فيهم سوى نظرات شابها العيّ وأعوزها الدليل، فغدت تحاول بالتحديق فيك أن ترغمك على الاقتناع بها، وتكاد تنقض عليك لتحملك على الإيمان بها قسراً وتسقيك كأس الاقتناع سقيا.

ولهذه الشخصيات إن أردت أن تميزها خواصُّ غريبة لا تفتأ أن تلازمها، فهم أبدا منفعلون ساخطون يحملون الإيلام لكل من التقى بهم، ويقضون على عنصر الحياة فى كل كائن حى، تتجمع فيهم نقائض البشر، ومع ذلك يرمون البشر بالنقص، وتنطق فيهم الغباوة مجسمة ومع ذلك يرمون الغير

بالغباوة.

إذا تكلموا إليك أوردوا الكلام إجمالا وتعميماً، وابتعدوا عن أى تحديد لأقوالهم أو تقسيم لكلامهم، أو مراعاة لاختلاف الظروف والمناسبات أو ملاحظة للوقائع والمشاهدات، فهم يمرون على الموضع الذى يحدثونك فيه مراً يفلتون من خوافيه ويضللونك عن موضع الضعف فيه، ويخلطون أوله بآخره ومقدماته بنتائجه، لا لقصد منهم فى تعميتك، فهم أقل من ذلك ذكاء وأقصر حيلة، وإنما لقصر فيهم عن تفهم الجوهر، أهلية فى الفهم لاتتعدى ظواهر الأشياء، وإذا أرادوا التعمق فى البحث ووفقوا إلى شىء من التحديد والترتيب نظروا إلى الموضوع من إحدى جوانبه، تاركين جوانبه الأخرى ثم مضوا فى سلسلة من الأخطاء تسبق الواحدة منها الأخرى، ويسبق الجميع رذاذ أفواههم المتطاير فى وجه المتحدَّث إليه.

وكثيراً مايخرجون عن موضوع الكلام وينسون الغرض أصلا، فيجولون ويصولون فى شتى المواضيع على غير هدًى كدابة ضلت سبيلها فمضت تهيم على وجهها تقطع الفيافى وتجوب القفار .

وهم يكثرون من تكرار الكلام خصوصا لما راقهم من سخيف العبارات، أو وفقوا إليه بعد الجهد من تافه النتائج، وكثيراً مايستعينون بالحلف والأيمان، أو يستندون على الدارج المحفوظ من الألفاظ تخلصا من حرج العيّ، أو أزمات الفروغ فى الكلام فتجدهم يرددون : «لامؤاخذة» و«أنا

شخصياً» و«اسمح لى» و«لا فخر» وغير ذلك وغير ذلك مما يثير أعصابك يا سيدى القارئ الكريم.

ومن هذه الشخصيات ما تلتقى بها كثيراً فى المقاهى والقطارات ومركبات الترام وغيرها، تتحدث عن الحياة العملية أو ما هو نحوها بنفوس منفعلة، وأعصاب مضطربة، وعيون جاحظة، وشفاه مُدلاّة، فى لهجة يشوبها التعسف والحدة والثقة بالنفس البالغة حد الغرور، كل هذا وهم ـ لويعلمون ـ أجهل الناس معرفة بالحياة العملية وأبعدهم عن تلمس المقصود منها .

والآن بعد أن حللنا هذه الشخصية وأشبعناها بما هى جديرة به من السخرية، ننتقل إلى التساؤل عن طريق الحياة العملية الذى يريده هؤلاء لخريجى الحقوق:فهل هو طريق المحاماة ؟ قد بينا فى فصل سابق أن المنافسة فيها أصبحت غيرمجدية، الصحافة ؟ الصحافة فى حالة إشباع، ومع ذلك فهى بطبيعتها لاتتسع لكثيرين، إذن التجارة والصناعة والزراعة ؟ حسن جدا، وهذا هو ما يقصده سادتنا المولعين بكلمة «الحياة العملية» دون ريب، ولكن مهلاً ، أية علاقة بين هذه المهن والقانون ! نعم هناك صلة بين الاثنين ولكنها لن تتعدى الصلة الطبيعية التى توجد بين أى فن فى الوجود وآخر، فهل يكفى أن تكون للإنسان دراية بموضع التماسّ بين الفن الذى يختص فيه وفناً آخر، حتى يدعى لنفسه أهلية الاختصاص لمزاولة الفنين كليهما!؟ يتصل الطب بالقانون لأن الأول مثلا يساعد التحقيقات الجنائية فى

مسائل كفحص أنواع الضرب وأسباب الوفاة فهل تكفى هذه العلاقة وحدها لأن يصير الطبيب قاضياً، وترتبط التجارة بالقانون فيما يختص ببعض المسائل كتحرير العقود وتنفيذ الالتزامات فهل يكفى هذا الارتباط لأن يصير رجل القانون تاجراً! لاغرو فى أن هذه العلاقة أو هذا التماس البسيط الذى يوجد بين التجارة والقانون ليس له من القيمة أكثر من أنه يتطلب من التاجر أن يستشير فى بعض الاحيان أحد المحامين فيما قد يعرض له من المسائل التى تتعلق بالقانون، أما عمل التاجر الحقيقى فهو ما كان تجاريافى صميمه وجوهره، هو فن التجارة التى يجهلها كل الجهل رجل القانون، يكاد يبدو خريج الحقوق على قدم المساواة فى ميدان التجارة أوالصناعة مع حامل البكالوريا أومادونها، وإن كان ثمة يمتاز الأول عن الآخرين فى ميدان العمل بالثقافة والاطلاع فان هذا الامتياز فى ذلك الميدان يبدو طفيفاً أو على الأقل بدرجة لاتتناسُب ومقدار ما أنفقه فى تعلم القانون من وقت وصحة ومال، واستغلال الشيء بالروح الاقتصادية الحذقة يقتضى استغلاله إلى النهاية والاستفادة من كل عنصر فيه وإلى أقصى حد ممكن، وأظنه ليس من الاقتصاد الحاذق فى شيء أن يضحى خريج الحقوق ماضحى فى سبيل تعليمه ثم يقنع فى النهاية باستغلال ما حصله من الثقافة متناسياً ماحصله من القانون، صحيحٌ أن استغلال الثقافة فى ميدان الحياة العملية يبرر ما أنفقه خريج الحقوق فى سبيل كسبها ولكنه لايبرر مطلقاً ما أنفقه فى سبيل كسب فن القانون ذاته، وبعد أفلا يقتضى الحرص الاقتصادى أن يستغل

الإنسان كل مواهبه بدلا من أن يقنع منها بالجزء الضئيل ويلقى جوهرها فى زاوية المهملات ! ولعمرى إذا انتهى مصير زيد من الناس بعد أن أتم دراسة الحقوق إلى الاشتغال بالتجارة أو الزراعة أفما كان أكثر اتساقاً مع الطبيعة وتمشيا مع نظرية التخصص لو أن هذاالشخص تلقى علومه فى فن التجارة أو الزراعة ! إذن بماذا يجيب الآن سادتنا المتحاملون علينا؟ أظن أن الحياة العملية قد اتضح بعد هذا البيان أنها تضيق بخريجى الحقوق حقاً، وأن البلاد ليست فى حاجة مطلقاً إلى هذا الجيش الجرار منهم، وأنه قد آن لهؤلاء أن يتعقلوا فى تفكيرهم وأن يعلموا أن إلقاء الكلام على عواهنه وإن كان بالأمر الهين فالاستماع إليه ممل ثقيل.

(٥) مدرستا الطب والهندسة تقيدان عدد داخليهما، فالثانية مثلا لم تقبل هذا العام سوى مائة طالب وعشرة والباقون تركتهم يبحثون عن طريق آخر للحياة، وكذلك معهد التربية الذى أنشىء فى الجامعة المصرية حديثا قد تقرر ألا يقبل إلا عددا محدودا هو على ما بلغنى يتراوح بين الأربعين والخمسين كل عام، وهنا يحق لنا أن نتساءل هل حرية التعليم فى مصر مطلقة ؟ الجواب بالسلب طبعا، حسن جدا، فإذا كان الأمر كذلك فلماذا نتمسك بقاعدة التعليم الحر فى مواجهة بعض المدارس دون الأخرى ! إنى مع الرأى الذى يقول بأن إطلاق حرية التعليم العالى فى بعض فروعه إساءة لوضع هذه الحرية لاعتبارات سبق لى أن قدمتها، وأزيد على ذلك بأن هذه الحرية إذا طبقت فى بعض المعاهد التى ينبغى تقييد الحرية فيها دون البعض

الآخر فإنها تحمل علاوة على ما فيها من العيب وتحت مظهرها الفاتن الخلاب إيذاء لحاسة العدل وعبثا بمقتضيات المصلحة، لأنها فى حمايتها لطائفة دون طائفة تهدم التوازن بين المهن الذى هو مظهر من مظاهر المساواة.

قد يحتج علينا بأن العلة فى تحديد الداخلين فى معهد التربية ومدرستى الطب والهندسة ترجع إلى قلة المحالّ فيها، غير أن هذه الحجة علاوة على عدم صحتها لأنها وإن انطبقت بالنسبة للمدرستين فهى لاتنطبق بالنسبة لمعهد التربية الذى لا أشك فى أنه يسع بدل الأربعين أربعمائة، مردودٌ عليها بأن باعث تقييد الحرية للمصلحة العامة ـ الذى هو الباعث بالنسبة لكلية الحقوق ـ أدعى إلى المراعاة من تقييدها لحجة من نوع تلك التى ترجع إلى قلة المحالّ! وإذن فهذا التقييد يبدو أكثر قبولا فى كلية الحقوق منه فى كلية الطب أو مدرسة الهندسة.

وأكثر من ذلك أن هذا التقييد واجبٌ بالنسبة لكلية الحقوق نظراً إلى طبيعة المهنة التى لاتتفق وكثرة المنتسبين إليها، للاعتبارات العملية والنظرية الكثيرة التى قدمناها والتى منها أن مهنة الحقوق ليست من المهن ذات الطبيعة الإنتاجية التى تفسح صدرها لكل من شاء أن ينضم إليها، ذلك فى حين أن تقييد الالتحاق بمدرسة الهندسة غير واجب ولا مرغوب فيه لأن العمل الهندسى ذو طبيعة إنتاجية، وأعمال الإنتاج مرنة لا تضيق بمن انضم

إليها، وما قيل عن مدرسة الهندسة يمكن أن يقال عن كل المدارس التى تعد رجال الإنتاج كالصناعة والزراعة والتجارة فهذه المهن تتميز بمرونتها إذ كلما زاد عدد المنتجين زادت تبعا له كمية الإنتاج وكلما زادت كمية الإنتاج عاد ذلك بالرخاء على الدولة، فاذا تأتّى أن وصل الإنتاج إلى حالة الإشباع - وهذه ظاهرة بعيدة التوقع فى مصر اللهم إلا فى المستقبل البعيد - فالتخلص من هذا الخطر ممكن بتصدير ما زاد عن الحاجة إلى بلاد أجنبية.

والخلاصة أن مهن الإنتاج لاحد لإشباعها أو أن إشباعها بعيد الاحتمال، فى حين أن هذه الظاهرة لا وجود لها فى مهنةٍ كالطب أو الحقوق، فمن غير المعقول مثلا أن زيادة المحامين تتبعها زيادة القضايا كما أن زيادة العمال يتبعها زيادة الإنتاج، أو أننا فى حالة الإشباع نستطيع أن نخفف الضغط بتصدير بعضٍ من جهود المحامين إلى خارج البلاد، فلكل دولة قوانينها ونظامها ولئِنْ اصطبغ القانون فى هذه الأيام بصبغة الدولية فى كثير من النواحى فإن نشاطه مع ذلك لن يتعدى دائرة الأرض التى تكون فيها، مُحالٌ أن نتصور مِحامياً ضاق به العمل فصار يعمد إلى افتراض القضايا والمرافعة فيها ثم يصدر جهوده بعد ذلك إلى الخارج أو يعرضها فى الأسواق، إنِ عمل المحامى والحاجة إليه مرهونان بمقدار عدد القضايا وهذا العدد لا يخضع فى زيادته إلا لظواهر يستحيل التأثير فيها، **وإذن فبينما فى مهنةٍ كالمحاماة يحدد العملَ مقدارُ العمال إذا فى المهن الإنتاجية يحدد العمالُ مقدارَ العمل، وعلى ذلك فإطلاق حرية الاحتراف لا تجوز بالنسبة**

للأولى بينما تجب بالنسبة للثانية.

ولنعالج الآن مثلا آخر أكثر وضوحا، هل تقبل كل من مدرستى البوليس والحربية كل طلبات الالتحاق التى تقدم إليهما؟ كلاً، إذن فهل كل من تاقت نفسه إلى تعلم فن البوليس أو الحرب يجاب حقا إلى هذه الأمنية ؟ الجواب بالسلب طبعا، وهنا يلتقى الإنسان بضربٍ ظاهر من تقييد الحرية ولكنه فى الحق تقييد معقول ومقنع للغاية، فإن حاجة البلاد إلى ضباط الجيش والبوليس محدودة طبعا، وعلى قدر هذه الحاجة وعلى قدرها فقط يجب أن يتحدد المقبولون فى مدرستى الحربية والبوليس، ولكن نفس العلة التى استباحت تقييد حرية التعليم فى هذين المدرستين هى بعينها الموجودة بالنسبة لكلية الحقوق، إذ ظاهر مما أثبتناه فيما تقدم أن مهنة الحقوق هى مهنة الحكم وأن حاجة البلاد إلى هؤلاء محدودة (راجع الفقرة الرابعة من المبحث الثانى عشر من هذا الكتاب) فإذا كانت العلة والحالة هذه واحدة فى المسألتين فلماذا نقبل الاختلاف فى النتائج بينهما؟

مصادمة الأهواء للمصلحة العامة واجبٌ ومعترف به، ولئن كان العدل غاية الحرية فإن تقييدها سبيل إليها.

(٦) يقول البعض إن تقييد الالتحاق بكلية الحقوق حرمانٌ للذين يرغبون تحصيل العلم للعلم لا للتكسب، حجةٌ مقبولة ولكن لا إلى النهاية، فالواقع أن الشغف بعلم من العلوم ليس غريزة تسوقنا إليه وإنما هو عَرَضٌ لا نحسُّ به

إلاّ عندما نتذوقه، ومتى كان هذا الشغف حَدَثٌ لا أصلٌ فادعاء الميل إلى فنٍ كفنِّ القانون قبل تذوّقه وهْمٌ يلتبس بالحقيقة لكنه لايلبسها، فأول ما يشغل الإنسان فى هذه الحياة هو أن يناضل فى معتركها متذرعا فى ذلك بالعلم غير أنه قد يحدث من كثرة انشغاله به أن يهواه، أى أن العلم فى مبدأ الأمر يكون وسيلة للحياة غير أنه قد ينقلب فيما بعد غرضا لها.

ومع ذلك فهب أن من الناس من خلق شغوفا بالعلم للذته المجردة، دون أن يشوب ذلك منه مطمعٌ فى المجد أو رغبة فى الصيت، فهؤلاء من الوجهة العملية نادرون لا يقاس عليهم، وهم فوق ذلك لا أخالهم يتخيرون علم القانون وإنما يفضلون من العلوم ما كان فيه تثقيف للفكر وترويح للنفس فى آن واحد كالأدب والفلسفة والفنون الجميلة ومع ذلك فهذه المصلحة التى تمس أقلية من الناس من غير المقبول عقلا أن يُضحى بالصالح العام فى سبيل تحقيقها، والأكثر من هذا أن هذه الحجة غير مرعية فى أغلب المدارس كالهندسة والطب فالتمسك بها فى مواجهة كلية الحقوق غير وجيه، لاسيما وأن هذه الكلية أولى بالاستثناء من أحكام تلك القاعدة من أى مدرسة أخرى وحتى إذا لم يكن ثمة بدٌ من الاعتراف بها فتنفيذها عمليا غير ممكن، إذ ليس الواقع أن كل من به رغبة فى تعلم الحقوق يسمح له بالالتحاق بكلية الحقوق، بل هناك مؤهلات معينة ينبغى على راغب الدخول أن يحصل عليها كشهادة البكالوريا مثلا، وهنا نلتقى بقيد صريح لدراسة القانون وهو الحصول على مؤهلات معينة، فإذا نحن توسعنا قليلا فى هذا التقييد فزدنا

على شرط الحصول على الشهادة ترتيبا معينا، فإننا لانبتدع بذلك ضربا جديدا من تقييد الحرية فى التعليم وإنما فقط نهذب هذا التقييد ونلبسه ثوب المصلحة.

وهب أننا رغم ذلك تغافلنا عن جميع الحجج التى أوردناها، ففى الإمكان أن نسمح لهؤلاء (الهواة) الذين أشك كثيرا فى وجودهم بحضور الدروس مع الحرمان من دخول الامتحانات والحصول على الشهادات.

(٧) إذا كان ولابد من تنوير العامة بالقانون فلا يجب أن نذهب فى ذلك إلى حد الإخلال بقاعدة التخصص، من النافع حقا أن يكون لدى كل مواطن إلمام أو فكرة عن القانون ولكن ليس معنى ذلك أن يندمج الكل فى سلك القانون، ليس من الصواب توريط الجمهور فيما يثقله ولا الإغضاء عن حدود الاختصاص فى المهن والعلوم، وكما أننا لانتظر من المحامى أن يتعلم فن الزراعه ليقدر على زرع أرضه فكذلك لا نرى أن يتعلم المزارع القانون ليصرِّفَ شئون الحياة إذا دخل فى غمارها، كل له عمله يلتزم حدوده ويتفرغ له ، فإمًّا عرض له أمر خارجٌ عن اختصاصه وجب عليه أن يطلب المعونة من ذوى الاختصاص فيه، وهذا يفسر مدنية الإنسان وحاجته إلى تبادل المعونة، كما أنه علة التعدد والاختلاف فى المهن.

بعد هذا لا وجه للرأى الذى يشير بتعميم دراسة القانون أو توسيع نشرها بغية أن يفهم الجميع سير الحياة، وكل ما نقبله من هذا الرأى أن

يكون لدى الأفراد فكرة عن القانون لاتتعدى مبادىء التربية الوطنية ليدرك الكل حقوقه وواجباته السياسية وماهية الجماعة التى يعيش فيها.

وهذا القدر على ما أرى فيه الكفاية كما أنه معمول به فى المدارس المصرية والحمد لله .

هل منا أيها السادة من يتردد بعد هذه الحجج التى أوردناها فى أن يقبل الرأى الذى يقول بتحديد الدخول فى كلية الحقوق وإعادة خريجى هذا المعهد العظيم إلى مكانتهم الأولى؟ على الإجابة، على هذا السؤال يتوقف مصير جانب كبير من العدل والنظام والتناسق فى هذه البلاد.

- ١٣ -

إصلاحات تبعية

ليس من بين الإصلاحات العديدة التى يمكن الإدلاء بها لحل أزمة الحقوق ما هو فعّال القوة دائم الأثر غير تحديد الراغبين فى تعلم القانون، ذلك لأنه علاج من نوع المرض التى تسببت عنه هذه الأزمة التى نحاول إبراءها، فمتى كانت علة الأزمة كثرة الحقوقيين فبديهيٌّ أن تقليلهم هو الوسيلة الوحيدة لاستبعادها، ولنا بعد ذلك أن نرضى بهذه الوسيلة حلاً أو نقبل النتائج الخطيرة التى أوضحنا إذا استمر بقاء الحالة كما هى.

على أنه وإن كان من رأينا أن لا مندوحة عن ذلك الحل الذى أشرنا إليه فإن ذلك لا يمنعنا من الإدلاء بجانب آخر من الإصلاحات التى نعتقد ضرورتها، لا لتقوم مقام ذلك الحل الذى هو حجر الزواية فى كتابنا، بل لتسير معه جنباً إلى جنب وتلعب دورها إلى جواره كعامل تبعى يتوقف أثره على وجود العامل الأصلى الذى هو الأساس فى رأينا لكل إصلاح.

وهأنذا أذكر من هذه الإصلاحات خمساً هى فى نظرى أهمها :

أولا : وكلاء المحامين أو سماسرة المحامين

لعل هذه الطائفة - بعد ظاهرة التضخم فى عدد المحامين - أكثر الأمراض فتكا بالمحاماة، وإنى أعتقد أنها إذا دامت بهذه الحالة فمستحيلٌ

على المحاماة أن تعيش إلى جانبها زمناً طويلاً، وإنى سأثبت فيما يلى أن هذه المهنة النبيلة تتطور بفعل هذا المكروب لتصير مهنة تجارية، السمسار فيها رب العمل المحامى عنه عامل أجير........ انقلاب جرىء! وتصريح أجرأ ! ولكن أليس لكل شيء بوادره ! وهل من الأمانة فى الكتابة أن نخفى الحقائق ولو كانت مرة!

إذن فانظروا معى أيها السادة : تحت ستار حانوت صغير باسم «مكتب أشغال عمومية» يديره وكيل أو سمسار وتباشر فيه جميع أنواع القضايا بواسطة محامين يستأجرهم المدير لهذا الغرض ويقاسمهم الأتعاب بنسبة فادحة، ففى العادة يتقاضى من المحامين الذين يعاملهم نسبة قدرها خمسين فى المائة من أتعاب القضايا التى يباشرونها، وأحيانا يتفق مع أحدهم على أن يقتصر عليه ويتخذه محاميه الوحيد ويخصه بجميع القضايا فى نظير أن هذا المحامى ـ علاوة على تنازله عن الخمسين فى المائة من الأتعاب ـ يشاطره فى مصاريف المكتب أيضا، ولكن هذا المدير المحترم أحذق من ذلك فهو يزوّغ معظم القضايا إلى محامين آخرين كما كان عليه الحال أولا ويستأثر بنصف أتعابها كالمعتاد دون شريكه الذى اتخذه محاميه الوحيد، أما القضايا القليلة التى تكون من نصيب هذا المحامى الوحيد فإنه لا يسلمه نصيبه فيها من الأتعاب إلا بعد أن يخصم منها نصيبه أيضاً فى مصاريف المكتب، وعلى ذلك يهبط معدل نسبة أتعاب هذا المحامى من خمسين فى المائة إلى نحو عشرين أو ثلاثين فى المائة.....

وراء هذا الستار أو هذا الحانوت الحقير تختفى المحاماة فى الثوب الذى أراده لها سماسرة المحامين، ووراء هذا الستار أيضاً، يختفى المصير النهائى لهذه المهنة العظيمة إذا ما تمَّ تطورها إلى النتيجة التى تنم عنها بوادرها..... حقيقةٌ تزعج العدالة فى عرشها وتستمطر الدمع السخين من عيوننا وعيونها ...... صراعٌ بين طائفة المحامين وطائفة السماسرة، صراعٌ بين العلم والجهل، صراعٌ بين العدالة والفوضى، صراعٌ بين النبل والنذالة، نقف منه نحن رجال القانون موقف المحايد المتفرج، نرقب النتيجة كى نصفق للمنتصر أو نأسف للمهزوم...... وإذا كان للأشياء بوادر تَنِمُّ عن مصيرها ومآلها، فاستعدوا معى إذن أيها السادة لكى نصفق سوياً للسمسرة المنتصرة الغالبة، ونشيع فى سكون جنازة المحاماة المقهورة المغلوبة، ومتى أبينا أن نهيىء بأنفسنا ما نراه صواباً، فلنقبل إذن ما تهيؤه الظروف لنا صاغرين مرغمين، فإما أن يكون الإنسان قوة إيجابية تواجه الظروف وترغمها لما تراه واجباً، وإما أن يسلك إزاءها مسلكاً سلبياً فيقبل حكمها وينزل على إرادتها.. أمران لا ثالث لهما، إما أن نغالب الزمن فنغلبه وإما أن نستسلم له فنُغلب على أمرنا.

والآن هل تعلمون أيها القراء ما معنى أن يصير السمسار رب العمل والمحامى عنده عامل أجير، إذا ما تمّ تطور المحاماة إلى المصير الذى توقعناه لها لا قد الله ؟ معنى هذا أن ذلك السمسار الجاهل الذى لم يبذل فى سبيل تعليمه وقتاً ولا مالا ولا شباباً، يقاسم بشرهٍ وجشع تتقزّز منه

العدالة والنفس، محامياً ضحىّ فى سبيل العلم جانباً من مال أبيه وأفنى فى سبيل الدرس أحلى أيام الشباب، وبعبارة أوضح من ذلك أنه بينما كان الأول فى سن الحداثة يفر من المدرسة ليتنوق خارجها من لذة اللهو والحرية ما شاء له هواه أن يتذوق، كان يقضى الآخر زهرة العمر فى مكتبه بمعزلٍ عن بهجة الحياة، ولكنهما لما أدركا سن الرجولة معاً، تساويا مع ذلك فى الحظ والنصيب!!!

هذا هو معنى أن يصير السمسار صاحب العمل والمحامى عاملا أجيراً، فإليكم الآن نتائج ذلك: يحتمل جداً أن يلازم هذا النظام ظاهرتان :

(١) يلتزم المحامى عمليا باعتباره أجيرا، بالمرافعة فى كل قضية يدفع بها إليه رب العمل سواء أكان الغرض من مباشرتها إظهار العدالة حقاً أو إخفاء معالمها وتضليل القضاء، ونقول دفعاً للظن أن هذه الظاهرة الخطيرة لايمكن أن توجد إذا كان مدير هذا المكتب محاميا رغم، وجود رب العمل والأُجَرَاء وذلك لأن المدير فى مثل هذا الحالة رجل تشبعت نفسه بروح العدل والقانون فهو يضع العدل منها فى الاعتبار الأول أيا كانت الأحوال.

(٢) المنافسة الممقوتة بين مديرى المكاتب من السماسرة، تلك المنافسة التى لاغرض لها سوى التجارة والربح مجردين عن أى معنى أدبى آخر، من شأنها أن تتدرج بأتعاب المحاماة إلى القلة المتناهية التى يتعذر معها للمهنة أن تحتفظ ببقائها.

(٣) وإذا أصبح المحامى أجيراً لسمسار نازلاً على إرادته طائعاً لأمره

قانعاً منه بالتافه اليسير من الأتعاب، غَدَتْ الكرامة التى يكفلها القانون للمحاماة خيالا ووهما.

بعد إذ أبنَّا للعيان تلك الأخطار المحدقة، أَفماَ آن للقانون أن يتلافى المسألة بحكمته ويتدخل فى أمر هذه الفئة ! ذلك القانون الذى لم تعجزه حوادث التاريخ الحافلة بالمعضلات، تفلت منه مثل هذه الطائفة وتعبث بالمصلحة وراء ستار من القانون ! لا أظن إلا أن الساعة أزفت لكى نضع حداً لهذه السخريات، وأن نتخذ من القانون الذى يعبثون به آلة للعبث بهم والقضاء على مهازلهم .

ثانياً: وظائف التحقيق

يتولى التحقيق فى مصر سلطتان هما النيابة والبوليس.، ولهذا النظام عيوب كثيرة فصلَّها سعادة أستاذى الفاضل محمد شعير بك فى كتابه «التحقيق الجنائى العلمى والعملى» تفصيلا وافياً فأقتطف منه للقراء مايلى:ـ

« (١) التحقيقات التى يجريها البوليس فى حوادث الجنايات والجنح المهمة مرجعها للنيابة وكثيرا ماتعيدها من المبدأ إلى النهاية، ولايخفى ما فى ذلك من الارتباك والتعطيل فى سير العمل مما يساعد على ضياع معالم الجريمة ويوجد للجناة متسعا من الوقت يتمكنون فيه من الاختفاء أو الهرب فالمحقق الأول متى خرجت القضية من يده لايهتم بها ولا يواصل البحث والتحرى، بل يتركها وشأنها لعلمه أنه غير مسئول عن نتيجة التحقيق فيها

وإذا تصادف أنه بحث قليلا فبعد صدور قرار من النيابة أن تقوم بعمل المباحث والاستيفاءات بنفسها لأن هذا ليس من عملها فضلا عن أنها مشغولة بمسائل أخرى .

(٢) وقوع المشادة بين النيابة والبوليس في بعض الأحيان لاختلاف الرأى بينهما .

(٣) الحرمان من مزايا التخصص وبديهى أن التفرغ لشيء هو سبيل لإتقانه .

(٤) تكليف البوليس بمنع الجرائم ومسئوليته عن وقوعها مع تخويله فى آن واحد سلطة التحقيق فيها ، فيه خطر كبير على العدل، فإن الموظف الذى تقع عليه مسئوليهة تعدد الحوادث الجنائية ربما دفعه حب التخلص منها أو غضبه من وقع أى جريمة أن يقلل من أهميتها فيسير فى تحقيق الحادثة بصفتها جنحة أو من حوادث القضاء والقدر مع أنهاجناية، هذا والتصرف المعيب وإن يكن الدافع له غالبا الهرب من توفير عناء التحقيق والبحث فى الحوادث الجنائية بتقليل أهميتها ، إلا أنه يؤدى لأسوأ النتائج فبدل أن يقلل عدد الجنايات يكون من العوامل المهمة لازديادها ازديادا مستمرا ، لأنه يترك أثرا سيئا فى نفس المجنى عليه الذى لم ينصفه المحقق فيثأر لنفسه بارتكاب جريمة أشنع من الأولى من جهة، ومن الجهة الأخرى فإنه يشجع المجرمين على الاسترسال فى فظائعهم لعلمهم أن المحقق بتهاونه وطمسه للحقائق يساعدهم مساعدة كبرى.

ومن مضار كون نفس المحقق هو نفس المسئول عن وقوع الجرم أن كثيرا من المحققين يدفعهم حنقهم على المتهمين أو المشتبه فيهم إلى الالتجاء إلى طريق لإثبات التهمة على شخص معين بأن يدسوا له بعض المسروقات فى منزله إن كانت الجريمة سرقة، أو يثبتوا أنهم وجدوا فى حيازته بندقية أطلقت حديثاً إن كانت الجريمة قتلا أو شروعاً فيه، وبذلك يتملصون من المسئولية بإظهار الفاعل أيا كان سواء أكان هو الذى اقترف الجرم أم لا، أو يستعملون مع المتهمين طرق الإكراه والتعذيب لحملهم على الاعتراف بما لم يرتكبوه الأمر الذى لم يسمح به القانون بل اعتبره جرما معاقباً عليه بالمادة ١١٠ من قانون العقوبات».

هذا فضلا عن أن مثل هذه التصرفات فى نظرى علاوة على ما فيها من العيوب من شأنها أن تؤذى شعور العدل فى أنفسنا وتحمل مثلا سيئاً تستنكره روح العصر المتمدين الذى نعيش فيه.

على أى الأحوال فهذا الذى ذكرناه هو شىء مما أورده سعادة الأستاذ فى هذا الشأن، وسعادته يرى بعد ذلك دفعاً لهذه العيوب أن تأخذ مصر بمبدأ تقسيم البوليس إلى نظامى وقضائى على أن يكون عمل الأول نظاميا بحتا لا دخل له فى التحقيقات الجنائية، كمراقبة النظام وحركة المرور فى الشوارع والميادين العامة وعمل الدوريات المختلفة وحراسة دور الحكومة والمحال التجارية والبنوك وغيرها ويستعان به فى قمع الهياج والاضطرابات. أما الثانى وهو القضائى فعمله تحرير المحاضر والبحث والتحرى فى

المسائل الجنائية وإجراء التفتيش والقبض على المتهمين والسير فى التحقيق، وصادف هذا الرأى قبولا عظيما فى طول البلاد وعرضها حتى أن الحكومة ارتأت تنفيذه على أن تدرب بعض خريجى الحقوق على المبادىء الأولية للبوليس ثم تلحقهم بالأقسام برتبة كبيرة نوعا ليكونوا فيها شطر البوليس القضائى، ولقد كان الرأى فى اختيار رجال البوليس القضائى من بين خريجى الحقوق معقولا وحصيفا، فالتحقيقات الجنائية تتصل باختصاص الحقوقى أكثر بحد كبير مما تتصل باختصاص خريج البوليس.

ويرى البعض رأيا آخر هو أن تسلب مسائل التحقيقات نهائيا من يد البوليس وتحال جميعها إلى النيابة.

وأقول إنه سواء أأخذنا بهذا الرأى أم بذاك فالنتيجة التى تهم موضوع بحثنا هى أن يختص خريجو الحقوق وحدهم بجميع مسائل التحقيقات، أما الأسباب التى تبرر ذلك فأورد منها ما يأتى:-

(١) كما تتصل أعمال الأمن والمنع والنظام بتعاليم البوليس وعلى ذلك فيكون الوضع الطبيعى لها فى دائرة اختصاص خريج البوليس، كذلك تتصل التحقيقات بتعاليم القانون وعلى ذلك فالوضع الطبيعى لها يكون فى دائرة اختصاص خريج الحقوق، ووضع الشىء موضعا لايتلاءم مع طبيعته يذهب بميزة الاتساق بين الأشياء ويؤدى إلى التنافر والارتباك.

(٢) لما كان علم الحقوق هو موضوع دراسة خريج الحقوق، كان هذا أوفى الجميع دراسة له، فهو أكثر المشتغلين بما يمس القانون دراية

بالنصوص وأغزرهم مادة وأوسعهم اطلاعا وأوقفهم على التفاصيل، وهو علاوة على ذلك ينفرد بمعرفته فنّ القانون ذاته أى كيفية تفسير النصوص والتوفيق بينها وسبر غورها وتلمُّس روحها واستجلاء مقصودها، كما أنه يختص دون غيره بمعرفة المنطق القانونى أى طريقة التفكير والبحث فى مسائله بحثا علمياً منظماً وتفهمها تفهما أدعى إلى استجلاء غرضها وإبداء الرأى الصحيح فيها.

هذا فضلا عن تشبعه بروح العدل التى تبثها فيه الدراسة الفلسفية الواسعة للقانون والتى من شأنها أن تنمى فيه هذه الغريزة وتخلق فيه سليقة الاتزان، فالحقوقى بحكم نشأته أقدر من غيره على الشعور بالحق والتأثر به وتذوق العدالة واستخلاصها، كما أنه أحذق الناس فى التصرف وتقدير الظروف وفهم نفسية المتهمين، ففن الحقوق فى الواقع لاينحصر فى معرفة القانون بل وفى صبغ النفوس بروح العدل أيضا.

لهذه الاعتبارات كان قيام الحقوقى بالتحقيقات أدعى إلى الإتقان، وتسييره لها فى طريق العدل أقرب إلى الاحتمال.

(٣) متى كانت التحقيقات بطبيعتها من عمل خريج الحقوق، ومتى كان هذا أقدر من غيره على مباشرتها، فلا معنى إذن من سلبه حق الاختصاص بها خصوصاً فى أشد الأوقات حاجة به إليها، لكى نمنحها لمن يفترض أنهم دونه قدرة على الاضطلاع بها، فى أزمة كالتى نحن فيها لايسوغ لنا أن نتسامح فى كل ما يظهر أنه من حقنا، فإن نحن طالبنا بذلك فإننا لا نطلب

هبة أو منحة وإنما نطلب حقاً لا أكثر، حقاً لا بمعناه القانوني ولكن بالمعنى الذى يُستمد من فكرة التناسق والإنصاف، أمام هذه الاعتبارات المتعددة نرى أن إشراك رجال البوليس فى أعمال التحقيقات لايجد ما يبرره لا من العدل ولا من الصالح العام.

وهَبْه من الصعوبة فى شىء أن نقلب نظام التحقيق رأسا على عقب لننقل الاختصاص به كاملا إلى النيابة أو لندخل نظام البوليس القضائى، فهل أقل من أن نعين ضباط التحقيق فى مراكز البوليس من خريجى الحقوق وتفردهم بالاختصاص به!

ثالثا: جلال القضاء

للقضاء جلال يستمده من جلال العدالة، ومقتضيات العرف والتقاليد، فهو روح تفيض منه كما أنه ثوب نلبسه إياه، ومعنى ذلك أن الجلال الذى يلازم القضاء بعضه ينبعث منه وبعضه نسبغه عليه، وهذا العنصر الأخير إنما نأتى به تعزيزا للعنصر الأول وصيانة له، فالجلال الطبيعى ما لم يكفله وينمقه الجلال الظاهرى يفنى، لهذا لم تكتف التقاليد بالهيبة الكامنة فى مضمون القضاء بل أحاطته علاوة على ذلك بهالة من مظاهر الإجلال تعزيزا لشأنه وإكبارا، هذه المظاهر التى لا حصر لها يضيق بنا المقام عن سردها غير أن هذا لا يمنع أن نورد منها ما يلى:

(١) التشدد فى ضمان الاحترام اللائق لهيئات المحاكم أثناء انعقادها إلى حد منح القضاة سلطة الحكم بالحبس فورا على كل من يمس هذا

الاحترام أيا كانت حيثية الشخص الذى يصدر عنه الإخلال، وفى القانون المصرى نصوص وافية تكفل هذا الغرض إلى أبعد مدى.

(٢) تجسيم معانى الوقار والعظمة فى القضاء بمظاهر من شأنها أن تزيد الهيبة المنبعثة من أشخاصهم كمنحهم أزياء خاصة أثناء انعقاد الجلسات أو إلباسهم شعورا أو ذقونا مستعارة.

(٣) وضع المراكز القضائية فى أسمى الأوضاع التى لوظائف الدولة على إطلاقها، وهذه القاعدة مرعية فى مصر ولكن لا على إطلاقها، فالمناصب القضائية العالية فى مصر تعتبر من أسمى الوظائف ولكن كان يجب أكثر من ذلك أن تعتبر أسماها، وكذلك القاضى الجزئى كان يجب أن لا يوضع مع المأمور مثلا على قدم المساواة، كما أنه فى الأحوال التى يكون فيها أصحاب المناصب القضائية العالية أعضاء فى بعض اللجان أو الهيئات أو المجالس بحكم وظائفهم، كان يجب أن ألا يظهروا فى هذه الهيئات تحت رئاسة أحد اللهم إلا إذا كان من الوزراء.

(٤) رفع مهايا رجال القضاء فوق مستوى مهايا سائر الموظفين، ففى إنجلترا مثلا يتمتع القضاة بمرتبات فوق مرتبات الوزراء، ومما يبرر هذا المبدأ علاوة على توفير مظاهر الجلال والوجاهة للقضاة، استبعاد كل ما يؤدى إلى احتمال الإغراء والتأثير فى عدالة القضاة بالهدايا أو المال من جهة، ومن جهة أخرى توفير أسباب الرغد لهم فى أمر معاشهم حتى يهدأ بالهم وتطمئن نفوسهم، والعدل الكامل لا ينبعث إلا من النفس المطمئنة المرتاحة إلى حظها ونصيبها، وليس أخطر على حاسة الخير والعدالة فى

الإنسان من أن يشعر أنه مسلوب العدل مهضوم الحقوق فتذوق الإنسان للخير وشعوره بالعدالة يزدادان إلى حد كبير على قدر ما يلقاه من حسن المعاملة ومايصيبه فى أمور نفسه من الإنصاف، أما فى مصر فحظ رجال القضاء من المرتبات ضئيل للأسف، فهم ليسوا فقط فى مستوى غيرهم من الموظفين بل وبعض الطوائف كالمهندسين ربما كانت أحسن منهم حالا.

(٥) العناية بفخامة دور القضاء وأثاثاتها إلى حد يشعر الجمهور باحترامها وتهيبها، وفى مصر يكاد يكون هذا الاعتبار منسيا، وكفى أن نلاحظ أن أقسام البوليس مثلا تفوق أبنيتها أبنية المحاكم إلى حد كبير، أما غرف المحامين خصوصا فى المحاكم الجزئية فاعذرونى اذا قلت أنه يكاد يخجل الإنسان من الجلوس فيها.

رابعا : حصانة المحامى

تقتضى طبيعة المهنة فى المحامى أن يتصل فى غالب أعماله بجهات الحكومة قضائية كانت أو إدارية أو سياسية، وحيث إن هذا الاتصال خاصاً بالعمل فهو يتعلق إذن بمصالح الجمهور التى يكون المحامى دائماً وكيلا ومدافعاً عنه فيها، لهذا كان أى انتقاص من حرية المحامى أثناء مباشرة وظيفته فيه اعتداء فى الواقع على مصالح الجمهور ذاتها، كما أن أى تهديد لشخص المحامى أو كرامته يؤدى إلى تعطيل لجهوده وإعاقة له عن القيام بمهام أعماله، وهذه الإعاقة وهذا التعطيل يرجعان فى النهاية أيضاً إلى نفس الجمهور ويصيبان مصالحه.

وكل هذه المخاوف الخطيرة محتملةً إن لم تكن أكيدةَ الوقوع، إذ ما من

أحد يشك في أن الموظف مهما اختلفت وظيفته قد تشوبه نزعة من الغطرسة هى مزيج من الاعتزاز بالسلطة والغرور، وهذه الغطرسة من الممكن استعمالها بما يؤدى إلى الإضرار بمصالح الجمهور إما مباشرة بانتقاص حرية المحامى قيامه بوظيفته وإما بطريق غير مباشر بتهديده فى كرامته واعتباره مما يحمله على التهاون فى واجبه حرصاً عليهما أن يمسا، وما عهد ضابط البوليس الذى زج فى الحبس بمحام كان قد أتاه لبعض الشئون التى تتعلق بعمله ببعيد.

لهذا أرى أن خير ضمان يكفل تمكين المحامى من القيام بوظيفته الخطيرة فى المجتمع كحلقة الاتصال بين الحكومة والجمهور، هو أن يتمتع بالحصانة أثناء عمله سواء أكان ذلك أمام جهات الإدارة أم جهات القضاء.

خامسا : توفير عدد القضاة وأعضاء النيابة

ومن أهم العوامل التى تضمن حسن سير العدالة توفير الوقت الكافى لدراسة القضايا ومباشرة التحقيقات، حتى يمكن للحقيقة أن تظهر فى ضوء البحث الهادئ الرصين كاملة غير منتقصة، وهذا لن يتأتى إلا إذا تناسب عدد القضايا مع عدد القائمين بنظرها تناسبا يكفل الوقت الذى تقتضيه الحاجة لنظرها فحرية الدفاع وبحث مشكلات القانون واستجلاء الدقيق من الوقائع والغامض من الأسرار، كل هذا لايمكن أن يتم إلا إذا كفلنا للقاضى والمحامى كلاهما فسحةً من الوقت تسمح لهما بالتزام الدقة والأناه.

-١٤-

ملخص الأغراض التى تكوّن

التسلسل المنطقى للكتاب

قد يكون الدافع لى على تحرير هذا المبحث الرابع عشر أن أتحاشى الوقوف على العدد الثالث عشر الذى اشتهر رعاة اللّه بيننا بحسن السمعة وسلامة العاقبة !!! ولكن كلاّ ليس هذا قصدى، فما العدد الرابع عشر بأسعد طالعا من زميله بعد أن نكبه سيدى الرئيس «ولسن» فى شخصنا نحن الشعوب الشرقية التى من حقنا أن نقرر مصيرنا.....! وإذن لو كنت ممن يؤمنون بالخرافات لاضطررت تخلصا من حرج المأزق أن أخوض غمار مبحث خامس عشر وأرهق بذلك نفسى، ولكنى أؤكد أننى دائم التفاؤل وأدافع بشدة عن التهمة التى نسبتها لنفسى، وأبدى فى ذلك من الحماس ماكنت واياكم فى غنى عنه لولا فذلكتى.

أما سبب هذه الفذلكة التى لا مناسبة لها فهى على ما أظن نوبة من نوبات الحمى التى تنتابنى أحيانا من جراء أزمة الحقوق، وهنا تقفون يا سادتى القراء على شىء من بشاعة تلك الأزمة أو ذلك الوباء الاجتماعى الذى ترتعد منه فرائصى، وهذه النتيجة التى قصدتها ربما فسرت كما ترون السبب الذى حدا بى إلى وضع فذلكتى.

والآن أعود إلى صوابى، أوَ لَمْ أقل لكم أننى مَرِحُ المزاج كثير التفاؤل، إذن فقصدى الحقيقى من هذا المبحث هو أن أستخلص الأغرض التى

عالجتها نقيةً عن التفاصيل حتى يسهل على القراء أن يتلمسوا جوهر الموضوع فيها دون ما تعمق ولا تدقيق.

غير أني أعيب على نفسي في كتابة هذا المبحث أن فيه شيئاً من التكرار!.. اعتراض غير وجيه لأن الذى فيه يلتبس بالتكرار ولكنه ليس بالتكرار، هو تقريبٌ لمغزى المقال أكثر منه استعادة له.

ثم أعيب على نفسي أيضا ـ وكثيراً ما أقسو على نفسي ـ أن هذا المبحث قد يؤدى بمن يقتصرون على قراءته دون المباحث الأخرى، أن لايجدوا فيما أدليت له به من الآراء ما يبرر صحتها وأن يحول تطرفي في الإيجاز فيه دون اقتناعهم بها، اعتراضٌ أيضا ولكنه يجيب عن نفسه، ذلك لأن في التصريح به تنبيها للقراء إلى ضرره وضمانا كافيا لتحاشيهم خطأ الوقوع فيه، وإذن كان لابد لي من التصريح به لا لشيء إلا لأقضي عليه، وأن اتخذ بذلك من الاعتراض على نفسي وسيلة لاستبعاد مخاوفي.

لهذا أبدأ الآن موضوع مبحثي وكلِّي اقتناع لوجاهة وضعه وقيمة فائدته، وترون حضراتكم أنه كان في وسعي أن أقرر ذلك أيضا من غير مالفٍ ولافذلكة، لولا أني أردتُ أن أنبهكم مرة أخرى بأن حمى الأزمة عادت وانتابتني، وهي ستستمر في اقتفاء أثرى هكذا مادامت لهذه الأزمة وجود في عالم الوجود، لا لأني من ضحاياها ولكن لأني أتأثر ككل قانوني منكم بها.

إلى هنا أدخل نهائيا في صميم الموضوع فأقول إن أول شيء قررته في دفاعي هو أن رجل القانون يقوم بأهم عمل للمجتمع، وأنه لذلك يجب أن

يحظى منطقا بأسمى مكانة فيه، وإنه لطبيعة مهنته وضمانا لحسن سير الأمور يقتضى الأمر أيضا أن نعترف له بهذه المكانة السامية، وإذن فهناك مبرران، مبررٌ من المنطق ومبرر من المصلحة **يوجبان له ذلك المركز الممتاز، وهذا هو الغرض الأول من كتابى.**

هذا الغرض يكفله أمران: حسن اختيار رجال القانون، ودوام التفكير فى أمر مركزهم لاستبعاد كل ما من شأنه أن يؤثر عليه أولا فأولا وإذا طبقنا هذا الواجب الثانى أسفر التطبيق عن أن مركزهم فى هذه الآونة على وشك أن يتقهقر أو هو فى بدء التقهقر ويوشك أن يهوى، **وإذن فالأمر فى شدة الحاجة إلى العلاج الحاسم السريع، وهذا هو الغرض الثانى من كتابى.**

أمّا من حيث إمكان العلاج فَبِما أن العيب لايكمن فى علم القانون ذاته كأن تكون قد قلت أهميته أوخفّت الحاجة إليه، وإنما أتى العيب من مصدر خارج عن ذات القانون وهو نظرية العرض والطلب، فإذن يكون العلاج ممكنا ما دامت عناصر الحياة فى الجسم المريض سليمة.

هذا العلاج الممكن واجب أيضا، وهذا الوجوب تفسره المروءة إذ ليس من الإنسانية أن يُترك المريض فريسة للموت وفيه قابليةٌ للحياة، كما تفسره المصلحة إذ لاينبغى أن تفرِّط فى الشىء الذى تستمد منه الجماعة ركن وجودها، ومتى كان العلاج ممكنا وواجبا فإننا ننتقل بالضرورة إلى دور البحث عما نظنه من الأدوية ناجعا، **ذلك يكون بتشخيص الداء حتى إذا ما وقفنا على ماهيته عالجناه بما هو ضده، وهذا كان الغرض الثالث من كتابى.**

وبالتشخيص الدقيق نرى أن المرض أحدثه تدخل قانون العرض والطلب، وبهذا يتعين أن الدواء الوحيد إنما هو قطع أسباب الداء بتقليل العرض إلى أن يتساوى بالطلب، وبعبارة أخرى بتقليل الداخلين فى كلية الحقوق حتى يعود التوازن بينهم وبين الحاجة إليهم وإذ ذاك تعود إليهم قيمتهم، ثم إلى جانب هذا الدواء نظامٌ صحيٌ له خاصية تساعد على الشفاء إلى جانب الدواء الأساسى، وخاصية تزيد فى صحة المريض بعد شفائه، فهى لا تكتفى بمجرد الشفاء بل تبحث أيضا عن الصحة والقوة، هذا النظام الصحى ينحصر فى الإصلاحات التبعية التى ضمنّتها المبحث الثالث عشر من كتابى، وظاهر أنها لاتقوى وحدها على مطاردة المرض وإنما هى تساعد ليس إلاّ إلى جانب الدواء الأصلى الذى يملك وحده قوة الشفاء، **وهذان النوعان من العلاج الخاص منهم بتحديد الداخلين فى كلية الحقوق والخاص بالإصلاحات التبعية يكوّنان الغرض الرابع من كتابى.**

*
* *

إلى هنا انتهيت من بيان تلك الأغراض إجمالا وتفصيلا، ولم يبق إلا أن يتدبرها القراء فإن قدّروها عملوا على تنفيذها.

الفهرس

رقم الإيداع ٢٠٠٢/١٣٣٦٢
I.S.B.N. 977 -305 - 289-3
طبع بالمركز المصرى العربى ت : ٧٧٩٥٦٠٧

شهد النصف الأول من القرن العشرين ظاهرة جديدة ، يطمح من خلالها الشعراء الوصول إلى شمولية الحدس الجمالى والإبداعى . فقد حاولوا ان يلجوا - إلى جانب الشعر - أجناساً أدبية أخرى . وضمن تلك الظاهرة الشمولية ، جاءت كتابات حسين عفيف لتؤكد على هذا المنحى ، حيث تنوعت بشكل مدهش ما بين الشعر والمسرح والرواية والقانون والقضايا الاجتماعية .

لقد أصدر عفيف مسرحية " وحيد - أو قلب الفنان " فى العام ١٩٣٨ ، وفى نفس العام أصدر مسرحيته الثانية " سهير - أو التمثال " ، وبعدهما بعام واحد أصدر رواية " زينات - أو التكفير " ، ليتم إنجازه النثرى فى عامين فقط .

تصميم الغلاف : ماجدة ضياء